منتديات المكتبة العربية
www.TipsClub.net
amly

أنف وثلاث عيون

إحسان عبد القدوس

أنف وثلاث عيون

٢

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

العين الثانية

- ١ -

أنا نجوى ..
نجوى طاهر ..

أمى تعتقد أنى جميلة .. انها لا تكف لحظة عن التغنى بجمالى والتباهى بى أمام صديقاتها .. شعرى النحاسى اللون .. وعيناى المشروطتان الضاحكتان ، كلوزتين مقشرتين شهيتين .. وشفتاى المنتفختان كورقتى الورد .. وعنقى المفرود كأنه يتباهى برأسى .. و .. و ..

ان أمى تجد لكل قطعة منى ألف وصف ، وألف أغنية .. وتضعنى أمامها وتنظر الى بعينين عابدتين ، كأنها ترى الله فى .. وتعلق تحت ابطى حجابا يحمينى من الحسد .. وعلى صدرى مصحفا وخرزة زرقاء .. ولا أخرج من البيت الا بعد أن أخطىء فوق البخور سبع مرات ..

ورغم ذلك .. وسواء كنت جميلة أو لم أكن ، فان احساسى بجمالى لم يكن له أثر فى حياتى .. كنت أترك كل احساسى بهذا الجمال لأمى ، أما أنا فكان احساسى دائما محصورا فى أن أكون شيئا .. شيئا له شخصيته وله أهميته .. واستطعت أن أكون أولى طالبات المدرسة .. كل مدرسة دخلتها .. وكنت رئيسة فريق التمثيل .. وكنت فى فريق كرة السلة .. ومندوبة فصلى

فى النشاط الاجتماعى .. ومندوبة المدرسة كلها فى مجلس اتحاد المدارس الثانوية .. كنت أحب أن أكون هذا الشىء الكبير المتميز .. وكنت أحب أكثر أن أكون محبوبة .. محبوبة من زميلاتى ، ومن مدرساتى ، وصديقات أمى .. ومحبوبة من أبى وأمى .. وأنا وحيدتهما ولكن لم يكن هذا يكفى لأطمئن الى حبهما .. كنت أعمل دائما حتى أستزيد من هذا الحب .. كنت أحاول أن أجعل من كل دقيقة تمر بهما نغمة حلوة يسعدان بها ويحبانى من أجلها أكثر .. كنت أشعر بمسئوليتى عن اسعادهما أكثر من أحساسى بمسئوليتهما عن سعادتى .. فجعلت من نفسى كل شىء فى حياتهما .. أنا الضحكة فوق شفاههما .. أنا خفقة قلبيهما .. أنا كل حياتهما .. وأنا سعيدة بهما .. بحبهما .. وهما يسعدان بى .. بحبى ..

ان الحب هو كل شىء ..

هو السعادة .. الهناء .. الراحة .

هو الذكاء ..

هو النجاح ..

انى أعجب للبنات اللاتى ينكرن وجود الحب .. ثقن يا بنات .. ان الحب موجود .. انه الحقيقة الوحيدة الثابتة فى حياة الانسان .. بل انى أستطيع الآن وبعد أن أصبحت طالبة فى الجامعة . أن أقرأ تاريخ الانسان . فأجد أنه تاريخ الحب .. وكلما ارتقى الحب . تقدم الانسان .. لقد خلقت البشرية أفرادا يقتل بعضهم بعضا .. اخوة كل منهم يقتل الآخر . كما فعل هابيل وقابيل .. ثم جمع الحب هؤلاء الأفراد فى عائلة .. أصبح المجتمع الانسانى عائلات .. وتحابت العائلات . فأصبحت قبائل .. وتحابت القبائل فأصبحت شعوبا .. وسيرتقى الحب

أكثر .. سيكبر الحب .. ويكبر الانسان .. ويصبح شعبا واحدا .. الانسان الأبيض والانسان الأسود ، والانسان الأصفر .. سيصبحون انسانا واحدا .. شعبا واحدا .. يحب بعضه بعضا ، ويعيش فى سلام ..

ثم ..

الحب الخاص ..

حب الولد والبنت .

موجود أيضا ..

ان الانسان مهما تفانى فى مجتمعه لا يمكن أن يستغنى عن بيت يعيش فيه وحده ، ويحس فيه بفرديته .. ان الاحساس بالمجتمع لا يتعارض مع الاحساس بالفردية .. الآلة الكبيرة ليست قطعة واحدة ولكنها آلاف القطع .. كل قطعة لها وظيفتها ، ولها احتياجاتها ، ولها شخصيتها .. وكذلك الحب .. مهما تفانينا فى حب المجتمع لا يمكن أن نستغنى عن الحب الفردى .. انه احتياج فى صميم تكويننا .. وما دام الحب حاجة ، فهو موجود .. ولقد بحث الانسان عن الطعام منذ بدء الخليقة ، لأنه فى حاجة اليه ، ووجده . وكذلك وجد الحب لأنه فى حاجة اليه .. لأنه نابع من تكوينه .. وقد أحببت أبى وأمى لأن حبهما انبثق من طبيعة تكوينى كانسانة .. وأحببت زميلاتى لأن حبى لهن نابع من حاجتى الاجتماعية .. وأحببت حبيبى لأنى لا استطيع أن أحس بوجودى الا اذا أحببت .. أنا أحب ، فأنا موجودة ..

والحب ليس الجنس ..

صدقونى ..

انه ليس الجنس ..

لو كان الحب هو الجنس لما كان هناك فرق بين رجل وآخر ،

ولا بين فتاة وأخرى .. كما أن ليس هناك فرق بين مطعم وآخر ..

ما الذى يجعل هذه الفتاة تحب هذا الفتى بالذات ، وليس فتى آخر ..

الظروف ؟

لا .. فالظروف تجمع الفتاة بعشرات الشبان ، ولكن الفتاة لا تحب الا واحدا .. والظروف قد تجمع الأصدقاء ، ولكنها لا تكفى وحدها لتجمع اثنين يحب بعضهما بعضا ..

الزواج ؟ ..

لا .. الزواج قد ينشىء عائلة ، ولكنه لا يكفى للحب .. مهما طال أمده .. فقد يطول أمد الزواج لأن كلا من الزوجين يحرص على حياة اشترك فى اقامتها ، كشريكين تربطهما مصلحة واحدة .. ولكن لا يكون معنى ذلك أن كلا منهما يحب الآخر .. فالحياة ليست مصلحة .. انا أحيانا نضحى بالمصلحة فى سبيل الحياة ..

اذن .. ما هو الحب ؟ ..

هو أن تجدى نفسك فى شخص آخر .. تجدين فيه عقلك وقلبك .. تجدين فيه يومك وغدك .. تجدين فيه ضحكتك ودمعتك .. تجدين فيه حياتك .. تجدين فيه جسدك أيضا .. ولكنك لا تجدين فيه الجسد وحده .. ان جسدك ليس شيئا قائما بذاته .. ان فيه عقلك وقلبك ..

ومصيبتنا أننا خلطنا بين الحب والجنس .. ثم اعتبرنا أن الحب هو الجنس .. انها ليست غلطة الأولاد فقط ، غلطة البنات أيضا .. كثيرات من زميلاتى اندفعن فى الجنس على أنه حب .. وشعلة الجنس تنطفىء بسرعة ، وشعلة الحب لا تنطفىء أبدا ..

وكثيرات منهن أيضا خفن الحب وهربن منه لأنهن كن يهربن من الجنس ..

ما الذى دفعنا الى الخلط بين الحب والجنس ..

ربما كانت التقاليد القديمة التى اعتبرت المرأة متعة .. متعة تباع فى الأسواق ، وتسبى فى الحروب كالغنائم .. ويقاس بها ثراء الرجل ، فكما تعددت أصناف الطعام على مائدته ، تعددت أصناف النساء على فراشه .. وتركت هذه التقاليد أثرها فى أنظمة الزواج .. لم يكن الزواج فى حاجة الى التفاهم بين الرجل والمرأة .. كل ما يحتاج اليه الزواج هو عقد .. عقد بيع وشراء .. بل لم يكن من حق المرأة أن توقع هذا العقد ، فهى بضاعة .. والبضاعة لا توقع ، ولكن يوقع عنها صاحبها .. أبوها ..

هذه التقاليد لا تزال فى نفوسنا .. ليست فى نفوس الرجال وحدهم ، فى نفوس النساء أيضا .. الرجل يعتبر المرأة متعة ، والمرأة تعتبر نفسها متعته .. وبعض زميلاتى أردن أن يتطورن .. أن يثرن .. فاعتبرن الرجل أيضا متعة ! ..

والمتعة هنا ، هى متعة الجنس ..

وتطغى المتعة البراقة السريعة ، على المتع العميقة الثابتة .. متعة الابتسامة المشتركة .. متعة الفكرة الحلوة .. متعة الهدوء النفسى .. متعة بناء الحياة ..

وهكذا خلطنا بين الحب والجنس ..

بل أن هناك من يعتقد أن الحب ضعف .. استسلام المرأة ، أو استسلام الرجل ..

لا ..

أبدا ..

الحب ليس ضعفا .. انه قوة كبيرة .. وكلما ازداد الانسان قوة ازداد حبا .. فالحب معرض لكل الكوارث .. الحب كالانسان

ولا بين فتاة وأخرى .. كما أن ليس هناك فرق بين مطعم وآخر ..

ما الذى يجعل هذه الفتاة تحب هذا الفتى بالذات ، وليس فتى آخر ..

الظروف ؟

لا .. فالظروف تجمع الفتاة بعشرات الشبان ، ولكن الفتاة لا تحب الا واحدا .. والظروف قد تجمع الأصدقاء ، ولكنها لا تكفى وحدها لتجمع اثنين يحب بعضهما بعضا ..

الزواج ؟ ..

لا .. الزواج قد ينشىء عائلة ، ولكنه لا يكفى للحب .. مهما طال أمده .. فقد يطول أمد الزواج لأن كلا من الزوجين يحرص على حياة اشترك فى اقامتها ، كشريكين تربطهما مصلحة واحدة .. ولكن لا يكون معنى ذلك أن كلا منهما يحب الآخر .. فالحياة ليست مصلحة .. انا أحيانا نضحى بالمصلحة فى سبيل الحياة .. اذن .. ما هو الحب ؟ ..

هو أن تجدى نفسك فى شخص آخر .. تجدين فيه عقلك وقلبك .. تجدين فيه يومك وغدك .. تجدين فيه ضحكتك ودمعتك .. تجدين فيه حياتك .. تجدين فيه جسدك أيضا .. ولكنك لا تجدين فيه الجسد وحده .. ان جسدك ليس شيئا قائما بذاته .. ان فيه عقلك وقلبك ..

ومصيبتنا أننا خلطنا بين الحب والجنس .. ثم اعتبرنا أن الحب هو الجنس .. انها ليست غلطة الأولاد فقط ، غلطة البنات أيضا .. كثيرات من زميلاتى اندفعن فى الجنس على أنه حب .. وشعلة الجنس تنطفىء بسرعة ، وشعلة الحب لا تنطفىء أبدا ..

وكثيرات منهن أيضا خفن الحب وهربن منه لانهن كن يهربن من الجنس ..

ما الذى دفعنا الى الخلط بين الحب والجنس ..

ربما كانت التقاليد القديمة التى اعتبرت المرأة متعة .. متعة تباع فى الأسواق ، وتسبى فى الحروب كالغنائم .. ويقاس بها ثراء الرجل ، فكما تعددت أصناف الطعام على مائدته ، تعددت أصناف النساء على فراشه .. وتركت هذه التقاليد أثرها فى أنظمة الزواج .. لم يكن الزواج فى حاجة الى التفاهم بين الرجل والمرأة .. كل ما يحتاج اليه الزواج هو عقد .. عقد بيع وشراء .. بل لم يكن من حق المرأة ان توقع هذا العقد ، فهى بضاعة .. والبضاعة لا توقع ، ولكن يوقع عنها صاحبها .. أبوها ..

هذه التقاليد لا تزال فى نفوسنا .. ليست فى نفوس الرجال وحدهم ، فى نفوس النساء أيضا .. الرجل يعتبر المرأة متعة ، والمرأة تعتبر نفسها متعته .. وبعض زميلاتى أردن أن يتطورن .. أن يثرن .. فاعتبرن الرجل أيضا متعة ! ..

والمتعة هنا ، هى متعة الجنس ..

وتطغى المتعة البراقة السريعة ، على المتع العميقة الثابتة .. متعة الابتسامة المشتركة .. متعة الفكرة الحلوة .. متعة الهدوء النفسى .. متعة بناء الحياة ..

وهكذا خلطنا بين الحب والجنس ..

بل أن هناك من يعتقد ان الحب ضعف .. استسلام المرأة ، أو استسلام الرجل ..

لا ..

ابدا ..

الحب ليس ضعفا .. انه قوة كبيرة .. وكلما ازداد الانسان قوة ازداد حبا .. فالحب معرض لكل الكوارث .. الحب كالانسان

نفسه .. معرض المرض .. ومعرض للأنانية .. ومعرض للنزوات .. ومعرض لسوء الفهم .. وقد تعرض حب المجتمع لكثير من الكوارث .. تعرض للحروب .. وتعرض للظلم .. وتعرض لنزوات الطغاة .. واحتاج لقوة كبيرة ليسلم من الحروب ويقاوم الظالمين والطغاة .. وكذلك الحب الخاص .. حب الولد والبنت .. محتاج لقوة .. قوة العاطفة .. وقوة الذكاء .. وقوة الايمان .. قوة أكبر من الأنانية .. وأكبر من النزوة .. وأكبر من الحياة نفسها .. ان الرجل القوى هو الرجل الذى يحب .. ويستطيع أن يحمى حبه من نفسه ..

وقد وجدت هذا الرجل ..

الرجل القوى ..

الرجل الرائع ..

وجدت حبيبى هاشم ..

الدكتور هاشم عبد اللطيف ..

وجدته وأنا اقف فى الحياة على حافة اليأس .. اليأس من الحب .. واليأس من الحياة نفسها .. وكنت قد قاومت طويلا .. قاومت طول عمرى حتى لا ايأس .. وحتى ابقى على ايمانى بالحب .. ايمانى بالحياة .. وكنت قوية .. واستطعت بقوتى أن أجتاز كثيرا من الازمات .. ولكن المقاومة الطويلة كانت تمتص من قوتى ، الى أن واجهت أزمتى الأخيرة ، فلم اعد أستطيع أن أقاوم .. انهرت .. يئست .. فقدت ثقتى فى الحياة ، وفى الحب ، وفى نفسى .. الى أن جاء هاشم .. فأضاء النور فى قلبى . وفى عقلى .. وأعاد الى الحياة والحب .. والايمان .. الايمان بأن الحياة يمكن أن تضم رجالا مثل هاشم ..

منذ متى كنت أقاوم ؟ ..

ربما منذ كنت فى السابعة من عمرى ..

وكنت أعيش بين أمى وأبى كأسعد طفلة فى العالم ..

أبى عجوز فى الستين من عمره ، وربما أكثر .. طيب حنون .. مستسلم لأمى ..

وأمى فى الخمسين يبدو الحزم على وجهها أكثر مما تبدو الطيبة .. لا تبتسم الا نادرا .. وملامح القسوة تخفى جمالها .. ولكن وراء قسوتها تبدو آثار جمالها القديم ، ان فيها ملامح كثيرة منى .. وهى نشيطة .. أنشط منى .. قوية .. أقوى منى .. وتمسك بيديها كل خيوط البيت .. هى صاحبة الكلمة .. وهى التى تدير ثروة أبى .. وتديرها بحزم ، لا أحد يستطيع أن يخدعها فى مليم واحد .. والثروة ليست كبيرة .. انها عشرة أفدنة فقط .. ومعاش أبى .. وأنا وحدى التى أعلم مدى طيبتها .. وباقى الأطفال يخافونها ويخافون ملامح القسوة المرتسمة على وجهها .. ولكنها طيبة .. قلبها أبيض .. وتحبنى .. تحبنى أكثر مما تحب أى أم ابنتها .. تحبنى حبا غريبا ..

ولم أتساءل وأنا طفلة ، كيف يكون أبى وأمى عجوزين الى هذا الحد ، وأنا صغيرة الى هذا الحد .. كان يخيل الى أن كل الآباء فى مثل عمر أبى ، وكل الأمهات فى مثل عمر أمى .. بل ربما لم أتنبه أصلا الى أنهما عجوزان .. لم يكن هناك شىء ينبهنى الى عمريهما .. كنت أعيش حياتهما ، ويعيشان حياتى .. حياتى ملتصقة بهما الى حد غريب .. أنام بينهما على فراش واحد . رغم أن لى حجرة خاصة بى .. وأمى تصحبنى الى المدرسة كل صباح بعد أن أخطو فوق البخور سبع مرات ، وبعد أن تقرأ فوق رأسى آيات من القرآن .. ثم تعود لتنتظرنى أمام باب المدرسة .. تقف بين الخادمات . لتعود بى الى البيت .. ولم تكن تطمئن

الى الخادمات لتذهب بى أو تعود بى .. لم تكن تطمئن الى الخادمات أبدا .. فهى التى تطعمنى بيدها ، وهى التى تسقينى وهى التى تبدل ثيابى .. كما تحب الطفلة عروستها .. تلعب بها .. ولا تسمح لأحد بأن يلمسها ..

وكانت أمى تصادق ناظرة المدرسة .. كل مدرسة أدخلها .. وتصادق المدرسات .. وتسألهن عن كل دقيقة قضيتها فى المدرسة .. كل حركة من حركاتى .. كل كلمة قلتها .. لم أكن أستطيع أن أخفى عنها شيئا .. أبدا لم أكن أستطيع .. كانت مدهشة فى قدرتها على معرفة أخبارى قبل أن أرويها لها .. فاذا عدت الى البيت أفلت من يد أمى وأجرى لأجلس على ركبتى أبى .. ويستقبلنى والفرحة تلمع على خديه المجعدين ، كأنه يستقبل الحياة من جديد .. وأروى له الحكايات التى روتها لنا المدرسات فى المدرسة ، وأطلعه على كتبى وكراريسى ، وألقنه الأناشيد التى حفظتها حتى يحفظها مثلى .. وهو يضحك .. ويفرح كالأطفال .. لقد كنت أحب أبى ، ربما أكثر مما أحب أمى ..

وكانت لى خالة واحدة .. تركها زوجها وترك لها ستة من البنات والصبيان .. وهى خالة فقيرة .. تعانى كثيرا فى تدبير حياتها .. وأمى تعطف عليها .. ولم تكن خالتى تتردد علينـــا الا نادرا .. ولم نكن نزورها الا نادرا .. ورغم ذلك فقد كنت أحبها .. كنت كلما رأيتها تعلقت بها وارتميت على صدرها .. واضحك ، عندما تغار منها أمى .. ان أمى تغار على فعلا .. خصوصا من خالتى ..

وكانت لأمى صديقات يجتمعن عندها كل أسبوع .. ولم أرهن الا وكل واحدة تلف رأسها وعنقها بطرحة بيضاء تسدلها على كتفيها .. وكل منهن ترتدى معطفا سواء فى الشتاء أو الصيف ،

ينزل حتى كعب قدمها ، ويرتفع حتى أعلى رقبتها .. وقد عرفت فيما بعد أنهن أعضاء فى جمعية « نور الهدى للسيدات المسلمات » .. ولم تكن أمى عضوا فى الجمعية .. ولكنها كانت صديقة لأعضائها ، تؤمن بهن .. وتؤمن بأهداف الجمعية .. ولا أستطيع أن أذكر طفولتى الا اذا ذكرت سيدات جمعية نور الهدى .. لقد عشن فى حياتى كلها كالأشباح .. لا أدرى كلما التقيت بهن ، أأنا فى حلم ، أم فى يقظة ..

وكنت فى المدرسة ذات يوم .. وأنا فى السابعة من عمرى .. عندما دخلت المشرفة الى الفصل .. وأخذت تنادى أسماء الطالبات .. ولا أذكر المناسبة الآن .. وظلت تتلو أسماء الطالبات واحدة بعد الأخرى الى أن صاحت باسم .. نجوى عبد الحميد ..

ولم يرد أحد ..

وعادت تصيح :

— نجوى عبد الحميد .. موجودة ؟ .

الى أن التفت بوجهى ، فجاءت الى ، وقالت فى حدة :

— انتى مش نجوى عبد الحميد ؟ ..

وقلت وأنا أرفع اليها عينى الصغيرتين فى دهشة وخوف :

— لا يا أبله .. أنا نجوى طاهر .

وقالت المشرفة وهى أكثر حدة :

— لأ .. انتى نجوى عبد الحميد ..

وقلت والدموع تنبثق من عينى :

— لا والنبى يا أبله .. أبدا .. أنا نجوى طاهر ..

وقلبت المشرفة فى الأوراق التى تحملها .. وعادت تقول :

— أبوكى مش اسمه راغب عبد الحميد .

قلت وأنا اتراجع عنها كانها على وشك أن تطعننى فى قلبى :

— لأ .. بابا اسمه عثمان طاهر ..

ونظرت الى المشرفة بكل عينيها ، ثم قالت :

— أمال يبقى مين راغب عبد الحميد .

قلت وقد انطلقت كل دموعى :

— يبقى جوز خالتى ..

وظلت المشرفة تنظر الى بكل عينيها ، ثم قالت :

— طيب تعالى ..

وجذبتنى من يدى .. وسرت وراءها الى حجرة الناظرة .. وأنا أنشج بالبكاء .. وقلبى الصغير يرتجف ..

ووقفت بعيدا ، ومالت المدرسة على الناظرة تهمس فى أذنها وتعرض عليها أوراقها .. ورأيت من خلال دموعى قلبى الصغير يزداد ارتجافا .. وكنت خائفة .. كنت أشعر بأن شيئا سيحدث لى .. شيئا لا أريده .. وبقيت أبكى فى الفصل الى أن اضطرت المدرسة أن تستدعى المشرفة لتأخذنى وتجلس بى فى الفناء ، تحاول أن ترفه عنى ..

وبعد فترة .. جاءت الفراشة تستدعينى الى حجرة الناظرة .. وأمسكت المشرفة بيدى وهى تبتسم لى ، وقالت :

— لازم ماما جت ..

وسحبت يدى من يدها ، وجريت الى حجرة الناظرة ودموعى تسبقنى ..

وجدت أمى ..

والقيت نفسى بين أحضانها .. وعدت أبكى .. وهى تربت علىّ ، قائلة :

— بس يا حبيبتى ، ما تزعليش ..

ورفعت رأسى اليها ، قائلة وأنا أنشج :

— شفتى أبله المشرفه بتقول ايه ؟

وقالت أمى ووجهها غارق فى الألم :

— عارفه .. عارفه كل حاجه ..

ثم قامت من جلستها ، ويدى فى يدها ، وقالت للناظرة :

— بكره حارد عليكى ..

ثم التفتت الى قائلة :

— تعالى يا نوجا نروح البيت .. تغسلى وشك ..

أبله الناظرة ، تهز رأسها هزاتمتتابعة .. ثم تلتفت الىّ وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة وقالت لى :

— تعالى يا نجوى . بتعيطى ليه يا حبيبتى ..

وخطوت اليها فأخذتنى تحت ذراعها ، وضمتنى اليها .. وخبأت رأسى فى صدرها كأنى أحتمى بها من المشرفة ، وعدت أجهش بالبكاء ..

وعادت الناظرة تقول فى حنان :

— بس يا حبيبتى .. ما تعيطيش .. احنا نقدر على زعل نجوى أبدا ..

ثم فتحت درج مكتبها ، وأخرجت قطعة من الحلوى قدمتها لى ، وهى تقول :

— خدى يا حبيبتى .. ودلوقت ارجعى الفصل بتاعك .. ولا تزعليش ابدا .

ورفعت راسى اليها وأنا ألتقط قطعة الحلوى . وأمسح دموعى بكم ثوبى ، وقلت :

— أنا اسمى نجوى طاهر .. مش كده يا ابله .

وقالت الناظرة وابتسامة الحنان تملأ شفتيها :

ـ طبعا يا حبيبتى .. طبعا .. روحى الفصل بتاعك بأه ..

وما كدت أخرج من حجرة الناظرة حتى عاودتنى دموعى كلها .. لم أستطع أن أضع فى فمى قطعة الحلوى ..

* * *

وفى آخر النهار خرجت من المدرسة فوجدت أمى فى انتظارى وركبنا سيارة أجرة ، رغم أن البيت قريب ، لا يبعد عن المدرسة أكثر من عشر دقائق سيرا ..

وقالت أمى وهى تضمنى اليها داخل السيارة وتضحك فى وجهى :

ـ انتى اسمك ايه ؟ ..

قلت ودموعى لا تزال فى عينى :

ـ نجوى ..

سألت :

ـ نجوى ايه ؟ ..

قلت :

ـ نجوى طاهر ..

قالت :

ـ وبابا اسمه ايه ..

قلت :

ـ اسمه عثمان طاهر ..

قالت :

ـ ومين مامتك ؟

قلت :

ـ انتى ..

قالت :

ـ خلاص .. تبقى زعلانة ليه ..

قلت فى حدة :

أمال المشرفة قالت ان اسمى نجوى عبد الحميد ليه ؟

وانطلقت نظرات أمى من تحت جفنيها المكرمشين ، وهامت بها فى الفراغ ، وقالت كأنها تحادث نفسها .. وفى صوتها لهجة حزم .. حزم قاس :

ـ غلطة وحاتتصلح .. اتصلحت خلاص ..

وفى البيت بدأت أحس بتصرفات غير طبيعية .. لم أعتد عليها .. لقد نادت أمى الخادمة ، وقالت لها فى عنف كأنها تعانى ألما فى داخلها :

ـ خدى ستك نجوى اغسلى لها وشها .. وغيرى لهـا هدومها ..

ثم نظرت الى أبى قائلة :

ـ تعال يا عثمان بيه .. عايزاك .

ودخل وراءها الى حجرة النوم ، وأغلقا بابها عليهما .

وقلبى ليس مستريحا ..

لا زلت أحس بشىء كبير على وشك أن يقع علىّ ..

وفى العصر ، جاءت سيدات نور الهدى ، والتففن حول أمى فى حجرة الصالون .. وعندما دخلت اليهن ، تلقفننى بنظرات غريبة .. ربما كان فيها اشفاق .. ربما كان فيها رثاء .. لم أكن فى سن تسمح لى بتفسير النظرات .. ولكنى أذكر أنى لم أسترح الى نظراتهن .. خيل الى ان الشىء الكبير أوشك أن يقع .. وعاد قلبى يرتجف .. وأخذتنى كل منهن بين يديها تقبلنى .. ويرددن كلاما فى لهجة التعديد .. والله كبرتى يا نوجا .. احلويتى يا حبيبتى .. مين كان يصدق يا أخواتى .. و .. خطوت الى أمى التصق بها كأنى أحتمى فيها من هذه الأشباح الملتفة فى ملاءات،

بيضاء .. وقلبى يزداد ارتجافا . وصدتنى أمى قائلة :

— انتى سايبه بابا جوه لوحده يا نوجا .. ما يصحش .. روحى يا حبيبتى اقعدى معاه ..

ونظرت اليها كأنى أقول لها .. حتى انت يا ماما .. وجريت الى بابا فى حجرته . وأنا أكتم دموعى بكل ارادة الطفلة .. وأخذ أبى يلاعبنى ، وعقلى كله فى حجـــرة الصالون مع الأشباح البيضاء .. وقلبى يرتجف ..

وخرجت الأشباح من البيت .

وعادت أمى الينا ووجهها المكرمش يبدو أكثر قسوة وأكثر حزما .. وجلست ساهمة .. ثم التفتت الىّ فجأة ، وبين شفتيها ابتسامة مهمومة .. وقالت :

— تعالى لمامتك يا حبيبتى ..

وضمتنى الى صدرها ، كأنها تحاول أن تختبىء فيه من هذا الشىء الكبير الذى يكاد يقع .. وعادت تقول وهى تهزنى كما تهز الأم طفلها لتنيمه :

— انتى اسمك ايه ؟ ..

وقلت ولسانى يرتعش بارتعاشة قلبى ..

— اسمى نجوى ..

قالت :

— نجوى ايه ؟

قلت :

— نجوى طاهر ..

قالت وهى لا تزال تهزنى :

— وبابا اسمه ايه ؟

وقاطعها أبى قائلا فى حدة :

— ما فيش لزوم للكلام ده دلوقتى يا عزيزه هانم .. ما تأثريش على البنت ..

وسكتت أمى ..

استسلمت لأبى على غير عادتها .. ووجهها المكرمش الحازم تطوف به سحابة من الحزن .. والألم ..

وفى المساء فوجئت بزيارة خالتى وزوجها السابق لنا ..

لم يكن من عادة خالتى أن تزورنا الا فى مناسبات قليلة .. وليس هكذا فجأة ..

ولم يزرنا زوج خالتى أبدا من قبل .. بل انى لم أكن رأيته الا مرة واحدة فى العام الماضى عندما ذهبت أنا وأمى لزيارة خالتى ، وجاء هو صدفة لزيارة أولاده .. لقد أجلسنى يومها على ركبتيه ، وقبلنى كثيرا كأنى ابنته ..

ونظرت الى خالتى فى غباء وهلع ..

وقبلتنى خالتى ..

وحملنى مطلقها بين يديه ورفعنى فى الهواء ، وقال وهو يضحك ضحكة كبيرة :

— شايفين الحلاوه ..

وأمى وجهها صارم ..

وأبى يبتسم فى طيبة ..

وجذبتنى أمى من بين يدى مطلق خالتى كأنها تنتزعنى منه ..

وقالت فى لهجة حازمة أقسى مما تعودته منها :

— روحى أودتك يا نوجا .. وبعدين حانبقى ننده لك ..

ونظرت اليها فى دهشة .. وخيل الى انى سأبكى .. ولكنى لم أبك .. وقفت الدموع خلف عينى تحرقهما كأنها تبحث عن ثقب تنهمر منه ..

وذهبت الى حجرتى ، وضباب كثير يملأ رأسى .. ويملأ قلبى الصغير .. احاول أن افهم شيئا عما يدور حولى ، فلا أفهم .. أحاول أن أفهم سر هذا الخوف الذى ينتابنى ، فلا أفهم ..

وبعد أكثر من ساعة سمعت صوت أمى ينادينى ..

وخرجت من غرفتى وأنا أزحف اليها بخطوات بطيئة مترددة ..

وشدتنى أمى اليها بسرعة ، كأنها تخاف أن تسبقها يد أخرى الىّ ، وقالت وهى تجلسنى بجانبها :

— اسمعى يا نوجا .. أنا حاكلمك وعايزاكى تاخدى بالك من الكلام كويس .. و ..

وقاطعها أبى فى حزم كأنه قرر أن يأخذ الخيوط كلها بين يديه :

— اسكتى انتى يا عزيزه .. انا اللى حا اقول لها ..

وخالتى تنظر الى باشفاق وفى عينيها أثار دموع ..

وقال أبى وهو ينظر الىّ فى حنان ، ويبتسم ابتسامته الطيبة :

— تعالى يا نوجا .. تعالى عندى هنا ..

وأجلسنى على ركبتيه وأنا أنظر اليه وأرتعش ، وقال فى صوته الهادىء :

— أنا حاحكى لك حكايه .. بس قبل ما احكى لازم تبوسينى بوسه كبيره .. وتضحكى لى ضحكه كبيره .. كبيره قوى ..

وقبلته ..

ونظر الى شفتى وقال :

— وفين الابتسامه الحلوه ..

وابتسمت .. دون أن أحس بابتسامتى ..

وقال وهو يجذب رأسى ويسندها الى كتفه :

— شوفى يا ستى .. كان فيه اتنين متجوزين .. ربنا اداهم

ل حاجه ، ما عدا الأولاد .. وفضلوا لغاية ما عجزوا وبقوا كهنة وهم ما يخلفوش .. لا أولاد ولا بنات .. راحوا لدكاتره كتير .. ولدجالين كتير .. ونصابين كتير .. وزاروا المشايخ والأولياء .. وحجوا هم الاتنين .. ما فيش فايده .. ارادة ربنا .. ربنا عايز كده .. وبعدين يا ستى ، الاتنين العواجيز دول راحوا يزوروا ناس قرايبهم .. ولقوا عندهم أولاد وبنات كتير .. وكان بينهم بنت صغيره .. صغيره قوى ما كملتش سنتين .. وحلوه .. حلوه قوى .. مافيش أحلى منها فى الدنيا كلها .. فقعدوا يرجوا أم البنت الحلوه دى علشان تديها لهم .. تقعد معاهم .. وتونسهم فى وحدتهم .. وتملا حياتهم بالنور والأمل .. ورضيت الأم انها تديهم البنت .. أصل كان عندها بنات كتير غيرها .. و ..

وقاطعته قائلة :

— فهمت ..

كان ذكائى يتبع كلماته حرفا بحرف ، واستطعت أن أستنتج بقية القصة ..

وقال أبى كأنه فوجىء :

— فهمتى ايه ؟

وانطلقت دموعى كلها ، وقلت وأنا أنشج وأخبط بقدمى فى الهواء :

— فهمت ان اسمى نجوى عبد الحميد .. أنا مالى .. ماليش دعوه .. أنا نجوى طاهر .. انت بابا .. ماليش بابا الا انت .. مش عايزه بابا تانى ..

وبدأت أصرخ ..

وقامت خالتى من جلستها ملهوفة على .. فنظرت اليها نظرة

سريعة .. ثم صرخت أكثر .. وقلت فى حدة :

— سيبينى .. مش عايزاكى .. انا ما اعرفكيش ..

وعادت خالتى الى مكانها صامتة ..

وخالتى هى أمى الحقيقية ..

وأمى الثانية جالسة صامتة .. ووجهها واقف .. كل شىء فيه واقف .. كأنها أصيبت بالشلل ..

وقال أبى .. أبى الذى ليس أبى :

— بس يا نوجا .. ما تبقيش عبيطه .. انتى لازم تكونى أسعد بنت فى الدنيا .. البنات كلها عندها أب واحد وانتى عندك اتنين .. والبنات كلها عندها أم واحده وانتى عندك اتنين ..

وقالت أمى الحقيقية .. تقاطعنى :

— والنبى عزيزه أختى أحق بيها منى .. أنا شلتها سنتين وتسعة أشهر .. وهى شالتها خمس سنين .. ومش مخليه حاجة تتعمل وما عملتهاش . دى أكتر كمان من أمها ..

وعدت أصرخ :

— أنا ماليش دعوه .. أنا ما ليش أب الا انت ..

وقال أبى :

— ماهو أنا ابوكى .. والأستاذ عبد الحميد كمان يبقى ابوكى .. وانتى اللى تختارى تحبى تقعدى مع مين فينا ..

وصرخت فورا :

— معاك انت .. انت بابا ..

وأضاء وجه ابى ، وقال :

— خلاص .. تقعدى معايا .. بس لازم تقوليلى .. انتى اسمك ايه ..

قلت وصراخى يهدأ :

— نجوى ..

قال :

— مضبوط .. ونجوى ايه ؟

قلت وأنا أمسح انفى بكم ثوبى :

— نجوى طاهر ..

قال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة :

— مضبوط .. وبابا اسمه ايه ؟

قلت وأنا أنشج :

— اسمه عثمان طاهر ..

قال :

— مضبوط .. وماما اسمها ايه ؟

قلت وأنا أمسح دموعى من فوق شفتى بلسانى :

— اسمها عزيزه هانم ..

وقالت أمى وهى تخفى سعادتها وراء قناع حزمها ، وكأنه لم يحدث شىء :

— قومى يا نوجا اغسلى وشك .. وادخلى السرير ..

وقمت من فوق ساقى أبى .. وقبل أن أخرج من الغرفة صاحت خالتى .. أى أمى الحقيقية :

— مش تبوسينى يا بنت ..

واستدرت اليها ..

وبحلقت فيها ..

ثم نظرت الى مطلقها .. ابى الحقيقى .

وجريت ..

لم أقبلها .. ولم اقبله ..

وجاءت أمى ورائى والابتسامة منطلقة على وجهها .. وأخذت

تقبلنى .. قبلات كثيرة عنيفة .. قبلتنى فى كل قطعة منى .. ثم قبلت يدى ..

ومن يومها عرفت أن أمى هى خالتى .. وأبى ليس سوى زوج خالتى .. وقضيت عمرى كله بعد ذلك احاول أن أتجاهل هذه الحقيقة ..

ولا ادرى ما هى الاجراءات الرسمية التى اتخذت .. ولكن من يومها ، واسمى فى كل مدرسة أدخلها هو نجوى طاهر .. واسمى فى شهادة الميلاد .. نجوى طاهر ..

وكانت هذه أول أزمة واجهتها فى حياتى ..

ولكنى أيامها لم أتبين انها أزمة .. لم أنتبه الى أنى بدأت أفسر تصرفات أمى وأبى تفسيرا جديدا .. وأتساءل كيف تنازلت عنى أمى الحقيقية بهذه البساطة .. ثم على مر الأيام بدأت أضع جوابا لكل سؤال .. أقنعت نفسى بأن أمى الحقيقية تنازلت عنى لأنها تحبنى اكثر .. لأنها أرادت أن توفر لى حياة خير من الحياة التى كان يمكن أن أعيشها معها .. فهى فقيرة .. مرتبكة .. تعيش مع أولادها الستة فى غرفتين بشارع الوايلية بالعباسية .. وقد ضحت بى من أجل حياة أرقى نسبيا .. لأعيش مدللة بين أبوين عجوزين يحتاجان الى بقدر حاجتى اليهما .. ان أمى لم تكن تكرهنى يوم تنازلت عنى .. كانت تحبنى .. تحبنى أكثر .. وقد بقيت حتى بعد أن عرفت الحقيقة أنادى أمى .. أمى التى ولدتنى .. بلقب « خالتى » وأنادى أبى .. أبى الحقيقى .. بلقب « عمى » .. وبابا وماما هما اللذان أعيش معهما ..

وقد حرصت ماما أكثر من الأول على ألا تزور خالتى ، وألا تزورنا .. وكنت فى الأيام السابقة لا أضع تفسيرا لهذه

الظاهرة .. ولا تفسيرا لغيرة ماما من خالتى .. ولكنى الآن أعرف أنها تتعمد ابعاد خالتى عنى حتى لا أتعود عليها .. حتى لا ألح على الحقيقة فأحب خالتى أكثر من ماما .. أو ألجأ الى خالتى أكثر مما ألجأ الى ماما .. واستسلمت .. كنت أنا أيضا فى حاجة الى الابتعاد عن خالتى حتى لا تذكرنى بأنها أمى .. كنت أريد أن أتفرغ بكل عواطفى لحب بابا وماما .. ان الحب يستطيع أن يخلق من خالتى أما لى ، ومن زوج خالتى أبا لى .. ان الأمومة والأبوة يكتسبان .. الأم تكتسب حبها لابنها يوما بعد يوم منذ تحمله فى بطنها ، وبعد أن تلده .. وكذلك الابن يكتسب حب والديه بمرور الأيام .. لأنه يراهما فى كل لحظة .. ولأنه فى حاجة اليهما فى كل لحظة .. هكذا ينشأ الحب .. وأنا فتحت عينى على هذا العجوزين الطيبين اللذين أعيش بينهما ، وأستطيع أن أكتسب حبهما .. حب الابنة .. لا فرق بين حبى لبابا وماما ، وحب أى بنت أخرى لأبيها وأمها ..

ولم يكن حبى لأبى يكلفنى شيئا .. ان طيبته وحنانه يملآن قلبى ويسريان فى دمى .. لم أكن أتعمد معه شيئا لأحبه أكثر أو يحبنى أكثر .. انه لا يريد منى شيئا الا أن يرانى سعيدة .. وسعادتى هى كل حياته .. ولكن المشكلة كانت مع أمى .. ان أمى مع كل حبها لى ، لا تستطيع أن تنسى انى لست ابنتها .. وهذا الاحساس يولد عندها عقدة الخوف .. الخوف من أن تفقدنى يوما ما .. وحتى لا تفقدنى فهى تحاول ان تفرض سيطرتها على .. تحاول أن تسيطر على كل دقيقة من عمرى .. وعلى كل صغيرة وكبيرة من حياتى .. انها لا تترك أبدا شيئا لى وحدى .. كل شىء تشاركنى فيه .. بل كانت تستطيع أن تدخل فى عقلى لتشاركنى فى كل فكرة .. وتحاول أن تدخل فى قلبى لتشاركنى كل

لحظة من لحظاته . ليست لى حرية .. حتى فى نومى .. فقد عودتنى على أن أنام معها .. بينها وبين أبى ..

واستسلمت لسيطرتها .. فقد كانت سيطرة مبعثها الحب .. حب غريب .. لم أر أما تحب ابنتها مثل هذا الحب .. وكان استسلامى لسيطرتها يمنحنى حق التدلل عليها .. كنت أتدلل عليها الى حد أن آمرها وأشخط فيها .. قومى يا ماما هاتى لى كباية ميه .. ماما انزلى اشترى لى قلم رصاص .. ماما .. ماما .. لم أعد أخاف من وجهها المكرمش ولا من قناع الحزم والقسوة التى تضعه فوقه والذى يخيف كل البنات ..

وكانت حياتى المنطلقة هى حياتى فى المدرسة .. كنت فى المدرسة أحس بشخصيتى أكثر .. أتحرر من سيطرة أمى ، ومن احساسى المتجسم بحاجتى الى أبى .. وأنطلق بين زميلاتى .. وأشارك فى كل النشاط المدرسى .. وأتفوق .. وأضحك .. وأمرح .. وأحس بقوتى كلها .. انى لا زلت الى اليوم أحب حياتى فى المدرسة .. ثم فى الجامعة .. ولا ادرى كيف سأعيش بعد أن أتخرج ..

ونحن لسنا أغنياء .. معاش أبى ثلاثون جنيها .. وايراد عشرة أفدنة .. نحن عائلة متوسطة ، تعيش فى شقة متواضعة بشارع الجيزه ..

ولكن أمى تحب كثيرا أن تتعرف الى العائلات الغنية .. وخصوصا العائلات القديمة .. ولها أسلوب خاص فى اكتساب صداقة هذه العائلات .. وتتباهى بصداقتها .. وسيدات جمعية نور الهدى ينقلن اليها الأخبار العائلية أولا بأول ... وتتباهى بمعرفة هذه الأخبار .. وتحفظ كل الأنساب .. حتى يخيل الى انها تستطيع أن تربط كل عائلات مصر بخيط واحد ، وهى عائلة

واحدة .. و .. تعرفى فلان ، ده يا ستى يبقى متجوز بنت خالة نحبة هانم اللى تبقى واخده عبد الغنى بيه ابن أخت شربات هانم مرات عبد المعطى باشا .. وهكذا .. هذا هو الحديث المفضل عندها ..

وكانت أمى تحب أن تتظاهر دائما بأنها من عائلة كبيرة غنية . وصنعت لنفسها نسبا يمتد الى أحد الباشوات .. وكانت تحرص على أن تنادى زوجها « عثمان بيه » وتحرص على أن يناديها زوجها « عزيزه هانم » .. رغم أن بقية العائلات التى فى مستوانا لا تستعمل « بيه » ولا « هانم » ..

وكان بين العائلات التى تصادقها أمى عائلة تسكن فى حلوان .. عائلة كبيرة .. قديمة معروفة .. ليست عائلة غنية جدا .. ولكنها على الأقل أغنى من عائلتنا .. وكانت سيدة هذه العائلة تتفق مع أمى فى ايمانها بسيدات نور الهدى .. ولا يمضى أسبوع الا وتزورها أمى .. دائما تأخذنى معها وألعب مع بنات العائلة .. وكانوا كلهم يحبوننى .. فانى أستطيع دائما أن أكتسب صداقة البنات ، كما اكتسب صداقة زميلاتى فى المدرسة ..

ثم ..

حدث شىء غريب ..

كنت فى الثانية عشرة من عمرى .. وكنا فى زيارة العائلة .. وكنت ألعب مع البنات عندما نادتنى أمى وقالت لى :

— بوسى ايد عمتك يا نوجا .. انتى خلاص .. اتخطبتى لعادل .

ووقفت كالمبهورة لا أفهم شيئا ..

وجذبتنى « حماتى » وضمتنى الى صدرها وقبلتنى .. وهى تقول :

— ده أنا اللى أبوسها وابوس ايدها كمان .. هو أنا كنت حلاقى عروسه لابنى أحلى من كده .. جمال ، وأخلاق ، وأصل ..

وأنا لا أستطيع أن أفهم شيئا ..

بل لا أستطيع أن أتبين صورة عادل الذى خطبت له .. لقد كنت أراه يروح ويجىء فى البيت .. ولكنى لم أكن أتعمد أن أدقق فيه النظر . أن أستوعب ملامحه .. انه أكبر منى .. كان أيامها فى الثالثة والعشرين .. طالب فى كلية التجارة .. ولم أكن فى هذه السن قد تعودت على أن التفت الى الشبان وأدقق فى ملامحهم ..

واعتقدت أن الأمر ، هزار ..

كلام ستات ..

ولكن لا ...

الأمر جد ..

خطبت وأنا فى الثانية عشرة من عمرى ولبست الدبلة ..

هل هذه عجيبة ..

ان هاشم عندما سمع هذه القصة رفع حاجبيه فوق عينيه الحانيتين ، وأطلت من تحت انفه القوى ، ابتسامته الطيبة الحلوة . وقال :

— مش معقول ..

انى أستطيع الآن أن أفهم لماذا خطبتنى أمى لعادل وأنا فى الثانية عشرة من عمرى ..

ارادت أن تحكم سيطرتها على ..

خافت من عمرى أن يصل بى يوما الى التمرد عليها .. خافت من قلبى أن يشب على حب رجل لا ترضى عنه .. خافت من جمالى أن يكبر يوما الى حد لا تستطيع احتكاره لنفسها .. خافت

أن يسرقنى منها أحد ، فوضعتنى فى خزانة واحتفظت بمفتاحها فى جيبها .. والمفتاح ، كما كان يخيل اليها ، هو عادل ..

وليس معنى ذلك أنها لا تحبنى .. انها تحبنى الى حد الجنون .. ولكنه حب يختلف عن حب الأم الطبيعية .. حب يغلب عليه الاحساس بالملكية .. انها تحس بكل كيلو من لحمى وعظامى كأنها دفعت ثمنه ، واصبح حقا لها .. وليس لأحد آخر حق فيه ..

وفرق كبير بين الحب والاحساس بالملكية ..

الحب هو أن تعطى من تحب ..

والملكية هى أن تأخذ ممن تملكه ..

وربما كان هذا هو الفرق بين الأم الطبيعية ، والأم بالتبنى .. الفرق بين أمى الحقيقية ، وأمى التى أعيش معها ..

ولكنى أيامها لم احس بهذا الفرق .. بل لم أتساءل لماذا خطبتنى أمى الى عادل فى هذا السن المبكر .. فرحت .. فرحت بخطبتى كأن أمى اشترت لى حذاء جديدا .. وفرحت أكثر عندما احسست بأننى اصبحت شيئا مميزا بين كل زميلاتى فى المدرسة .. أنا البنت المخطوبة الوحيدة فى المدرسة كلها .. لى رجل .. وفى اصبعى دبلة ..

وبدأت فى هذه السن المبكرة افكر فى الرجل ..

بدأ احساسى يتشكل رغما منى ليصبح احساس امرأة .. امرأة فى الثانية عشرة من عمرها ..

لم أفقد مظاهر طفولتى .. كنت لا أزال أجرى ، والعب الاستغماية ، وأنط الحبل ، وأضحك كما يضحك الأطفال ، وابكى كما يبكى الأطفال .. ولكن من وراء هذه المظاهر كان احساسى يتجه الى عالم أكبر من عالم الأطفال ، وعقلى يتفتح لخواطر

وخيالات لا يمكن أن تكون خواطر وخيالات طفلة فى مثل عمرى ..

وبدأت أرى عادل كما لم أتعود أن أراه ..

نظرته التى تطل من عينيه الواسعتين تثير أحاسيسى وتطلق دمائى فى وجنتى .. كأنه يلقى بها فى ماء نائم فيوقظه ، وتتفتح فيه دوائر ، ودوائر ، تشملنى كلى ..

وشاربه الصغير الأنيق أحس به يدغدغ أنفى .. دون أن يقترب منّى ....

وقوامه الطويل العريض أحس بثقله ، وهو بعيد عنى ..

بل أنى بدأت أنظر الى كل الرجال نظرة جديدة .. لم يعد الرجل مجرد مخلوق يتحرك أمام عينى الطفلتين .. بل أصبح شيئا آخر .. أصبح له معنى آخر .. أصبحت أبحث فى كل رجل عن الجمال . عن الشخصية .. عن معانى الرجولة .. ثم أقارنه بعادل ..

وعادل هو رجلى الوحيد ..

صحيح أنى لم أختره من بين بقية الرجال ، ولكنى وجدته كرجل لى ، كما وجدت أبى وأمى ، دون أن أختارهما .

وأصبحت أشرب من ملامح عادل يوما بعد يوم .. قلبى يتفتح لحبه يوما بعد يوم .. قلبى يتحرك بين ضلوعى كأنه عصفور يحاول أن يكسر قشرة البيضة ليخرج الى الحياة ..

ولكن عادل بعد خطبتنا ظل يعاملنى كطفلة .. لم يكن يتصور أن كل هذه الأحاسيس يمكن أن أحملها فى صدرى وأنا لا زلت فى الثانية عشرة .. فكان — بلا قصد — يستهين بى .. نظرته الى لم تختلف عن نظرته لكل البنات اللاتى يملأن البيت ، ويلعبن نط الحبل ، وكان ينظر الى قائلا :

— ازيك يا نوجا .. عامله ايه فى المدرسه ؟

ويجلس بجانبى قليلا ، ومعنا أمه وأمى ، ثم يقوم ويدخل الى غرفته .. وقد تجرأت بعد فترة وتسللت وراءه .. دخلت غرفته .. وقفت أمامه كالغبية . وأنا لا أدرى ماذا أريد منه ، ولكنى أحس بأنى أريد منه أشياء كثيرة .. أحس أنى بالنسبة له لست كبقية البنات اللاتى فى سنى .. لى عليه حقوق أكثر .. ولى مطالب لا أستطيع أن أتبينها .. مطالب الحب .. ولكن الحب كان لا يزال فى فهمى كأسطورة من الأساطير التى ترويها لى أمى قبل أن أنام ، وتنقلنى بها الى عالم بعيد لا أجد له أثرا فى واقعى ...

ونظر الى عادل يوما كأنه يزن كل قطعة منى .. أحسست بنظرته تسقط على عنقى .. ثم على صدرى .. ثم على خصرى .. ثم على ساقى .. ثم هز رأسه كأنه قرر أنى لم أنضج بعد .. وانحنى وقبلنى فوق رأسى ، وقال وهو يبتسم لى كأنه يبتسم لطفلة :

— روحى يا نوجا اقعدى مع اخواتى .. أنا عايز أذاكر ..

وخرجت من غرفته وانا تائهة فى ضباب كثيف يملأ قلبى وعقلى ..

وربما كان يمكن فى هذه الأيام أن أتناسى كل هذه الأحاسيس .. أن أتركها تسقط فى قاع قلبى ، وأكومها فى مؤخره عقلى . وأتفرغ لطفولتى .. الى أن أنضج .. ولكن أمى لم تتركنى أيأس .. كانت تصر على أن تثير فى دائما احساسى بأنى فتاة ناضجة . وتحملنى مسئوليات الفتاة الناضجة .. ما تجريش كده يا نوجا . ما تنسيش انك ما بقتيش عيله .. انتى مخطوبه .. غطى ركبتك أحسن والله العظيم اقول لعادل .. واقفه فى الشباك ليه .. مش خايفه عادل يعرف ويفتكر انك بتبصى للواد اللى قصادنا .

عادل .. عادل .. عادل .. كانت أمى تكرر اسم عادل عند أذنى ألف مرة فى اليوم .. كأنها تشدنى اليه بألف حبل .. وأصبحت لا أخرج ولا أدخل الا باذن عادل .. اذا قلت لأمى انى أريد أن أذهب الألعب مع صديقتى ، قالت فى برود :

— اسألى عادل الأول ..

اذا أردت أن اشترك فى رحلة من رحلات المدرسة ، قالت كأنها تقنعنى بأنها لم تعد مسئولة عنى :

— أنا مالبش دعوه .. استأذنى عادل ..

وكان عادل لا يقول لى الا ما تريد أمى أن تقوله .. لا يأمرنى الا بما تريد أمى أن يأمرنى به .. رأيها هو رأيه .. لقد استطاعت فعلا أن تحكمنى بعادل .. أن تزيد من سيطرتها على .. وكان عادل يؤمن بها ويحترمها .. كان يجلس معها أكثر مما يجلس معى .. وتحادثه فى التليفون فى اليوم الذى لا يأتى لزيارتنا أو لا نذهب لزيارته .. كانت تحادثه طويلا أكثر مما أحادثه ، وأحيانا تحادثه دون أن ادرى .. وافاجأ بأوامر عادل لى ، كأنها تخرج من بين شفتى أمى ..

هذا الالحاح من أمى فى ربطى بعادل ، هو الذى أسرع بى الى حبه .. أصبحت أحبه وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى .. واعترفت بينى وبين نفسى بهذا الحب .. حب ساذج فيه براءة الطفولة ، وخيالها ، وطهرها .. وكلما ازددت حبا لعادل ، ازددت استسلاما لأمى ، فهى التى تملك عادل ..

وقد بدأت فى هذه الأيام أقحم نفسى على حياة عادل أكثر .. أصبحت كلما ذهبنا الى زيارة عائلته ، أجرى اليه فى غرفته .. أجلس على سريره .. وألعب بكل محتوياتها .. وأبقى فيها .. لا أريد شيئا الا أن أبقى فيها .. أحدثه ويحدثنى .. وانظر اليه

كأنه الشىء الوحيد الذى أملكه فى حياتى .. كأنه كل مستقبلى .. كل شخصيتى .. وهو لا يزال يعاملنى كطفلة .. لا يقبلنى الا فوق رأسى ..

الى أن كان يوم فتحت فيه أحد أدراج مكتبه ، فلمحت فيه صورة لفتاة .. فتاة غيرى .. وقبل أن أتمعن فى الصورة رآنى عادل فصرخ فى وجهى :

— أوعى تفتحى الدرج ده تانى ..

ثم خطا نحوى خطوة سريعة ، وأغلق الدرج بعنف حتى كاد يغلقه على أصابعى ..

وقلت وأنا أنظر اليه وأحس بشىء يسيل من قلبى كأنه دمى :

— اشمعنى الدرج ده اللى مش عايزنى أفتحه ..

قال :

— علشان ما يصحش تفتحى أدراجى .

قلت فى براءة :

— أنا شفت فيه صورة واحدة ..

قال :

— دى صوره بتاعة واحد صاحبى شايلها عندى ..

قلت :

— ليه ؟

قال :

— لده ايه ؟

قلت :

— ليه شايلها عندك ؟

قال وهو يضيق بى :

— مالكيش دعوه .. انتى لسه صغيره .. ما يصحش تتكلمى فى الحاجات دى .

ولم أكن صغيرة الى هذا الحد ..

لقد بدأت أشعر بالغيرة وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى .. الغيرة بكل آلامها ، وكل قسوتها ..

بدأت أحس بصغر سنى .. واعتقدت أن عادل يعرف بنات غيرى لأنى صغيرة .. ودفعنى هذا الاعتقاد الى أن أحاول أن أسبق عمرى .. أن أبدو أكبر .. فتحايلت على أمى حتى سمحت لى بأن البس حذاء بكعب ، ثلاثة سنتى .. واستطعت بواسطة احدى زميلاتى فى المدرسة أن أحصل على أصبع روج .. وأصبحت أقلب فى المجلات فتتوقف عيناى على صور البنات اللاتى يكبرننى .. واتجه ذوقى الى أزياء لا تليق بسنى .. وأمى لا تفهم فى الأزياء ، فانقادت ورائى ، وأصبحت تفصل لى ثيابا أكبر من عمرى وسمحت لى بأن أصبغ شفتى بالروج فى مناسبة أو مناسبتين .. وهى فرحة بى كما تفرح الطفلة بعروستها ..

وجاء عادل لزيارتنا يوما ..

وجلس مع أمى وأبى ..

وتأخرت فى غرفتى أعد لعادل مفاجأة .. تخيلتها مفاجأة كبرى ..

وقفت أمام مرآتى أصفف شعرى بحيث أرفعه فوق رأسى كما تفعل البنات الكبيرات .. ووضعت الكحل حول عينى .. وصبغت شفتى بالروج .. وارتديت ثوبا جديدا ، شددت فتحة صدره ، حتى كشف عن مساحة كبيرة من لحمى .. ولبست جوربا وحذاء بكعب .

لقد كنت جميلة .. جميلة فعلا .. رغم انى لم استطع أن

أصفف شعرى كما يجب .. ورغم أن خطوط الكحل كانت مهتزة حول عينى .. ورغم أن « الروج » فوق شفتى كان ماسخا ..

وخرجت الى عادل ..

وفوجىء ..

رأيت المفاجأة فى ارتعاشة رموش عينيه ..

ولم يغضب .. ولكنه ظل ينظر الىّ كأنه يرانى لأول مرة .. وكأنه ينظر الى فتاة كبيرة ..

وابتسمت أمى ، وشاعت ابتسامتها فوق وجهها المكرمش القاسى ، كأنها ترانى أمامها أجمل فتاة فى العالم .. وقهقه أبى قائلا :

— مالك كبرت مره واحده كده .. ده انتى لغاية النهارده الصبح كنتى لسه عيله ..

وقلت وأنا أبتسم فى دلال وأتثنى بقوامى الطويل فى افتعال :

— من فضلك يا بابا .. ما تقولشى علىّ عيله ..

وقال عادل وهو يقاوم المفاجأة :

— من امتى بتحطى روج يا نوجا ؟

وقلت وأنا أهز له كتفى :

— ماما سمحت لى ..

وقالت أمى :

— والله يا عادل يا ابنى .. ما دام اتخطبت لك يبقى من حقها تحط روج .

وظل عادل محتفظا بنظرة الدهشة فى عينيه ..

ومن يومها بدأ يبدى نحوى اهتماما أكثر ..

وتسللت قبلته من فوق رأسى الى خدى ..

انى أذكر قبلته الأولى فوق خدى .. لقد دخلت اليه فى غرفته

عندما كنا فى زيارة عائلته .. وكنت ألبس الحذاء ذا الكعب .. وثوبى ضيق ، مفتوح الصدر ، وشعرى مفروق من منتصف رأسى ، ومسدل حول وجهى .. وفى نظراته هذا الشىء الجديد .. ووجهه يلمع .. ثم حاول أن يتشاغل عنى بالعبث فى ادراج مكتبه .. ثم قام فجأة ، واقترب منى ، وامسكنى من كتفى ، وقال فى صوت لاهث :

— انتى كبرتى يا نوجا .. واحلويتى .. ما كنتش فاكر انك حاتكبرى بالسرعه دى ..

وظل ممسكا بى ..

عيناه فى عينى ..

وعيناه ترتعشان .. وأحاسيسى كلها متيقظة مرتبكة ، كأنها تواجه ضوءا شديدا لا تحتمله ..

وانحنى ، وقبلنى فوق وجنتى ..

أول شفتين ساخنتين فوق وجنتى ..

وحاولت أن احتمل لمستهما ..

ولكنى لم أحتمل ..

أحسست بدمائى كلها تندفع فى عنف .. وأحسست بقلبى يطير بين ضلوعى . كأن العصفور قد كسر قشرة البيض وانطلق فى عالم لا يعرفه بعد .. وأحسست بركبتى ترتعشان .. أحسست بأنى فى حاجة الى قوة كبيرة .. قوة لم أتعودها بعد حتى أحتمل كل هذا ..

ولم أجد هذه القوة ..

فنزعت نفسى من بين يديه ، وجريت من أمامه ، ويدى على خدى مكان قبلته أخشى عليها أن تطير منى ..

وانزويت فى حجرة الصالون ، ولم يكن فيها أحد .. وبقيت

فيها وحدى ، هائمة فى أحاسيسى .. أحاسيس حلوة .. والنشوة تضج فى عروقى .. ويدى لا تزال على خدى كأنى أخشى أن تطير قبلته من فوقه .

وبقيت وحدى فى حجرة الصالون ، الى أن سمعت صوت أمى تنادينى لنعود الى بيتنا ..

وركبنا قطار حلوان ، وأنا بجانب أمى .. صامتة .. منتشية .. هائمة فى أحاسيسى ..

ونظرت الى أمى كأنها تحاول أن تكتشف سرى ، وقالت :

— مالك ؟

قلت وأنا أنظر من شباك القطار :

— اقول لك حاجه ؟

قالت :

— خير .. قولى ..

قلت كأنى أزف اليها فرحتى :

— عادل باسنى ..

وبدأ الاهتمام على وجه أمى وجذبتنى اليها قائلة :

— باسك فين ؟

قلت :

— فى أودته ..

قالت :

— يعنى باسك فى أى حته ..

قلت وأنا أبتسم :

— باسنى فى خدى ..

وسكتت أمى قليلا كأنها تبلع ألما وقالت :

— كام مره ؟

قلت :

— مره واحده بس .. بوسه واحده ما فيش غيرها ..

قالت :

— وكنتم قاعدين واللا واقفين ..

قلت :

— واقفين ..

قالت :

— وكان ماسكك ازاى ..

قلت وأنا أحاول أن أتذكر :

— مش فاكره . .مش فاكره اذا كان ساعتها كان ماسكنى واللا لأ ..

قالت فى حدة :

— يعنى كان حاضنك ؟

قلت :

— لأ .. كان مسكنى من دراعى ..

قالت :

— وعملتى ايه ..

قلت :

— جريت وقعدت فى الصالون ..

وسكتت أمى قليلا ووجهها يزداد قسوة ، ثم قالت كأنها تحادث نفسها :

— مش حاجه .. ما هو برضه خطيبك .. انما أكتر من كده مش من حقه ..

والتفتت الى وقالت فى حدة :

— فاهمه ..

قلت بلا مبالاة وانا لا زلت هائمة فى نشوتى :

— فاهمه ..

ومن يومها وأمى تسألنى دائما عن كل التفاصيل .. أدق التفاصيل .. وتعودت بعد ذلك وخلال حياتى كلها أن أقول لها كل شىء .. لم أكن أشعر بأى خجل وأنا أطلعها على كل شىء .. وقد أطلعتها على تفاصيل كثيرة .. كثيرة .. كان أهم ما تسعى وراءه هو هذه التفاصيل .. لم يكن يهمها المبادىء ، ولكن تهمها التفاصيل ..

وحبى لعادل يكبر ..

وكل شىء فى يكبر مع حبى ..

صدرى يكبر .. جسدى يكبر .. عقلى يكبر .. أحاسيسى تكبر .. وعمرى يكبر .. كل شىء يكبر بين يدى عادل .. كل قطعة منى يلمسها ، تكبر .. وكل كلمة يقولها يكبر بها عقلى ..

وكل لحظة من لحظاته يكبر بها قلبى ..

خيل الى أيامها أنى لا أكبر بعمرى .

ولكنى أكبر بحبى ..

وقد أحببت بكل ما فى طاقة الحياة من حب .. أحببت حبا فيه كل شىء .. فيه الخيال .. وفيه سذاجة الطفولة .. وفيه النشوة .. نشوة المرأة .. وفيه الأمل المستتر الهادىء .. وفيه الألم .. ألم الغيرة ..

كنت أحبه كطفلة .. تندفع بحبها بلا حدود .. وكنت أحبه كفتاة كبيرة تعد نفسها للزواج .. وكنت أحبه كأم تختار اسم أولادها قبل أن تراهم ..

وأحبنى عادل ..

أحبنى قدر ما أحببته .. وحبه يكبر كلما كبرت .. والنظرة فى عينيه تكبر وتزداد لمعانا يوما بعد يوم ..

أصبحنا لا يستطيع أحدنا أن يستغنى عن الآخر ..

كنت أكتب له فى كل يوم خطابا حتى فى الأيام التى أراه فيها .. خطابات مليئة بالكلمات الحلوة التى أقرؤها فى القصص ، وأحيلها الى واقع أعيش فيه ..

وكان عادل يكتب الى أيضا كل يوم خطابا .. ولو كلمتين .. وربما كانت كلماته ساذجة ، فيها محاولة لشاب مغرور يحاول أن يثبت لنفسه أنه أديب كبير .. ولكنى أيامها كنت أعتبر خطاباته أرقى ما يستطيع الانسان أن يكتب .. كنت أعيش فى كل كلمة من كلماته ..

ان حياتى فى هذه الفترة ، كانت أغنية .. أغنية أغنيها فعلا .. اغنيها مع كل أغنية تنطلق من الراديو .. ليست أغانى عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ فقط ، بل كل الأغانى .. أغان لا يخطر على بال أحد أن يحفظها ، ويغنيها مطربون من الدرجة الثانية والثالثة ، ولكنى كنت أحفظها .. أحفظها لأنى كنت أجد فى كل كلمة حب . حبى ..

وقد نال عادل بكالوريوس التجارة قبل أن اتم الخامسة عشرة من عمرى .. وأذكر فى هذه الأيام أنه سافر الى السعودية فى رحلة قصيرة مندوبا عن الشركة التى عمل بها .. وكنا فى عز الصيف .. ولم أحتمل أن يعيش عادل فى لهيب السعودية ، بينما أنا فى القاهرة أعيش فى صيف أرحم .. فما كان منى الا أن اغلقت جميع نوافذ غرفتى « شيش وزجاج » وحبست نفسى فيها بعد أن ارتديت بلوفر من الصوف ، حتى أعانى نفس ما يعانيه عادل من لهيب الصيف فى السعودية .. وبقيت هكذا ثلاثة

أسابيع ، لا أفعل شيئا الا أن أكتب لعادل .. كتبت له عشرات الخطابات .. كلها حب .. وأمى تدخل وتخرج ، وهى تصرخ :

— يا بت ما تبقيش مجنونه .. بلاش لعب عيال ..

ولكنى لم أتحرك من غرفتى .. ولم أفتح نوافذها .. ولم اخلع البلوفر الصوف .. الا بعد أن عاد عادل من السعودية ..

الى هذا الحد أحببته ..

وأحببت معه كل الدنيا ..

كل الناس ..

كل شىء ..

وكان الحب يضىء عقلى بنور الذكاء .. ويملأ كيانى بالمرح .. ويدفعنى الى النجاح والتفوق .. ويصنع لى شخصية قوية ، حلوة ، يحبها الناس .

كم كنت سعيدة ، أيامها ..

ولكن ..

كانت هناك فترات من الألم .. فقد كان لعادل بعض المغامرات النسائية .. ضبطت فى منديله مرة آثار أحمر شفاه .. وضبطت فى درج مكتبه صورة لسيدة ربما كان عمرها أكبر من الخامسة والثلاثين .. وكنت أثور .. وأبكى .. ولكن عادل كان يقنعنى سريعا بأنه فى حاجة الى هذه العلاقات ليطلق فيها شبابه ، الى أن يتزوج ويتوب عنها .. كان يقنعنى دائما بأنها علاقات عابرة لا تترك خدشا فى قلبه ولا فى حياته .. علاقات يحتاج اليها كل رجل قبل أن يتزوج .. وكانت تمر بى لحظات أفكر فيها أن أمنح عادل من نفسى ما يغنيه عن هذه العلاقات ، حتى قبل أن نتزوج .. ولكنى كنت أعود وأجبن .. لا ، لم يكن جبنا .. ولكنى كنت أضع نفسى فوق مستوى هذه العلاقات العابرة .. أنا شىء

أكبر من حاجة الرجل العابرة .. لا يمكن أن انزل الى مستوى الحاجة العابرة .. أنا الحب .. أنا الحياة كلها .. حب عادل ، وحياته .. فكنت أكتم ألم الغيرة فى قلبى الصغير .. وأزيح من أمام عينى خيال عادل وهو يقبل على امرأة أخرى كبيرة يقبلها ويحتضنها .. وأسمو بحبى الى حد أن اقنع نفسى بأن هذا من حق عادل ، وأنه حرام على أن أحرمه من حقه ، وأن أعذبه بحاجته التى لا أستطيع أن أريحه منها الا بعد أن نتزوج .. ولكنى بدأت فى هذه الأثناء أكره النساء الكبيرات .. لا ، لم أكرههن .. فقلبى لم يكن يتسع للكراهية .. ولكنى كنت أخاف منهن على حبى .. كنت أتصور أن كلا منهن يمكن أن تنقض على عادل وتأخذه منى ، ولو اخذا عابرا ..

وكانت قبلاتنا قد كبرت فى هذه الأثناء ..

وصلت قبلة عادل الى شفتى البكر .. العذراوين ..

وكنت أذوب فى قبلته ..

أذوب كلى ..

أحس كأنه يسحب بشفتيه كل ما فى .. يسحب قلبى .. ويسحب عقلى .. ويسحب أعصابى .. ويسحب كل قطعة منى .. أحس بكل ما فى من حياة يتجمع بين شفتيه .. لم تعد لى حياة الا هنا .. بين هاتين الشفتين ..

وكانت أمى تدير نشاط قبلاتنا كأنها قائد فرقة موسيقية يدير أنغام عصفورين يتناجيان بأعذب الألحان ..

كانت قد اعترفت لنا بحق تبادل القبلات .. ولكن .. تحت اشرافها .. فكانت عندما يأتى عادل لزيارتنا .. تجلس بيننا كالحارس الأمين .. ونحن نتبادل حديثا فاترا ، ونتبادل نظرات ساخنة .. الى أن تقرر أمى فجأة أن هناك ما تعمله داخل البيت .. فتدخل لتجلس مع أبى ، وتتركنا وحدنا .. وبمجرد أن تدير ظهرها لنا ، تلتقى شفاهنا العطشى .. ونعيش فى قبلة واحدة طويلة .. طويلة .. كأن كلا منا يبخل على نفسه بلحظة يتنفس فيها .. ثم فجأة أيضا ، تعود أمى .. وتفترق شفاهنا ، وهى لا تزال عطشى ..

فاذا ذهبنا الى زيارة عائلة عادل ، حدث نفس الشىء .. نجلس جميعا معا ويدور بيننا الحديث الفاتر ، والنظرات الساخنة .. نظرات الشوق الكبير .. ثم يقوم عادل ويدخل الى غرفته ، وأهم أن الحق به ، ولكن أمى تشغلنى فى حديث وتظل تشغلنى الى أن تقرر بينها وبين نفسها أن تسمح لى باللحاق بعادل .. فترحمنى من حديثها .. وأجرى اليه .. ونلتقى فى قبلتنا الطويلة .. الطويلة .. الى ان أسمع صوت أمى ينادينى من بعد كأنها تشدنى من الجنة ..

وكان اقسى ما توقعه أمى على من عقاب .. هو ألا تتركنى لعادل .. وكانت المدة التى تتركنى له فيها ، تطول وتقصر حسب رضائها عنى .. أحيانا تتركنى له ربع ساعة .. أحيانا خمس دقائق .. أحيانا دقيقة واحدة ..

وكانت أمى تتظاهر أمام عادل بأنها لا تتعمد أن تتركنا وحدنا .. ولكن كان هذا أمرا صريحا بينى وبينها .. كانت تصارحنى بأنها تتعمد ان تتركنى له .. حتى تهددنى بألا تتركنى له .. ..

ثم بمجرد أن ينصرف عادل .. كانت تسألنى عن التفاصيل .. كل التفاصيل .. تسألنى وفى عينيها نهم مثير كأنها طفل جائع ينتظر ما يشبع جوعه :

ـــ عملتم ايه .. احكيلى ..

واقول وانا اتدلل عليها :

— هو احنا لحقنا نعمل حاجة .. ده انتى ما بعدتيش عنا الا يدوبك دقيقه ؟

وتقول :

— معلهش .. بكره تشبعى منه .. قوليلى .. باسك ؟

وأقول بلا خجل :

— طبعا .. باسنى ..

وتقول أمى والنهم فى عينيها :

— تشوفو البجاحه .. وايه كمان ! ؟

وأرد وأنا أتغالى فى دلالى كأنى عروس فى صبيحة ليلة الزفاف :

— ولا حاجه .. هو فيه ايه كمان ؟ !

وتقول أمى :

— يعنى حضنك ؟ !

وأقول :

— لا ..

وتعود تسألنى :

— حط ايده على صدرك ! ؟

وأقول وأنا أبتسم :

— ايه ده يا ماما .. أنا ما اسمحلكيش تكلمينى بالشكل ده ..

وترد أمى فى حزم :

— اوعى تخليه يحط ايده على صدرك .. أولا صدرك يخسر وانت لسه بنت بنوت .. وثانيا ده مش من حقه ..

ويستمر هذا الحوار بيننا طويلا .. تسألنى .. وتسألنى .. كل لمسة .. كل حركة .. كل كلمة .. وهى تنظر الى كأنها تفتش

فى قلبى .. وفى أحاسيسى .. ورغم ذلك ، فلم أكن أتضايق .. كنت أحب هذا الحوار .. وأحب أن يطول ، كأنى أردد أخر أغنيات حبى .. كأنى اطلع صديقتى الوحيدة على أعز أسرارى .. رغم الخلاف الكبير بينى وبين أمى حول معنى الحب .. أمى تعتقد أن الحب هو أن يأخذ الرجل المرأة ، ولا شىء أكثر .. وأنا أعتقد أن الحب هو التقاء .. التقاء شخصيتين .. والتقاء فكرتين .. والتقاء قلبين .. والتقاء حياتين ..

ولكن ..

الأيام الحلوة لم تدم طويلا ..

بدأت تغوص فى الضباب ..

مرض أبى .. وأنا فى السادسة عشرة من عمرى .. أصيب بشلل نصفى خنق الكلمات فوق لسانه .. لم يعد يستطيع أن ينطق .. ولم يعد يستطيع أن يتحرك الا اذا حملناه من مكان الى مكان .. أصبح لا شىء .. ففقدته .. وأحسست أنى فقدت ميزان حياتى كلها .. لم أشعر بأن أبى كانت له كل هذه الأهمية فى حياتى الا بعد أن أصبح لا شىء .. لقد كان بالنسبة لى صمام الأمان من طغيان أمى .. كان العقل المتزن الذى يحمينى من نزواتها .. كان الصدر الطيب الحنون الخالى من العقد النفسية ومن الأنانية ، الذى ألجأ اليه كلما خنقتنى أنانية أمى وخوفها الدائم من أن تفقدنى يوما ما .. كان أبى هو الذى يحبنى كابنته .. وأمى لا تستطيع أن تنسى أنى لست ابنتها .. فقط تبنتنى ! ..

وقد زاد طغيان أمى بعد مرض أبى ..

أصبحت أنانيتها حادة كالسكين ..

وأصبحنا نتشاجر دائما .. ونتصارخ .. هى تصرخ

وانا أصرخ .. ثم أجرى الى أبى وهو راقد فى فراشه .. ليس فيه شىء حى الا عيناه المحدقتان المنهوكتان وألقى بنفسى على صدره وأبكى . وينظر الى أمى بعينيه وقد وضع فيهما كل ما بقى له من قدرة على الغضب والسخط .. ويشوح فى وجهها بذراعه السليمة .. ويطلق من زوره أصواتا مشروخة تثير الشفقة كأنها خوار ثور جريح على وشك أن يموت .. ثم يدير عينيه الىّ ، وفيهما دموع تهم أن تنطلق .. وتسقط ابتسامة ضعيفة على جانب شفتيه المشلولتين ، ويمسح وجهه على شعرى كأنه يربت علىّ .. ثم لا يستطيع أكثر من ذلك ..

وكان لمرض أبى أثر على حبى لعادل أيضا .. نقل حبى الى طور آخر ، لم يعد حبا فيه مرح الطفولة وانطلاقها وسذاجتها .. ولكن أصبح حبا جادا عميقا يحمل مسئولية الحياة كلها ..

لقد أصبح عادل هو القوة الوحيدة لى .. هو سندى الوحيد .. وأحس هو بنفس ما بدأت أحس به .. فاكتملت لحبنا شخصيته .. لم يعد حبنا يقبل أن يعيش تحت اشراف أمى وادارتها .. أصبح لحبنا شخصية مستقلة عن شخصية أمى .. أصبحت لنا أحاديثنا الخاصة ، ومشاريعنا الخاصة ، وأحلامنا الخاصة .. ولم اعد ارحب بالحوار الطويل الذى يدور بينى وبين أمى بعد أن التقى بعادل .. واصبح لى ولعادل رأى خاص فى كل ما تقوله أمى .. أصبحنا نرد عليها ونعارضها .. لم نكن نتحداها أو نتهجم عليها .. ابدا .. كان كل ما نطالب به هو حقنا فى رسم حياتنا ؛ وفى تصرفاتنا .. وبالعكس .. كنا نحرص دائما على أن نحيطها بحبنا ، وأن نبدى لها هذا الحب . ونحرص أيضا على الا نصدمها فى أنانيتها وفى طريقة تفكيرها ..

وبدأت أمى تلحظ هذا التطور .. بدأت تحس انى أصبحت .. ملتصقة بعادل أكثر من التصاقى بها .. أتأثر به وبكلامه ، أكثر مما أتأثر بكلامها .. بدأت تحس أن عادل لا يصلح ليكون مفتاح الخزانة التى تضعنى فيها ، وتحتفظ به فى جيبها .. لقد أصبح عادل أكبر من أن يسعه جيبها .. وتحركت عندها عقدة الخوف من أن تفقدنى يوما .. تفقد شيئا تملكه .. فبدأت تحارب عادل .. تحارب حبى .. ووجهها المكرمش يزداد قسوة يوما بعد يوم ..

وقد بدأت تقلل من زيارتنا لعائلة عادل .. فاذا جاء عادل لزيارتنا استقبلته استقبالا رسميا كأنه غريب .. وجلست أمامنا كالسجان .. لا تتركنا لحظة .. ووجهها المكرمش يقف بيننا كالحائط المصفح .. ثم بدأت تنقل الىّ أخبار علاقات عادل النسائية .. كانت تبحث بنفسها عن أخبار هذه العلاقات وتقطرها فى أذنى كالسم .. وكنت أصرخ فى وجهها :

— عارفه .. عارفه .. مش ممكن حاتقوليلى حاجه عن عادل أنا مش عارفاها ..

ولكنها كانت تعايرنى بهذه العلاقات .. بل أنها اتصلت بامرأة فى الأربعين من عمرها مطلقة رجل غنى ، كان عادل على علاقة معها فى فترة من فترات نزواته .. وجعلتها تحادثنى فى التليفون وتروى لى تاريخها مع عادل ، وتغيظنى ، وتقسم لى أنها كانت تنفق عليه .. و ... عارفه البدله البنى اللى بيلبسها ، اسألبه كده مين اشتراها له .. و ..

وكنت أحتمل .. لم اكن أحتمل ببساطة .. كنت أعانى الألم .. ألم الضيق .. ألم الغيظ .. ألم الغيرة .. ألم الاحساس بعجزى أمام جبروت أمى .. ورغم ذلك كنت لا أزال أقنع نفسى بحبها .. كنت أخاف من أن اكرهها ..

وأخيرا قرر عادل أن المخرج الوحيد لنا هو أن نعجل بزواجنا .. وكلم أمى .. ورفضت .. رفضت فى حزم قاس كأنها لن تقبل أبدا أن نتزوج .. وكانت حجتها الأولى أننا يجب أن ننتظر حتى انتهى من دراستى الثانوية .. وعندما تعهد عادل بأن يتركنى أتم دراستى بعد أن نعقد القران .. بدأت تضع العراقيل .. عراقيل كثيرة .. انها تغالى فى طلب المهر .. وفى المؤخر .. وفى شروط الشقة التى يجب أن يبحث عنها عادل لنسكن فيها .. والموقف يتطور بسرعة عجيبة .. كلام كثير .. كثير .. وخناقات بين أمى وأم عادل .. وسيدات جمعية نور الهدى يتنقلن بين بيتنا وبيت عادل .. وينقلن أخر الأخبار .. وأخر الكلام .. ويحرفن كلمة تقال هنا .. وكلمة تقال هناك .

وأنا أصبحت تائهة .. كالفرخة الدائخة ..

وأصبحت لا أرى عادل .. أحادثه فى التليفون خلسة .. وأنام باكية على صدر أبى المشلول .. ومرة أو مرتين اقتحم عادل بيتنا ليرانى رغما عن أمى .. ولكنها وقفت فى وجهه ، ووصلت الى حد تهديده باستدعاء البوليس ..

وشبت النار فى صدر أمى عندما علمت أن عادل مرشح لوظيفة كبيرة فى الكويت .. كان عادل فى حاجة الى هذه الوظيفة ليبنى مستقبله . وليجمع ثروة لنا .. ولكن معنى هذا انه سيأخذنى بعيدا عن وجه أمى ..

مستحيل ..

لا أحد يستطيع أن يأخذنى بعيدا عنها ..

انها تملكنى ..

تملك كل كيلو من لحمى وعظمى .. ولا يمكن أن تسمح لأحد بأن يأخذنى منها .. لا عادل ولا غيره ..

وأعلنت أمى فسخ الخطبة .. من جانبها وحدها ..

وسرقت دبلتى من أصبعى وأنا نائمة ، وأخفتها عنى ..

وجننت ..

كنت أصرخ كالمجنونة .. وأتكلم كالمجنونة .. وأحطم كل شىء حولى كالمجنونة ..

وأمى لا تشفق علىّ .. لقد أعلنت الحرب .. وقد تعودت أن تنتصر فى كل حرب تعلنها ..

لقد سلطت على كل أفراد العائلة ليقنعونى بأن أنسى حبى لعادل .. حتى أمى الحقيقية جاءت لتقنعنى بفسخ الخطبة .. وتؤكد لى أن عادل لا يصلح لى ..

وسلطت كل الدنيا للتشهير بعادل وعائلته .. بل انها ذهبت الى رؤسائه فى عمله لتشكوه اليهم ، وتقنعهم انه يحاول أن يغوينى ويخطفنى ..

وعادل جن أيضا ..

انه يتكلم فى التليفون ويصرخ فى أمى :

ــ أنا حاتجوزها غصب عنك .. اذا ما اتجوزتهاش بالذوق حا اتجوزها بالعافيه .. حاخطفها .. لو كنت أمها بصحيح ما كنتيش عملتى فيها كده ..

وأمى تقبل التحدى ..

ولا تكف عن الحرب ..

وأنا أحاول أن أحتمل .. أحاول أن أصبر .. أحاول أن أجد شقا ينفذ منه النور .. نور الأمل .. ولكن وجه أمى المصفح ليس فيه منفذ للنور ..

وفجأة ..

هربت ..

كانت مفاجأة بالنسبة لى أيضا .. فانى لم أفكر قبلها فى الهرب ... ربما كنت أفكر فى الهرب بعقلى الباطن ، ولكنى لم أفكر فيه بعقلى الواعى .. وقد صحبتنى أمى يومها الى المدرسة ، وأوصت علىّ الناظرة والمدرسات وحذرت عليهن أن يتركننى أغادر المدرسة الا اذا جاءت وتسلمتنى بنفسها .. وقضيت طول الصباح شاردة .. لا أستطيع أن أندمج فى حديث مع زميلاتى .. لا أستطيع أن أتكلم ، ولا أن أبتسم شاردة .. ساهمة .

وفى فسحة الظهر ، كنت فى فناء المدرسة ، ولمحت الباب الكبير مفتوحا .. وبلا ارادة منى .. وأنا لا زلت شاردة ، ساهمة .. خطوت نحو الباب .. وخرجت .. خرجت من المدرسة .

ولم أتنبه الا وأنا فى الشارع بعيدا عن المدرسة .. ووقفت برهة كأنى أشد خطة تعيش فى عقلى الباطن .. ثم جريت الى أقرب تليفون ، واتصلت بعادل فى مقر الشركة التى يعمل بها ..

وجاء عادل فى سيارة أجرة بعد ربع ساعة .. وأنا واقفة فى الشارع مرتدية زى المدرسة ، وكل ما فى شارد ..

وجريت اليه بمجرد أن لمحته ، وقفزت جالسة بجانبه .

ولم نتكلم ..

كأن كلا منا كان ينتظر هذه اللحظة .. وكأننا دبرنا خطة الهروب معا ..

اكتفى عادل بأن أخذ يدى فى يده ، وأمر السائق أن يتجه الى العجوزة .. وطول الطريق ونحن الاثنين صامتان . ويدى فى يده .. وقلبانا يخفقان فى صدرينا .. والنظرة الساهمة فى عينى .. وفى عينيه نظرة تحد .. تحد لأمى .

وأخذنى عادل الى بيت شقيقه الأكبر ..

وكان شقيقه يسكن وحده فى شقة بالعجوزة ..

وفتح عادل الباب بمفتاح أخرجه من جيبه ، ولم أفكر ساعتها فى أن أسأله لماذا يحتفظ بمفتاح شقة شقيقه فى جيبه ..

وقال عادل ونحن ندخل :

ـــ أنا ما رضيتش أخدك عند أمى ، علشان مامتك ما تحصلناش هناك .

وهززت رأسى موافقة ..

وأغلق عادل الباب وراءه ..

ولم أحاول أن أنظر حولى الى محتويات الشقة .. كانت عيناى معلقتين بوجه عادل ..

وقال عادل :

ـــ احنا نستنى لما اخويا يرجع من الشغل الساعة خمسة .. ونبعت نجيب المأذون ونتجوز ..

وقلت فى صوت ضعيف وأعصابى منهوكة :

ـــ اعمل اللى انت عايزه يا عادل .

ولم أكن ساعتها أفكر فى الزواج .. كان كل ما أفكر فيه هو أنى أصبحت مع عادل وحدنا بعد كل هذا العذاب الطويل .. بعد كل هذا الشوق المضنى .. وحدنا .. ولا ننتظر أن تدخل أمى علينا فى كل لحظة .. لأول مرة نلتقى بعيداً عن شبح أمى ..

وركنت رأسى على صدره ، وقلت كأنى أتنهد :

ـــ أنا تعبانه يا عادل .. تعبانه .

وقال فى حزم كأنه قبض على عنق القدر :

ـــ خلاص .. النهارده أخر يوم تتعبى فيه .. بعد النهارده مش ممكن حد يفرقنا عن بعض ..

ثم رفع رأسى اليه ..

شفتاه تتطلعان الى شفتى ..

والتقينا ..

قبلة طويلة .. طويلة .. لن تنتهى أبدا .. وكل منا يبخل على نفسه بلحظة يضيعها فى التقاط نفسه ..

وأحسست كأن عمرى كله يستريح بين شفتيه .. كل ما عانيته .. كل ما تحملته .. كل عذابى . كل حرمانى .. كل حيرتى .. كل أعصابى الملتهبة تنطفىء نارها وتهدأ بين هاتين الشفتين .

وقال عادل وهو يجلسنى على الأريكة :

— انتى مراتى يا نجوى .. مراتى قدام ربنا وقدام الناس .. مراتى من خمس سنين ، من يوم ما تخطبنا ..

وتعلقت بعنقه ، وأنا أهمس :

— يا حبيبى يا جوزى ..

ولم ننتظر الى أن يأتى المأذون .

لم نكن نستطيع أن ننتظر بعد كل هذا العذاب .. وكل هذا الحرمان ..

واستسلمت ..

لا ..

كل منا استسلم للآخر .. فلم يكن عادل يريد شيئا أكثر مما أريده ..

لم أشعر بأنى أفقد شيئا . لم أشعر بأنى أضحى بشىء .. كل ما كنت أشعر به هو أنى لا أريد أن أفقد عادل مرة أخرى .. لا أريد أن يقف شىء بينى وبينه .. لا أريد أن أعود الى عذاب الشوق اليه ، والحرمان منه .. أريد أن تستقر حياتى كلها هنا .. بين ذراعيه ..

وعيناى مغمضتان ، وشفتاى مدسوستان بين شفتيه ، كأنى

أتشبث بهما من خوف الألم .. لا .. لم يكن بيننا ألم .. ليس كما كنت أتصور .. الحياة فى هذه اللحظة تجرى وحدها ، بلا ارادة منى ، ولا ارادة منه .. كأننا لم نتعمد شيئا .. اننا فعلا لم نتعمد شيئا .. لم نتعمد الا أن يلتصق أحدنا بالآخر ، والى الأبد ..

وكان خيال أمى يطوف بى .. ووجهها المكرمش القاسى ينقض علىّ كأنه يحاول أن يشدنى من بين ذراعى عادل .. ولكنى كنت ابتسم فى شماتة .. انى أعى تماما ما أفعله .. انى أضع أمى أمام الأمر الواقع حتى تسلم بزواجنا .. لن تستطيع أن تنتصر على حبى .. ستخضع .. ستستسلم ..

ثم ..

رقدت بين ذراعى عادل مغمضة العينين .. لست نائمة .. ولكنى هائمة . مستريحة .. وابتسامة النصر على شفتى .. النصر على أمى ..

الى أن عاد شقيقه مدحت .. وقفز عادل واقفا بمجرد أن سمع المفتاح يدور فى قفل الباب ، واعتدلت جالسة وأنا اشد ثوب المدرسة فوق ركبتى . وارتسمت دهشة كبيرة على وجه مدحت عندما رآنى . وقال كالمبهوت :

— نجوى .. ايه اللى جابك ..

وقال عادل يقاطعه :

— احنا حانتجوز دلوقتى يا مدحت .. كنا مستنيينك علشان تجيب لنا المأذون وتشهد على العقد ..

وقال مدحت وهو ينظر الىّ كأنه يتصورنى مجنونة :

— مش أحسن نقول لمامتك ونبعت نجيبها ..

وقلت فى اصرار :

— ماما مش حاترضى اننا نتجوز ..

قال :

— بس لما تعرف أن المسأله وصلت للدرجه دى ضرورى حاترضى ..

وقال عادل فى حدة :

— ما فيش فايده يا مدحت يا خويا .. انت عارف عزيزه هانم .. راسها زى الحجر .. وعمرها ما ترحم حد .

وقال مدحت :

— ما هو علشان كده .. دى لو عرفت انكم اتجوزتم حاتقلب الدنيا على دماغكم .. ويمكن توديك محكمة الجنايات .. دى جباره .. أنا عارفها أكتر منك ..

وقال عادل وهو يكاد يفقد أعصابه :

— ما هو ما فيش فايده من الكلام دلوقتى .. حانتجوز يعنى حانتجوز ..

وأدار مدحت عينيه بينى وبين عادل ورأى علامات التصميم على وجهينا ، فقال وهو يبتسم كأنه يبارك حبنا :

— أنا موافق .. بس سيبونى على الأقل أقول لأمى .. علشان المسأله تبقى عائليه ، وما تبقاش اتنين هربوا مع بعض .. خصوصا ان نجوى لسه ما كملتش تمنتاشر سنه .

وقال عادل :

— وأمى حاتعمل ايه يعنى .. حاتكبر نجوى .. ولا حاتعمل ايه ..

وقلت لمدحت ..

— لو مامتك عرفت قبل مامتى .. مامتى تتجنن اكتر .

وقال مدحت وابتسامته تتسع :

— سيبوا المسأله على أنا .. أصلكم مش شايفين حاجه .. الحب مخبى عنكم حاجات كتير .. يا بختكم ..

ثم أسرع الى التليفون واتصل بأمه ، وعاد قائلا فى مرح :

— أمى حاتكون هنا بعد عشر دقائق ، وحاتحضر كتب الكتاب ..

وقال عادل :

— وافقت !؟

وقال مدحت :

— باين عليها فرحت لما قلت لها .

وجلسنا فى الانتظار ...

ولم تنقض عشر دقائق ... حتى سمعنا صوت أقدام كثيرة تقترب من الباب .. ثم .. دق الجرس ..

وارتعشت ..

لا أدرى لماذا ..

ولكنى ارتعشت .. وأحسست كأن دمائى كلها تنسحب من عروقى وتتسرب من قدمى ..

وفتح الباب ..

ووجدت أمامى أمى ..

أمى أنا ..

وجهها المكرمش القاسى ..

ومعها خالى .. وابن خالى .. وأم عادل .. وأبوه .. وشخص آخر لا أعرفه ..

ونظرت الى أمى بكل عينيها ..

لم تنظر الى أحد آخر .. لا الى عادل .. ولا الى مدحت ..

ثم تقدمت نحوى ، ونظراتها الثابتة القاسية مركزة فوق وجهى ، وقبضت على ذراعى بيد قوية ، وقالت فى صوت صارم ،

— اللا يا بنتى ارجعى بيتك ..

وحاولت أن أشد ذراعى منها .. ولكن قبضتها قوية .. وأنا ضعيفة .. منهوكة .. أرتعش .. والجميع من حولى صامتون كأنهم يشهدون موتى .. وهذا الصمت يزيدنى خوفا .. وضعفا .. وارتعاشا ..

وجذبتنى أمى ناحية الباب ..

وصرخ عادل :

— أحنا لازم نتجوز .. نتجوز دلوقتى .. خلاص ، ما فيش فايده .. لازم نتجوز ..

والتفتت أمى الى من أتوا معها ، وقالت فى ثبات :

— شوفوا انتم ابنكم ..

ونزلت بى .. ووضعتنى فى سيارة أجرة ..

وطول الطريق وهى تردد :

— يا خسارة تربيتى فيكى .. كده تعملى فى أمك يا نوجا ..

وأنا بجانبها صامتة ..

أرتعش ..

وضباب كثيف يملأ عينى ..

وما كدنا ندخل البيت حتى التفتت الىَّ قائلة فى حزمها القاسى :

— اسمعى يابت انتى .. و ..

وقاطعتها وأنا أستعين بما بقى فى من قوة لأتحداها :

— من فضلك .. أنا خلاص ما بقتش بنت ..

ونظرت الىّ بعينين متسعتين من الهلع .. وقالت فى صوت مبحوح :

— قصدكَ ايه ؟ .

قلت وأنا أستند على حافة المائدة حتى لا اقع من الانهاك :

— قصدى انى ست .. بنتك خلاص بقت ست يا ماما ..

ورفعت كفها وهوت به على صدغى ..

بكل ما فيها من قوة .. بكل ما فيها من قسوة ..

ورفعت يدى ووضعتها مكان الصفعة وأنا أنظر اليها كالمجنونة ..

وهدأت أمى سريعا .. استعادت كل أعصابها .. وقالت كأنها فكرت وانتهت الى قرار :

— وماله برضه مش حاتتجوزيه .. فاهمه انك انتى والواد بتاعك حاتجبرونى .. أبدا .. اللى عملتوه ده لعب عيال .. ما بقاش مهم اليومين دول .. عملية بسيطة وترجعى بنت تانى ..

وصرخت بكل صوتى :

— انتى مش أمى .. مش أمى .. أنا مش عايزه أعرفك .. مش عايزه أقعد معاكى .. أنا عايزه أمى .. خدينى لأمى ..

وكانت هذه هى أول مرة أواجه أمى بالحقيقة التى حاولنا أنا وهى أن نتجاهلها طول حياتى ..

وسقطت بعدها مغشيا على ..

وفتحت عينى فى اليوم التالى ، لأجد نفسى فى فراشى ، وأمى بجانبى وقد غاص وجهها المكرمش فى اللهفة .. وألم حاد أشعر به فى معدتى ، وفى صدرى .. وفى حلقى .. الم حقيقى .. الم لم أشعر بمثل قسوته من قبل .. كأن كل شىء فى مختنق

.. أمعائى مختنقة .. رئتاى مختنقتان .. حلقى مختنق .. وفى رأسى صداع .. صداع هائل ..

وتأوهت قائلة :

— ماما .. انا تعبانه ..

ومدت أمى يدها تربت على يدى قائلة فى لهفة :

— بعد الشر عليكى يا بنتى .. انشا الله أنا ..

وفى هذه الأيام رأيت هاشم لأول مرة .. الدكتور هاشم ..

لم يكن هاشم هو أول طبيب عادنى فى مرضى .. سبقه طبيب آخر تاه بين معدتى وكبدى ومرارتى ، ووصف لى أدوية كثيرة .. ومع كل دواء تسوء حالتى أكثر .. الألم يغرى كل قطعة من جسدى .. وكل عضلة فى داخلى تنقبض وتخنقنى .. تخنق قلبى .. وتخنق معدتى .. وتخنق حلقى .. كل شىء فى يتقلص ويتحول الى آلة تعذيب ..

وكنت أرفع عينى الى أمى وأقول لها فى توسل :

— ماما .. عايزه أشوف عادل .. ابعتى له خلية ييجى ..

وترد أمى دون أن تخفف لهفتها علىّ من حقدها على عادل :

— خفى انتى الأول .. وبعدين نبقى نشوف حكاية عادل ..

وأقول وأنا أهز راسى فوق الوسادة كأنى أحاول أن أتخلص من قيد حول عنقى :

— مش حااخف الا لما اشوف عادل .. هاتى لى عادل ..

وتنظر أمى الىّ فى شفقة ليس فيها صفح ، وتقول :

— عادل مش حايخففك .. عادل لو شافك حايخلص عليكى ..

وتجرى دموعى فوق خدى وأهمس :

— حرام عليكى يا ماما ..

وتميل أمى فوقى وتهمس وفى عينيها نهم لامع :

— احكيلى .. الحكايه دى حصلت ازاى ؟

انها تريد أن تعرف التفاصيل .. تفاصيل اللحظة التى أصبحت بعدها سيدة .. أو أصبحت بنتا ليست عذراء .. كل آلامها وكل لهفتها علىّ ، لم تستطع أن تتغلب على نهمها الغريب لمعرفة التفاصيل .. عن جوع خيالها الى ما يجرى بينى وبين عادل بعيدا عنها .. ما يجرى بين البنت والولد ..

واصرخ :

— مش حا احكيلك حاجه الا بعد ما اشوف عادل .. هاتى لى عادل الأول ..

وتنتابنى رعشة ..

رعشة تهز كيانى كله ..

وتأخذنى أمى بين ذراعيها وتضمنى الى صدرها بقوة ، كأنها تريد أن تعوضنى بحنانها عن حب عادل .. وبذراعيها عن ذراعى عادل .. وتهمس ودموعها تملأ تجاعيد وجهها المكرمش القاسى :

— دول عاملين لك عمل يا بنتى .. سحروا لك .. أنا عارفاها خديجه هانم .. الله يجازيكى يا خديجه يا بنت جلسن ..

واقتنعت أمى فعلا بأن خديجة هانم والدة عادل قد سحرت لى .. عملت لى عمل .. وبدأت تجتمع بمجلس ادارة جمعية نور الهدى ليبطلن السحر ، ومفعول العمل ..

وأصبحت سيدات نور الهدى يجتمعن فوق رأسى كل صباح بعد صلاة الفجر ، وكل مساء بعد صلاة العشاء .. ملتفات فى طرحهن البيضاء .. منتصبات أمام عينى كالأشباح ؛ ويقرأن القرآن ، وكثيرا من التعاويذ .. وكنت أجن .. رأسى يلتهب كالنار ، وأذناى تطنان .. والأشباح البيضاء تملأ عينى فأحس

بدوار .. واقفز من فراشى وأجرى الى أبى المشلول .. وألقى بنفسى فوق صدره ، وأنا أصرخ فى فزع .. ويشوح أبى بذراعه السليمة فى وجه أمى .. وعيناه تلمعان بكل ما بقى فيه من قدرة على الغضب والسخط .. ويخرج من حلقه أصواتا ممزقة كخوار ثور جريح على وشك أن يموت .. ثم لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك . وأمى تستطيع دائما أن تستعيدنى ، لتضعنى تحت رحمة الأشباح البيضاء ..

وحالتى تسوء أكثر ..

هل يمكن أن يفعل بى الحب كل ذلك ؟ أم هو فعلا السحر ؟

لا أدرى .. لا أدرى .. لم أعد أستطيع أن أدرى شيئا ..

وقررت سيدات جمعية نور الهدى أن يستعن بالشيخة زين لتبطل عمل السحر .. وجاءت الشيخة زين .. امرأة سمينة قوية مزججة الحواجب . وجلست فى غرفتى تحرق البخور ، وتقرأ تعاويذ لا التقط منها سوى بعض كلمات فارغة كأنها الهلوسة .. ثم وضعت تحت راسى حجابا وأقسمت أنه يبطل السحر ويجعلنى أكره عادل بعد ثلاثة مواعيد .

ثم بعد أيام عادت الشيخة زين ، واعلنت أن حالتى تستدعى أن تكتب التعاويذ على قشرة بيضة ، ثم تدفن البيضة فى قبر مهجور ..

ودفعت أمى الثمن .. وطلبت من احدى صديقاتها من أعضاء جمعية نور الهدى أن تذهب بنفسها مع الشيخة زين لدفن البيضة فى القبر المهجور ..

وبعد أيام أخرى ، عادت الشيخة زين لتعلن أنه يجب أن

أخطو فوق تراب يؤخذ من تحت رأس ميت ، لم يمض على موته سوى ليلتين ..

وخطوت فوق التراب ..

ولكن ..

حالتى تسوء ..

وقرر مجلس ادارة جمعية نور الهدى أن حالتى أكبر من قدرة الشيخة زين .. وأن العمل الذى عملته لى طنط خديجة هانم ، لابد أنه عمل نصرانى ، فلابد والحالة هذه من الاستعانة بالست فيكتوريا ..

وكل هذه الاتفاقات والأحاديث كانت تدور بجانب فراشى ، وأشترك فيها أحيانا .. وأصرخ فى وجوه الأشباح البيضاء :

— كل ده كلام فاضى .. أنا مش مؤمنه باللى بتعملوه ده .. هاتو لى دكتور كويس ..

وتردد احدى عضوات نور الهدى :

— كلام فاضى ازاى يا نوجا .. ده السحر جه فى القرآن ..

وترد أمى :

— هو أنا بخلت عليكى بالدكاترة .. أمال الأدوية المترصصه جنبك دول يبقوا ايه ؟ ..

وتستمر الاجراءات ..

وجاءت الست فيكتوريا .. سيدة عجوز قبيحة الشكل ، ولكنها خفيفة الدم .. لقد استطاعت أن تضحكنى .. وعندما ضحكت اعتقدت أمى أن الست فيكتوريا سرها باتع ..

واستطلعت الست فيكتوريا حالتى ، وقررت أنها خطيرة ، وأنها ستضطر أن تبيت ليلة معنا ، فى النصف الثانى من الشهر العربى ، عندما يبدأ القمر فى التناقص .. ثم أخذت أحد أمشاط

شعرى وحفرت عليه بمسمار بعض الرموز .. وأوصتنى أن أمشط به شعرى كل يوم سبع مرات .. وحرصت أمى على أن تنفذ هذه التعليمات بدقة .. كانت هى التى تمشطنى بالمشط سبع مرات فى اليوم ..

وفى النصف الثانى من الشهر العربى عادت الينا الست فيكتوريا ساعة الغروب .. وجلست معنا ، أمى وأنا ، تروى لنا أسرار العائلات التى استعانت بها فى طرد السحر ، أو فى عمل السحر .. وكانت تذكر العائلات بأسمائها .. وبوقاحة .. وأمى تستزيدها وأذناها منتصبتان ، جائعتان الى التفاصيل .. وأنا أغفو وأصحو لأجد الست فيكتوريا لا تزال تتحدث ، وأذنا أمى منتصبتان ..

وفتحت عينى فجأة بعد منتصف الليل فرأيت الست فيكتوريا تخلع ثيابها .. خلعتها كلها .. أصبحت عارية كما ولدتها أمها .. ثم أمسكت بشمعة وأوقدتها .. ثم خرجت الى الشرفة ، وأغلقت بابها وراءها .. وأمى تنظر اليها فى وقار وتقديس كأنها فى محراب الشيطان ..

وهمست فى ذعر :

— الحقى الست المجنونه دى يا ماما .. أحسن حد يشوفها ..

وردت أمى فى صوت يهزه التقديس :

— ما حدش يقدر يشوفها دلوقتى يا بنتى .. دى دلوقت مع الملايكه ..

وظلت الست فيكتوريا فى الشرفة الى أن بدأت خيوط الفجر تشق الليل ، ففتحت الباب وعادت الينا .. عارية .. وبقايا الشمعة مطفأة فى يدها .. وقالت وهى تبتسم فى مرح :

— خلاص يا مدام .. كله حاييجى كويس ..

ودفعت لها أمى عشرة جنيهات ..

ربما دفعت أمى فى هذه الأيام نصف ما ادخرته للسحره والمشعوذين ..

كل ذلك لأكره عادل ..

ولكنى لم أكرهه ..

انى فى كل يوم أزداد الحاحا على أمى لتتصل به ، وتدعه يحادثنى .. وأتوسل اليها أن تتركنا نتزوج ..

وهى ترفض ، بحجة أن عادل لا يصلح لى .. وتكرر على مسامعى قصصا من فضائح عادل .. وتؤكد لى أنه لا يحبنى .. ويكفى أنه خدعنى ..

وفى يوم .. قالت لى وهى تنظر فى عينى :

— اسمعى يا نوجا ، انا حا اقول لك حاجه ما كنتش عايزه اقولها لك ، الا بعد أن تخفى .. أنا مضطرة أقولها ما دام مش راضيه تبطلى سيرة عادل ..

ورفعت اليها عينين متسائلتين ..

واستطردت أمى قائلة ووجهها مصفح وعيناها واقفتان :

— تعرفى عادل اللى بتحبيه ده كان عايز يمشى مع مين ؟

وزفرت أنفاسى وقلت فى ضيق :

— مع مين ؟

قالت فى صرامة :

— مع بنت خالتك .. يعنى مع أختك ..

وقفزت جالسة فى فراشى كأنى لدغت ، وصرخت :

— كدابه .. ستين كدابه ..

وقالت أمى فى قسوة :

— طيب أنا حابعت أجيب أختــك . وتقول لك بنفســها كل حاجه ، علشان تعرفى اذا كنت كدابه ولا انتى اللى عبيطه ..

وانهمرت دموعى .. وعدت أصرخ .. وأنا أشد فى شعرى . وأضرب الوسادة بيدى :

— كدابه .. كدابه .. انتى بتكرهيه .. وعايزانى أكرهه .. انتى أهون عليكى انى أموت من انى أتجوزه .. خلاص حاموت .. حاموت .. حاموت علشان خاطرك .. علشان [illegible] منى ..

ولم تتأثر أمى ..

وأرسلت الخادمة الى الوايلية لتستدعى خالتى — أى أم الحقيقية — ومعها أختى .

أختى تكبرنى بعام واحد .. وهى جميلة .. ربما كانت أجمل منى .. وتبدو فعلا أجمل منى رغم الضيق الذى تعيش فيه ..

وتشبثت بيد أختى . وقلت لها ودموعى فوق خدى :

— وحياتى عندك يا سميرة .. قولى لى .. عادل عاكسك .. كان عايز منك حاجه ..

ونظرت سميرة الى أمى .. والى أمها .. وترددت .. ترددت طويلا .. الى أن قالت خالتى ورموشها ترتعش فوق عينيها :

— ما بلاش السيره دى يا نوجا .. انتى فى ايه واللا فى ايه ..

وقالت أمى كأنها تملى ارادتها :

— لا .. خليها تقول ..

وقالت سميرة وهى تتلعثم :

— الحقيقه انه السنه اللى فاتت لما شافنى عندكم هنا ،

نى بادور على شغل ، فادانى نمرة تليفون ، وطلب منى لمه ووعدنى انه يشغلنى فى الشركة بتاعته .. انما الحقيقه ستريحتش للطريقه اللى كلمنى بيها ، خصوصا انه ادانى التليفون وأنا خارجه ومن غير ما حد يشوفه .. وماقلتلكيش جه .. قلت خليه هو يقول لك .. انما يظهر انه ما قلكيش لغاية دلوقت ما تعرفيش ..

وقلت وأنا أشعر بضلوعى تضغط على قلبى :

— وبعدين ..

وعادت تنظر الى أمى وأمها ثم قالت :

— اتصلت بيه بعد شهرين .. وطلب انه يقابلنى .. ادانى عاد على باب الشركة ..

وصرخت :

— ورحتى ..

وقالت سميرة :

— رحت .. كنت فاكره انك عارفه .. انه تالك .. ولقيته سنينى على باب الشركة .. واول ما شافنى راح واخدنى من دى ، ونده تاكسى .. قلت له ، على فين يا عادل .. قال لى ، تعالى ، مالكيش دعوه .. واخدنى على شقه فى العجوزه ..

وصرخت :

— كدابه .. كدابه .. مش ممكن .. مستحيل .. انتم كلكم دبوا على .. عايزنى أكرهه .. عايزنى اسيبه .. مش حاكرهه .. ومش حاسيبه ..

وقالت سميرة :

— على كل حال انا من يومها ما شفتوش .. ولو انه جه ا فى الوايلية اكتر من مره .. ساعات يطلع يسلم علينا ..

وساعات يستنى قدام البيت لغاية ما انزل ، ويمشى معايا .. وغلبت أنصحه .. وأفهمه ..

وعدت أصرخ :

ــ كدابه .. مش حاصدق .. مش حاصدق ..

وقالت أمى كأنها القدر الغاضب :

ــ اذا ما كنتيش مصدقه ، خليها تكلمه بالتليفون قدامك ..

ثم جذبت آلة التليفون ووضعتها أمام سميرة ، واستطردت :

ــ خدى كلميه .. علشان تعرف انها عبيطه ومضحوك عليها ..

وخالتى ــ أمى الحقيقية ــ فى ركن من الغرفة ، تبكى بدموع صامتة ..

ورفعت أختى سميرة سماعة التليفون بيد مرتعشة .. وأدارت الرقم بأصبع أكثر ارتعاشا .. ثم جذبتها أمى ، ووضعت رأسها بجانب رأسى حتى أسمع كل ما يقوله عادل ..

وما كاد عادل يسمع صوت سميرة ، حتى صاح .. كأنه يعرف صوتها من ألف صوت :

ــ سميرة .. ازيك .. ايه أخبارك ؟

وقالت سميرة ، وهى تقرب السماعة من اذنى :

ــ ما عنديش أخبار يا عادل ..

وقال عادل فى حماس :

ــ وحاشوفك امتى ؟

وقالت سميرة وهى تنظر فى وجهى :

ــ مش حاقدر يا عادل .. بلاش نشوف بعض أحسن ..

وقال عادل كأنه صدم :

ــ ليه يا سميره .. احنا مش اتفقنا .. و ..

ولم أعد أحتمل أكثر من ذلك .. خطفت السماعة من يد رة ، وقلت وأنا أضغط بيدى الأخرى على قلبى المطعون :

ــ كده برضه يا عادل .. كده .. كده برضه .. كده ..

وسقطت السماعة من يدى ، وأنا أسمع صرخته :

ــ نوجا .. نوجا ..

والتقطت أمى السماعة التى سقطت من يدى فوق السرير ، دتها الى مكانها ..

وارتميت فوق فراشى ورأسى يدور ، وفى معدتى ألم حاد .. وكان آخر ما سمعته خالتى ــ أمى الحقيقية ــ وهى تقول :

ــ والنبى ده حرام عليكم ..

ثم غبت عن الوعى ..

وقد عرفت فيما بعد .. بعد أكثر من ثلاث سنوات .. أن كل لم يكن سوى تمثيلية ألفتها أمى ، واشتركت فى تمثيلها أختى خالتى ، بعد أن أقنعتهما أمى بأن عادل لا يصلح لى ، وانه خدعنى .. وعرفت أن عادل كان يتردد فعلا على بيت خالتى ، لكن ليسأل عن أخبارى ، يحاول أن يوسط أمى الحقيقية فى دنا ، لا ليغازل أختى ..

ولكن أيامها صدقت ..

صدقت أن عادل حاول أن يكون على علاقة مع أختى ..

وانهرت ..

انهرت كلى ..

واشتد بى المرض الذى لا اجد له دواء .. لم أعد أستطيع أن قف على قدمى .. ووجهى أصفر يميل الى الاخضرار .. وكلما نظرت فى المرآة ، بكيت ..

وقد حاول عادل فى هذه الفترة أن يتصل بى فى التليفون ،

ولكنى كنت أرفض أن أرد عليه . .كانت أمى تحمل الى آلة التلبفون عندما يتحدث عادل ، وتقول لى وعيناها فى عينى كأنها تحاول أن تسلب ارادتى :

— عادل . . .

وأهز رأسى فوق الوسادة ، وأقول بصوتى الضعيف المنطلق من تحت أثقال قلبى :

— مش عايزه أكلمه .. مش عايزه اسمع صوته .. ولا سيرته ..

وتلمع عينا أمى بالنصر ، وتقول فى سماعة التليفون :

— آسفه يا عادل يا ابنى .. نوجا تعبانه ، مش قادره تتكلم ..

ويئس عادل وسافر الى الكويت ليتسلم عمله الجديد .. وأرسل من هناك أكثر من خطاب .. لم يصلنى أى منها .. كانت أمى تستولى عليها وتخفيها عنى ..

وأنا منهارة ..

أحس أنى تيتمت .. كل قطعة منى أصبحت يتيمة .. كل قطعة فقدت أباها الذى رباها وكبرت فى أحضانه .. شفتاى يتيمتان .. نهداى يتيمان .. عنقى يتيم .. كل قطعة منى لا تدرى مصيرها بعد أن فقدت عائلها .. كل قطعة لمسها عادل تبكى لمسته ، كل قطعة سقاها بنظرته تبكى نظرته .. واحساسى باليتم يذيبنى .. والحيرة تمزقنى . الحيرة فى تصور مستقبلى .. لم أكن أتصور أبدا أن يكون فى حياتى رجل آخر .. رجل يقبلنى كما كان يقبلنى عادل .. ويلمسنى كما كان عادل يلمسنى .. ويعيش فى قلبى كما كان عادل يعيش فى قلبى .. مستحيل ..

مستحيل أن أكون لرجل آخر .. أبدا .. ان مجرد الفكرة تخنق أنفاسى ..

وأمى لا تبخل على علاجى ..

السحرة والدجالون لا ينقطعون عن البيت ..

والأطباء ..

وقد أشار أحدهم بضرورة اجراء عملية المصران الأعور .. وفرحت برأيه .. كنت أريد أن يحدث لى اى شىء يلهينى عن عذابى .. أن أنتقل من هذا البيت .. وأدخل مستشفى .. وأغيب تحت البنج .. ويفتح بطنى .. واجد نوعا آخر من الألم الذى يضيق به صدرى .. والمرضات .. وباقات الزهور .. والاهتمام الذى يحيط بى .. كل ذلك قد يلهينى عن عذابى ..

ولكن أمى ترددت فى اجراء العملية ..

تخاف على من شق بطنى .. رغم أنها لم تخف على من شق ساقى ..

وكانت قد سمعت فى هذه الأثناء عن هاشم .. أقصد الدكتور هاشم عبد اللطيف .. سمعت عنه ، وعن معجزاته ، من كثير من العائلات الكبيرة التى تعرفها وتتودد اليها .. فقررت أن تستدعيه ليقول رأيه قبل اجراء العمليية .. ولم يكن استدعاء الدكتور هاشم سهلا .. انه دائما مشغول .. ومواعيده تحجز قبلها بأسبوع أو أسبوعين ... ولكن أمى لا تعجز .. لقد استطاعت أن تصل الى عائلة صديقة لعائلة الدكتور هاشم ، واستطاعت أن تحدد معه موعدا لزيارتى عن طريق أخته ..

وجاء هاشم بيتنا ..

ورأيته لأول مرة ..

عيناه الواسعتان الطيبتان .. وجفناه المنتفخان كأنه يحمل تحتهما بلسما يكفى لشفاء الناس كلهم .. وأنفه الكبير الصامت كأنه ينوء بعبقريته .. وشفتاه المبتسمتان دائما كأنه يمسح بابتسامته آلام مرضاه .. وشعرات بيضاء منتثرة فوق راسه كأنها بريق ذكائه .. ورائحته نظيفة تفوح منه كأنها رائحة الهواء النقى ..

انه شخصية ..

شخصية ملأت البيت كله ..

ان شخصيته أراحت أعصابى واطلقت ابتسامتى بمجرد أن رايته ..

وجذب هاشم مقعدا وجلس بجانب الفراش ببساطة كأنه صديق قديم ، وقال وهو يبتسم وينظر فى عينى ليختبر صفاء بياضهما :

ـــ ازيك يا حلوه .. مش عيب تعيى وتزعلى ماما بالشكل ده ..

وقلت وأنا اتأوه :

ـــ أنا تعبانه يا دكتور .. تعبانه .. حاسه أنى مخنوقه و ..

وقاطعنى وهو يبتسم فى وجهى :

ـــ حانشوف دلوقتى ..

وقالت أمى وهى واقفة عند رأس السرير :

ـــ اعمل لك قهوه يا دكتور ..

وقال هاشم بسرعة دون أن يلتفت اليها :

ـــ مضبوط من فضلك .. بس ما تجيبهاش دلوقت .. بعدين ..

وترددت أمى قليلا .. لم تكن تريد أن تتركنى وحدى مع الدكتور .. ولم تستطع أن تهمل طلب الدكتور للقهوة ولأول مرة أحس أن شخصية أمى تهتز كأن شخصية أخرى على وشك أن تهزمها .. ثم خرجت لتأمر باعداد القهوة للدكتور ، وعادت بسرعة .. لتقف بجانبى ..

واخرج هاشم مفكرة صغيرة من جيبه ، وشد من جانبها قلما انيقا رفيعا ، واخذ يسألنى عشرات الأسئلة .. ويسجلها .. ثم اعاد المفكرة الى جيبه .. وبدأ يفحصنى .. وقد عقد ما بين حاجبيه ، كأنه يركز ذهنه كله فى أصابعه التى يتحسسنى بها .. وأصابعه رقيقة حانية مهذبة ، خيل الى أن الألم يهرب من تحتهما .. كلما لمس قطعة منى أحس انها شفيت ، واحتار ماذا اقول له .. انى أذكر ان الألم كان هنا ، ولكنى الآن لا أشعر به .. وصمت كبير يحيط بنا وهو يفحصنى .. البيت كله صامت فى خشوع .. وأمى تكاد تحبس أنفاسها .. بل خيل الى أن حى الجيزة كله قد صمت وهاشم يفحصنى ..

وانتهى هاشم من فحصى ، ونظر الى طويلا ، كأنه حائر فى .. ثم اخذ يقلب فى روشتات الأطباء الذين سبقوه فى الكشف على .. ثم هز رأسه وقال كأنه اتخذ قراره ، وابتسامته تملأ شفتيه :

ـــ اقول لك حاجة بس ما تزعليش ؟

ورفعت اليه عينين متسائلتين .. واستطرد قائلا :

ـــ انتى ما عندكيش حاجه .. كل حته فيكى سليمه وزى البمب .. كل اللى عندك تقلصات شديده فى المصارين وفى المعدة ، وفى عضلات الصدر .. نتيجة أزمة عصبية .. وضعيفة ..

ونظرت اليه كأنه كشف سرى ، وقلت :

— بس أنا تعبانه قوى يا دكتور .

وقال مبتسما :

— عارف .. الأعصاب بتتعب ، أكتر من المرض العضوى .. وأنا حاكتب لك على دوا مقوى ، ودوا يريح أعصابك .. انما الدوا مش كفايه ، لازم انتى تساعدى نفسك ..

وقالت أمى :

— يعنى ما تعملش عملية الأعور يا دكتور ؟ ..

— هى ما عندهاش الأعور .. انما لو حبت تعمل عمليه علشان تتسلى ، مافيش مانع .. بس مش دلوقتى .. بعد ما تتقوى ..

ونظرت اليه مرة ثانية كأنه قرأ ما فى رأسى ، وقلت :

— وأساعد نفسى ازاى ؟ ..

ونظر فى ساعته ، ثم ابتسم لى كأنه يربت بابتسامته على خدى ، وقال :

— أنا قدامى ربع ساعه أقدر أشرب فيها القهوه ، واشتغل لك دكتور نفسانى .. احكيلى ..

وقلت وأنا أنظر الى وجهه كأنى أبحث عن مكان أستريح فيه :

— أحكيلك ايه ؟ ..

قال فى هدوء :

— احكيلى عن آخر حاجه زعلتك ..

ونظرت الى أمى متسائلة ..

وتبع نظراتى ، ثم قال :

— بلاش ماما تقعد معانا .. عن اذنك يا هانم سيبينى مع دورى .. وابعتى لى القهوه ..

كان هاشم يتكلم ببساطة مذهلة ، رقيقة ، مهذبة ، كأنه اخى وصاحب حق علىّ .. ولم تستطع أمى أن تقاوم بساطته ترددت برهة ، ونظرت الىّ ، ثم نظرت اليه ، وقالت وهى تخرج من الغرفة :

— طيب يا دكتور .. بس على الله يكون الشفا على ايديك ..

وبقيت معه وحدى ..

وأحسست بالحرج ..

لا ادرى لماذا ..

واحترت ماذا أقول له .. احترت من أين أبدا .. ونظر الى وابتسامته لا تزال تربت على خدى ، وقال :

— تحبى أساعدك .. انتى يا ستى بتحبى واحد .. وبعدين .. كملى انتى بأه ..

وقلت وأنا أرخى أهدابى فوق عينى :

— ما كانش حبيبى بس .. كان خطيبى .. اتخطبت له من خمس سنين .. كان عندى اتناشر سنه .. و ..

وبدأت أروى له القصة كلها .

رويت له كثيرا من التفاصيل .. تفاصيل صغيرة لا تهمه وليس لها أثر فى حياتى .. ولكنى كنت أختزن الكلام طول عمرى ، فانطلقت أفرغ كل طاقتى على الكلام .. ولا أريد أن أنتهى .. وكلما تكلمت أكثر ، استرحت أكثر .. وهو يستمع فى هدوء ، وصبر ، واهتمام ، كأن قصتى تعنيه فعلا ..

أخفيت عنه أنى ابنة متبناة ..

وأخفيت عنه أنى لست عذراء ..

وأخفيت عنه أيضا أن عادل كان يغازل أختى ..

لقد حاولت الا أخفى عنه شيئا .. ولكنى لم أستطع .. لا لعدم ثقتى به .. فقد أعطيته كل ثقتى ، ولكن لأنى أحسست بالخجل .. لم أرد أن أبدو أمامه بشىء يشيننى .. ربما لأنى أحسست منذ اليوم الأول أن هاشم بالنسبة لى لا يمكن أن يكون مجرد طبيب .

وقلت بعد أن تعبت من الكلام :

— أنا حيرانه يا دكتور مش عارفه حاعمل ايه .

ونظر الى كأنه يمسح آلامى برموش عينيه ، وقال :

— ما حدش حايقدر يقول لك تعملى ايه .. لأن ماحدش يقدر يحس باللى انتى حاسه بيه .. يعنى انا عارف دلوقتى انك بتحبى عادل .. انما ما اقدرش أعرف انتى بتحبيه قد ايه .. وماأقدرش أعرف الحب ده يستحمل ايه وما يستحملش ايه .. لا أنا .. ولا مامتك .. ولا حد فى الدنيا يقدر يعرف .. انتى لوحدك اللى تقدرى تعرفى ، وانتى لوحدك اللى تقدرى تاخدى قرار ...

قلت وأنا انظر اليه مبهورة به :

— بس أنا حيرانه يا دكتور .. مش قادره آخد قرار ..

ونظر الىّ كأنه يفحصنى من جديد ، وقال :

— الحيرة بين عقلك وقلبك .. يمكن بتحبيه انما مش مقتنعه بيه ..

قلت :

— وممكن الواحده تحب من غير ما تقتنع ؟

قال :

— ممكن .. ويبقى حب مشوه .. زى المولود اللى يتولد من غير عقل .. يعيش طول عمره معتوه ..

قلت وعيناى سارحتان وراء خيال عادل :

— الحقيقه أنا مش مقتنعه بيه قوى .. اصله شقى .. وسنانه زايفه ..

ووضع الدكتور هاشم فنجال القهوة من يده ، وقال :

— المهم انك تاخدى قرار .. تاخديه بقلبك وبعقلك .. ويوم ما تاخدى القرار ده ما تخليش حاجه تقف فى سكتك .. اذا قررت انك تتجوزيه اتجوزيه مهما حصل .. واذا قررت انك تسيبيه ، سيبيه مهما حصل برضه ..

قلت كأنى أتشبث به حتى لا يتركنى :

— والألم اللى باحس بيه يا دكتور ؟

قال :

— كله من أعصابك .. أى صدمة عاطفية بتأثر على الأعصاب .. وأكتر حته بتأثر فيها الأعصاب هى الجهاز الهضمى ، ومنطقة الصدر .. ودول اللى بتتألمى منهم .. والدوا اللى كتبته لك حايرخى أعصابك .. وينيمك كويس .. انما زى ما قلت لك .. مش كفايه .. لازم تواجهى مشكلتك ، وتحليها .. خدى قرار .. واستحملى نتيجته .. وأول حاجه تعمليها دلوقتى ، انك تقومى من السرير ..

وقام واقفا ..

وبسرعة مد يده الى غطاء السرير وجذبه من فوقى ، وقال وهو يبتسم :

— قومى قدامى لما أشوفك ..

ومددت يدى بسرعة اجذب قميص نومى فوق ساقى .. وأنا

أحس بدمائى تجرى بسرعة فى عروقى وتزدحم فى وجنتى .. وقلت هامسة :

— مش قادره يا دكتور ..

وقال فى لهجة آمرة :

— لا .. تقدرى .. واندهى لماما علشان تفرح بيكى ..

ورفعت صوتى الضعيف أنادى أمى :

— ماما .. ماما ..

وكانت أمى بجانب الباب .. ربما سمعت كل كلمة قلتها للدكتور .. ودخلت قبل أن يضيع صدى ندائى . وقال لها هاشم :

— نجوى حاتقوم من السرير .. ومش عايزها ترقد فيه تانى الا لما تحب تنام .

ومدت أمى ذراعها لتعيننى على مغادرة الفراش ..

وقال هاشم فى لهجة آمرة :

— سيبيها تقوم لوحدها ..

وشدت أمى ذراعها بعيدا عنى كأن أمر هاشم قد سرى فيه ..

وقمت من الفراش ..

كان قد مضى علىّ اكثر من شهر وانا راقدة .. وأحسست بقدمى وهما تلمسان الأرض ، كأنهما تسقطان على شوك .. وشعرت بدوار .. كدت أقع .. فسندتنى أمى ، وأخذتنى فى صدرها .. وعاد هاشم يقول بلهجته الآمرة :

— قعديها على الكرسى .

وأجلستنى أمى على المقعد الذى كان يجلس عليه هاشم .. وجلس هاشم على حافة السرير .. وقرب وجهه من وجهى ، وقال :

— أسمعى يا نجوى .. انتى ضعيفه .. ضعيفه قوى .. ما تتقوى انتى معرضه لحاجات كتير .. ولازم تاخدى من نفسك كويس .. أنا ماالقدرش أعالجك من غــير ساعدينى .. كلى كويس .. ونامى كويس .. واضحكى .. رجى من البيت أول ما تحسى انك تقدرى تخرجى .. اتفسحى وشمى هواء ..

وهززت رأسى قائلة فى ضعف :

— حاضر ..

والتفت الى أمى قائلا :

— أرجوكى يا هانم .. ما تخليش نجوى تقعد لوحدها .. لها صاحباتها .. واللى بتحبهم .. واعملى لها كل حاجه هى ايزاها ..

ثم عاد الى وقال ضاحكا :

— لو ما كنتش دكتور .. كنت قلت لك اعملى زار ..

وقالت أمى وقد تهلل وجهها :

— والنبى دى الست سكينة قالت نفس الكلام .. ووصفت الزار ..

وقال هاشم وهو لا يزال يضحك :

— ما تصدقيش الست سكينه ..

ثم عاد الىّ قائلا :

— بدل الزار روحى ارقصى واسمعى مزيكه .. انتى بتحبى المزيكه !

وهززت رأسى بالايجاب وأنا أحس بدمائى تعود وتزدحم وجنتى .. وقالت أمى :

— دى طول النهار والليل فاتحه الراديو على أخره ..

وقال هاشم ضاحكا :

ــ خليه مفتوح على اخره ..

ثم مد يده الىّ وهو محتفظ بيدى فى يده :

ــ خلاص يا نجوى .. توعدينى انك تعالجى نفسك .. وانا أوعدك انك لو خففتى نفسك حا اشغلك معايا دكتوره علشان تخففى كل الناس ..

وتركنا هاشم .

تركنا بعد أن ملأ البيت حياة .. وملأنى تصميما على أن أتخلص من الحالة التى أعانيها .. وقالت أمى بعد أن أوصلته الى الباب وعادت الى :

ــ ده باين عليه دكتور شاطر قوى .. على طول عرف الى فيكى .. والنبى كان حقنا خليناه يكشف على أبوكى بالمره ..

وقلت وأنا ساهمة وراء هاشم :

ــ المره الجايه ..

وقالت أمى وهى تنظر فى وجهى كأنها لا تفهمنى :

ــ المره الجايه ليه بأه .. الراجل قالك انك ما فيكيش حاجه .. بس تتقوى ، وتنسى الحكايات اللى فى مخك .. واللا يعنى غاويه تغرمينى خمسه جنيه كمان ..

قلت وأنا لا زلت ساهمة :

ــ ده يستاهل عشره ..

وقد ارتحت يومها فعلا ..أحسست بأنى أزحت عن صدرى حملا ثقيلا .. واستطعت أن أنسى عادل لساعات طويلة .. ثم نمت نوما عميقا بعد أن تناولت حبة من حبوب « الليبرم » التى وصفها لى الدكتور هاشم ..

ولكنى فى اليوم التالى بدأت أضعف من جديد أمام قصتى مع

[illegible] .. بدأت آلاف الذكريات تدهمنى .. وأتذكر انى لست عذراء .. وأتذكر أن عادل غازل أختى .. وأتذكر أنى لن أتزوجه .. [illegible] أنى معرضة لرجل آخر فى حياتى .. وبدأت أعصابى [illegible] من جديد .. وعضلات صدرى تنقبض وتؤلمنى .. ومعدتى [illegible] كأن يدا قاسية تعصرها .. ورأسى يلتهب كالنار ..

واليوم التالى ..

واليوم الثالث ..

وانا أتألم .. اتعذب .. الاحساس بالاختناق يعاودنى ..

وصرخت فى أمى :

ــ ابعتى هاتيلى الدكتور هاشـــم .. كلميه فى التليفون دلوقتى ..

ونظرت الى أمى وقالت :

ــ ولازمته ايه بس الدكتور ..

وصرخت :

ــ ما هو يا تجيبيلى الدكتور هاشم ، يا تجيبيلى عادل ..

وامتلأت عينا أمى بالدهشة ..

ولم أكن أقصد شيئا ..

أمى فهمت أشياء لم أقصدها فى هذه الأيام ..

ربما لمحت فى عينى ، مستقبلى ..

كانت أمى مستعدة أن تفعل أى شىء لتبعد عنى شبح عادل ، فاستدعت لى الدكتور هاشم مرة ثانية .. وقد دهش هاشم عندما طلبته أمى فى التليفون .. كان متأكدا أن حالتى لا تستدعى أن يعود لزيارتى .. ورغم ذلك استسلم لالحاح أمى ، وجاء ..

وانتظرته كأنى على موعد معه .. ليس موعدا مع طبيب ، لكن موعدا مع رجل .. غيرت قميص نومى ، وارتديت قميصا

وقال هاشم ضاحكا :

ــ خليه مفتوح على اخره ..

ثم مد يده الىّ وهو محتفظ بيدى فى يده :

ــ خلاص يا نجوى .. توعدينى انك تعالجى نفسك .. وانا أوعدك انك لو خففتى نفسك حا اشغلك معايا دكتوره علشان تخففى كل الناس ..

وتركنا هاشم .

تركنا بعد أن ملأ البيت حياة .. وملأنى تصميما على أن أتخلص من الحالة التى أعانيها .. وقالت أمى بعد أن أوصلته الى الباب وعادت الى :

ــ ده باين عليه دكتور شاطر قوى .. على طول عرف الى فيكى .. والنبى كان حقنا خلِيناه يكشف على أبوكى بالمره ..

وقلت وأنا ساهمة وراء هاشم :

ــ المره الجايه ..

وقالت أمى وهى تنظر فى وجهى كأنها لا تفهمنى :

ــ المره الجايه ليه بأه .. الراجل قالك انك ما فيكيش حاجه .. بس تتقوى ، وتنسى الحكايات اللى فى مخك .. واللا يعنى لغاويه تغرمينى خمسه جنيه كمان ..

قلت وأنا لا زلت ساهمة :

ــ ده يستاهل عشره ..

وقد ارتحت يومها فعلا .. أحسست بأنى أزحت عن صدرى حملا ثقيلا .. واستطعت أن أنسى عادل لساعات طويلة .. ثم نمت نوما عميقا بعد أن تناولت حبة من حبوب « الليبرم » التى وصفها لى الدكتور هاشم ..

ولكنى فى اليوم التالى بدأت أضعف من جديد أمام قصتى مع عادل .. بدأت ألاف الذكريات تدهمنى .. وأتذكر أنى لست عذراء .. واتذكر أن عادل غازل أختى .. وأتذكر أنى لن أتزوجه .. واتذكر أنى معرضة لرجل آخر فى حياتى .. وبدأت أعصابى تتلف من جديد .. وعضلات صدرى تنقبض وتؤلمنى .. ومعدتى تنقبض كأن يدا قاسية تعصرها .. ورأسى يلتهب كالنار ..

واليوم التالى ..

واليوم الثالث ..

وأنا أتألم .. اتعذب .. الاحساس بالاختناق يعاودنى ..

وصرخت فى أمى :

ــ ابعتى هاتيلى الدكتور هاشم .. كلميه فى التليفون دلوقتى ..

ونظرت الى أمى وقالت :

ــ ولازمته ايه بس الدكتور ..

وصرخت :

ــ ما هو يا تجيبيلى الدكتور هاشم ، يا تجيبيلى عادل ..

وامتلأت عينا أمى بالدهشة ..

ولم أكن أقصد شيئا ..

أمى فهمت أشياء لم أقصدها فى هذه الأيام ..

ربما لمحت فى عينى ، مستقبلى ..

كانت أمى مستعدة أن تفعل أى شىء لتبعد عنى شبح عادل ، فاستدعت لى الدكتور هاشم مرة ثانية .. وقد دهش هاشم عندما طلبته أمى فى التليفون .. كان متأكدا أن حالتى لا تستدعى أن يعود لزيارتى .. ورغم ذلك استسلم لالحاح أمى ، وجاء ..

وانتظرته كأنى على موعد معه .. ليس موعدا مع طبيب ، لكن موعدا مع رجل .. غيرت قمص نومى ، وارتديت قميصا

من « الفيللا » ، لونه فى لون الورد الفاتح ، طويل الأكمام ، يغطى صدرى حتى رقبتى .. وطلبت من أمى أن تغير ملاءات السرير .. فرشت ملاءات لونها أزرق سماوى .. ورقدت مستندة ظهرى الى الوسائد .. وأمسكت فى يدى بمرآتى الصغيرة ، وأخذت أمشط شعرى بالمشط المسحور الذى حفرت عليه الست فيكتوريا رموزها السحرية .. ثم .. خرجت من صدرى تنهيدة عميقة ساخنة .. كأنها شياط قلبى .. ففى هذه اللحظة ، وأنا أستعد للقاء هاشم تذكرت عادل .. لا شىء يمكن أن ينزع عادل من قلبى حتى ولا هاشم ..

وكانت أمى ترقب حركاتى .. وترقب كل نظرة فى عينى .. وتبدو الدهشة على وجهها وهى ترى اهتمامى باستقبال هاشم .. ثم تبتسم دون أن تعلق بشىء .. كأنها وجدت اخيرا الدواء الذى يشفينى من عادل .. وقالت وابتسامتها تتعثر فى وجهها المكرمش :

— نعمل ايه كمان يا نوجا .. مش تفتكرى نبعت نجيب شوية شيكولاتة نقدم له منها ..

ورفعت اليها عينين غاضبتين وقلت :

— ما فيش لازمه ..

ثم ألقيت بمرآتى الصغيرة جانبا كأنى خجلت لأن أمى كشفت سرى ..

وجاء هاشم ..

الشعرات البيض فوق رأسه كأنها بريق ذكائه .. وعيناه الطيبتان .. وجفناه المنتفختان كأنه يحمل تحتهما بلسما يكفى لشفاء البشر كلهم .. وابتسامته الهادئة التى يربت بها على خدى .. ورائحة نظيفة تحيط به كأنها رائحة الهواء الطلق ..

وتعلقت بعينيه كأنى أستجير بهما من عذابى ..

وقال وابتسامته تتسع لى :

— انتى لسه راقده يا نجوى .. أنا مش قلت لك تقومى من السرير ..

وقلت وعيناى تتبعان عينيه :

— مش قادرة يا دكتور .. كل ما أقوم أحس بدوخه ..

وقال وهو يجلس على مقعده :

— انتى بتدلعى ..

وقلت كأنى أتأوه :

— أبدا والله يا دكتور .. صدقنى .. أنا تعبانه ..

وأمسك بيدى يعد نبضى .. وشد جفن عينى ليرى لونه .. وأمى واقفة على رأس السرير ، تدير عينيها بينى وبينه ، كأنها تحاول أن تقرأ ما فى رأسى وما فى رأسه ..

وقال هاشم وابتسامته لا تزال تربت على خدى :

— مش بتنامى كويس بعد ما بتاخدى الدوا ..

قلت :

— بنام كويس .. بس باقوم من النوم زى المفزوعه .. ومن أول ما اقوم من النوم باحس بالتعب .. ألم فى صدرى ، وألم فى معدتى ..

وقال وهو ينظر الىّ فى حنان كأنى ابنته :

— انا مش حاكشف عليكى تانى .. ومش حا اغير لك الدوا .. لأنك لسه ما خدتيهش

قلت كأنى أنفى عن نفسى تهمة :

— أبدا والله باخد الدوا كل يوم ..

قال :

ــ الدوا المهم انك تخرجى وتتفسحى وتضحكى ..

قلت :

ــ مش قادره يا دكتور .. ماليش نفس ..

ونظر الىّ فى حيرة .. وأحسست فجــأة كأنى أعذبه .. أحسست كأنى نادمة لأنى أتعبه معى .. صعب علىّ فى حيرته ..

وقال وهو يتنهد :

ــ مش عارف أقول لك ايه يا نجوى .. حالتك مش ممكن تخفى منها الا بارادتك .. انك تكونى قويه .. وزى ما قلتلك .. تاخدى قرار وتصممى عليه مهما كانت الظروف .. ومهما تعبت فيه ..

وأحنيت رأسى وقلت كأنى أخاطب نفسى :

ــ أصل فيه حاجات ما قلتهاش لك ..

ورفعت رأسى ونظرت الى أمى قائلة :

ــ تسمحى تسيبينا لوحدنا يا ماما ..

ونظرت أمى الىّ فى دهشة ، ولوم ، كأنهــا تؤنبنى على وقاحتى .. ثم التفتت الى هاشم وقالت كأنها تستر وقاحتى :

ــ تحب أعمل لك قهوه يا دكتور ؟

وقال هاشم وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

ــ لو سمحت ..

وخرجت أمى .. وقبل أن تصل الى الباب التفتت الىّ ، ثم التفتت الى هاشم .. كأنها توصيه بى ..

ونظر الىّ هاشم ينتظر منى أن أتكلم ..

وقلت وأنا أعبث بأصابعى فى ملاءة السرير :

ــ عايزة أقول حاجه لازم تعرفها علشان تعرف حالتى ..

وقال وهو يبتسم لى كأنى طفلة :

ــ خير ..

ورفعت اليه عينى كأنى أعده بمفاجأة كبيرة ، وقلت :

ــ تعرف ان ماما دى ، ما تبقاش ماما ..

ورفع هاشم عينيه كأنى فعلا فاجأته :

ــ ازاى ..

قلت بسرعة :

ــ دى تبقى خالتى ..

قال :

ــ ومامتك عايشه ..

قلت :

ــ أيوه .. انما فتحت عنيه لقيت نفسى عايشه مع خالتى .. لقيت خالتى تبقى أمى ..

ومسح هاشم علامات الدهشة من فوق وجهه بابتسامته ، وقال :

ــ وتفتكرى لو كنتى عايشه مع مامتك ، كانت حيــاتك اتغيرت ..

قلت :

ــ ما اعرفش .. أنا عمرى ما عشت مع ماما ..

وقال الدكتور هاشم وابتسامته تتسع :

ــ شوفى يا نجوى .. أنا مش حا اعالجك علاج نفسانى .. مش لأن ده مش اختصاصى .. انما لأنك مش فى حاجه لعلاج نفسى .. انتى مش معقده .. انتى قويه .. وشخصيتك قويه .. وظروفك كلها واضحه قدامك .. كل ما هنالك انك صدمت صدمة أثرت فى أعصابك ، وأعصابك أثرت على صحتك .. وكل اللى لازم تعمليه دلوقتى انك تستردى صحتك .. وبعد

ما تستردیها أعصابك حاتستريح وتقدرى تحلى مشكلتك .. تقدرى تاخدى قرار وتنفذيه .. تقدرى تنسى عادل .. أو تقدرى تهربى معاه .. تقدرى تعملى كل حاجه .

وقلت وعيناى معلقتان فى عينيه :

— ما أنا مش عارفه أعمل ايه .. حيرانه .. وحيرتى هى اللى تعبانى ..

قال وهو ينظر الىّ فى حنان :

— بكره حا افوت عليكى الساعه أربعه ، واخدك انتى وماما ، واخرجك من البيت ..

ونظرت اليه فى دهشة ..

ولكنى لم أصدم .. أحسست أن من حقه أن يدعونى للخروج معه .. لقد دعانى ببساطة وقلب مفتوح .. أحسست أنه بالنسبة لى أكثر من طبيب .. وكأنى أعرفه من زمن طويل .. كأنى اكتشفته فى حياتى .. اكتشفت انه كان دائما فى حياتى .. كأنه أخى .. أو ابن عمى .. وفرحت بهذا الاكتشاف .. فرحت فرحة كبيرة .. ودفعتنى فرحتى الى الاحساس بأنى شىء هام .. شخصية متميزة الى حد أن الدكتور هاشم يهتم بى كل هذا الاهتمام .. لا يمكن أن يكون هاشم يدعو كل مرضاه الى أن يصحبهم فى نزهة .. أنا وحدى .. أنا شىء آخر .

وعادت أمى تحمل له فنجان القهوة ، وقال لها وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة :

— بكره يا هانم حا افوت عليكم الساعه أربعه .. وآخدك انت ونجوى نتفسح فى العربيه شويه ..

واتسعت عينا أمى ..

ثم استراحت عيناها ، ولمعت فوق شفتيها ابتسامة ضيقة ، كأنها بدأت تفهم شيئا جديدا ..

وقالت :

— ده انت تعمل فينا جميل ما يتنسيش يا دكتور .. أصل ما حدش قادر على نجوى أبدا .. دى مجننانى ..

وشدت مقعدا وجلست بجانب هاشم وهو يرشف القهوة ..

ولأمى طريقة عجيبة فى اكتساب صداقة الناس عندما تحتاج الى صداقتهم .. انها تستطيع بسرعة أن تقنعهم بأنها ضعيفة ، وأنها حائرة ، وتثير الاحساس بأنها فى حاجة الى رجل يقف بجانبها ويساعدها على مشاكلها .. لأنها سيدة كبيرة وحيدة ، ولأن زوجها عجوز مشلول .. وبسرعة تستطيع أن تحمل من تريد مسئوليتها ، ومسئولية مشاكلها .. وتشعره أنه أصبح عضوا فى العائلة الصغيرة المكونة منها ، وأبى ، وأنا ..

واستطاعت بهذه الطريقة أن تكتسب صداقة هاشم .. وأن ترفع الكلفة بينها وبينه .. واستطاعت أيضا أن تمد نسبا بين عائلتها وعائلته .. وأخذت تحدثه عن العائلات الكبيرة التى تعرفها ، واحدة بعد أخرى ، حتى وصلت الى عائلته .. وبدأت تستخرج منها أنسابا وفروعا الى أن فاجأته بأننا .. نسايب ! ..

وهاشم يستمع فى صبر ، وابتسامته بين شفتيه .. كأنه جالس مع صديق على مقهى يقطع معه الوقت فى كلام فاضى .. وينظر الى بين الحين والآخر ، نظرة ملؤها الطيبة والحنان .. كأنه يثبت لى أنه لم ينشغل عنى بحديث أمى .. وبينى وبينه ابتسامة كأننا متفقان على أن كلام أمى ، كلام فاضى ..

الى أن فاجأته أمى قائلة :

— انما قول لى يا دكتور ، انت ما تجوزتش لغاية دلوقتى ليه ؟

واحمر وجهى كأن أمى جرحتنى ..

لا ادرى لماذا .. ولكنى أحسست أن هذا السؤال يمسنى ، ويجرحنى ..

وقال الدكتور هاشم ، وهو يضع فنجال القهوة من يده :

— يمكن ما لقتش لغاية دلوقتى اللى تقنعنى بالجواز ..

وقالت أمى :

— لا مالكش حق يا دكتور .. ده ..

وقبل أن تتم كلامها قام هاشم واقفا وهو يقول :

— تسمحى لى يا هانم .. ميعاد العياده قرب ..

وفزعت أمى من فوق مقعدها قائلة :

— ده أنا كان نفسى تكشف على البيه جوزى ..

ونظر هاشم فى ساعته وقال :

— حاضر ..

ثم التفت الىّ وعيناه مبتسمتان ، كأنه يقول لى ان كل ما يحدث له من تحت رأسى ..

وصحبته أمى الى غرفة أبى ..

وسرحت قليلا ..

ثم فجأة وجدت نفسى أنزع الغطاء من فوقى وأجرى خلفهما وأنا بقميص النوم حافية القدمين .. كأنى لم اكن أستطيع أن تفوتنى لحظة أرى فيها هاشم .. وكأنى تخلصت من ضعفى ومن ضيقى ، من ألم التقلص الذى كان يخنق كل قطعة من جسدى ..

ورفع هاشم رأسه من فوق قلب أبى ، ورآنى واقفة أمامه فابتسم ابتسامة كبيرة فرحة .. ثم رآنى فى قميص النوم فخفض

بصره بسرعة ، وخيل الىّ أنى لمحت لمسة حمراء تطوف بوجنتيه ..

وأتم هاشم فحص أبى ..

وأقر علاج الأطباء الذين سبقوه ..

وصافحنى وهو يقول مبتسما :

— بكره حا اشوفك يا نجوى .. وما ترجعيش السرير تانى الا ساعة ما تيجى تنامى ..

ورفض أن يأخذ أتعابه ، وقال لأمى وهى تلح عليه :

— احنا خلاص بقينا عيله واحده ..

وخرج ..

وعينا أبى تبتسمان خلفه ، وتهتهات خافتة تخرج من شفتيه المشلولتين ، كأنه يباركه .. لقد أحبه أبى ..

وأنا واقفة كالمسطولة .. أحاسيس كثيرة تنتابنى ، لا أدرى سببها ولا أدرى حقيقتها ..

ولم أعد الى فراشى ..

بقيت أدور فى البيت .. ولا أزال مسطولة .. وأجد نفسى أفكر فى هاشم ، فأحس انى سخيفة .. لا يمكن أن يتجه تفكيرى اليه فى هذا الاتجاه ، لمجرد أنه طبيب طيب القلب كل ما يحاوله أن ينقذنى من أزمتى ، ويساعدنى على أن أسترد صحتى .. ليس من حقى أن أفسر تصرفاته بأكثر من هذا .. وأبعد هاشم عن تفكيرى وأنصرف الى التفكير فى عادل .. خيل الى أنى أصبحت أفكر فى عادل حتى لا أفكر فى هاشم .. وأصرخ فى أمى :

— وحياتى عندك .. انشاء الله تعدمينى .. قولى لى الحقيقة .. عادل ما بعتش جوابات ؟

وترد أمى وهى تتشاغل عن النظر فى عينى :

— ما بعتش ..

واعود أدور فى البيت .. أفتح الراديو .. ثم أغلقه .. وأفتح كتبى المدرسية .. وأحاول أن أذاكر .. ثم ألقى بها على مدى ذراعى .. ثم أجد نفسى أعود لأفكر فى هاشم .. وأشعر بسخافتى .. وأشعر أنى أحلم بشىء لا يمكن أن يتحقق .. شىء كبير .. شىء غال .. لا يمكن أن يكون من نصيبى ..

وأمى ترقبنى بعينين يقظتين كأنها تخنق كل حركة من حركاتى ..

وأخذتنى فى حضنها فى المساء وأخذت تحدثنى عن الدكتور هاشم .. حديثا يبدو عاديا .. ولكنى أعلم خبث أمى .. انى أفهمها جيدا ، كما تفهمنى جيدا .. انها تحاول أن تضع هاشم فى قلبى مكان عادل .. وتثير به أحلامى .

وقالت :

— انما تفتكرى الدكتور هاشم عنده كام سنه ؟ ..

قلت وأنا أدير لها ظهرى :

— ما اعرفش ..

قالت كأنها لن تكف عن الحديث عنه أبدا :

— ده راجل فى عزه .. ولا باين عليه سن .. وعيله .. ومركز .. وغنى .. يا بخت اللى تتجوزه .

وتركتها تهرف ..

وتناولت حبة « الليبرم » وحاولت أن أنام ..

نمت نوما متقطعا رغم « الليبرم » ..

وفى اليوم التالى ..

جاء هاشم ..

كنت أريده الا يجىء .. كنت أريد أن أقنع نفسى بأن كل ما تخيلته كان مجرد حلم ومضى .. ولكن الطبيب جاء لينقذ مريضته

.. ويذكرنى بأحلامى .

وارتدت أمى البالطو الأسود ، ووضعت فوق رأسها العمامة أو « التيربون » الأسود . وهو الزى الذى تخرج به دائما ..

وارتديت أنا ثوبا أحمر .. أكمام طويلة وصدر مقفول .. لعل اللون الأحمر يخفف من هزالى واصفرار وجهى ..

واختارت أمى المقعد الخلفى ، قبل أن يختاره لها أحد ..

وتركتنى أجلس بجانب هاشم ..

واتجهنا الى طريق المعادى .. وهاشم يتحدث طول الطريق .. ويحرص على أن يوزع الحديث بينى وبين أمى ، بل كان يتعمد ان يتجه بحديثه الى أمى أكثر مما يتجه به الىّ .. كمظهر الأدبه ، ورقته .. وكان مرحا ، منطلقا .. أضحكنى كثيرا .. نسيت فى ضحكاتى كل حيرتى فى أحاسيسى نحوه .. بل انه أضحك أمى أيضا ، التى لا تضحك الا نادرا ..

وفجأة انقطعت ضحكتى ، كأنها اصطدمت بصخرة كبيرة صرعتها ..

تذكرت شيئا ..

شيئا كان مركونا فى جانب عقلى ، ولم أشعر بأهميته أبدا وأنا أفكر فى عادل .. ولكنى الآن وأنا بجانب هاشم ، أشعر به كبيرا بشعا كأنه شق مفتوح يمتد فى جسمى كله ، من أول عنقى الى قدمى ...

تذكرت انى لست عذراء ..

ماذا يعنى هذا ؟

لا شى ..

لا شىء بالمرة ..

لا شىء جديد يبدو على وجهى ، أو على جسمى .. لم

تتغير مشيتى ، ولم تتغير رنة صوتى ، ولم يتغير منطق تفكيرى ... لا شىء حدث لى . لم اكن فتاة فاضلة ، واصبحت غير فاضلة .. لم أكن فتاة صغيرة وأصبحت كبيرة .. انى لا أحس باحساس المرأة .. لا أعرف ما هو احساس المرأة .. أحاسيسى الجسدية لم تتغير .. لا شىء .. لا شىء ..

ورغم ذلك فانى لا استطيع أن أقنع نفسى بأنى لم أتغير . ان احساسا جديدا ينتابنى .. احساسى بأنى فتاة ليست عذراء .. أو هو احساسى بأنى فتاة ناقصة .. لست كباقى البنات .. ربما لم يعد من حقى أن أرتبط بهذه الارتباطات البريئة الساذجة التى تجمع بين الأولاد والبنات .. لا يمكن أن تقوم بينى وبين هاشم ، علاقة بريئة .. انى امرأة .. لست فتاة ..

ووجدت نفسى أطل من نافذة السيارة وأتتبع كل بنت ألمحها فى الطريق .. واتساءل ، هل هى عذراء .. أم هى مثلى .. وخيل الى فى لحظة أن كل البنات عذارى .. حتى السيدات الكبار عذارى .. أنا .. أنا وحدى التى ليست عذراء ..

والتفت الى هاشم كأنى اهم أن أكشف له عن سرى .. مرت بى لحظة قررت فيها فعلا أن أصرح له بأنى لست عذراء ..

ولكن لسانى تخشب فى حلقى ..

ولكن لماذا اصرح له ؟ ..

ان احدا لا يعلم سوى أمى وعادل .. فان عادل لم يطلع أحدا على ما حدث بيننا ..

وأمى تقول ان ما حدث لا يهم .. عملية صغيرة بسيطة ، واعود عذراء .

وبصرف النظر عن العملية ، فانى لم أفقد الأمل بعد فى زواجى من عادل ..

فلماذا أفضح نفسى ..

ثم أن هذا الموضوع ليس مشكلتى .. ان مشكلتى هى زواجى من عادل فلماذا أطلع هاشم عليه .. وما يستطيع هاشم أن ينصحنى به ..

ولكن لماذا أخفى هذا الموضوع بالذات عن هاشم .. ربما لأنى أخشى أن أسقط من عينه .. أخشى أن ينظر الى نظرة جديدة .. نظرة الرجل الى فتاة ليست عذراء ..

ما هذا الهراء .. لماذا اتعب نفسى .. ثم من هو هاشم بالنسبة لى .. انه لا شىء .. لا شىء .. مجرد طبيب طيب القلب يعالجنى .. فلماذا أخلق فى حياتى مشكلة بسببه ... ولماذا انقاد الى خيالات وأحلام ، ستبقى دائما مجرد خيالات وأحلام ..

وزفرت أنفاسى فى ضيق ..

وسمعت صوت هاشم الملىء الكسول ، يقول لى :

— مالك .. سرحانة فى ايه ؟ ..

والتفت اليه وقلت وعلى شفتى ابتسامة مهتزة :

— ولا حاجه ..

وقال وهو يبتسم فى اشفاق :

— أنا عارف انتى سرحانه فى ايه ؟

وابتسمت ابتسامة مسكينة ..

وبعد قليل أوقف هاشم السيارة على كورنيش النيل ، وهو يقول :

— ننزل نتمشى شويه ؟

ثم التفت الىّ وقال :

— علشان ما يبقاش لك حجه ..

ونزل من السيارة ..

وفتح الباب لأمى أولا .. ثم فتح الباب لى ..

ومشينا قليلا .. وأنا أشعر بأن التقلصات التى أعانى منها بدأت تذوب فعلا .. أشعر بعضلات صدرى مرتاحة .. ومعدتى مرتاحة .. ورغم أن خطاى كانت مهتزة من ضعفى ، الا أنى أتعب من المشى .. وصدرى منشرح .. أصبحت كل مشكلتى متجمعة فى عقلى وحده ..

ووقف بنا هاشم يطل على النيل ..

وترددت أمى قليلا ثم قالت :

— انتم حا تقفوا .. طيب انا حامشى شويه .. ألين ركبى ، دنا بقالى شهر ما خرجتش من البيت ..

وتركتنا أمى ومشت وحدها ..

ولم تكن سليمة النية ..

انى أعرف أمى ..

لقد أرادت أن تتركنى وحدى مع هاشم .. تعمدت أن تتركنى له .. حتى تقرب بيننا .. وربما خيل اليها فى هذه اللحظة أن هاشم سيصارحنى بحبه .. وأصارحه بحبى .. ويقبلنى وأقبله .. وينتهى موضوع عادل .. ويبدأ موضوع هاشم .. هذه هى طريقة تفكيرها .. انى أعرفها ..

واستند هاشم على سور الكورنيش ثم قفز جالسا على العمود الحجرى .. قفز فى رشاقة .. كأنه لا يزال فى العشرين من عمره ..

ووقفت بجانبه أكاد ألتصق به ، وأنا أحس بنفسى بجانبه صغيرة .. صغيرة .. لست صغيرة فى حجمى ، ولكن صغيرة فى شخصيتى ..

وأسقط هاشم نظراته فوقى ، وهو جالس أعلى منى ، كأنه يسقط على دشا من الحنان يغسل به قلبى .. ثم قال :

— خدتى قرار فى مشكلتك ؟

ورفعت اليه عينى ، وقلت :

— أبدا .. لسه محتارة ..

قال :

— أنا عارف انه صعب .. ناس كتير بتحتار حيرتك .. مشكلتك مش مشكلتك انتى لوحدك .. مشكلة ناس كتير .. ساعة ما القلب يبقى فى ناحية ، والعقل فى ناحية .. يبقى من الصعب ان الواحد يستريح ، أو ياخد قرار ..

وخيل الى ساعتها أنه يتحدث عن نفسه ..

فى صوته رنة أسى وضيق ..

وقلت له وأنا أنظر فى عينيه أحاول أن أكتشف سره :

— لو كنت انت محلى يا دكتور .. كنت عملت ايه ..

وابتسم ابتسامة ساخرة ، يسخر بها من نفسه ، وقال :

— أنا محلك فعلا ..

قلت فى دهشة :

— ازاى ؟

قال وهو يشكو لى همه :

— أنا كمان باعرف واحده ومش مقتنع بيها .. بقالى أر سنين باعرفها ، ولغاية دلوقت مش عارف أحدد موقفى منها .. مش قادر أسيبها ، ومش قادر أفضل معاها .

قلت وقد أحسست فجأة أنى كبرت .. أصبحت أكبر منه .. كأنى أمه . واحساس باللهفة عليه ينتابنى :

— بتحبها ؟ !

قال وهو يلتفت برأسه الى النيل ، ويغرق نظرته فى مياهه ، كأنه يحاول أن يكتشف أعماقه :

— مش عارف .. ساعات بيتهيألى انى باحبها ، يرجع عقلى يقول لى انى مش ممكن أكون باحبها .. لما أكون بعيد عنها أبقى عايز أشوفها ، ولما أكون معاها أبقى عايز أهرب منها .. مش عارف .. مش عارف .. كل اللى أنا متأكد منه هو احساسى بأنى مسئول عنها .. ويمكن ده الاحساس الوحيد اللى رابطنى بيها ..

قلت له وعقلى يتخيل مختلف الصور :

— مسئول عنها ازاى ؟

قال :

— مسئول عن غلطتى معاها .. مسئول عن أول يوم شفتها فيه وخرجت معاها ، وضعفت قدامها ..

وقفز الى ذهنى ما جرى بينى وبين عادل يوم ذهبت مع عادل الى شقة أخيه .. يوم أصبحت بنتا ليست عذراء .. هل حدث نفس الشىء بين هاشم وفتاته .. وقلت له ورموشى ترتعش فوق عينى :

— هى بنت زيى كده ؟

قال مبتسما :

— لأ .. أكبر منك بسبع سنين .. وكانت متجوزه ومطلقه ..

واسترحت ..

لا أدرى لماذا استرحت .. ربما لأنى كنت أريد أن احتفظ لهاشم بمكانة اكبر من بقية الرجال بما فيهم عادل .. وقلت وأنا أبتسم فى سذاجة ، محاولة أن أكون السيدة الكبيرة العاقلة التى تحل له مشاكله :

— وما تتجوزهاش ليه .. يمكن أما تتجوزها تستريح ..

قال :

— مش ممكن .. لأنى مش مقتنع بيها .. زى ما انتى مش مقتنعه بعادل ..

واحنيت رأسى وقلت :

— أنا كنت مقتنعة خالص بيه .. انما الحاجات اللى عرفتها عنه طيرت اقتناعى .. وأهلى كمان مش موافقين .. كل أهلى .. امى اللى عايشه معاها ، وأمى التانيه .. وأبويا اللى مربينى ، وأبويا الحقيقى .. كلهم .. كلهم .. ماحدش موافق أبدا ..

قال وهو يبتسم ابتسامته الهادئة :

— لو كنتى مقتنعة بيه ، كنت اتجوزتيه حتى لو كانوا أهلك مش موافقين ..

قلت كأنى اخاطب نفسى :

— وسافر .. سافر الكويت ..

قال :

— برضه كنتى اتجوزتيه ..

وبقيت صامتة ، وعقلى سارح ..

واستطرد :

— اللى عايز اقوله لك .. انك مش مظلومة .. ومش ضحية .. ومامتك مش السبب .. لو كنتى انتى مقتنعة بالجواز .. كان زمانك هربتى له .. كان زمانك كسرتى الدنيا علشان توصلى له .. النهارده ما فيش بنت ما بتعملش اللى هى عايزاه خصوصا فى مسألة الجواز .. وانتى قويه .. وذكيه .. مش ناقصك حاجه .. لكن مش مقتنعه ..

هل هذا صحيح ..

لا أدرى ..

ولكنى لا أحس بأنى أريد أن أهرب من بيتى ومن أمى لأتزوج عادل .. لقد أصبحت مترددة .. أصبحت أخاف من عادل .. لا أثق به .. انى فعلا غير مقتنعة به .. ولكن هل برئت من حبه .. لا .. لا أظن .. انه لا يزال يعيش فى قلبى .. ويعيش فى جسدى .. انه الرجل الوحيد الذى وهبته هذا الجسد .. ولا أستطيع ، حتى اليوم ، أن أتصور رجلا آخر يلمسنى ..

ولم اتكلم .. بقيت صامتة ..

وقال هاشم كأنه يرد على خواطرى :

— متهيأ لى إن مش كل حب ينفع للجواز .. الجواز يعنى هدوء ، واستقرار ، وأولاد ، ومستقبل ، ومحتاج لحب يساع ده كله .. انما فيه حب مجنون ما يستحملش الاستقرار ، ما يقدرش عليه .. حب ناقص .. تعرفى أنا ما اتجوزتش الست اللى قلت لك عليها ليه .. لأنى مقدرتش أحترمها .. عمرى ما احترمتها .. عمرى ما حسيت إن عندها كرامة علشان أحترمها .. والحب اللى ينقصه الاحترام ، مش ممكن ينفع للجواز ..

وقلت وانا ساهمة :

— ده صحيح ..

ومرت بيننا فترة صمت ، وكل منا ينظر فى صفحة النهر الكبير ، كأنه يغرق فيه مشاكله ..

وفجأة رفع هاشم رأسه ، كأن جرس منبه رن فى صدره .. ونظر فى ساعته .. وقال مبتسما :

— ميعاد العياده جه ..

ثم ضحك قائلا :

— احمدى ربنا انك ما حبيتيش دكتور .. كان عكننن عليكى فى ساعته بالعيانين بتوعه ..

ورفعت اليه عينى وفيهما نظرة لوم .. ثم قلت وأنا أبعد عينى عنه وابتسامة خجلة فوق شفتى :

— ليه . . فيه دكاتره كل البنات تتمنى تحبهم ..

وابتسم هاشم ..

وخطونا نحو السيارة ..

وفجأة وقفت ورفعت اليه وجهى ، وقلت فى رنة اصرار كأنى طفلة صغيرة مدللة :

— أقدر أعرف اسم البنت اللى بتحبها ..

ورفع هاشم حاجبيه دهشة ، وأطلت ابتسامة حائرة من تحت أنفه الكبير ، وقال :

— ليه ..

قلت وأنا ابتسم :

— نفسى اعرف البنت اللى ممكن يحبها الدكتور هاشم يكون اسمها ايه .. أول اسمها بس ..

وتردد قليلا ثم هز كتفيه ، وقال :

— اسمها أمينه ..

وأحسست انه اسم عادى ، لا يمكن أن يعبر عن شخصية متميزة يحبها الدكتور هاشم ، وقلت فى صوت خافت :

— اسم حلو ..

ونظر الى هاشم وقال وكأنه يعتذر لأمينة :

— أنا قلت لك حكايتى معاها علشان تعرفى إن مشكلتك مش مشكلتك لوحدك .. وان راجل زيى عنده أربعين سنه واقع فى نفس المشكله ومش عارف يحلها .. وكل ده علشان ترتاحى ، وأعصابك تهدى ، وصحتك تبقى كويسه ..

وقلت :

— أنا عارفه يا دكتور .. ومش حانسى أبدا .. ربنا يخليك لى ..

وكانت أمى قد عادت مقبلة علينا ، وعلى شفتيها ابتسامة صغيرة ، ووجهها ترتسم عليه براءة مزيفة .. وعيناها مسلطتان على وجهى ، تحاول أن تعرف كل ما حدث .. كل التفاصيل ..

واستقبلها هاشم وابتسامة كبيرة على فمه قائلا :

— خلاص يا هانم .. اعتبرى نجوى خفت خلاص .. بس كل يوم لازم تخرج تتفسح ..

وقالت أمى كأنها تحاول أن تضع فى كلامها معنى خفيا :

— البركة فيك يا دكتور .. دى ما بقتش بتسمع كلام حد الا كلامك ..

وعدنا ..

وكنت أميل الى الصمت فى طريق العودة ..

وكنت قد بدأت أشعر بالضعف يعاودنى ..

ركبتاى مخلخلتان .. وتقلصات فى معدتى .. وصدرى يضيق ..

ولكنى لم اشك ..

وأوصلنا الدكتور هاشم الى باب البيت ، وخرج من سيارته ليصافحنا ، وألحت عليه أمى أن يصعد ليتناول فنجالا من القهوة أو الشاى .. ولكنه اعتذر فى رقة .. واحتفظ بيدى فى يده فترة طويلة .. أحسست خلالها كأن يدى التصقت بيده لا تريد أن تفارقها .. وقال وهو يربت على خدى بابتسامته :

— خلاص يا نجوى .. حاتبقى كويسه .. مش عايز أسمع تانى انك عيانه ..

وقلت كأنى أودعه الوداع الأخير ، وصوتى حزين :

— باذن الله يا دكتور ..

وعاد الى سيارته ..

وقد ابتعد هاشم عنى فعلا .. ابتعد طويلا .. مرت شهور كثيرة قبل أن أراه مرة ثانية .. وقبل أن تبدأ قصتى معه من جديد .

وجذبتنى يومها أمى وصعدت بى الى البيت فى خطوات سريعة ولهفتها تتقدمها ..

وكنت أعرف سر لهفتها ..

تريد أن تعرف التفاصيل ..

وتدللت عليها .. أخذت أخلع ثيابى فى بطء .. وهى جالسة أمامى دون أن تخلع ثيابها تسألنى :

— قولى لى يابنتى ، ربنا يهدى سرك ، كنت بتحكوا فى ايه ..

قلت وأنا مديرة لها ظهرى :

— ولا حاجه ..

قالت فى حدة :

— ولا حاجه ازاى بس .. ده انتم ما بطلتوش كلام ..

قلت فى برود :

— كنا بنتكلم عن عادل ..

وخبطت على صدرها قائلة :

— عادل !! يا خيبتك .. يا خيبتك .. وده موضوع تكلمى فيه الراجل .. انتى مش شايفاه طول الوقت بياكلك بعينيه ..

والتفت اليها فى غضب :

ـــ من فضلك ما تقوليش كده يا ماما .. هو كل راجل يبص لى يبقى حايكلنى بعنيه .. انا ما شفتش فى عنيه غير طيبته ورقته .. ده الدكتور هاشم حاجه تانيه ..

وصاحت أمى :

ـــ ولا حاجة تانيه ولا تالته .. احلفلك ميت حلفان انه معجب بيكى ..

وقلت كأنى أصدمها :

ـــ أحب أقولك انه بيحب واحده ..

ونظرت الىّ أمى كأنها لا تصدقنى .. ثم خفت حماستها مرة واحدة ، وقالت فى صوت خافت :

ـــ وجبتى منين الكلام ده ..

قلت :

ـــ هو اللى قال لى .. واسمها أمينه ..

قالت :

ـــ أمينه ايه ؟

قلت :

ـــ ما اعرفش .. ما قاليش ..

وقالت امى وهى تمصمص شفتيها :

ـــ يمكن ..

وسكتت كأنها تفكر فى خطة جديدة .

وقلت لها كأنى اغيظها :

ـــ انتى عارفه ان عنده أربعين سنه ..

قالت :

ـــ ولا باين عليه ..

قلت كأنى لم أسمعها .. كأنى أخاطب نفسى :

ـــ يعنى أكبر منى بواحد وعشرين سنه ..

قالت :

ـــ وده يفرق ايه .. ده انتى كنتى واقفه جنبه زى ما تكونوا متجوزين بقالكم سنين .. لايقين على بعض زى تفاحه وانشقت نصين ..

وابتسمت لها كأنى أسخر منها ومن عقليتها ..

ولم تكف أمى عن الحديث عن هاشم .. ظلت تتحدث عنه طول الليل .. ولم أكن أستمع لها .. ولم أكن متضايقة من حديثها .. وكانت تحاول أن تقنعنى بأن هاشم معجب بى .. وتقارن بينه وبين عادل .. وتصعد بهاشم الى السماء وتخسف بعادل الأرض .. وكنت أنا سرحانة .. أفكر فى اتجاه مختلف تماما عما تقوله أمى .. كنت متأكدة أن هاشم ليس معجبا بى .. ليس الاعجاب الذى تعنيه أمى .. ربما كان معجبا بى كفتاة رقيقة ضعيفة قرر أن يساعدها فى أزمتها .. ولكن لا أكثر من ذلك .. وكنت اقاوم كل ما فى خيالى من أحلام متعلقة بهاشم .. كنت أعرف أنه الرجل الوحيد الذى استطاع أن يثير أحلامى بعد عادل .. وربما كان الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحل فى قلبى مكان عادل .. بل انى كنت أفكر فيه بطريقة أخرى غير التى تعودت أن افكر بها فى عادل .. طريقة قد تقودنى الى نوع آخر من الحب .. حب اكبر وأعمق وأكثر استقرارا .. ولكنى يجب أن أقاوم اندفاعى فى هذه الأحلام .. انى ذكية وأستطيع

أن أقدر أنها أحلام لا يمكن أن تتحقق .. أين أنا من هاشم .. ماذا فى حتى يحبنى .. ثم انه يحب فتاة أخرى ..

ورنت فى أذنى كلمة هاشم « الحب اللى ينقصه الاحترام مش ممكن ينفع للجواز » .. ترى هل يمكن أن يحترمنى هاشم لو علم أنى لست عذراء .. وهل يمكن أن أجعله يحترمنى لو أحبنى وهو يجهل أنى لست عذراء ..

ولكن لماذا انساق وراء كل هذه التفاصيل ..

من قال ان هاشم يحبنى ..

أو أنى أحب هاشم ..

وأمى تقول كأنها تخطرف فى نومها :

— صدقينى .. ما تبقيش عبيطه .. الدكتور هاشم معجب بيكى .. ما تضيعيش راجل زى ده من ايدك .. دى فرصة .. اعقلى يا نوجا .. وسيبك من لعب العيال بتاع سى عادل ده ..

وأدرت لها ظهرى .. وأنا أشعر بسخافتها .. بل أشعر بالاشمئزاز منها .. دكتور جاء ليعالجنى وبلغ من اهتمامه بى أن صحبنى فى نزهة قصيرة ، وبدل أن تشكر نبله ، تحاول اصطياده .. شىء مقرف ..

وتناولت حبة « الليبرم » وحاولت أن أنام ..

وقمت من نومى عصبية .. ضعيفة .. منهكة .. أريد أن أتحرك أن أخرج .. أريد أن أتلهى عن أفكارى وخواطرى ..

وفكرت أن أذهب الى المدرسة .. كان يجب أن أذهب الى المدرسة .. فأنا أستعد لنيل الشهادة الثانوية العامة .. ولم يبق على الامتحان الا شهور ..

ولكننى جبنت ..

أحسست أنى لست قوية الى حد أن أواجه زميلاتى .. خيل الى أن كل من تنظر الى ستكتشف فى الحال أنى لست عذراء .. وخيل الىّ أنى لن أحتمل أن أبقى وأنا لست عذراء وسط مئات البنات العذارى .. لن أستطيع أن أجرى مثلهن .. ولن أستطيع أن أمرح مثلهن .. ولن أستطيع أن اتكلم كلامهن ..

ولم أذهب الى المدرسة ..

وصرخت فى أمى :

— ماما .. عايزه أخرج ..

وقالت أمى :

— تروحى فين ؟

قلت :

— ما اعرفش .. عايزه أخرج والسلام ..

قالت :

— طيب مش نكلم الدكتور هاشم فى التليفون الأول ..

وصرخت :

— أوعى تكلميه .. لو كلمتيه حارمى نفسى من الشباك .. انا مجنونه .. وانتى عارفه انى مجنونه ..

وقالت أمى فى دهشة :

— ليه بس يا بنتى ..

وعدت أصرخ :

— أهو كده والسلام .. أنا عايزه أخرج لوحدى ..

والتمعت القسوة على وجه أمى المكرمش ، وقالت فى حدة :

— الا دى .. أظن عايزه تخرجى لوحدك علشان تهربى مره تانيه .. من هنا ورايح ما فيش خروج الا رجلى على رجلك ..

انشاء الله حتى تكونى رايحه كباريه ، برضه معاكى .. انتى لسه بتقولى انك مجنونه .. ما فيش مجانين يخرجوا لوحدهم .. ومن يومها ..

لم أعد أخرج الا وأمى معى .. رجلى على رجلها ..

وقد ذهبنا معا الى بعيد .. الى العن من « الكباريه » ..

سرنا معا طريقا طويلا ..

طريق اليأس ..

— ٢ —

فكرت أمى بسرعة ، ثم قالت وهى تنظر الى بعينين تائهتين كأنها ترى بهما مستقبلا يحيرها :

— قومى نروح عند زيزى ..

وكانت زيزى ابعد ما يمكن أن يخطر على بالى فى الحالة التى كنت أعانيها .. لقد كان كل ما أفكر فيه أن أتصل ببعض صديقاتى وأنزل معهن لنطوف بالدكاكين ، أو نجتمع فى بيت واحدة منهن لنتبادل قصص حبنا .. صديقات فى مثل سنى .. قلوبنا تدور فى دوائر متشابهة ، وعقولنا تنطلق فى افق واحد .. أما زيزى فهى شىء آخر .. انها سيدة متزوجة .. زوجها يعمل فى وظيفة كبيرة فى بنى سويف ، وهى تقيم فى القاهرة وحدها .. حرة .. منطلقة الى ابعد حدود الانطلاق .. والناس يتحدثون عنها ، ويروون عنها قصصا عجيبة .. وتعيش فى مستوى أعلى من المستوى الذى يمكن أن يوفره لها زوجها ، أو عائلتها .. انها تملك سيارة كبيرة شيفروليه ..وسيارة أخرى

سفيرة لأولادها .. وتسكن فى شقة فاخرة بمصر الجديدة .. وتشترى ثيابها بالدستة .. معروف عنها انها مسرفة الى حد الجنون فى اقتناء الثياب .. والناس تتحدث .. ولكن زيزى لا تهتم بكلام الناس ..

وكانت أمى تعرف زيزى من زمن طويل .. وتعرف أمها واخواتها .. وربطت بيننا وبينهم بصلة نسب كعادتها .. تمد فروع العائلة لتصل الى كل من تريد أن تصل اليه ..

وكانت أمى معجبة بزيزى اعجابا خفيا ، لا تعبر عنه الا نادرا .. كانت تعتبرها سيدة شاطرة ، استطاعت أن تلعب بالرجال ، وأن تستخدمهم ليوفروا لها الحياة الفخمة الهنية التى تعيشها ..

ان أمى تؤمن بأن دور المرأة فى الحياة هو أن تستغل الرجال .. ولا شىء أكثر .. لا تؤمن بأن هناك ما يمكن أن تقدمه المرأة الا جسدها .. وأن عليها أن تساوم على هذا الجسد لتحصل على اكبر ثمن .. حتى الزواج .. ليس له معنى عند أمى ، الا معنى الشراء والبيع .. ولهذا كانت أمى معجبة بزيزى .. لأنها تستطيع أن تساوم ، وتستطيع ان تحصل على ثمن كبير ..

وسيدات جمعية نور الهدى ، كن أيضا معجبات بزيزى ، لانها تتبرع للجمعية كثيرا .. ولأنها تلجأ اليهن فى أعمال السحر التى تحتاج اليها بين الحين والحين ..

ولكن أمى كانت حتى تلك الأيام ، تبقينى بعيدا عن زيزى .. لم تكن تنفرنى منها .. ولكنها لم تكن تشجعنى على الاختلاط بها .. لذلك دهشت عندما اقترحت أمى أن نذهب الى زيزى .. ونظرت اليها وأنا أبحث فى وجهها لعلى اكتشف سرها وقلت :

— اشمعنى زيزى ..

وقالت أمى وهى تخفى عينيها عنى :

— أصلها ست دمها خفيف .. يمكن تضحك وتنسيكى اللى انتى فيه . وكمان ناخد رأيها فى حالتك .. دى ست بتفهم ..

وهززت كتفى وقلت بلا مبالاة :

— مافيش مانع ..

وقمت أرتدى ثيابى بنفس مصدودة .. والضعف يسرى فى مفاصلى .. ولونى أصفر يميل الى الاخضرار .. وعقلى مشتت بين يأسى من عادل ، وأملى فى هاشم .. وأحاول أن فلا أستطيع أن أيأس .. ولا أستطيع أن أعيش لحظات بلا أمل ..

وارتدت أمى معطفها الأسود ، وعمامتها السوداء ، ووقفت على باب غرفتى تقول لى وأنا سارحة فى عذابى :

— ياللا يا نوجا .. استعجلى شويه .. ده احنا لسه حانطلع مصر الجديده ..

ونظرت اليها فى حدة ، كأنها شكتنى بدبوس لتوقظنى .. وصدمت بشكلها وهى فى معطفها الأسود ، وعمامتها السوداء ، كأنها جلاد يواجهنى ليذبح قلبى .. وصرخت فيها كأنى أصرخ من فزعى :

— ما تستعجلنيش .. احسن والله أحلف ما اخرجش .. أنا مش طايقه حد يكلمنى ..

وارتعشت رموش أمى كأنها خافت من صرختى .. وتنهدت .. ثم قالت فى صوت ضعيف :

— طيب يا نوجا .. ما تزعليش .. على مهلك يا حبيبتى ..

ثم ابتعدت عن غرفتى ، وعادت بعد لحظات وفى يدها « وابور السبيرتو » مشتعل وفوقه لوح من الصفيح ، يطقطق

فوقه البخور .. ووضعته على الأرض ، لأخطو فوقه سبع مرات ، كما عودتنى فى كل مرة أهم فيها بالخروج من البيت .

ودون أن أفكر ، استدرت من أمام مرآتى ، وقذفت وابور السبيرتو بقدمى ، بما فوقه من بخور ، وأنا أصرخ :

— مش عايزه أتبخر .. ما فيش حاجه جابتلى الكافيه الا البخور بتاعك ده .. بتبخرينى على ايه .. الناس حاتحسدنى على ايه .. على خيبتى ! ؟

وأسرعت أمى والتقطت وابور السبيرتو من على الأرض قبل أن يشعل فى البيت نارا .. وخرجت وهى تتمتم :

— ربنا يهديكى يا بنتى ..

ومن يومها تعودت أن أصرخ فى أمى .. وتعودت أن تحتمل صراخى .. ولكن احتمالها لم يكن يعنى استسلامها لى .. انها لم تستسلم لى أبدا ..

وخرجنا من البيت ..

وركبنا سيارة تاكسى الى محطة المترو .. ثم ركبنا المترو الى مصر الجديدة .

ووصلنا الى بيت زيزى ...

بيت فخم ، لا يمكن أن يكون بيت موظف ، حتى لو كان موظفا فى الدرجة الأولى .. الأرض الباركيه مغطاة بقطع من السجاد العجمى .. والأثاث على الطراز الحديث ، يبدو كله جديدا .. ان زيزى تبدل أثاث بيتها كل سنة أو سنتين .. والنجف ، والتماثيل .. مظاهر الاسراف فى كل ركن من أركان البيت .. ورغم ذلك لم أسترح .. أحسست كلما نظرت الى شىء كأن نظرتى تقف فى حلقى .. كأن هناك شيئا مفقودا فى هذا البيت .. لعله الذوق .. أو لعله الاحساس بقيمة الأشياء التى

يضمها .. لا شك أنها أشياء قيمة .. غالية .. نقود كثيرة دفعت فيها .. ولكنها ملقاة ومكدسة بشكل يفقدها قيمتها ..

وقالت أمى وهى تتبع عينى وأنا أدور بهما فى أرجاء البيت :

— بكره أعمل لك بيت أحسن من ده ميت مره ..

قالتها كأنها تغرينى بالأمل الكبير !

وقلت وأنا ألوى شفتى :

— أنا ما احبش يبقى عندى بيت زى ده .. ما فيهش ذوق !

وقالت أمى والاعجاب يشهق على وجهها :

— ده زى ما يكون بيت واحده اميره ..

وقلت بسرعة :

— ده زى ما يكون بيت واحده أرتست ..

ودخلت علينا زيزى ..

مرتدية قميص نوم شفاف ، وفوقه « روب ديشامبر » من الحرير المطرز بالدانتيل تركته مفتوحا ، ليكشف عن قميص النوم ومن تحته جسدها المتلىء .. رغم أننا كنا فى الساعة الثانية عشرة ظهرا ..

وقبلت أمى فوق كلتا وجنتيها وهى تقول :

— أهلا عزيزه هانم .. وحشتينا .

ثم التفتت الىّ ، ولمعت فرحة عجيبة فى عينيها ، وقالت :

— نوجا .. مش معقول .. ده انتى كبرتى قوى .. أنا ما شفتكيش بقالى سنه .. حد يكبر ده كله فى سنه واحده ..

ثم احتضنتنى الى صدرها وأخذت تربت على ظهرى ، ثم التفتت الى أمى قائلة :

— دى انتى لازم تجوزيها حالا يا عزيزه هانم .. خلاص آن الأوان ..

وقالت أمى وهى سعيدة بفرحة زيزى بى :

— هى يا ستى اللى بتدلع .. عايزه تكمل وتخش الجامعة ..

وقالت زيزى وهى تضحك ضحكة صاحية رنانة :

— وده يمنع ..

ثم أخذتنى من يدى ، وأجلستنى بجانبها على الأريكة ، وأخذت تبحلق فى وجهى ، ثم قالت كأنها كشفت سرى :

— مالك يا نوجا .. انتى مش عاجبانى .. زى ما يكون فيه حاجه مزعلاكى ..

وقالت أمى بسرعة كأنها تدافع عنى :

— ما انتى عارفه يا زيزى انها كانت عيانه ..

وقالت زيزى ، وهى تنظر الىّ :

— وتسريحة شعرك مش حلوه .. دى تسريحة بتاعة واحده عجوزه ، مش بتاعة بنت حلوه زيك .. تعالى أعمل لك تسريحه تانيه ..

وقامت واقفة وشدتنى من يدى .. وسارت بى وهى تقفز فى مشيتها كأنها طفلة .. ودخلت بى الى حجرة نومها .. وأمى وراءنا ..

حجرة النوم .. لونها بمبى فاتح .. الستائر بمبى .. وملاءات السرير بمبى .. وكساء المقاعد بمبى .. والخشب لونه بنى غامق ..

وأجلستنى زيزى أمام مرآتها .. وعشرات من زجاجات العطر الغالية ، وأدوات الزينة .. ووقفت فوق رأسى تسرح لى شعرى .. وهى تتكلم ، وتضحك .. انها تستطيع أن تبعث الحياة حولها .. كلامها يطلق الزغاريد فى قلبى وأعصابى ..

ووجدت نفسى أتحمس معها .. وأضحك معها .. وانسى نفسى وهمى معها ..

وأمى جالسة بعيدا ، والسعادة تبرق فوق وجهها ، كأنها اكتشفت الطريق الذى كانت تائهة عنه ..

ثم أخذت زيزى تعرض علينا ثيابها الجديدة :

فتحت دولابا يمتد بطول الحائط كله .. وبرزت منه عشرات الفساتين .. كأنها الجاريات المعلقتا فى حريم السلطان .. فساتين كثيرة .. ومعاطف .. وقطع من الفراء .. وأحذية .. لم أر فى حياتى كل هذه الأحذية فى دولاب واحد ..

وفى بساطة خلعت ثيابها ، وارتدت ثوبا من ثيابها الجديدة لتريه لى ..

ولم أستطع أن أملأ عينى بجسدها عندما خلعت عنه ثيابها .. خجلت ..

وبعد ذلك صممت على أن أخلع ثوبى لتقيس علىّ ثوبا من ثيابها ..

وحاولت أن أرفض ..

ولكنها ألحت ..

وأمى تلح معها ، وتقول :

ــ جرى ايه يا نوجا .. حاتنكسفى من مرات ابن عمك ..

وشدت زيزى ثوبى ، فاضطررت أن أخلعه .. ونظرت الىّ وأنا بالقميص ، كأنها تنظر الىّ بعيون عشرات الرجال ، وقالت وفى عينيها بريق عجيب :

ــ ايه الحلاوه دى كلها يا نوجا .. ده انتى صدرك يجنن ..

وضممت ذراعى حول صدرى كأنى أحميه من عينيها ، وفيهما نظرات عشرات الرجال ..

وأرتعش من الخجل ..

مت من الخجل ..

وألبستنى ثوبها ..

وجمعت قماشه فى يدها من عند الظهر ، حتى تشده على جسمى ، لأنه كان واسعا علىّ .. انها أسمن منى ..

والتفت الى المرآة ..

ونظرت الى نفسى ..

الثوب من الشيفون الهفهاف الأزرق يكشف عن ذراعى .. وعن مساحة كبيرة من صدرى .. ويلتف حول جسدى كأنه قطعة من صفحة السماء تضمنى .. أحسست كأنى أستطيع أن أطير بهذا الثوب .. والتسريحة التى صنعتها لى زيزى ، تركت خصلة من شعرى تهفو فوق عينى .. فأحسست انى اكاد أطير فعلا ..

وزيزى تضحكنى ..

لا تكف عن اثارة ضحكاتى ..

وكلماتها تثير فى معان جديدة .. معانى الأنوثة .. انها ترفع عمرى .. أحس انى كبرت .. وأحس أنى امراة .. لم أكن أحس من قبل أنى امراة .. رغم أنى امراة ..

وقالت زيزى :

ــ عبد الله جوزى حاييجى من بنى سويف النهارده بعد الضهر ، وحانروح نسهر فى الأوبرج .. ايه رايكم تسهروا معانا ..

ونظرت الىّ أمى ، كأنها تسألنى رأيى .. ثم التفتت الى زيزى قائلة :

ــ بس احنا يا زيزى مش واخدين ع السهر ده ..

وقالت زيزى :

ــ يا شيخه اخرجى من الحبسه دى .. ونوجا كمان تشوف

الدنيا وتتفسح .. حاتفضلى مخبياها كده لغاية امتى .. اللى فى سنها كل يوم سهرانين فى حته ..

وقالت أمى فى صوت خفيض :

— أنا ما عنديش مانع .. بس ..

وعادت زيزى تقول فى حماس :

— بس ايه .. لا بس ولا حاجه .. احنا حانكون مع عبد الله جوزى .. انتى مش بتقولى جوزى يبقى قريبك .

وقالت أمى :

— بس انا عمرى ما رحت الأوبرج .

وقالت فى حماس :

— ما لكيش دعوه بنوجا .. سيبيها لى انا ..

والتفتت الى قائلة :

— ايه رأيك يانوجا ..

قلت :

— بس أنا عمرى ما رحت الأوبرج .

وقالت فى حماس :

— خلاص تروحيه ..

ثم اقتربت من أذنى وهمست :

— هو الواد اللى بتحبيه ما بيروحش الأوبرج .. أوعى يكون بياخدك تزوروا المشايخ ..

واتفقنا على أن تمر علينا زيزى فى العاشرة مساء ، هى وزوجها .. لتذهب معها الى الأوبرج ..

وعدنا الى البيت ..

والعالم الجديد الذى لوحت لى به زيزى يشغلنى عن حيرتى ، وعن وهمى ..

ولكنى لم أكن سعيدة ..

كنت أعلم أنى مقدمة على حياة لست مقتنعة بها .. حياة لم أفكر فيها من قبل ، ولم تمثل حلما من أحلامى .. ولكنى كنت منساقة اليها .. لأنسى .. لأجد شيئا يشغلنى عن نفسى ، ويملأ وقتى الفارغ ..

والقيت نفسى على فراشى متعبة ..

أحس بالضعف .. ضعف صحتى ، التى لا تحتمل مشوار مصر الجديدة ، ولا تحتمل كل هذه الاثارة التى ملأت بها زيزى أعصابى ..

نمت من التعب ..

واستيقظت متعبة ايضا .. ولكنى قاومت التعب .. وجدت نفسى أفيض بعناد عجيب .. عناد كبير .. أقاوم به ضعفى .. وأقاوم به عدم اقتناعى بالاقبال على الحياة .. وأقاوم به الايمان بالحب .. أريد أن اضحك .. أن الهو .. أن ألبس ثيابا كالتى تلبسها زيزى ..

وارتديت ثوبى الجديد .. ثوبا لونه أصفر .. وكل ثيابى لا تصلح للأوبرج .. انها ثياب بسيطة ، لفتاة فى مدرسة .. تحب .. وتعد نفسها للزواج .. لا لفتاة تفكر فى السهر فى الأوبرج ..

وجاءت زيزى فى الساعة العاشرة والنصف ، وتركت زوجها ينتظرها فى السيارة ، وصعدت الينا ..

وصرخت بمجرد أن رأتنى :

— ايه اللى لابساه ده يا نوجا .. ده انتى زى ما تكونى رايحه المدرسه ..

ثم شدت فتحة صدر الثوب ، حتى كشف عن كتفى ..

وخلعت دبوسا من الماس كانت تتحلى به فوق صدرها .. وشبكته فوق كتفى .. ثم أخذت تسرح لى شعرى وتطلق خصلة منه تتدلى فوق جبينى فى اغراء .. ثم أخرجت من حقيبتها أصبع الروج ، وصبغت به شفتى .. ثم أصلحت وضع الكحل الذى أضعه حول عينى ..

وأنا مستسلمة ..

وأمى مستسلمة ..

كأن كلينا اثنتان من نساء الريف جاءتا الى القاهرة لأول مرة ، وسلمتا نفسيهما لمحتالة ..

ولم تهتم زيزى بأمى .. لم تعلق بشىء على معطفها الأسود ، وعمامتها السوداء .. كأنها لن يكون لها دور فى الحياة التى تسوقنا اليها ..

ونزلنا ..

لم يكن زوج زيزى وحده فى السيارة .. كان معه رجل آخر .. شاب .. أصغر من الدكتور هاشم .. لعله فى الخامسة والثلاثين من عمره .. محفلط .. كل شىء فيه مرسوم بدقة .. حتى خيل الى انه عد شعرات رأسه قبل أن يضع كل شعرة بجانب الأخرى ..

ونزل الشاب من السيارة ليستقبلنا .. وقدمته لنا زيزى قائلة :

— خيرى ..

فقط ..

لم تكمل اسمه ..

ثم قالت له :

— اقعد انت جنب عبد الله يا خيرى .. والستات حاتقعد ورا ..

والتفتت الينا ، كأنها تقول لأمى أنها حريصة على ألا يقترب أى رجل من ابنتها ، وتثبت لها أنها حريصة على التقاليد ..

وحيانا زوجها وهو جالس أمام عجلة القيادة .. رجل طويل عريض .. سمين .. ضحكته تملأ شفتيه .. وتبدو عليه السعادة .. سعادة الحيوان الذى لا يفكر كما يفكر الناس ، ولا يشغل باله بما يشغل بال الناس .

وذهبنا الى الأوبرج ..

ودخلنا وأنا أسير ملتصقة بأمى كأنى أحتمى بها .. لقد كنت أحتمى بها فعلا .. كنت مرتعشة ، والرهبة تملأ كيانى .. ولم ألحظ أن أمى كانت ترتعش أيضا من الرهبة .. وكلانا يعلق عينيه بزيزى كأننا طفلتان تخشيان أن تتوها عن أمهما ..

وقادتنا زيزى الى مائدة .. كان يجلس عليها آخران ؛ وسيدة .. وهلل الرجلان لمقدم زيزى .. ثم سكتا عن التهليل مرة واحدة ، عندما سقطت عيونهما علىّ .. وتبادلا النظرات المتسائلة مع زيزى .. وعادا ينظران الىّ .. وقد انقلب كل منهما مرة واحدة بعد التهليل الذى استقبلا به زيزى ، الى رجل مؤدب مهذب .. وابتسامة واسعة فوق شفتى كل منهما .. ابتسامة لزجة ..

وجلست بين خيرى الذى معنا فى السيارة ، وبين أحد الرجلين اللذين وجدناهما على المائدة .. كان اسمه سامى .. واستدار كل منهما الىّ .. عيونهما لا تفارق وجهى .. وابتساماتهما تدور حولى كالفراشات المجنونة .. وكل منهما يبذل جهده ليثير ضحكاتى ، ويجذب اهتمامى ..

والرجل الثالث تفرغ لزيزى ، ينشب عينيه فى وجهها ، ولا يكف عن التحدث اليها .. حديثا هامسا لا أسمع منه الا أقله ..

وعبد الله الزوج ما كاد يجلس على المائدة حتى تفرغ لملء كأسه ، والتهام قطع الخيار وأصناف « المزات » .. ويطلق بين الحين والحين تعليقا لا يسمعه أحد ، ويضحك عليه وحده .. كأنه ليس معنا .. وكأن زوجته ليست معه ..

وأمى .. انها جالسة بمعطفها الأسود وعمامتها السوداء . عند طرف المائدة ، لا ترفع عينيها عنى .. عينان خائفتان .. حائرتان .. وتبدو كأنها من هذا الصنف من النساء العجائز اللاتى يصاحبن النساء الجميلات ويقدن لهن حياتهن .. ربما اعتبرها هكذا الرجال الذين معنا .. ربما لم يصدق أحد منهم انها أمى .. ربما اعتقدوا أنها تتاجر بى .. لا أحد يهتم بها . لا أحد يتحدث اليها .. عبد الله زوج زيزى وحده ، هو الذى يلتفت اليها بين الحين والحين .. ويقول لها بصوته الغليظ الأجش :

— تا خدى حتة خيار يا عزيزه هانم ..

ثم يخبط على ساقها بكفه الثقيلة ويصيح :

— والله أنستينا يا عزيزه هانم ..

وتبتسم أمى ابتسامة ضعيفة لا تلبث أن تموت على شفتيها .. وعيناها مركزتان علىّ ، ترقب كل حركة ، وكل لمسة ، وكل لفتة .. وأذناها منتصبتان تحاول أن تلتقط بهما كل كلمة .. كل همسة .. انها تجلس فى طرف المائدة كآلة الرادار ينعكس على وجهها كل ما يحدث لى .. تبتسم عندما أبتسم .. وتفزع عندما يتمادى أحد الرجلين اللذين يحيطان بى ..

وصعبت علىّ ..

ليس هذا هو مكانها ..

انها ليست من هذا الصنف من النساء العجائز ..

ولكنها تفعل ذلك من أجلى .. تفعله لأنها تريد أن تنسينى عادل .. تفعله لأنها تخاف اليوم الذى تفقدنى فيه ..

ورغم ذلك فقد كان احساسى ساعتها حائرا بين الخجل منها ، والاشفاق عليها .. الخجل منها وهى جالسة بمعطفها الأسود وعمامتها السوداء ووجهها العجوز المكرمش ، الى مائدة تعلوها زجاجات الويسكى .. والاشفاق عليها لأنى أعرف لماذا تقبل على نفسها كل هذا ..

وقالت زيزى وهى تضحك ضحكة كالزغرودة :

— ساكته ليه يا نوجا .. خدى بالك من سامى .. أوعى تصدقى كلامه .. ده كداب ..

ولا ادرى لماذا نظرت اليها ساعتها فى تحد .. قررت ساعتها أن اثبت لها أنى لست الفتاة القروية التى تصل الى القاهرة لأول مرة .. وتملكنى عناد عجيب أن أثبت شخصيتى القوية فى هذا المجتمع الجديد الذى يحيط بى .. أن أسيطر عليه .. أن املكه .. وأحكمه ..

وانطلقت ..

تحررت من الخوف ..

تحررت من ضعف صحتى ..

تحررت من ذكريات حبى ..

وجمعت كل ذكائى لأجذب كل الاهتمام الىّ .. وانطلقت أتحدث .. أروى الحكايات .. وأطلق التعليقات الساخرة .. واثير الضحكات .. وفى دقائق أصبحت ملكة المائدة .. كل الاهتمام موجه الىّ .. حتى الرجل الذى يجلس بجانب زيزى

استدار الىّ .. وعبد الله زوجها نسى قطع « المزة » وأصبح يتلقف كل كلمة تخرج من بين شفتى .. وأمى تلحظ اندفاعى وتخاف ... وزيزى فوجئت بجرأتى ، ونظرت الى نظرة ثاقبة كأنها اكتشفت أنى لست الفتاة الساذجة البسيطة كما كانت تظننى ..

وملأ خيرى كأسا وقدمه الىّ .. ورفضته بابتسامة كبيرة ، قائلة :

— مرسى ..

وقال :

— ليه ؟

قلت بصوت عال ساخر :

— انت كفايه .. تسكر !

وانطلقت الضحكات ..

وشرب خيرى الكأس وحده .

وسامى يحاول أن يجذبنى فى حديث هامس بينى وبينه .. ولكنى أحيل همساته الى كلمات مسموعة .. يسمعها كل من على المائدة .. فيزدرد وجهه .. ويخجل من نفسه .. ولكنه تمادى .. كف عن محاولة الهمس .. وبدأ يلمسنى لمسات تبدو كأنها لمسات غير مقصودة .. ويتظاهر بأنه يريد أن يجذب طبق المازة من آخر المائدة ، ليترك أنفاسه تقترب من أذنى .. ووجهه يلمس وجهى .. وتمادى أكثر ، فشعرت بيده فوق ساقى ..

وأمسكت بيده بأطراف أصابعى ، ورفعتها الى أعلى بحيث يراها الجميع ، كأنى أرفع شيئا قذرا .. وقلت بأعلى صوتى :

— شوفى يا زيزى لقيت ايه على رجلى ..

وضج الجميع بالضحك ..

ثم ألقيت بيد سامى من يدى ، والتفت اليه ونظرت اليه

نظرة طويلة ثابتة .. الى أن نكس عينيه خجلا من نفسه ، وقال فى صوت خافت :

— آسف ..

وأمى تنظر الىّ وشفتاها ترتعشان ، لا تدرى ماذا تقول ، ولا كيف تتصرف ..

وشخصية زيزى تذوب أمام شخصيتى .. انها تفقد عرشها .. ورغم ذلك فهى تبتسم لى طول الوقت .. وتهتم بى طول الوقت .. كأنها قبلت التحدى ..

وقالت أمى كأنها لم تعد تحتمل أكثر :

— احنا لازم نقوم بأه يا زيزى .. نوجا لسه قايمه من العيا ، وما تستحملش سهر أكتر من كده ..

وقالت زيزى بسرعة :

— واحنا كمان لازم نقوم ..

وقمنا ..

وضغط سامى على يدى وهو يصافحنى قائلا :

— احنا لازم نشوف بعض تانى ..

قلت ساخرة :

— أمال .. ضرورى ..

وركبنا سيارة زيزى وخيرى معنا .. وفى هذه المرة لم تكلف زيزى نفسها مهمة حمايتى .. فجلست بجانب زوجها فى المقعد الأمامى .. وتركت خيرى يجلس معنا فى المقعد الخلفى .. ولكنى كنت أذكى منها .. وضعت أمى بينى وبين خيرى ..

وقال خيرى وهو يصافحنى أمام باب البيت :

— احنا لازم نشوف بعض تانى ..

وكررت نفس اللهجة الساخرة :

ــ أمال .. ضرورى ..

وصعدت الى غرفتى .. وأمى ورائى .. وجلست على حافة السرير وأنا أخلع ثيابى .. وقبل أن تسألنى .. أشبعت فضولها ، ورويت لها كل التفاصيل .. كل كلمة .. وكل لمسة .. وكل رأى لى .. وبعد أن شبعت تركتنى وحدى الأنام .. وسحب سوداء من الحيرة تبتلعنى .. ماذا فعلت .. ولماذا فعلت .. لماذا وضعت قدمى فى هذا الطريق .. انى لست ساذجة .. وأعرف هذا الطريق حتى نهايته .. فلماذا سرت فيه .. ولماذا لم أسر فى الطريق الذى فتحه لى هاشم .. لا .. ان طريق هاشم طريق مسدود لا أمل فيه .. والحب النظيف الذى أثار به خيالى .. ليس الا وهما .. انه يحب فتاة أخرى .. وحتى اذا لم يكن يحبها .. فلماذا يحبنى .. وعادل .. عادل .. لماذا تركنى وسافر .. لماذا لم يبق الى جانبى لنحاول مرة أخرى أن يصل أحدنا الى الآخر .. ولكنه مستهتر ، لقد غازل أختى .. الى هذه الدرجة بلغ استهتاره . .ولكنى أحبه .. هل صحيح أنى لا زلت أحبه .. لا أدرى .. لا أدر ى .

وبكيت ..

وانسابت حيرتى دموعا على خدى ..

ونمت باكية ..

وصحوت فى اليوم التالى وأنا أحس أكثر بضعف صحتى .. فقد اضطررت أن أبقى فى الفراش يومين .. وزيزى تسأل عنا فى اليوم أكثر من ثلاث مرات .. وتتحدث مع أمى طويلا فى التليفون ..

وما كدت أغادر الفراش ، حتى جمعتنا سهرة فى بيت زيزى .. كان هناك سامى ، وخيرى .. والرجل الثالث ..

مراد .. ورجال آخرون كثيرون .. وسيدات كلهن من صنف زيزى .. أنا البنت الوحيدة بينهن .. بنت ! وأنا أصغرهن .. أجملهن .. أنا وردة فى غابة من النساء يتمايلن فى خلاعة كالأشجار العجوزة ..

وتوالت السهرات .. فى البيت .. فى الأوبرج .. فى الأريزونا .. فى الشجرة .

وأنا لم أفقد شيئا ..

لم يستطع رجل أن يأخذ منى شيئا .. ولا لمسة واحدة .. ولا كلمة تريحه وتشجعه على .. ورغم ذلك فكل الرجال يحبوننى .. اننى نفحة من الهواء النظيف وسط الجو الفاسد الذى يعيشون فيه .. انى أريح عيونهم من الوجوه المصبوغة بالألوان الفاقعة ... انى أمل صعب ، وسط الأرض السهلة التى يسيرون فوقها ..

وأمى فهمت المجتمع الجديد الذى دخلنا فيه .. وبدأت تكون صداقات خاصة بينها وبين الرجال الذين نلتقى بهم . صداقات لحسابى طبعا .. وأصبحت أمى ترتاح لصداقاتها مع الرجال أكثر من ارتياحها لصداقاتها مع النساء .. اكتسبتهم باثارة عطفهم عليها .. لأنها وحيدة . .عجوز .. وزوجها مشلول .. وهى تعلم أن عطفهم عليها ليس الا تقربا منى أنا .. واستطاعت بذلك أن تستغلهم .. وأن تضعهم فى خدمتها .

وأذكر أول يوم تفتحت فيه أمامنا كنوز هذا المجتمع الذى نعيش فيه ..

لقد اتصل بنا خيرى فى التليفون ذات صباح ، ليدعونى الى سهرة فى المساء .. وفى خلال الحديث قالت له أمى أنها ستصحبنى لنطوف بالحوانيت ، ونشترى بعض الحاجيات .

ولا أدرى حتى اليوم اذا كانت قد قالت له ذلك عن قصد أو عن غير قصد .. ولكن خيرى عرض أن يأتى ليصحبنا . ووافقت أمى ..

وصحبنا لنطوف بالحوانيت ..

واشترينا بضائع بما يزيد عن عشرين جنيها .

دفعها خيرى .

وانهالت الهدايا بعد ذلك .. من خيرى .. ومن غيره .. هدايا فى مناسبات .. وهدايا بلا مناسبات .. وقد كنت أبهر بهذه الهدايا .. لم أكن أعتقد أن الناس يمكن أن تهدى بهذه السهولة .. وهذا الاسراف .. وأمى تفرح بالهدايا أكثر منى .. وهى التى تحتفظها فى دولابها .. وتحتفظ بالمفتاح فى جيبها .. لا أستطيع أن استعملها الا باذنها .. وأصبح عندى ثلاثة راديوهات ترانستور .. وجاءنى تلفزيون هدية .. وخواتم .. وثياب .

ثم ..

فوجئت بسامى يتقدم لخطبتى ..

انهم يتزوجون أيضا فى هذا المجتمع ..

وكنت أعتقد انه مجتمع يقوم على اللهو .. على قضاء السهرات .. وأن الأزواج فيه هم المغفلون .. ولن يرضى أحد أن يتزوج منه حتى لا يصبح مغفلا هو الآخر .. ولكن لا .. ان الرجال فيهم حاسة عمياء تقودهم الى دنيا المغفلين .. وربما اكتشف سامى حقيقتى .. اكتشف انى فى هذا المجتمع لست الا ضحية عذابى وحيرتى . . وآمن بطهارتى ، خصوصا وأن كل هذا الفساد لم يصل الى .. انه يعرف أن أحدا من الرجال لم يستطع أن ينال منى ..

وقدرت سامى ..

أحسست به رجلا ..

وأنا لا أحبه .. ولكنه وسيم .. وفى مركز ممتاز .. انه زوج تفخر به أى فتاة ..

ولم ترفضه أمى ..

ولم تقبله ..

ولكنها تركته معلقا . .

وأنا لم يكن يهمنى أن ترفضه أو تقبله .. فأنا لا أريد الزواج .. ان ما ينقصنى شىء آخر غير الزواج .. ينقصنى الحب .. وليس فى قلبى من الحب الا ذكرياتى مع عادل ..

وخيرى أيضا تقدم لخطبتى ..

وتركته أمى معلقا هو الآخر ..

وبدأت أتأكد أن أمى لا تريد أن أتزوج .. تريد لى عشرات الرجال لأبقى لها .. ولكنها لا تريد لى رجلا واحدا حتى لا يأخذنى منها .. الى هذا الحد وصلت أنانيتها .. ربما لأنها ليست أمى ..

وعشرات الرجال يترددون على بيتنا ..

يترددون بلا زوجاتهم ، وبلا شقيقاتهم .

وليس معنى ذلك أننا فقدنا سمعتنا فى الحى الذى نقيم فيه .. أبدا .. ان أمى لا تزال تحرص على كل مظاهرها .. وسيدات جمعية نور الهدى لا يزلن يترددن علينا بانتظام .. والبخور يحرق فى الصباح والمساء .. ولا تسمح لرجل أن يزورنا الا فى مواعيد مناسبة .. وربما ثارت رغم ذلك بعض الأقاويل عنى وعن أمى .. ولكنها كانت أقاويل خافتة .. ومحصورة فى الحى الذى نقيم فيه .. وأصدقاؤنا كلهم من خارج الحى ..

وأنا تعيسة .

لست سعيدة بهذه الهدايا ، ولا بهذه الحفلات ..

ولكننى لا أجد شيئا آخر أفعله الا أن أتلقى هذه الهدايا ، وأفرح بها فرحة تقصر ، ثم تقصر كلما توالت الهدايا .. حتى أصبحت فرحتى مجرد نظرة ألقى بها على الهدية .. والحفلات سئمتها حفلة بعد حفلة ، حتى أصبحت أبخل على الناس بذكائى الذى أسليهم به .. وأمنحهم به وقتا لاهيا .. ولكن ماذا أفعل غير هذا .. هل أعود الى المدرسة .. مستحيل .. لا أستطيع ! ..

وأنا متأكدة أن أمى لا تريد تزويجى ..

وأستطيع أن أتحداها ..

ولكن لماذا أتحداها .. لماذا أتحدى أنانيتها .. واحساسها بأنها اشترت كل كيلو من لحمى وعظامى .. لماذا ؟

ليس هناك دافع يجعلنى أتحداها ..

فأنا أيضا لا أريد الزواج الآن ..

الذين تقدموا الىّ لم يستطع واحد منهم أن يفتح قلبى ..

وبقيت مستسلمة لهذه الحياة ..

ثم ..

دخل حياتى فى هذه الأثناء عبد الفتاح بيه رفعت ..

عبد الفتاح بيه رجل فى الثامنة والأربعين من عمره .. متزوج .. وله أولاد وبنات .. بنت منهن أكبر منى ، ومتزوجة ولها أولاد .. مليونير .. حتى بعد قوانين التأميم استطاع أن يحتفظ بجزء كبير من ملايينه .. ربما أصبح نصف مليونير ..

وطبعا لم أر أبدا زوجته ولا بناته .. ولكنى التقيت به فى بيت زيزى .. ليس فى سهرة ، ولكن على الشاى .. وكانت زيزى قد اتصلت بنا فى التليفون ودعتنى أنا وأمى لتناول الشاى ، وأوصتنا الا نتأخر لأن عندها ضيوفا مهمين ، وقالت لأمى :

— وخلى نوجا تلبس الفستان الأخضر .. ما تنسيش !.

وكانت كل ميزة الفستان الأخضر ، انه يكشف عن كتفى اللذين تعتقد زيزى أنهما أجمل كتفين رأتهما فى حياتها ..

ولبست الفستان الأخضر ، وذهبت أنا وأمى ..

ولم نجد عند زيزى الا عبد الفتاح بيه رفعت ..

ووقف عبد الفتاح يحيينى فى أدب كبير ، وألقى على نظرة هادئة .. أحسست رغم هدوئها أنها استوعبتنى كلى .. وأنها درست فى لمحة واحدة ، كل قطعة منى .. نظرة خبير ..

ثم استدار وصافح أمى ، واهتم بها اهتماما زائدا .. قدم لها مقعد الصدارة .. وقدم لها أول فنجان شاى .. واتجه بمعظم حديثه اليها .. دون أن يهملنى .. ولكنه كان يتحدث الىّ كابنته .. وفى وقار .. وهدوء .. وحنو .. وأحسست كأنه يتعمد أن يعفينى من المجهود الذى يمكن أن أبذله كى أهتم به .. كأنه يريد أن يقول لى انه ليس كباقى أصدقاء زيزى .. وأنه لا يريد منى ما تعود أن يطلبه أصدقاء زيزى .. وقد ارتحت فعلا الى هذا الاحساس .. وشعرت بجانبه بأنى أستطيع أن أكون على طبيعتى .. كأنى فعلا ابنته ..

وكعادة أمى جرت الحديث بينها وبين عبد الفتاح الى موضوع العائلات ، والأنساب .. واكتشفت بسرعة نسبا بيننا وبينه .. والتفتت الىّ وقالت :

— تعرفى يا نوجا .. ده عبد الفتاح بيه يبقى فى مكانة عمك تمام .. ما هو يبقى ابن خالة بنت عم أبوكى .. يعنى عمك ..

وضحكت قائلة :

— ازيك يا عمى ..

والتفت الىّ عبد الفتاح وفى عينيه نظرة جادة ، وقال :

— أنا عايزك تعتبرينى عمك بصحيح ..

وأحرجت أمام نظرته الجادة ، وقلت وأنا أرخى عينى عنه :

— حاضر يا عمى ..

ولا أذكر كيف دار الحديث بعد ذلك .. ولكنى أذكر أن زيزى قالت لى بعد قليل :

— ايه الدبوس الوحش ده اللى شابكاه فى صدرك ؟ ..

وقلت :

— يا خبر يا زيزى .. ده يجنن.. ده أنا شارياه بتلاته جنيه من عند موناز ..

وقالت زيزى كأنها تعلمنى :

— حد يلبس دبوس بتلاته جنيه على فستان حلو كده .. وصدر حلو بالشكل ده ..

وقال عبد الفتاح وهو يضحك ضحكة صغيرة :

— خلاص يا زيزى .. ما تزعليش ، الدبوس حا يتغير من بكره ..

وقلت كأنى الومه :

— انت كمان مش عاجبك الدبوس بتاعى يا عمى ..

وقال عبد الفتاح وهو ينظر الىّ كأنه يتفق معى على زيزى :

— عاجبنى .. بس علشان نسكت لسان زيزى ..

وقام عبد الفتاح منصرفا فى الساعة السابعة ..

وبقينا مع زيزى وهى تحكى وتبالغ فى تعداد أملاك عبد الفتاح ، ومصانعه ، وأدبه ، وذوقه .. ثم قالت :

— عيبه ان عمره ما يسهر بره .. الساعة تسعه لازم يكون

فى بيته .. وفى بيته شديد قوى .. تصورى ان ما حدش لغاية دلوقتى شاف مراته .. يدوبك تزور قرايبها .. وقرايبها يزوروها ..

وفى اليوم التالى ..

أرسل الينا عبد الفتاح سائقه الخاص .. يحمل لفافة صغيرة .. فضتها أمى لتجد داخلها علبة صغيرة من القطيفة الحمراء .. ما كدنا نفتحها حتى بهتنا نحن الاثنين ..

كان فى العلبة« بروش » من الماس ..

من الماس الحقيقى ..

ومع البروش كارت يحمل اسم عبد الفتاح رفعت ، وقد اضاف فوق اسمه كلمة واحدة : « عمك » ..

وأسرعت أمى فى نفس اليوم الى محل السرجانى الصائغ لتثمن « البروش » .

ان ثمنه لا يقل عن ثلثمائة وخمسين جنيها ..

وبلعت أمى ريقها ..

ورفعت حاجبى دهشة ..

وتطورت علاقتنا بعد ذلك بعبد الفتاح تطورا سريعا .. غريبا .. فقد كان عبد الفتاح صديقا لأمى ، اكثر منه صديقا لى .. رغم أنى أعرف ومتأكدة ، انه لا يربطه بأمى الا رغبته فى الوصول الىّ ..

كان يتحدث معها فى التليفون مرتين فى اليوم .. حديثا طويلا .. لا تبلغنى أمى الا نصفه .. ولا أهتم بأن أسألها عن النصف الآخر ..

ثم بدأ يتردد علينا ..

لم يكن يتردد كل يوم .. يومين أو ثلاثة فى الأسبوع ..

ويدخل الى حجرة أبى المشلول ، ويبقى معه بضع دقائق .. وكانت أمى قد أقنعت أبى بصلة النسب التىتربطه بنا .. ثم بعد ذلك يخرج ويجلس معنا فى الصالة ليشرب فنجال القهوة ..

ويوما بعد يوم أصبح هو كل شىء فى البيت .. هو رجل البيت .. هو الذى يهتم بشئوننا .. وهو الذى يلبى حاجاتنا .. وهو الذى يشترى لى ثيابى .. ليس هو بنفسه .. بل يعطى الأمى لتشترى لى .. وعين أخى من أمى الحقيقية فى احدى شركاته .. وابن عمى عينه فى شركة أخرى ..

والكلفة ترتفع بيننا وبينه ..

وأناديه دائما : أونكل عبده ..

وكان أحيانا يقبلنى فى وجنتى .. قبلات يحاول أن يستقر بها على خدى .. ولكنى لا البث أن أسحب خدى من تحت شفتيه ، وأجرى وأنا أمثل دور ابنته .. وأحيانا كنت أتدلل عليه ، وأجلس على ركبتيه .. ثم لا تكاد ذراعه تلتف حول خصرى حتى أقفز من فوق ركبتيه وأنا أصيح فى مرح يليق بسنى :

— أوريلك جزمتى الجديده يا أونكل ..

ويبتسم فى صبر ..

ولكنى كنت أعرف أن للصبر حدودا .. وأن عبد الفتاح يريد أن يصل .. كيف ومتى .. لا ادرى .. ولكنى بدأت أخاف .. أخاف اليوم الذى يصل فيه .. واحس به رجلا أقوى من ذكائى ، وأقوى من اصرارى على طهارتى .. آسفة .. على ما بقى من طهارتى .. وبدأت أخاف هذه الأحاديث الطويلة التى تدور بينه وبين أمى .. وبدأت أعصابى تثور .. وأصرخ فى وجه أمى ، وأتهمها بأنها تخفى عنى شيئا .. أشياء .. وبدأت اتعود على تحطيم أى شىء كلما ثارت أعصابى ، أحطم طبقا ، أو آنية زهر .. ففى مرة حطمت شاشة التلفزيون .. قذفتها بمنفضة السجائر ..

وأمى تحتملنى ..

واونكل عبده يحتملنى فى صبر الرجل الذى يعرف كيف يصل الى ما يريد ..

وكل شىء يتغير حولى بسرعة .. اسرع من تفكيرى .. لم نعد نتردد على زيزى .. ولم تعد أمى تشجع الرجال الذين تعرفهم على التردد علينا .. كأنها قررت أن تكتفى من كل الرجال بعبد الفتاح .. وأصبحت أحس أن هناك قوة تدفعنى لتحصرنى فى ركن ضيق حتى تفترسنى .. قوة خفية لا أراها ، ولا استطيع ان اقاومها ..

وأنا خائفة ..

خائفة ..

حائرة ..

مرتبكة ..

محرومة من الحب ..

وأبكى ..

وصحتى تسوء ..

و ..

وفى يوم دق جرس التليفون ، وكنت بجانبه صدفة ، وأمى فى المطبخ ..

ورفعت السماعة ..

وسمعت صوت عادل .. عرفته بعد هذا العمر الطويل ، وصرخت :

— عادل ..

ثم خفضت صوتى حتى لا تسمعنى أمى ، وقلت :

— جيت امتى ..

وقال عادل فى صوت تمزقه أنفاسه :

— وصلت البيت من نص ساعة بس .. ما كنتيش بتردى على جواباتى ليه يا نوجا ..

وقلت وأنا أتلفت حولى :

— أنا ما وصلنيش منك ولا جواب .

قال فى دهشة :

— ازاى ده .. أنا كنت بابعت لك كل يوم جواب .. وبعدين بقيت أبعت كل أسبوع .. ما كنتش مصدق انك حاتفضلى طول عمرك ما ترديش علىّ .. و ..

وقاطعته قائلة :

— انت فين دلوقتى ؟

قال :

— فى البيت ..

قلت :

— أقدر اشوفك ..

قال :

— طبعا .. انا جيت مخصوص علشان اشوفك ..

قلت :

— بس مش فى بيتكم ..

قال :

— فين ؟

قلت :

— فى حته ما حدش يشوفنا فيها ..

قال فى تردد :

— تحبى فين ؟

قلت بسرعة وأنا أهمس :

— فى شقة أخوك .. دلوقتى حالا ..

وضعت سماعة التليفون .. ودون أن التفت خلفى .. دون أن أبدل ثيابى .. سرت على أطراف أصابعى .. وفتحت الباب فى هدوء .. وأغلقته بلا صوت .. وخرجت ..

سرت فى الشارع بخطوات سريعة .. أكاد أجرى .. وأتلفت خلفى خوفا من أن تكون أمى قد لحقت بى .. وأتلفت حولى باحثة عن سيارة تاكسى .. ثم تذكرت أن عادل كان يحدثنى من بيته فى حلوان ، وأنه لن يستطيع أن يصل الى موعدنا فى شقة شقيقه بالعجوزة ، قبل ثلثى ساعة على الأقل .. وتذكرت أيضا أنى لا أحمل معى نقودا . نسيت أن آخذ معى نقودا .. وحتى لو كنت قد تذكرت النقود ، فلم أكن أستطيع أن أحمل منها شيئا ، الا اذا أخذته من أمى فهى لم تعودنى على أن تكون لى نقود خاصة بى .. ولم تخصص لى أبدا « مصروف ايد » .. فهى دائما معى ، وما أريده تشتريه لى بنفسها ..

وقررت أن أسير على قدمى من الجيزة الى العجوزة ..

واخترت أن أسير فى الشوارع الخلفية .. حتى لا ترانى أمى اذا ما فكرت فى اللحاق بى ..

وسرت طويلا وأنا سارحة ، لا أكاد أتبين جوانب الطريق الذى أسير فيه .. لا أكاد أرى الناس من حولى .. ثم فجأة ، اكتشفت أنى سارحة فى أمى .. أفكر فيها .. وأفكر فيما يمكن أن يحدث لها عندما تكتشف اختفائى ... وأفكر فى الحياة التى نعيشها معا .. وفى أونكل عبده .. وفى زيزى .. لم أكن أفكر

فى عادل .. ولم أكن هائمة فى لحظة لقائى معه ، بعد هذه الغيبة الطويلة التى استمرت أكثر من عام .. لم أكن أشعر باندفاعى اليه .. ولا بالشوق اليه .. ولا بحبى له .. كل هذه العواطف والأحاسيس كانت غايبة عنى وانا ذاهبة اليه .. كل ما كان يشغلنى، هو احساس بأنى هاربة من أمى ..

وحاولت أن أتعمد التفكير فى عادل .. حاولت ان اتصور شكله بعد هذه الغيبة الطويلة .. هل امتلأ وازداد سمنة .. هل لا تزال على شفتيه هذه الابتسامة اللاهية .. هل لا يزال فى عينيه هذا البريق الجرىء .. وحاولت ان أملأ صدرى بالاحساس بالحب .. وأن أهيم فيه .. وأن أفرح به .. ولكنى ما لبثت أن وجدت نفسى أعود الى التفكير فى أمى ..

انى متأكدة أنى هاربة من أمى ..

ولكنى لست متأكدة انى هاربة الى عادل ..

ليس عادل هو السبب فى هروبى ..

ولكنها أمى التى أهرب منها ..

انى أفر من الحياة التى تعدها لى أمى ..

ولست هاربة الى حياة أعرفها واريدها لنفسى ..

وبدأت اشك فى أنى لا زلت أحب عادل ..

وحاولت أن أطرد هذا الشك ..

خفت .. خفت أن اكتشف انى لم أعد أحب عادل .. وتمنيت ان أكون مخطئة فى ظنى .. انى فى حاجة الى حب عادل .. فى حاجة الى أى حب ، لينقذنى من المصير الغامض الذى أنساق اليه .. ليمنحنى القوة على مواجهة أمى .. وأونكل عبده ..

وهززت رأسى كأنى أنفض عنها ظنونى ..

لاشك انى لا زلت احب عادل .. وسأكتشف حبى لحظة

لقائى معه . ولكنها القطيعة الطويلة التى مرت بيننا هى التى تثير ظنونى ، وتسلط الشك على حبى ..

هكذا قلت لنفسى .. ثم عدت أفكر فى أمى .. وأونكل عبده ..

وسرت أكثر من ساعة .. أدخل فى شارع واخرج من شارع ، دون أن اشعر بالتعب .. أفكارى تلهينى عن التعب ..

ووصلت الى العمارة التى تقع فيها شقة شقيق عادل .. ولكنى اخذت أطوف حولها ، الى أن قدرت انه قد مرت فترة كافية لوصول عادل من حلوان ..

وصعدت الى الشقة ..

لم اكن مرتبكة ..

ولكنى كنت لا أزال افكر فى أمى ، لا فى عادل ..

وحتى اللحظة التى ضغطت فيها على جرس الباب ، وانا افكر فى أمى ..

وفتح الباب ..

وكأنى افقت من افكارى .. عدت من عالم بعيد لم يكن فيه عادل ..

ولم استطع أن اتبينه كله من النظرة الأولى .. بدا أمام عينى كالصورة المهزوزة .. وقبل أن اتبينه شدنى اليه ، وأغلق الباب بيده الأخرى ، ثم احتوانى فى صدره ، وهو يهمس :

— نوجا ..

وضغطنى اليه كأنه يحاول ان يدخلنى تحت ضلوعه ..

وحاولت أن أستريح على صدره .. وملت برأسى على كتفه ، وأغمضت عينى لأنسى كل شىء الا احساسى به .. ولكنى لا أستطيع أن أنسى .. ولا أن أرتاح .. كل ما أحس به انى

مستسلمة له .. وضغطت باغماض عينى .. ففتحتهما .. واصطدمتا بحائط الغرفة الذى أمامى ..

وأبعدنى عادل عن صدره .. وأخذ ينظر الى بعينين مبتسمتين .. وأنا أنظر اليه كأنى أبحث فيه عن حبيبى القديم .

وخيل الى أنه تغير ..

عيناه ليس فيهما هذا البريق الجرىء .. ان فيهما بريقا .. ولكنه بريق حاد لا يخلو من قسوة .. بريق عينى رجل خاض معركة الحياة فى أعنف ميادينها .. وابتسامته مستقرة هادئة .. ابتسامة رجل لم يعد يلهو ..

ونظرت اليه نظرة ثانية ..

لقد ازداد سمنة .. وخيل الىّ أن قامته قد قصرت .. ووجهه أصبح أشد سمرة ، وخطوط عميقة تدور حول جانبى أنفه وتحدد خديه .. كأنها أثار جراح تركتها معركته هناك .. فى الصحراء .. وشارب صغير فوق شفتيه .. خيل الىّ أنه شارب معفر ، لا تزال عليه آثار الرمال التى تقذفها الريح فى وجوه القوم الرحل ..

وهمس عادل وهو ممسك بكلتا يدى .. وعيناه تطلان فى عينى وابتسامته تنطلق على وجهه كله :

— وحشتينى .. وحشتينى قوى ..

وقلت وبين شفتى ابتسامة لا أحس بطعمها :

— وانت كمان ..

قال ورموشه تهتز فوق عينيه كأنه حائر من أين يبدأ :

— كده تسيبينى من غير ولا كلمة .

قلت وشىء كخيبة الأمل يزحف على صدرى :

— قعدنى الأول يا عادل .. أنا تعبانه موت .. تعرف انى جايه ماشيه من بيتنا لغاية هنا ..

قال :

— مش معقول ..

قلت :

— أصلى هربت من ماما .. وما كنتش معايا ولا مليم .. وكان لسه بدرى على ما تيجى من حلوان ..

وجذبنى من يدى وأجلسنى على الأريكة .. نفس الأريكة التى سفحت عليها عذريتى .. وطفت بعينى فوق الأريكة قبل أن أجلس عليها ، كأنى أبحث فيها عن شىء غال فقدته .. ثم تعمدت أن أجلس فوق شخص آخر راقد عليها .. كأن هذا الشخص الآخر هو أنا .. وكأننى لا زلت راقدة فوقها منذ هذا اليوم البعيد ..

وقال عادل وهو يجلس بجانبى ملتصقا بى :

— أنا متأكد ان مامتك هى اللى كانت بتاخد جواباتى وتخبيهم عنك ..

قلت وأنا لا زلت هائمة فى هذا اليوم البعيد :

— يجوز ..

ثم التفت اليه واستطردت قائلة :

— بس أنا عرفت عنك حاجات كتير زعلتنى .. ويمكن لو كنت استلمت جواباتك ما كنتش رديت عليك ..

قال وحاجباه يرتفعان فى تساؤل :

— عرفتى ايه ..

قلت بلا حماس ودون أن أتألم ، كأنى اتحدث عن موضوع لا يهمنى :

— عرفت انك خرجت مع أختى ، وجبتها معاك هنا .. فى الشقه دى ..

وصرخ عادل :

— كدابين .. اللى قالولك كده كدابين .. عايزين يوقعوا بيننا .. انا كنت باروح لمامتك الحقيقيه واختك علشان أعرف أخبارك . علشان يساعدونى على أمك التانيه ..

ونظرت اليه .. ولم يهمنى كثيرا أن اتأكد من صدقه .. وقلت فى فتور وقد بدأت أحس بالتعب يسرى فى مفاصلى اثر المشوار الطويل الذى مشيته ..

— يجوز ..

وقال عادل :

— ما تقوليش يجوز .. صدقينى يا نوجا .. وحياتك عندى ان كلامهم كدب ..

وأجبته وابتسامة فوق شفتى كأنى أطمئنه :

— مصدقاك ..

ومرت بيننا فترة صمت ثقيلة .. تبادلنا خلالها نظرات مختلسة .. وخيل الىّ لحظتها أن كلا منا قد اكتشف أنه صدم فى الآخر .. لست وحدى التى صدمت .. ولكن عادل ايضا صدم .. ولست وحدى التى شعرت بأن عادل قد تغير .. هو أيضا شعر بأنى تغيرت .

ورغم ذلك كان يجب أن نتأكد من حقيقة عواطفنا ..

كان يجب أن نحاول استعادة حرارة الحب الكبير الذى عشت فيه صباى وشبابى .. الحب الذى روى أيام عمرى حتى تفتحت ..

واقترب عادل منى وقال وأنفاسه تطوف بوجهى :

— احنا مش حانسيب بعض بعد كده ابدا يا نوجا .. ولا يوم .. ولا ساعه .. ما حدش يقدر يفرقنا عن بعض .

وقلت وانا أرخى عينى عن عينيه :

— انا تعبت قوى يا عادل ، من يوم ما سبتنى ..

قال وشفتاه تقتربان من شفتى :

— خلاص .. من هنا ورايح ، مش حاتتعبى أبدا ..

واغمضت عينى ..

كنت أريد قبلته ..

أريد أن اتأكد من انها لا تزال القبلة التى عشت فى ذكراها طويلا ..

واقتربت شفتاه أكثر ..

أحس بهما تلامسان شفتى ..

وانا مغمضة العينين ..

وأتمعن فى قبلته كأنى اتذوق طعاما لأتأكد من انه لا ينقصه الملح ..

لا .. ان قبلته ينقصها شىء .. ينقصها الملح .. وشفتاى اللتان احسست بهما كاليتيمتين يوم تركهما ، لا أحس بهما كأنها عادتا الى أبيهما .. أحس بهما كأنهما لا يذكران هذه القبلة .. تاهتا عنها ..

وتركته يقبلنى أكثر ..

اخذ شفتى كلهما بين شفتيه .. يعتصرهما .. يحاول كل جهده أن يبعث فيهما الحياة ..

وشفتاى صامتتان .. مستسلمتان .

وبذلت جهدا كبيرا كى أحركهما بين شفتيه .. كى أبادله قبلته ..

ولكنى لا زلت غريبة عنه ..

وتركته يتمادى أكثر ..

يضغطنى الى صدره فى عنف ، كأنه يختبىء فى ليستظل بجسدى ، بعد الشهور الطويلة التى قضاها فى صحراء الكويت .. ويده تمسح على ظهرى .. وأصابعه كلها منفرجة عن بعضها كأنه يحاول أن يكومنى فى قبضته .. ثم زحفت أصابعه ومست صدرى .. صدرى الذى كبر بين يديه .. صدرى الذى أخذه ممسوحا وتركه مكورا ناضجا ..

وانا اراقب كل لمسة من لمساته بعقلى .. كأنى أبحث عن صداها فى جسدى .. وفى قلبى ..

جسدى بارد كالثلج .. وأعصابى صامتة كعروق الخشب .. وقلبى يتململ فى ضيق .. وصدرى لا يستطيع أن يتعرف على هذه اليد التى ربته ، وأنضجته .. أنى لا أحس بشىء رغم شهور الحرمان الطويلة التى مرت بى ..

ولكنى لا زلت مستسلمة ..

أحاول أن أبحث فى عادل عن حبيبى ..

ثم مال بى فوق الأريكة .. وأنفاسه تحرق وجهى كلفح النار .. واحدى يديه مدسوسة فى شعرى ، ويده الأخرى تقفز فوق كل قطعة من جسدى .. وثقله كله فوقى ..

وأنا لا أطيق أن أغمض عينى ..

ولا أطيق أن أفتحهما ..

ووصلت يده الى طرف ثوبى ، وهم أن يرفعه ..

وفكرت أن أبقى مستسلمة ..

لم لا ؟!

ان من حقه علىّ أن أستسلم له .. انه الوحيد فى حياتى

الذى عبر على جسدى .. انه صاحب هذا الجسد .. انه الرجل الذى صنعنى .. وصنع منى امرأة .. انه زوجى ، حتى ولو لم نكن قد تزوجنا ..

ولكنى لم أستطع ..

لم أعد أطيق مزيدا من الاستسلام ..

أعصابى تلتوى ..

والزهق يخنقنى ..

ومددت يدى امسك بطرف الثوب حتى لا يرفعه .. ونزعت شفتى من بين شفتيه .. وأشحت بوجهى عن وجهه ، وهمست

ــ كفايه يا عادل ..

ولكنه لا يريد أن يكف ..

وضايقنى أنه لا يريد أن يكف ..

كنت اعتقد انه اكثر رقة ، وأكثر حرصا على الا يأخذ منى أكثر مما أعطيه ..

ولكن .. لعله لا يصدق أنى لا اريد .. لعله يعتقد انى اتدلل عليه ... او انى خجلة من أن أعبر عن حاجتى اليه ..

واضطررت أن اقاومه .. وقلت فى عصبية وأنا احاول ان ازيحه عن صدرى ، وصوتى يفيض بزهقى :

ــ ما تبقاش مجنون يا عادل .. أنا تعبانه ..

وانزاح من فوق صدرى ..

واعتدلت من رقدتى ، وجلست أحاول أن أسترد أنفاسى .. وأنا احس بشعرات ذقنه الثقيلة وقد ألهبت وجهى ..

وقال وأنفاسه لاهثة :

ــ احنا لازم نتجوز يا نوجا .. لازم ..

قلت وأنا أساوى شعرى بيدى :

— وتفتكر ان ماما حاتسيبنا نتجوز ؟ ..

ونظرت الى الباب كأنى أتعجل أمى لتأتى وتضبطنى ..

وقال عادل :

— مش حانستنا لغاية مامتك ما تسبنا نتجوز .. وافقت ولا موافقتش ، لازم نتجوز ..

قلت :

— انت عارف ان ماما مش سهلة ..

قال :

— مهما عملت .. احنا تعبنا كتير يا نوجا .. وما تعرفيش انا تعبت قد ايه فى الكويت .. كل يوم كان بيفوت على زى سنه .. وكان كل الى مصبرنى انى كنت عارف انى باكسب واحوش علشان أرجع واتجوزك ..

ثم بدأ يحدثنى عن حياته فى الكويت .. وعن الأموال التى ادخرها من عمله هناك ..

وأنا أنظر بين الحين والحين الى الباب ، فى انتظار أمى .. لماذا تأخرت .. لقد مضت مدة كافية لتكتشف هربى ... ولابد أنها عرفت أنى هربت الى عادل .. أنها لم تصدق أبدا أنى نسيت عادل .. كانت دائما مؤمنة بأنى لا زلت احبه .. ولابد أنها عرفت أن عادل قد عاد من الكويت .. ما دمت قد هربت .. وربما اتصلت ببيته وعرفت من عائلته انه قد عاد فعلا .. ولابد انه خطر لها أنى سألتقى به فى هذه الشقة التى ضبطتنى فيها عندما هربت فى المرة الأولى منذ أكثر من عام ..

انها ذكية .. وفيها حاسة كلب الصيد ، تستطيع بها أن تتبعنى أينما ذهبت ..

فلماذا تأخرت ..

وقال عادل وصوته يأتى الىّ كأنه يشدنى من عالم بعيد :

— انا حاسس انك اتغيرت يا نوجا ..

ونظرت اليه كأنه كشف سرى ..

وقلت وأنا أحاول أن أبتسم :

— اتغيرت ازاى ..

قال وفى عينيه لوم وعتاب :

— مش عارف .. بس حاسس انك اتغيرتى .. ما بقيتيش زى زمان .. ومتهيألى انى ما وحشتكيش ..

قلت وابتسامتى ترتعش فوق شفتى :

— ابدا بس انا كنت يائسه منك .. وكما كنت عيانة .. من يوم ما شفنا بعض اخر مره وانا عيانه ..

وقال فى لهفة :

— عيانه ازاى ..

قلت ووجه الدكتور هاشم يقفز فى خيالى :

— بأعصابى ..

وامسك عادل بيدى ، وضغط عليها ، وقال :

— وانتى استحملتى كتير يا نوجا ..

ونكست رأسى صامتة ..

لقد احتملت فعلا .. وتغيرت .. وانى أحس اليوم .. فى هذه اللحظة .. بكل التغيير الذى حدث لى .. أحس انى لم أعد الفتاة التى أحبت عادل هذا الحب المراهق المعلق فى السحاب .. احس فى هذه اللحظة بالذات بأنى انسانة اخرى غير التى كنت اتصورها .. أحس بعقل جديد فى رأسى .. وقلب جديد فى صدرى .. وعالم جديد يحيط بى .. ان هذا العالم الجديد أصبح عالمى فعلا ، مهما أنكرت ، ومهما ترددت فى الاعتراف به ..

ولكن ما الذى غيرنى ؟

هل هو مجرد مرور الزمن ..

أم أنى كنت أحب عادل كفتاة ، ثم لم أستطع ان أحبه كامرأة ..

أم هو يأسى من عادل .. أيام أن انتزعتنى منه أمى ، وحطمت حبى ..

أم هم عشرات الرجال الذين رأيتهم فجأة حولى ، وكأنى تنبهت الى أن هناك رجالا غير عادل .. كلهم معجبون بى .. وكلهم يحبوننى .. ولكل منهم أسلوب فى اعجابه وحبه ، ويختلف عن أسلوب الآخر .. ويختلف عن أسلوب عادل ..

أم هو البذخ والاسراف والهدايا الكثيرة التى أذهلتنى ..

أم هو هاشم ..

لماذا أحشر هاشم فى كل حديث بينى وبين نفسى .. ان هاشم مر فى حياتى مرور النسمة العابرة .. ولا يمكن أن يكون قد ترك فيها أثرا يغيرنى .. ولكن .. من يدرى .. لعل هاشم قد غيرنى فعلا .. لعله هو الذى جعل لى ذوقا آخر فى الرجال .. لقد مرت أيام اعتقدت فيها أن هاشم يستطيع أن يحل فى قلبى محل عادل .. صحيح أنى أحسست أن تفكيرى فى هاشم هو مجرد طموح .. مجرد حلم بعيد .. ولكن فى هذه الأيام .. تحطمت صورة عادل فى قلبى .. لم يعد عادل هو مثلى الأعلى .. أصبح مثلى الأعلى هو هاشم .. شخصيته .. طبيعته .. حنوه .. وعمره الأربعين .. ومن يومها وأنا ابحث فى الرجال عن رجل مثل الدكتور هاشم ، لا مثل عادل ..

واقترب منى عادل مرة ثانية ، وحاول أن يقبلنى .. ولكن

ما كادت شفتاه تلمسان خدى ، حتى نفرت منه .. وهمست فى حزم :

— سيبنى دلوقت يا عادل ..

وأبتعد عادل وهو ينظر الى بعينين واسعتين ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة مسكينة .. كأنها ابتسامة رثاء .. يرثى بها حبنا ..

وعدت التفت الى الباب كأنى استغيث بأمى .. أستغيث بها من حيرتى ..

لماذا تأخرت ..

ووجدت نفسى ألوم أمى ، لانها تأخرت .. ثم أخيرا .. ارتفع رنين جرس الباب ..

وانطلقت فرحة خبيثة فى صدرى .. وقلت كأنى اخاطب نفسى :

— دى لازم ماما ..

وقال عادل :

— أنا مش حافتح ..

وقلت كأنى ارجو :

— لو ما فتحتش حاتفضل ماما تضرب الجرس ، انشاالله لغاية بكره الصبح .. وتعمل لك فضيحه فى العماره .. ويمكن تجيب البوليس ..

واكفهر وجه عادل وقال كأنه يستعد للحرب :

— طيب قومى خشى جوه .. وأنا حا اقول لها انك مش هنا ..

قلت وأنا اشفق عليه :

— ما فيش فايده يا عادل .. لازم نواجهها بصراحه ..

ونظر الىّ عادل طويلا ..

وجرس الباب لا يكف عن الرنين ..

وأنا التفت الى الباب .. ثم التفت الى عادل فى رجاء ..

ورنين الجرس يملأ اذنى كأنه جرس سيارة المطافىء فى طريقها الى اطفاء حريق ..

وزفر عادل انفاسه ، ثم قام وفتح الباب ..

وكانت أمى ..

مرتدية معطفها الأسود ، وعمامتها السوداء ، ووجهها المكرمش اشد قسوة ، والتجاعيد اكثر عمقا كأنها جروح قديمة جفت ، وعيناها ملهوفتان ، قاسيتان ، فيهما تحد مريع .. وخلفها ثلاث من سيدات جمعية نور الهدى ، متشحات بطرحهن البيضاء كأنهن الأشباح ..

وما كدت أراها حتى امتلأ صدرى بشعور التحدى ..

تحد ساخر ..

شعور اقرب الى الشماتة ..

ونظرت الى أمى كأنها تصفعنى بعينيها .. وقالت فى صوت مبحوح :

ــ كويس كده يا ست نوجا .. كويس لعب العيال ده ..

واتكأت على مسند الأريكة ، وقلت بلا مبالاة :

ــ أنا حره .. ما حدش له دعوه بى .

وصرخت :

ــ لا انت مش حره .. انتى مش سايبه .. انتى وراكى أهل لازم تحسبى حسابهم ..

والتفت سيدات نور الهدى حولى ، بطرحهن البيضاء ، وأجسامهن الضخمة ، كأنهن قررن خطفى .. أو قتلى ..

وقال عادل :

ــ احنا حانتجوز .. وما حدش حا يقدر يمنعنا من الجواز .. كفايه ضيعتى من عمرنا سنه .. حرام عليكى .. انتى ما فيش فى قلبك رحمه ..

وقالت أمى :

ــ لو صحيح قلبك عليها كنت جيت إتجوزتها من بيت أهلها .. بنات الناس ما بيتجوزوش فى الشارع يا سى عادل ..

ثم التفتت الىّ ، وقالت فى حزم :

ــ قومى يا ست نوجا وكفايه فضايح .. قومى معايا ..

وقلت كأنى أغيظها :

ــ لا .. مش قايمه .. مش عايزه ارجع بيتك تانى ..

وقالت فى تأثر :

ــ ده مش بيتى يا نوجا .. ده بيتك زى ما هو بيتى ..

ولو انها تركتنى فى هذه اللحظة ، لجريت وراءها ، ولحقت بها .. ولكنها لم تتركنى .. وقفت امامى تلح علىّ .. والنساء المتشحات بالطرح البيضاء صامتات ينظرن الىّ بعيون جامدة ..

ثم قالت أمى وهى تتنهد :

ــ قومى معايا يا حبيبتى .. وعادل ييجى يتقدم لك فى بيتك .. واحلفلك انى مش حا اعارض .. كفايه اللى حصل .. واللى انتى عايزاه حا يتعمل .

ونظرت اليها فى تعجب ..

غاظنى استسلامها ..

انها لا تدرى انى لم اعد اريد الزواج من عادل .. لا تدرى انى اكتشفت أن حبى قد ذبل .. أصبح كوردة كنت قد وضعتها بين صفحات كتاب .. ولم يبق من عبيرها الا الذكرى ..

وقفزت واقفة فى حدة :

— طيب اتفضلى .. اما اشوف .

وقال عادل وهو ينظر فى وجه أمى كأنه لا يصدقها :

— انتى بتتكلمى جد يا طنط ..

وقالت أمى وهى لا تنظر اليه :

— طبعا يا عادل .. انا عايزه ايه غير سعادة نوجا ..

وقال عادل بحماس :

— أفوت عليكم الليله دى ؟ .

وقالت أمى :

— خليها بكره ..

ثم أحاطتنى بذراعها وجذبتنى ناحية الباب ..

وخرجنا دون أن التفت الى عادل ..

وخلفنا الثلاث المتشحات بالطرح البيضاء ..

ووجدت فى انتظارنا أمام باب العمارة سيارة عبد الفتاح بيه رفعت .. أونكل عبده .. يقودها سائقه الخاص ..

وجلسنا داخل السيارة .. انا فى الوسط وبجانبى أمى . وحولى سيدات جمعية نور الهدى .. كأنى مجرمة ، قبض عليها . وفى طريقها الى السجن ..

ولم أتكلم خلال الطريق ، ولا كلمة .

وشعور جارف باليأس يملؤنى ..

اليأس من كل شىء ..

من الحب .. ومن المستقبل .. ومن السعادة .. ومن نفسى ..

ووصل ؟اليأس الى قمته فانقلب الى احساس باللامبالاة ..

لم أعد أبالى بشىء مما يجرى حولى .. لم أعد ابالى بما يمكن

ان يحدث لى .. بل لم أعد ابالى بأن أسأل نفسى عما أريد .. ولا بأن اضع معنى لتصرفاتى ..

وهززت كتفى ، وانا أخاطب نفسى ، كأنى أؤكد احساسى باللامبالاة .. وقالت أمى وقد لمحت هزة كتفى :

— مالك ..

قلت :

— ولا حاجة ..

ثم ابتسمت ابتسامة بلهاء ..

ووصلنا الى بيتنا ..

ودخلت حجرتى ، وانا منتظرة أن تلحق بى أمى لتسألنى عن التفاصيل .. كل التفاصيل .. التفاصيل التى تشبع شهوتها العجيبة لمعرفة ما يجرى بين الولد والبنت ..

ولكنها لم تلحق بى ..

ظلت مشغولة عنى .. تتحدث طويلا فى التليفون .. وحولها سيدات جمعية نور الهدى ..

وحوالى الساعة الثالثة ، سمعت رنين جرس الباب .. ثم سمعت صوت أونكل عبده .. وانتظرت أن تأتى أمى لتستدعينى لمقابلته كعادتها .. ولكنها لم تأت .. وتمسكت بعنادى .. ولم أخرج من غرفتى ..

وبعد أكثر من ساعة ، جاءت أمى ووقفت امامى ووجهها صارم جامد وقالت فى لهجة حازمة :

— عبد الفتاح بيه عايزك ..

قلت بلا مبالاة :

— ليه ؟ ..

قالت :

— ودى كمان فيها ليه .. ما تقومى تشوفى عايز ايه ..

وهززت كتفى .. وقمت وأنا بقميص النوم ، وارتديت فوقه الروب ، وهممت بالخروج من الغرفة .. وقالت أمى :

— مش تلبسى فستان احسن ..

قلت :

— مافيش لازمه .. أونكل عبده مش غريب ..

وخرجت ..

ووقف عبد الفتاح يستقبلنى ..

وابتسامة كبيرة على شفتيه الغامقتين ، وقال فى حنان مفتعل :

— انا زعلان منك يا نوجا .. كده تخضينا عليكى .. دى عمايل دى ..

وقلت :

— مش مهم ..

ثم جلست بجانبه .

ونظر الى أمى .. ونظرت اليه أمى .. ثم التفتت امى الى قائلة ، وهى تدفع أمامى ورقة كانت موضوعة على المائدة الصغيرة :

— خدى امضى هنا ..

قلت فى دهشة :

— ايه دى ...

قالت :

— دى يا ستى ورقه علشان تانى مره ما تحاوليش تتجوزى من ورانا ..

قلت :

— مش فاهمه ..

قالت :

— ما هو انا ما اقدرش استحمل اكتر من كده .. ما اقدرش اعيش وأنا خايفه فى كل لحظة انك تهربى وتتجوزى من ورانا .. الورقه دى تمنعك من انك تتجوزى من غير ما نعرف .. ويوم ما تحبى تتجوزى ، نبقى نقطعها ، ونجوزك اللى انتى عايزاه ..

قلت :

— ودى تبقى ورقة ايه دى ..

قالت أمى فى حزم :

— ورقة جواز ..

قلت :

— يعنى حا اتجوز ..

قالت :

— جواز كده بس لغاية ما تتجوزى بصحيح ..

قلت وأنا أضحك :

— وحاتجوز مين بأه باذن الله ..

وقالت أمى ووجهها يبتسم :

— عبد الفتاح بيه ..

وارتفعت ضحكتى ، كأنى أصرخ بها ، واستطردت أمى قائلة :

— الراجل الله يخليه ، حب يهدى سرى .. واتفقنا اننا نكتب الورقة دى .. يعنى زى ما تقولى كده جواز عرفى ... انما ما فيش أكتر من الورقه ..

وقلت وضحكتى لا تزال تصرخ وتملأ البيت كله :

— صحيح حا تتجوزنى يا أونكل ..

وقال عبد الفتاح بيه وعلى شفتيه ابتسامة هادئة :

— يا ريت يا نوجا ..

وقلت :

— وأنا فى ديك الساعه يا أونكل .. حد طايل ..

وجذبت الورقة ، وأمسكت بالقلم ، وقلت وأنا أوقع دون أن أقرأ شيئا :

— واديني مضيت ..

وأخذت أمى الورقة وطوتها بعناية ، ووضعتها فى صدرها .. وقالت :

— لازم تفهمى انك لو اتجوزتى دلوقتى حد تانى .. قبل ما نقطع الورقة دى .. حاتخشى السجن .. تبقى كأنك متجوزه اتنين ..

وقلت بلا مبالاة :

— ما تخافيش ..

وقال عبد الفتاح وهو ينظر الىّ بعينين هادئتين :

— وخدى ده كمان يا نوجا ..

وناولنى « شيك » ..

قلت :

— وده ايه كمان ..

قلت :

— ده المهر .. مش اللى بيتجوز بيدفع مهر ..

ونظرت فى الشيك .. انه بمبلغ الفى جنيه .. وهو مكتوب باسم أمى .. لا باسمى أنا ..

مهرى ألفين جنيه .. كويس !!

وابتسمت لعبد الفتاح بيه ، وقلت :

— مرسى يا أونكل ..

ثم انحنيت أقبله قبلة سريعة على خده ..

وقذفت بالشيك أمام أمى ..

وجريت الى غرفتى ..

وجاء أونكل عبده خلفى ..

- ٣ -

هذه الورقة التى وقعتها بامضائى ، والتى لم اقراها حتى اليوم ، والتى تسميها أمى ورقة زواج .. هذه الورقة حققت لأمى كل أمانيها ..

وكانت كل أمانيها أن تزوجنى لرجل لا يأخذنى منها .. رجل يتركنى لها .. زوج يتنازل عن كل حقوقه ، لها ، الا الحق الوحيد الذى لا تستطيع أن تباشره بنفسها !

وكان عبد الفتاح بيه رفعت ، هو هذا الرجل ..

ولم يكن عبد الفتاح يريد أن يتزوجنى .. كان الزواج بمعنى الزواج أبعد ما يكون عن خياله .. ولكنه كان يريد أن يأخذنى .. بأى ثمن .. وكان يعلم انه لا يستطيع أن يصل الىّ عن طريق قلبى .. ان عقليته وأسلوبه فى الحياة لا يحتملان هذا الطريق .. ثم انه كان يعلم أن هذا الطريق مسدود أمامه .. ليس عنده شىء يمكن أن يفتح به قلبى .. كل ما عنده هو ثراؤه .. ماله .. فالطريق الوحيد هو أن يشترينى .. يشترينى ممن ؟ ! من نفسى !! لا ... لقد اكتشف أننى لست حرة نفسى .. عرف أنى ، سواء بارادتى او بغير ارادتى ، ملك لأمى .. فقرر ان يشترينى من أمى

.. وبعقلية المقاول بدأ يقاول أمى علىّ وصـــبر طويلا على مساومتها .. مساومات كانت تجرى من وراء ظهرى .. لا أعلم بها .. وأمى ليست هينة .. انها تستطيع أن تساوم .. وهى فى الوقت نفسه ليست سيئة الى حد المجاهرة بسوئها ، فهى تريد أن تجد غلالة تغطى بها عملية البيع والشراء .. ولكنها كانت تعلم طول الوقت أن هناك مصلحة مشتركة بينها وبين عبد الفتاح .. فعبد الفتاح يريد أن يأخذنى ، ولكنه لا يريد أن يأخذنى منها .. بالعكس .. انه حريص على أن يبقينى معها .. فهو متزوج وله أولاد كبار ، وله مركزه الاجتماعى الذى يحرص على مظاهره ، وكل ذلك يفرض عليه أن تبقى علاقتى به فى السر .. لا يعلم بها أحد .. وكى لا يعلم بها أحد يجب أن أبقى مع أمى ، وأن تبقى لى كل مظاهر البنت التى لم تتزوج بعد .. حتى لو كان من بين هذه المظاهر أن يتقدم لى الخطاب .. وهذا يرضى أمى .. انها تستطيع بذلك أن تضمن انى سأبقى لها الى الأبد .. ملكا خاصا .. فى بيتها .. أمام عينيها .. هى وحدها صاحبة الحق علىّ .. ليس هناك رجل يشاركها فى سلطتها علىّ ..

وقد انتهت المساومة الى الاتفاق على كتابة هذه الورقة .. التى تسميها أمى زواجا .. أو زواجا عرفيا .. انها فى الواقع عقد بيع .. وعقد بيع من نسخة واحدة تحتفظ به أمى .. فقد رفضت أمى أن يكتب العقد من نسختين يحتفظ عبد الفتاح بالنسخة الثانية منها ، حتى لا يكون له حق يشهره فى وجهها وتكون هى وحدها صاحبة الحق عليه .. ورضى عبد الفتاح .. لأنه لم يكن يريد أن يكون له حق أكثر من الحق الذى يعلم أن أمى وافقت عليه ..

وكانت هذه الورقة هى الغلالة التى طوت فيها أمى ضميرها

.. انها لا تبيعنى .. انها لا تعطينى لرجل فى الحرام .. ولكنه زواج .. زواج عرفى .. فيه كل ما يتطلبه الشرع .. والدين الحنيف ..

ورغم ذلك ترددت أمى فى أن تعرض على مشروع هذا العقد .. كانت خائفة منى .. خائفة من أن تفقد بقية هيبتها أمامى .. الى أن هربت الى عادل ..

وكانت تعتقد انى لم ابرأ من حبى لعادل .. وانى لن أكف عن محاولة الهرب اليه ، والزواج به رغم أنفها .. فقررت أن تنفذ مشروع الاتفاق بينها وبين عبد الفتاح ..

أن تزوجنى له ..

هذا النوع من الزواج !

وكل ذلك لم أتبينه لحظة أن وقعت على الورقة .. لم أعط نفسى مهلة للتفكير .. كنت واقعة فى براثن اليأس الذى انقلب الى لا مبالاة ، بعد أن اكتشفت الفراغ القاتل الذى يملأ قلبى بعد أن تأكدت أنى لم أعد أحب عادل .. وان كل ما كنت أحس به نحوه ، لم يكن سوى وهم تثيره ذكريات حب مراهق .. حب لم يكبر مع عمرى .. تخلف مع طفولتى ..

ودخل عبد الفتاح ورائى الى غرفتى ..

تركته أمى يدخل ورائى ، وبقيت منتظرة قريبا من الباب ، فى حجرة الضيوف .. وأبى المشلول فى حجرته ، لا يدرى شيئا من كل ما يجرى فى بيته ..

والقيت نفسى على الفراش وانا لا زلت بالروب فوق قميص النوم .. ونظرت الى عبد الفتاح نظرة لا مبالية .. ربما كان فيها كثير من السخرية ..

وجلس على حافة الفراش .. وأخذ يتكلم .. لم يكن يهمنى ما يقول ولكنى كنت اريد أن اسمع كلاما .. اى كلام .. كلام يشعرنى بأن هناك شيئا يحدث فى حياتى .. أى شىء ينتشلنى من هذا الركود .. من هذا السأم .. من هذا الفراغ .

وعيناى تطلان على وجهه .. ربما كنت أسمع كلامه بعينى اكثر مما أسمعه بأذنى .. أسمعه ينطلق من تجاعيد وجهه الأسمر . سمرة تميل الى زرقة .. ومن السنوات الخمسين التى تحيط بعينيه .. ومن شفتيه الرفيعتين الحازمتين اللتين يملى بهما مشيئته على الناس .. ومن أصابع يديه القصيرة الغليظة كأنها تآكلت وهو ينبش بها الأرض بحثا عن كنز هارون الرشيد ..

وخطر على بالى سؤال ..

هل يحبنى ..

عبد الفتاح .. هل يحبنى ؟

غريبة أن أسأل نفسى هذا السؤال .. ان موضوع الحب لم يكن ابدا موضوعا بيننا .. هو يعلم ذلك .. وأنا أعلمه .. ولكن لماذا ألغى الحب بيننا .. لماذا افترض ان كل ما هو بيننا هو بيع وشراء .. انه لم يشترنى الا لأنه يحبنى .. وأنا .. وأنا لم أبعه نفسى الا لأنى وجدت فيه شيئا أحبه .. ربما احساسى بقوته .. أقصد قوة ثرائه .. قوة نفوذه .. قوة صبره على طول الشهور التى مضت .. قوة ذكائه التى استطاع أن يصل بها الىّ .. قوة اهتمامه بى .. انى لم أحس بكل هذا تجاه أى رجل آخر من الرجال الذين قدمتهم الى زيزى ..

ووجدت نفسى أسأله كأنى أحادث نفسى :

ــ بتحبنى يا أونكل ..

وابتسم عبد الفتاح ابتسامة الرجل الصبور ، وقال :

ــ قوى يا نوجا .. باحبك قوى .. أنا كل ما ابص لك يتهيألى انى لسته عندى خمسه وعشرين سنه .. وكل ما بتضحكى بتهيألى ان الدنيا كلها بتضحك .. بتضحك لى أنا .

وسرحت ..

أحاول أن أحس بصدى كلماته فى قلبى .. انى فى حاجة الى الحب .. أى حب .. وحاجتى الى الحب هى التى تدفعنى الى التفكير فى الحب ..

ونظرت الى عينى عبد الفتاح .. وفيهما لمعة خاطفة .. انه يحبنى بطريقته الخاصة .. طريقة الرجل الغنى .. يحبنى كما يحب تحفة .. كما يحب عمارة .. حب تغلب عليه أنانية الامتلاك .. كحب أمى .. ولكنه حب ..

وأفقت من خيالى ، وعبد الفتاح يقترب بشفتيه من شفتى ..

ولم أحاول أن أهرب من شفتيه ..

خيل الى أن محاولة الهروب ، لا داعى لها .. فأنا وقعت الورقة .. والرجل دفع ألفى جنيه .. وأمى تقول أن هذا زواج .. ثم انى أريد أن يحدث لى شىء .. أن أتسلى بشىء .. أى شىء .. لا أبالى بأى شىء ..

ثم تملكنى شعور جارف بأنى أريد أن أتفرج على عبد الفتاح بيه رفعت ، الغنى المشهور ، صاحب النفوذ .. وهو يمارس الحب ..

وتفرجت ..

وتفرجت على شفتيه وهما تتحركان بين شفتى .. فى اشتهاء عنيف جشع .. وتفرجت على عينيه تبرقان أحيانا كأنهما ستنطلقان من وجهه ، ويغمضهما أحيانا كأنه يحتفظ بهما لنفسه ، خوفا من

أن يدركاه ويفرا الىّ .. وتفرجت على يديه الثقيلتين الجافتين ، وهما تختاران الأماكن التى تتحسسانها من جسدى .. وتفرجت عليه وهو يخلع ثيابه فى هرولة مضحكة ، وتفرجت على وجهه وهو يحتقن ويزدرد ويسخن .. وتفرجت على أنفاسه وهى تفح وتلهث .

تفرجت ...

كل ما احسست به ، هو احساس المتفرجة .. كأنى اشاهد فيلما سينمائيا .. للكبار فقط .. كأن هذا الجسد ليس جسدى .. وكأن كل ما حدث لا يحدث لى .. انا بعيدة .. هناك مقاعد المتفرجين .. اتفرج ..

ولم أذكر ساعتها أنى لست عذراء ..
لم يخطر على بالى هذا الموضوع ..

ولم يحاول عبد الفتاح أن يذكرنى به .. لم تبد على وجهه دهشة عندما اكتشف أنى لست عذراء .. ولم يسألنى ، ولا علق بشىء ..

ربما لأنه كان يعلم بينه وبين نفسه ، أن العلاقة بيننا لا تتطلب أن أكون عذراء ، ولا تعطيه حقا ليحاسبنى على الماضى .. وربما لأن عقد البيع لم يسجل فيه انى عذراء ..

المهم أن هذا الموضوع لم يقلقنى ابدا طول فترة علاقتى بعبد الفتاح .

ولكنى يوما .. وبعد أن ارتدى عبد الفتاح ثيابه ، وخرج ليشرب فنجان قهوة مع أمى .. بدأت أحس احساسا جديدا .. احسست بأنى سخيفة ..

كل ما حدث .. سخافة !
وانا .. سخيفة ..

استسلامى سخيف ..
وأفكارى سخيفة ..
والفيلم الذى شاهدته سخيف ..
انى لست نادمة ..
ولا سعيدة طبعا ..
ولا أريد أن ابكى ..
ولا اريد أن ابتسم ..
فقط .. سخيفة !

واحساسى بالسخافة يملؤنى .. يسرى فى كل عروقى .. إنه احساس مؤلم .. ليس هينا ابدا الشعور بالسخافة .. انى أحس بشىء ينزف من قلبى .. وأحس بأعصابى تتلوى .. ولا استطيع شيئا .. ليست لى دموع تريحنى .. ولا أجد دافعا للصراخ حتى أصرخ وأرتاح .. ولا أستطيع أن الوم احدا .. ولا أمى .. ان السخافة عذاب متجمد .. أصم .. كالخشب .. كعمود من الحديد أحمله فى صدرى .. وأتلوى فى فراشى .. وأخفى وجهى فى وسادتى .. وأضرب عليها بقبضتى .. وصدرى ضيق ..

وجاءت أمى بعد أن خرج عبد الفتاح من البيت ، لتسمع منى التفاصيل .. كل التفاصيل .. ورفعت اليها رأسى فى زهق ، وقلت بلا صراخ :

— سيبينى دلوقتى يا ماما .. انا تعبانه ..

وخرجت أمى ..

ولكنها عادت لتنام بجانبى طول الليل ، فى انتظار أن تسمع التفاصيل .

انها لن تستريح أبدا . الا اذا سمعت التفاصيل .. كل التفاصيل ..

وتغيرت حياتنا بعد ذلك ، بفضل سخاء عبد الفتاح ..

انتقلنا من شقتنا الصغيرة فى الجيزة ، الى فيلا فى شارع الهرم ..

وجددنا أثاث البيت كله ..

وأصبح عندنا طباخ وسفرجى ..

وفى عيد ميلادى اشترى لى عبد الفتاح سيارة أوبل كابتن ، لونها أبيض .. ورفضت أمى أن أتعلم قيادتها .. خافت علىّ .. وربما خافت أن أهرب بها .. وأصبح عندنا سائق أيضا ..

وعلاقتى بعبد الفتاح لا تزال سرا .. لا يعلمه أحد .. والذين يعلمون لا يعلمون أكثر من أنه صديق العائلة ، وبعضهم يعتقد أنه قريب لنا .. ولا زلت أناديه أمام الناس ، وأمام أبى أيضا « أونكل عبده » . وهو لا يأتى لزيارتنا اكثر من مرتين فى الأسبوع .. ويأتى غالبا فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وينصرف فى السادسة .. وتستعد أمى لزيارته بأن تخلى البيت الا منى ومنها .. تصرف الطباخ .. وترسل السائق فى مشوار .. تكلف السفرجى بأن يأخذ أبى المشلول فى كرسيه ذى العجلات ، ويخرج به فى نزهة بشارع الهرم .. ثم يأتى عبد الفتاح الى غرفتى .. وتجلس أمى قريبا من الباب ..

وعندما يعود أبى من نزهته ، يكون عبد الفتاح قد خرج من غرفتى وجلس مع أمى فى الصالون ، يشرب فنجان القهوة ..

ولم يكن أبى يحب عبد الفتاح ولم يكن يكرهه .. ولكنه مستسلم لوجوده وسط العائلة .. استسلامه لكل شىء وربما كان يشعر ببعض الاعتزاز بأن يكون احد أصدقاء العائلة

رجلا مهما مثل عبد الفتاح بيه رفعت .. ربما .. فانى لم استطع ان اعرف أبدا حقيقة شعور أبى نحو عبد الفتاح .. لسانه المشلول كان يمنعه من التعبير عن شعوره .. وعيناه كانتا تصمتان وتموتان كلما رأى عبد الفتاح أو تحدثنا عنه امامه ..

وفيما عدا هذا ، كنت أعيش حياة فتاة عادية ..

فتاة ..

بنت ..

أمى تعاملنى امام الناس على انى فتاة ، وتأخذنى وتزور بى العائلات ، وتقبل الحديث عن خطوبتى .. بل انها لا تمانع فى استقبال الخطاب .. وأنا بدورى لا أمانع فى أن ابدو أمام كل خطيب تعرضه على احدى صديقات أمى الكثيرات .. غريبة .. ان خطابى كثيرون .. وكلهم يلحون .. أمى هى التى ترفضهم دائما .. وعادل لا يزال يحاول أن يتصل بى .. ولكنها محاولات يائسة .. وأنا أريده أن يظل على اتصال بى .. فقد كان عادل هو سلاحى الذى أهدد به أمى .. اهددها بالهرب اليه والزواج منه .. وكانت أمى لا تزال مقتنعة بأنى أحبه ، وكنت أتركها على اقتناعها .. حتى تظل خائفة .. وافتعل معها خناقات أهددها فيها بالهرب الى عادل .. لتخاف أكثر ..

ولكنى اشعر بالسخافة ..

الاحساس بالسخافة لا يفارقنى أبدا .. سخافة حياتى كلها .. سخافة التمثيلية التى أعيش فيها .. وأحاول أن أهرب من هذا الاحساس بالسخافة .. فأملأ وقتى بأشياء تافهة .. كل يوم أنزل أنا وأمى لنطوف بالحوانيت .. وأشترى .. أشترى فى جنون .. اشترى بلا مزاج وبلا ذوق .. وفلوس عبد الفتاح لا تنتهى .. وكل يوم اذهب الى سينما أو فى زيارة .. ثم عرضت

على أمى أن نعود الى زيارة زيزى .. ورفضت أمى .. لقد كانت تريد أن تكتفى من مجتمع زيزى بعبد الفتاح .. ولكنى صممت .. انى زهقانه واريد حياة تشغلنى عن نفسى .. واريد حياة صاخبة .. مزدحمة .. حفلات .. ورجال .. ورقص .. ولكن أمى ترفض .. وشتكوت لعبد الفتاح .. ولم يكن عبد الفتاح يرفض لى طلبا .. فاستطاع أن يقنع أمى بأن تسمح لى بزيارة زيزى .. وقال لها :

— ما دام انتى معاها يا عزيزه هانم .. أنا مطمئن عليها ..

وردت أمى قائلة :

— انت عارف يا عبد الفتاح بيه انى مش موافقه على عيشة زيزى .. والناس بتتكلم عنها كتير .. واحنا مش ناقصين كلام .. نوجا لسه صغيره ومش زى الستات اللى بيتلموا على زيزى ..

وقال عبد الفتاح كأنه يدخل مع أمى فى مباراة نفاق .. وكل منهما يعلم حقيقة الآخر :

— يا ستى .. الناس بتتكلم على بعض بالحق والباطل .. والحقيقه زيزى ست مسليه ، وبتحب نوجا .. وما دام انتى معاها .. خلاص .. انتى الخير والبركه ..

وكان عبد الفتاح مطمئنا على فعلا ما دامت أمى معى .. كان واثقا أن أمى تعمل لحسابه .. أصبحت موظفة عنده .. وظيفتها أن تحتفظ بى له .. وتعدنى له .. وتسجننى له .. ويصل عن طريقها الى كل ما يريده منى .

وعدنا الى حياة زيزى ..

أنا وأمى ..

ولكن زيزى لم تعد تعاملنى على أنى فتاة جديدة على مجتمعها

.. لم أعد فى نظرها فتاة ساذجة .. ولم تعد أمى أما ساذجة .. لقد عرفت أننا أخذنا عبد الفتاح .. صحيح أنها لا تعلم بمدى العلاقة التى أصبحت تربطنى بعبد الفتاح .. لا تعلم بأمر الورقة المكتوبة بيننا .. ولكنها تعلم كل شىء بعد ذلك .. بل انها فى أول يوم عدنا الى زيارتها قالت وهى تطلق ضحكتها الصارخة :

— وازاى عبد الفتاح بيه .. ده من يوم ما شافك عندى أول مره ما حدش شافه .. انما مش والنبى راجل كريم .. مش قلت لك .. مافيش حد فى كرمه أبدا .. دم بيرمى الفلوس رمى ..

وكانت تتكلم وهى تنظر الى ثوبى ، والى الساعة التى فى معصمى ، والخاتم الذى فى أصبعى ..

ورغم ذلك لم تكن زيزى تمانع فى أن نعود الى صداقتنا .. فهى فى حاجة الى كل وجه جميل تستطيع أن تزين به سهراتها ، وترضى به أصدقاءها الكثيرين ..

وبدأت أسهر فى المحال العامة ..

وأصدقاء زيزى يترددون على مستوى معين من المحال العامة .. الأوبرج .. الشجرة .. الأريزونا .. هناك مستوى آخر من المحال لم أذهب اليه مع شلة زيزى .. شبرد .. وسميراميس .. والهيلتون .. هذه المحال ذهبت اليها مع شلة أخرى ..

واذا لم أسهر فى المحال العامة سهرت فى الحفلات الخاصة التى تقيمها صديقات زيزى .. وكلهن زوجات .. أزواجهن مغفلون ..

ونظرات الرجال من حولى تلسعنى ..

انى لا زلت أجمل وأصغر من فى الشلة ..

وكنت أتسلى بلسع نظرات الرجال .. ولكنى أصبحت

عصبية .. أنى أضحك فى عصبية .. وأتكلم فى عصبية .. وأتحرك فى عصبية .. والبس وأتزين فى عصبية .. ذوقى فى اختيار ثيابى أصبح ذوقا عصبيا .. أصبحت أنتقى ثيابا تكشف عن مساحات كبيرة من لحمى .. وأتزين زينة فاقعة .. لا لشىء .. الا لأنى عصبية .. وأحيانا أجرح بعصبيتى دون قصد .. ألقى كلمة تجرح .. أو ضحكة تجرح .. أو حركة تجرح .. وأمى بجانبى بمعطفها الأسود وعمامتها السوداء .. كخفير الدرك .. تحاول أن تحمينى من عصبيتى .. ومن الرجال .. لا تسمح لى منهم الا بلسع نظراتهم ..

واحساسى بالسخافة يشتد ..

أعود الى البيت الأتلوى فى فراشى ، وأخفى وجهى فى وسادتى ..

ولا شىء يريحنى ..

يريحنى من سخافتى ..

وكلما شغلت نفسى فى هذه الحياة ، شعرت بفراغ أكثر . كأنى أعيش فى كيس مثقوب كلما ملأته فرغ .. ان الفراغ فى داخلى .. انى أعلم أنه فى داخلى .. فى قلبى .. فى أحاسيسى .. فى رأسى أيضا .. ليس فى رأسى شىء لأنى أصبحت أخاف أن أفكر .. وهذا الفراغ ، هو الذى يترك المجال للاحساس بالسخافة ..

والسخافة تأكل من جسدى ..

أعصابى تمتص صحتى ..

انى أضعف .. وأخس .. ولونى يذوب .. وزرقة باهتة تحت عينى .. ثم بدأت أشعر بألم فى مفاصلى .. أخفيته عن أمى .. لم أشك .. ولكن الألم يشتد .. وأحس به ينتقل وينتشر

.. وأنا أقاوم فى صمت .. وأقاوم أكثر لأستمر فى هذه الحياة العنيفة التى أعيشها .. وتمر بى ليالى لا أستطيع أن أخرج ، فأدعى أمام أمى انى زهقانة دون أن أصرح لها بآلامى .. ثم بدأت أشعر بنغزات فى صدرى كنغز السكين .. وحتى هذه الآلام كتمتها .. ولكن النغز يشتد .. وأحس بقلبى يضرب .. ضرباته ليست منتظمة .. ثم أصبت بالحمى .. ارتفعت درجة حرارتى مرة واحدة الى الأربعين .. ربما ارتفعت قبل ذلك ، ولكنى صبرت عليها الى أن وصلت الى الأربعين ..

ووقعت ..

أصبت ..

واللهفة تصرخ على وجه أمى .. وأنا مستسلمة أجتر الألم وأنصهر فى الحمى .. صامتة .. لا أريد شيئا .. حتى الشفاء ..

وجاء عبد الفتاح ومعه طبيب ..

وجاء طبيب آخر ..

ثم كونسلتو من أربعة أطباء ..

انه قلبى ..

قلبى مريض ..

حمى الروماتزم وصلت الى قلبى ..

والأطباء يترددون كل يوم .. ويتهامسون .. ثم يهمسون فى أذن أمى .. ولا أحد يقول شيئا .. ولكنى فهمت أنه قلبى .. وهبطت الحمى ..

ولكن قلبى .. انى أفيق على نغزات تكاد تقتلنى .. وأحيانا أحس به كأنه متوقف .. وأغمض عينى فى انتظار الموت ..

وهمست لأمى :

— ابعثى هاتى الدكتور هاشم ..

والتمعت عينا أمى الحزينتان ، كأنها تذكرت شيئا كانت قد نسيته .. لقد كانت حتى هذا اليوم تعتمد على الأطباء الذين يستدعيهم عبد الفتاح .. وعبد الفتاح لم يكن يعرف الدكتور هاشم ..

وأسرعت أمى نحو التليفون فى خطوات حازمة كأنها قررت أن تتحرر من سيطرة عبد الفتاح ..

وشعرت بين غابة الألم التى أعيش فيها كأنى أبتسم .. انى لم أفكر ساعتها فى الدكتور هاشم ، كطبيب يشفينى ، ولكنى فكرت فيه كدواء مسكن .. ولا أدرى لماذا فكرت فيه بعد كل هذه الشهور .. ربما لأنه كان دائما فى داخلى وكنت أضغط عليه بأعصابى حتى أقنع نفسى بأنه ليس فى داخلى .. حتى اتخلص من الأحاسيس التى تركها فى عندما جاء يعالجنى فى المرة الأولى .. وربما عندما طلبت من أمى أن تستدعيه ، كنت فى حاجة الى هذه الأحاسيس ، أكثر من حاجتى اليه كطبيب ..

وجاء الدكتور هاشم ..

هاشم ..

جاء فى نفس اليوم ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر ، بعد موعد عيادته مباشرة .. ولابد أن أمى قد أبلغته بخطورة مرضى ، حتى جاء بهذه السرعة ..

ووقف على رأس فراشى وسحابة من الجزع تطوف بوجهه ، طردها بابتسامة كبيرة ، ثم قال وهو ينظر فى وجهى كأنه بدأ يفحصنى :

— أنا زعلان منك .. يعنى حضرتك ما تفتكرنيش الا لما تعييى ..

ملأت منه عينى ..

انه لم يتغير ..

ربما زادت الشعرات البيض فى رأسه .. كأن ذكاءه أصبح أكثر اشعاعا .. وعيناه الواسعتان الطيبتان .. وجفناه المنتفختان كأنه يحمل بلسما يكفى لشفاء الناس كلهم .. وأنفه الكبير الصامت .. وشفتاه المبتسمتان دائما كأنه يمسح بابتسامته آلام مرضاه .. ورائحته نظيفة تفوح منه كأنها رائحة الهواء النقى ..

وابتسمت صامتة كأنى ارتحت لمجرد رؤيته ..

وأحسست انى أتعجله ليقترب منى حتى يفحصنى .. لا .. لم أكن أريده أن يفحصنى .. كنت أريده أن يقترب منى لأضع رأسى على صدره ، وأرتاح .. أنام ..

واقترب منى ، وشد مقعدا وجلس بجانب فراشى .. ثم أمسك بيدى يقيس نبضى .. وأحسست بيدى كأنها تريد أن تنام فى يده .. أحسست به يسرى فى أعصابى كلها .. وسكت النغز فى قلبى ..

وقالت أمى :

— احنا غلبنا يا دكتور ، ده ..

وقاطعها بلهجة حازمة :

— لو سمحتى يا عزيزه هانم .. قهوه ...

ونظرت اليه أمى كأنها تلومه لأنه لم يمنحها فرصة للكلام ، ثم خرجت لتأمر باعداد القهوة ..

وادرت رأسى نحوه .. ولم أكن أريد أن أقول شيئا .. كنت فقط أريد أن أنظر اليه .. ولكنه قال ، وحاجباه معقدان كأنه يجمع بينهما كل ذهنه :

— ما تتكلميش دلوقتى يا نجوى ..

وبدأ يفحصنى ..

وشعرت وهو يفحصنى بشىء لم أشعر به وأى طبيب آخر يفحصنى .. كان مستغرقا فى فحصى الى حد انى شعرت بأنى أفحص نفسى معه .. كأنى أنا وهو طبيبان ، وهذا الجسد ليس جسدى .. ولكنه جسد مريض اشترك فى فحصه .. وساعدنى هذا الاحساس على أن أحدد نوع آلامى أكثر .. وأن أعبر بدقة أكثر .. لقد كانت مواضع آلامى تفلت منى دائما عندما يسألنى عنها الطبيب .. كنت لا أكاد أحس بها فى ركبتى حتى يخيل الىّ انها فى كتفى ، وليست فى ركبتى .. ولكنى الآن أستطيع أن أحصر الألم .. وأجيب على أسئلة هاشم السريعة ، وأنا واثقة من صحة ما أشعر به ..

ثم فحص قلبى ..

فحصه طويلا .. وسماعته فى يده .. كأنه يخاطب قلبى بالتليفون حديثا طويلا لن ينتهى ..

ثم فجأة رفع رأسه ، ونظر الىّ مبتسما ، وقال وعلامات الاجهاد على وجهه :

— انتى ما يكفكيش دكتور واحد .. لازملك اتنين ..

ثم قام واقفا واستطرد قائلا فى عجلة :

— فين التليفون ..

وأشرت بأصبعى ، وقلت وأنا أبتسم له :

— بره .. فى الكوريدور ..

ومددت يدى لأضغط على الجرس الموضوع بجانب فراشى حتى يأتى له أحد بالتليفون ، ولكنه خرج من الغرفة ليبحث عن التليفون بنفسه .. خطا فى بساطة ، كأنه فى بيته .

وسمعت صوته يأتى الىّ وهو يحادث الطبيب الآخر .. كل خلجة منى كانت منصرفة الى الاستماع لصوته .. ونسيت ضربات

قلبى المرتبكة .. نسيت انى مريضة .. كان كل ما فى من مرض انى لا أستطيع أن أقوم من فراشى لألحق به ..

وعاد الى ..

وعادت وراءه أمى تحمل له فنجال القهوة ..

وأخذ الفنجال ووضعه جانبا كأنه لن يشربه ، وقال لأمى :

— أقدر أشوف الرشتات ..

وأخرجت له أمى عشرات الروشتات ، والتقارير ، وصور الأشعة ، التى أعدها الأطباء الذين سبقوه ..

واستغرق فى دراستها ..

لم يلتفت الىّ ..

وفجأة وجدت نفسى أتساءل وأنا أنظر اليه وهو مستغرق فى دراسته .. هل يعلم شيئا عن علاقتى بعبد الفتاح .. ولا أدرى لماذا خيل الىّ أنه قد يكون قد اكتشف هذه العلاقة وهو يفحصنى .. انه وهم .. ولكن هكذا خيل الىّ ساعتها .. كأنى خشيت أن يكون قد رأى بصمات عبد الفتاح فوق فخذى .. أو شم رائحته فوق صدرى .. واضطربت .. أحسست كأنى أريد أن أجرى الى الحمام لأستحم حتى أتخلص من رائحة عبد الفتاح وبصماته .. وأعود لهاشم نظيفة ..

والقى هاشم بالأوراق التى فى يده ، بعصبية .. ثم نظر الىّ والتقى بعينى المضطربتين فابتسم وقال :

— ما تسألنيش دلوقتى .. لسه ما عرفش .. بعد ربع ساعة بالضبط حا اعرف ..

ونظر فى ساعته ..

وقلت وأنا أبتسم بكل ما بقى من قدرة على الابتسام :

— تفتكر حاخف يا دكتور ؟

ونظر الىّ كأنه غضب منى وقال :

— نجوى .. ما تبقيش زى العيال الصغيرين .. اذا كنت باقول لك لسه ماعرفش .. يبقى حاعرف ازاى اذا كنتى حاتخفى والا لأ ..

واتسعت ابتسامتى ..

أحسست به قريبا جدا منى .. أحسست به فى قلبى المريض .. حائر معه .. انه لا يحاول أن يبدو أمامى كطبيب يقول كلاما يشجع به مرضاه .. انه يريد أن يطمئن هو أيضا ، قبل أن يطمئننى ..

وتكرمش وجه أمى أكثر ..

أحسست فى لهجته كأنه يقسو علىّ ..

وعاد هاشم يقول لى :

— تعالى نقول أى كلام لغاية الدكتور رشدى ما ييجى .. قولى لى .. كنت بتعملى ايه طول المده اللى ما شفتكيش فيها ..

ولم يكن يعنى كلامه ..

كان يريد أن يقول أى كلام ليرفه عن نفسه فى حيرته ..

قلت وابتسامتى لا تزال فوق شفتى :

— كنت عايشه ..

وقال هامسا وهو ينظر الى أمى نظرة سريعة ثم يعود وينظر الىّ :

— ومين اللى تعب قلبك ..

قلت بصوتى الضعيف كأنى أدافع عن نفسى :

— ولا حد .. هو اللى تعب لوحده .

قال ضاحكا :

— لازم علشان كان لوحده ..

قلت فى صوت خافت :

— يمكن ..

وعاد ينظر الى ساعته ، ثم قال :

— الدكتور رشدى اتأخر ..

ثم التفت الىّ واستطرد قائلا :

— تعرفى أنا متغاظ منك .. ازاى تعيى .. بنت صغيره وحلوه زيك تسيب نفسها لغاية ما تعيا ليه .. ما تقوليش ربنا عايز كده .. ربنا مش عايز حد يعيا .. الناس هى اللى بتعيى نفسها .. انتى ما تولدتيش عيانه .. انتى اللى عييتى نفسك .. ودلوقتى بتتألمى .. ومامتك بتتألم .. وأنا باتألم ..

مرة ثانية كان يتكلم باخلاص .. ببساطة .. انه يتألم لى .. يتألم الى حد لا يشفق علىّ فى مرضى ، بل يلومنى عليه ..

ومصمصت أمى بشفتيها ، وسكتت ، وهى ملتفتة اليه ونظرة لوم كبيرة فى عينيها .. لوم لا تفصح عنه خوفا منه ..

وعاد هاشم والتقط أوراق الأطباء الآخرين ، يدرسها مرة ثانية ..

وجاء الدكتور رشدى يحمل معه آلة رسم القلب ..

وتقدم اليه الدكتور هاشم يستقبله كأنه صاحب البيت ، وعاونه على وضع آلة رسم القلب .. وعلى ربط قطع الرصاص فوق ذراعى .. ثم أطل بعينيه يتبع الورقة التى تخرج من الآلة مرسوما عليها نبضات قلبى .. وهو معقد الحاجبين .. وخيل الىّ أنه يلهث وراء الخطوط التى ترسمها الآلة ..

ولمحت على شفتيه طيف ابتسامة ، ما لبثت أن اختفت ..

ثم قام هو والدكتور رشدى بعد أن انتهيا من رسم قلبى ، وخرجا من الغرفة .. وأمى معهما .. وغاب طويلا .. ربع ساعة

.. أو أكثر .. ثم عاد الىّ وحده وخلفه أمى ، وكان الطبيب الآخر قد انصرف ..

وجلس هاشم بجانب فراشى .. وقد أشرق وجهه بابتسامه كبيرة .. وأمسك بيدى فى يده .. وقال :

ــ دلوقتى أقدر أقول لك .. شوفى يا ستى .. الدكاتره اللى شافوكى قالوا ان عندك روماتزم فى القلب .. انما أنا باقول لأ .. الروماتزم ما وصلش القلب .. انما قريب قوى من القلب ..

وأشار بأصبعه الى تحت قلبى مباشرة .. وقال :

ــ الروماتزم واصل لغاية هنا .. انما حا يحاول يوصل للقلب .. والمفروض دلوقتى انى أنا وانتى والروماتزم نخش معركة .. بس لازم أعرف انتى حا تقفى مع مين .. معايا .. ولا مع الروماتزم ..

وابتسمت ابتسامة ضعيفة ، وقلت :

ــ معاك طبعا ..

قال :

ــ خلاص .. اتفقنا .. وأنا مش حا اخبى عنك حاجه .. علشان تبقى دايما عارفه انتى واقفه فين .. وصدقينى لما أقول لك انك أهم من فى المعركة دى .. انتى بارادتك تقدرى تخفى .. وبارادتك .. تقدرى تموتى .. فقوليلى .. انتى عايزه ايه بالضبط ..

وقالت أمى :

ــ ايه لازمة الكلام ده يا دكتور .

قال ضاحكا :

ــ ده كلام بينى وبين نجوى ..

وقلت :

ــ عايزه أعيش يا دكتور ..

قال :

ــ يبقى مش كفايه انك تفكرى انك تتخلصى من الألم .. ألم الروماتزم .. لأن الموت يريحك من الألم اكتر من الحياه .. انما لازم تفكرى فى حاجه تعيشى علشانها .. حاجه عايزه تعمليها .. حاجه حلوه .. حاجه تشرح .. حاجه تسعدك .. أمل .. أمل .. كبير .. وقررى بينك وبين نفسك انك تعيشى علشان الحاجه دى .. عايزك تحسى بأن لك اراده على الحياه .. قررى انك تعيشى .. وانتى تعيشى ..

ونظرت اليه ، وكلماته توقظ دمائى وتطلقها فى عروقى .. احسست بشىء يتدفق فى داخلى كأنه يروى جفاف جسدى الهزيل الذى أنهكه المرض .. وقلت :

ــ حاضر ..

وقال ضاحكا :

ــ حاضر دى مش كفايه .. قوليها تانى .. قوليها وانتى بتضحكى ..

وتعلقت عيناى بوجهه .. هذا الوجه كان معى منذ رأيته أول مرة .. كان معى .. ولكنى هربت منه .. هربت الى الفراغ .. الى السخافة .. ربما لم يمرض قلبى الا لأنى أخذته بعيدا عن هذا الوجه ..

وقلت مرة ثانية :

ــ حاضر ..

وكدت أستطرد قائلة : سأعيش من اجلك ..

وعاد هاشم يقول :

— المسألة مش سهلة .. الحرب بيننا وبين الروماتزم يمكن تاخد لها شهر .. ولازم نستحمل الشهر ده .. ونستحمل شهرين كمان .. ونستحمل واحنا بنضحك .. واحنا متأكدين اننا حاننتصر .. وأنا حاوصفلك حالتك بالضبط .. انتى تعرفى تقرى انجليزى ؟ ..

قلت :

— لا ..

قال :

— مش مهم .. الليله حا اسهر واكتب لك تقرير عن حالتك بالعربى .. حا اقول لك كل الى باعرفه .. يعنى لو حفظت التقرير ده تبقى دكتوره زيى .. وده علشان لو عرفتى مرضك حاتعرفى ازاى تحاربيه .. مش بيقولوا اعرف عدوك .. أهو أنا حاقولك ايه هو عدوك .. اتفقنا ..

قلت وأنا أحس بابتسامتى تملأ وجهى كله :

— اتفقنا ..

— شيك هاند على كده ..

ومددت له يدى ، واحتفظ بها فى يده ، وقال وقد تغيرت نبرة صوته .. أصبحت نبرة هادئة تنبض بالحنان :

— لازم تخفى يا نجوى .. لازم ..

ثم ترك يدى وقال وقد استرد لهجته :

— أول حاجة تعمليها انك ما تتحركيش من السرير .. مش كفايه انك ما تقوميش .. ما تتحركيش خالص .. مش عايزين نتعب قلب حضرتك .. زى انتى ما بتتعسى قلبنا .. وكل حركة ممكن تتعب القلب .. ولما يتعب يضعف ، وما يقدرش يقاوم العدو اللى واقف على بابه .. ورينى الأدويه اللى عندك ..

وأخذ يراجع زجاجات الدواء التى وصفها لى الأطباء الآخرون ، واختصر نصفها ، وأوصانى بالنصف الباقى ..

ثم نظر فى ساعته ، وقال :

— الليله حا اطمن عليكى فى التليفون الساعه تمانيه .. والساعه تسعه تكونى نمتى .. وبكره الصبح حا افوت عليكى قبل ما أروح العياده واجيب لك التقرير معايا .. وبتحبى ساندويتشات ايه ؟ !

قلت فى دهشة :

— آكل ساندويتشات !!

قال ضاحكا :

— لا .. ده علشانى أنا .. أصلى لسه ما تغدتش .. وحا افوت آكل ساندويتش ..

وقالت أمى :

— نجيب لك الغدا حالا يا دكتور ..

قال :

— لا .. ما عنديش وقت ..

ثم عاد والتفت الىّ قائلا :

— بتحبى ساندويتشات ايه ؟ ..

قلت وأنا أبتسم وقلبى المريض يضحك فى صدرى :

— فراخ . وسوسيس .. ومخ .. وروزبيف ..

قال :

— خلاص .. حا اكلهم فى صحتك ..

ونظر الىّ بعينين مبتسمتين ، كأنه يقبلنى بهما ..

وخرج ..

وهممت أن أعتدل فى فراشى واطل وراءه واتزود بنظرة اخرى

.. ولكنى ذكرت .. تذكرت أنى يجب أن أعيش .. فبقيت راقدة ..

انى أحبه ..

لن أنكر هذا الحب مرة ثانية .. لن أيأس من حبه ، لأنى لا أريد شيئا الا أن أحبه .. كل ما أريده أن يتركنى أحبه .. وسأعيش من أجل هذا الحب ..

وكلى معه ..

خيالى ..

وآمالى ..

وقلبى المريض ..

يجب أن يشفى هذا القلب ..

يجب ..

انى لا أريد أن أعطيه قلبا مريضا .

— ٤ —

هزمنا الروماتزم ..

هاشم وأنا ..

قلبى الآن سليم يستطيع أن يحمل من الحب أضعاف ما يحمله قلب أى بنت .. ولكنى لا أزال أخاف عليه .. على قلبى .. انى لا أبعثر دقاته فى الجرى والتنطيط .. ولكنى أحتفظ بها كلها للحب .. للحياة ..

ولا أعتقد أن هاشم قد شفانى بعلمه كطبيب .. ان العلاج الذى كان يصفه لى ، يستطيع أى طبيب آخر أن يصفه .. ولكن هاشم شفانى بارادته .. بعناده فى مقاومة المرض .. باصراره على أن أشفى .. لقد نقل الى هذه الارادة ، والعناد والاصرار .. واطلق فى عروقى قدرته على الحياة ، وايمانه بها ، وحبه لها .. سلط على قلبى اشعة الأمل ، وحقنه بالابتسام ، والمرح ، والتفاؤل .. وأطلقه فى دنيا نظيفة ، طاهرة .. حلوة ، تضج بالزغاريد ..

ربما كان كل هذا جزءا من كفاة هاشم كطبيب ، وسر نجاحه وشهرته .. وقد عشت فعلا أياما طويلة ، وأنا أعتقد أن اهتمام هاشم بى كل هذا الاهتمام ليس سوى اهتمامه بأى مريض من مرضاه .. ولكن ، لا .. مستحيل .. انه لا يستطيع أن يعطى كل مرضاه كل هذا الاهتمام .. انه يعطينى كأنه أبى .. كأنه أخى .. كأنه حبيبى .. ويعطينى فى بساطة .. بلا تكلف .. وبلا رسميات .. وبسرعة اصبحت شخصية تملأ البيت كله .. واستطاعت شخصيته أن تجدد هواء البيت . .أصبح هواء نظيفا .. واستسلمنا لهذه الشخصية .. أنا ، وأبى ، وأمى وربما كان استسلام أمى ، استسلاما بلا اقتناع ، انما هو استسلام للهفتها على وحرصها على شفائى .. ولكنها استسلمت .. وأصبحت حياتنا كلها نحن الثلاثة ، وحياة الخدم أيضا .. تدور حول الدكتور هاشم .. نعيش فى انتظار لقائه .. ونعيش فى اللحظات التى يقضيها معنا .. وكل شىء تغير .. هذا الضجيج الذى كان يحيط بى ، سكت .. والأطماع التى تملأ رأس أمى ، نامت .. وزوارنا خفت أقدامهم .. حتى مواعيد زيارة عبد الفتاح لنا تغيرت . . لم يعد يأتى لزيارتنا فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. لأن هاشم يأتى عادة فى هذا الموعد .. أصبح عبد الفتاح

يأتى فى الساعة الخامسة بعد أن يذهب هاشم الى عيادته ..

وكان هاشم يزورونى فى الصباح قبل أن يذهب الى عيادته .. وأحيانا كثيرة يعود الىّ فى المساء .. وكان فى الأيام الأولى يفحص قلبى كلما جاء .. ثم يجلس بجانبى يشرح لى حالتى ، وتطور الروماتزم فى صدرى ، ومفعول الأدوية التى يعطيها لى ويكتب لى أبحاثا فى أسرار مرضى — باللغة العربية — ويتركها لى لأقراها ، ثم يعود ويناقشها معى .. لقد استطاع أن يجعل منى أخصائية فى القلب .. استطاع أن يتجه بذكائى كله الى دراسة جديدة علىّ ، الهتنى عن العالم التافه الذى كنت أستغل فيه ذكائى .. وأصبحت أعرف كل عرق فى قلبى .. وكل عضلة .. وكل دقة من دقاته .. وهو أيضا .. هاشم .. لقد عرف قلبى كما يعرف أصابع يده .. ولم يعد يفحصنى كلما جاء .. وقال لى :

—أنا من كتر ما سمعت قلبك .. بقيت أقدر أسمعه وانا بعيد عنك .. باسمعه فى العياده .. وباسمعه فى البيت .. وباسمعه وأنا سهران مع أصحابى ..

ونظرت فى عينيه الطيبتين المبتسمتين .. وقلت :

— لازم اندوشت ..

وضحك قليلا :

— اندوشت فى الأول .. انما دلوقتى خلاص ، خدت على الدوشه .. وأصل قلبك ابتدى يبقى مؤدب ويبطل دوشه ..

وحرت يومها كيف أفسر كلماته .. خفت أن أطير معها فى الخيال الى حد أن هاشم يحبنى .. وفى الوقت نفسه خفت أن أجردها من الأمل .. وهربت من حيرتى فى حلاوتها .. حلاوة كلماته .. وفى النظرة الطيبة المبتسمة التى تطل من عينيه .. انى

لست فى حاجة الى أن يحبنى .. يكفى أنى أحبه .. أحب كلماته .. وأحب عينيه .. وأحب أنفه الكبير ..

وابتسمت له ابتسامة كبيرة ..

وقلبى المريض يبتسم معى ، ويستمد الحياة من الابتسام .

وبدأ هاشم يحدثنى عن مرضاه .. ويحقن قلبى بالأمل وهو يروى لى قصص المرضى الذين تم شفاؤهم بعد يأس .. وكان يتحدث عن مرضاه كأنه يتحدث عن كل حياته .. ان الدكتور هاشم ليس سوى مجموعة من المرضى .. يعيش حياتهم ويتألم بآلامهم .. ويعطيهم الدواء كأنه يعطيه لنفسه .. يحس بمرارته ، ويحس بمفعوله .. ان كل احساسه معهم .. حتى انى كنت أتساءل ، هل يمكن أن يبقى جزء من احساسه لحب آخر .. ولكنى لم أحس بالغيرة من مرضاه .. كنت أحس أنى شىء آخر .. كنت أنسى انى واحدة من هؤلاء المرضى .. وبالعكس بدأت أشاركه فى احساسه .. بدأت أعيش معه فى نفس العالم الذى يعيش فيه .. وعرفت مرضاه .. ورسمت لكل واحدة منهم صورة فى خيالى .. وكنت أفاجىء هاشم وأسأله :

— ازاى الأستاذ مروان دلوقت .. شفته ..

والأستاذ مروان مريض بتضخم فى الكبد ..

ويبتسم هاشم كأنى ذكرته بأعز الناس عنده ، وينطلق يحدثنى عن مروان بكل احساسه ..

ولم يكن اهتمامى بمرضى الدكتور هاشم ، نفاقا .. أبدا .. قطعا أنى كنت أهتم بهم لأشاركه اهتمامه .. ولكن كان هناك شىء آخر .. وهو انى كنت أجد فى حياة هؤلاء المرضى ، حياة أنظف من الحياة التى أعيشها .. كنت أنقل تفكيرى فى همومى الى التفكير فى همومهم ..

وهاشم سعيد بى ..

انى أحس بسعادته بى ..

أحس أنى لست مجرد مريض من مرضاه ..

هناك أشياء كثيرة أصبحت تجمعنا .. ربما كان بينها الاقتناع ... انى احس انه مقتنع بى ، كما انى مقتنعة به .. حتى لو لم يكن يعلم شيئا عن حياتى .. شيئا مما حدث لى بعد أن قابلته عندما مرضت فى الفترة الأولى .

وسألنى هاشم بعد أيام كثيرة وبعد أن بدأت دقات قلبى تنتظم :

ـــ انتى عامله ايه فى المدرسه ..

وفوجئت بهذا السؤال ..

نسيت أنى كنت تلميذة .. خيل الىّ انه مضت سنين طويلة منذ تركت المدرسة .. وخيل الى أنى كبرت وعجزت الى حد أنى لم أعد انتظر أن يسألنى أحد عن حالى فى المدرسة .. وكدت أضحك لسؤاله .. ولكنى كتمت ضحكى .. ومسحت احساسى بالمفاجأة بابتسامة هزيلة ضعيفة .. انه لا يعلم أنى تغيرت .. لا يزال يعتقد انى الفتاة البريئة الصغيرة التى التقى بها أول مرة وهى مصابة بحالة عصبية نتيجة صدمتها فى حبها الأول ..

وقلت وأنا أرخى عينى عنه :

ـــ ولا حاجه .. السنه اللى فاتت ما دخلتش الامتحان .. والسنه دى ما رحتش خالص ..

وارتفع حاجبا هاشم من الدهشة وقال :

ـــ ليه ؟ ..

قلت :

ـــ أبدا .. زهقت ..

قال كأنه غضب منى :

ـــ بأه ده اسمه كلام .. انتى مامتك مدلعاكى .. افرضى انك زهقت .. هى طاوعتك ليه .. زهقت هى كمان ؟ !

قلت وأنا أتنهد :

ـــ ماما كل اللى يهمها انى أقعد جنبها ..

قال :

ـــ انتى كنتى فى سنه كام ..

قلت :

ـــ فى الثانويه العامه .. وكنه شاطره والله العظيم ..

قال :

ـــ خلاص .. ترجعى شاطره تانى .. وتبندى تذاكرى تانى من النهارده ..

قلت :

ـــ وامتحنت ..

قال :

ـــ طبعا .. وتخشى الجامعه .. ما هو يا تتجوزى السنه دى ، يا تخدى الشهاده .. واللا عايزه تتجوزى ..

ورفعت اليه عينى ، وخيل الى أنى أهم بالبكاء .. انه لا يدرى شيئا .. بل انه لم يلحظ التغيير الذى حدث فى حياتنا .. لم يلحظ اننا انتقلنا من شقتنا الصغيرة فى الجيزة ، الى هذه الفيللا فى شارع الهرم .. ولم يلحظ ان كل اثاث البيت قد تغير .. ولم يلحظ غرفة النوم الفخمة التى أنام فيها ... ولم يلحظ انه أصبح عندنا طباخ وسفرجى وسائق .. ان براءته ونظافة ضميره تبعده عن محاولة تفسير كل هذا التغيير .. وقد كانت أمى فى مناسبات كثيرة تكذب عليه وتدعى امامه انها باعت ارضا من

عزبتها .. وأنها اشترت قطعة أرض فى مصر الجديدة .. و .. و .. كانت « تنتش » وتبالغ فى ذكر أبى وثروتها ، كأنها تدافع عن نفسها .. تدافع عن كل هذه المظاهر التى تحيط بنا .. وكان يستمع اليها بلا اهتمام .. انه يفترض أننا قوم شرفاء .. وهذا يكفيه ..

وأرخيت عينى قبل أن تنهمر دموعى .. وقلت :

— لا .. مش عايزه اتجوز ..

قال وهو يبتسم ، ابتسامة تلمع فوق أنفه الكبير :

— خلاص .. تبقى تاخدى الشهاده ..

وسكت قليلا ، ثم قال فى تردد وهو يتلهى بالتقليب فى بعض التقارير الطبية الموضوعة بجانب فراشى :

— وعملتى ايه مع عادل ..

ومرة ثانية أحسست كأنى فوجئت .. انه لا يزال يذكر عادل .. بل انه يذكرنى بشىء نسيته ..

وقلت وأنا أنظر اليه كأنى أذوب فيه :

— خلاص .. سبته من زمان ..

وابتسم ..

ومرت بيننا برهة صمت ، ثم قلت وأنا أشعر بدمائى تصهر وجنتى :

— وانت عامل ايه مع أمينه ..

وأحنى وجهه قليلا ، ومرت على وجهه سحابة داكنة ، وقال :

— لسه ..

قلت وقلبى الضعيف يرتجف :

— لسه معاها ..

قال وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

— لا .. مش معاها .. بس لسه ..

قلت وأنا أتلقف الكلمات من بين شفتيه :

— مش فاهمه ..

ونظر الىّ كأنه يتساءل عن مدى ثقته بى ، ثم قال كأنه طفل كبير :

— أقول لك ..

قلت وأنا ابتسم له :

— أنا مش قلت لك على عادل !!

قال وابتسامته الحزينة تملأ وجهه :

— هى دلوقتى بتعرف واحد تانى .. انما لسه ما اعترفتش لى ..

قلت وأنا احسد أمينة على طيبة قلب هاشم :

— ما دام انت عارف ، ما تقول لها .

قال :

— لو قلت لها حا تنكر .. لازم استنى لما هى اللى تقول لى .. مش عايز احسسها انى أنا اللى سبتها ، عايزها هى اللى تحس انها لازم تسيبنى ..

قلت :

— انت هايل .. مش معقول ان فيه رجالة زى كده ..

قال :

— أنا مش هايل .. بس حاسس بمسؤوليتى عنها ..

قلت وأنا انظر فى وجهه كأنى أبحث فيه عن مكان لى :

— وبتشوفها ..

وضحك فى براءة قائلا :

— مش كتير .. حتى لو حبيت أشوفها .. ما اقدرش .. مشغول .. مشغول بقلبك ..

وسكتت ضحكته ..

ونظر فى وجهى نظرة جادة ثابتة .. استقرت برهة .. ثم أزاحها كأنه يطرد خاطرا مر برأسه .. وقام واقفا ، وقال وهو يبتسم :

— تعرفى العلاج الجديد بتاعك ايه ؟

ورفعت اليه عينين متسائلتين ..

واستطرد قائلا :

— انك تذاكرى .. تبتدى من النهارده تذاكرى .. وتدخلى الامتحان السنه دى .. وتنجحى .. فين كتبك ؟

قلت وأنا أحس بأنه يعيدنى الى عهد الطفولة :

— ما اعرفش .. ماما شايلاهم ..

ونادى هاشم على أمى ، وقال لها :

— يا عزيزه هانم .. نجوى حا تبتدى تذاكر من النهارده .. هاتى لها الكتب بتاعتها ، وخليها تذاكر فى السرير ..

وقالت أمى كأنها صعقت :

— ولازمتها ايه المذاكرة بأه .. ما سبنا الحاجات دى من زمان ..

وقال هاشم ضاحكا :

— ده علاج ..

وخرج .. وأمى تنظر خلفه كأنها تحاول أن تكتشف حقيقته بذكائها .. ثم التفتت الىّ قائلة :

— تعرفى أنا متهيألى ايه ..

قلت وأنا لا أنظر اليها خوفا من أن تكتشف سرى :

— متهيألك ايه ..

قالت :

— متهيألى ان الدكتور هاشم بيحبك ..

قلت :

— والنبى بلاش تخريف يا ماما .. حايحبنى على ايه .. على كده كل ما يعالج واحده يحبها ..

قالت :

— صدقينى .. ده بيحبك .. وبيحبك من يوم ما شافك أول مره ..

قلت :

— انتى فاكره ما فيش حد فى الدنيا الا بنتك .. لو كان الكلام اللى بتقوليه صحيح ، كان قعد سنه ونص ما يسألش فينا ليه ..

قالت :

— اهو أنا حاسه بكده وخلاص .. ده ما بيفوتش يوم من غير ما ييجى يزورك .. ويرفض ياخد منى فزيته .. يبقى دم اسمه ايه .. مش حب ده ؟

وادرت رأسى عنها كأنى لا أريد أن أسمع مزيدا من كلامها .. وخيالى منساق وراء كلماتها يحاول أن يصدقها ..

وسكتت أمى ، وعيناها سارحتان الى بعيد ، كأنها تحاول أن تضع خطة جديدة ..

ولم يكن هاشم حتى هذه الأيام يسبب أى مشكلة لنا ..

كنت مريضة ..

وكان الطبيب ..

هذا هو كل شىء .. حتى لو كان يخيل الى أمى أنه يحبنى !!

وكان عبد الفتاح يتردد علينا فى مواعيده الجديدة مرتين فى الأسبوع أو ثلاثا . وهو الذى غير مواعيده حتى لا يلتقى بالدكتور هاشم .. فلم يكن يحب أن يعرف أحد علاقته بى .. حتى لو عرفه على أنه « أونكل » ..

وكانت قوة احتمالى لعبد الفتاح قد بدأت تنهار .. لم أكن أفكر فيه عندما داهمنى المرض ، كان كل تفكيرى فى مرضى .. ولكن بعد أن جاءنى هاشم .. وبعد أن بدأت اثق فى الشفاء .. بدأت حقيقة علاقتى بعبد الفتاح تتكشف لى بصورة جديدة .. لم أعد لا مبالية كما كنت .. ولم أعد فى داخلى مستسلمة .. ولم يعد كل ما يحيطنى بعبد الفتاح من ترف ، يهمنى فى شىء .. لقد اكتشفت أن هناك أشياء كثيرة اهم واجمل .. أهم من الفيللا التى نسكنها فى شارع الهرم .. وأهم من سيارتى الأوبل البيضاء .. وأهم من فساتينى الكثيرة .. هناك اشياء اهم .. صحتى .. قلبى الذى اختلت دقاته .. ثم .. هاشم ..

ولكن .

هل أستطيع أن اعود .. هل أستطيع أن اتراجع ؟

وكيف ؟ ..

ان أمى واقفة أمامى بوجهها المكرمش القاسى ، كخفير الدرك .. فهل يمكن أن أقنعها ببساطة انى لم أعد أريد عبد الفتاح .. وأسألها أن تطلق سراحى !! ..

مستحيل ..

وكنت أعلم أن مجرد التفكير فى هذا الموضوع يتعب قلبى .. فقررت أن ابذل جهدى فى أن انساه ، بدلا من أن اجد له حلا .. حاولت أن انساه فى الأمل الجديد الذى أطلقه هاشم فى حياتى .. وفى اندفاعى فى حبه .. واستسلامى لشخصيته ..

واستطعت الى حد كبير أن أنسى . أو على الأقل استطعت أن أؤجل التفكير فى أزمتى .. خصوصا وان عبد الفتاح لم يكن يطالبنى بشىء وأنا مريضة .. كان يخاف على قلبى من جشعه .. وكان كل ما يفعله عندما يأتى هو أن يجلس معى قليلا .. ثم يخرج ليشرب فنجال القهوة مع أمى .. وربما لاحظ فى الفترات التى يجلس فيها معى انى بدأت أنفر منه .. ربما لاحظ أنى لم أعد اتدلل عليه كما عودته .. لم اعد اطلب منه شيئا .. ولكنه نسب كل ذلك الى مرضى ..

وبدأت اذاكر ..

وكنت اذاكر فى نهم .. كأنى أسترد عمرى .. كأنى أغسل عقلى من السخافات التى علقت به .. وساعدتنى المذاكرة أكثر على الانتقال الى عالم أنظف من العالم الذى أعيش فيه .. انطلق خيالى بعيدا عن دنيا زيزى .. والسهرات .. والأوبرج .. وكازينو الشجرة .. ولسعات عيون الرجال .. وأصبحت أتخيل نفسى كأنى بين زميلاتى فى المدرسة .. العب لعبهن .. أضحك ضحكاتهن .. وأهمس همساتهن .. وأحب بقلب كقلوبهن .. قلب نظيف ساذج فى أول تفتحه للحياة .. وبدأت أحس كأنى أستعيد شيئا كان قد فقد منى .. أستعيد شخصيتى المتميزة .. شخصيتى القوية التى استطعت بها يوما ما أن اكون شيئا له قيمته .. أن أكون أولى طالبات المدرسة .. ورئيسة فريق التمثيل .. ومندوبة فصلى فى النشاط الاجتماعى .. ومندوبة المدرسة كلها فى لجنة اتحاد المدارس الثانوية .

وكانت تمر بى لحظات أفيق فيها من خيالى .. وأصدم بواقعى .. ويغلب اليأس خيالى .. وأدير عينى فى أنحاء غرفتى .. هذه ليست غرفة طالبة .. هذه غرفة غانية .. أنا غانية ..

أنا عشيقة رجل غنى .. عجوز .. وأشعر بدقات قلبى تعود الى الارتباك .. وحلقى يختنق .. وأخاف .. أخاف على قلبى .. فأتاوم احساسى باليأس .. وأتعلق بطيف هاشم ، كأنى أتعلق بطوق النجاة .. واستمد منه الأمل .. لابد أن هناك طريقا للوصول الى الشاطىء .. شاطىء الحب .. انى لا أدرى ما هو الطريق .. ولكنى واثقة أنه موجود ، وان هاشم سيدلنى عليه ، ويأخذ بيدى فيه ..

وأعود أذاكر ..

فى نهم ..

يومى كله مذاكرة ، وانتظار للقاء هاشم ..

والروماتزم يبتعد عن قلبى .. وينحسر عن جسدى .. ووجهى يسترد لونه .. وأنظر فى مرآتى الصغيرة ، فيخيل الى أنى ولدت من جديد .. وانى أجمل .. جمال بلا زواق وبلا أصباغ .. عيناى المشروطتان الضاحكتان كلوزتين مقشرتين شهيتين .. وشفتاى المتفتحتان كورقتى الورد .. وعنقى المفرود كأنه يتباهى برأسى .. ولكن .. هناك شىء ينقصنى .. ينقص جمالى .. جمالى الذى أراه بعينى هاشم .. ربما كان ضعفى .. وربما كان شىء فى داخلى لم أتخلص منه بعد .

الى أن جاء هاشم يوما وفى يده صندوق صغير ملفوف فى ورقة أنيقة ، وجلس على حافة الفراش ، وقال لى وعيناه تلمعان بابتسامته :

— تفتكرى انا معايا ايه ؟

قلت :

— جزمه ..

ضحك ضحكة كبيرة ، وقال :

— دى حاجه علشانك ..

وابتسمت كأنى أقبل أنفه الكبير ، وقلت :

— كتاب ..

قال :

— لأ .. خفت أجيب كتاب تعيى تانى ..

قلت :

— دوا ..

قال :

— بأه فيه دوا يتلف حلو كده .. ثم ان من هنا ورايح ما فيش ادويه ..

وأمى واقفة عند رأس السرير تنظر الى اللفافة التى يحملها هاشم ، بلهفة أكثر من لهفتى ..

وقام هاشم واقفا ، وخطف الغطاء من فوق جسدى ، وقال ضاحكا :

— قومى أوقفى .. واو قدرتى تمشى من هنا للكرسى اللى هناك ده .. حا اقول لك أنا جايب لك ايه ..

ونظرت اليه فى تردد ..

كانت المرة الأولى التى يسمح لى فيها هاشم بمغادرة الفراش ، بعد أن قضيت فيه خمسة وثلاثين يوما .. راقدة .. لا اتحرك ..

ونظر الى هاشم نظرة جادة .. نظرة طبيب .. ثم قال فى حنان :

— قومى ما تخافيش ..

ثم مد ذراعه وساعدنى على أن اعتدل جالسة .. ثم تركنى .. وعاد يقول لى فى لهجة حازمة كأنه سلط على ارادته :

— قومى لوحدك ..

وقالت أمى :

ـــ قومى يا حبيبتى .. يا ألف نهار أبيض ..

قلت فى صوت متردد :

ـــ متهيألى انى حادوخ ..

وقال هاشم مبتسما :

ـــ انتى حاتدوخى فعلا .. انما لازم تقومى .. زى ما دوختينا بقالك شهر ، لازم تدوخى انتى كمان .

ووضعت قدمى على الأرض .. فى تردد .. كأنى أهم بأن أضعهما فى ماء ساخن أو فى ماء بارد .. لقد مضى علىّ عمر طويل لم تلمس فيه قدمى الأرض .. وخيل الى أن الأرض أصلب مما تعودتها .. ووقفت .. وشعرت فعلا بالدوار .. كل شىء يهتز أمامى .. واهتززت أنا الأخرى ، وكدت أقع .. وسندنى هاشم .. ووقعت فى حضنه ..

وقالت أمى فى جزع :

ـــ اسم الله عليكى يا بنتى ..

ورفعت وجهى الى وجه هاشم .. وشفتاى قريبتان جدا من شفتيه .. والضعف يسرى فى عروقى ويمتص لونى .

والتقت عيوننا ..

وفى عينيه حنان جاد .. ولهفة .. كأنه عالم ينتظر نتيجة تجربته ..

وفى عينى استغاثة ..

وابعد هاشم وجهه عن وجهى ، وسند رأسى على كتفه ، وهمس فى حنان :

ـــ أنا متأكد انك تقدر تمشى .. ده بس من الضعف ..

ثم أزاحنى عن صدره فى رفق ، وتركنى واقفة ، واستطرد قائلا :

ـــ وريني كده ..

وبدأت أمشى .. وكل شىء يهتز ، والأرض صلبة جافة تحت قدمى العاريتين . ولكن الاهتزاز يقل فى كل خطوة ، والأرض تلين .. وعيناى تستقران .. وأفيق من الدوار .. الى أن وصلت الى المقعد الموضوع أمام مرآتى ، فألقيت نفسى عليه ، وقلت وأنا أتنفس ضعفى :

ـــ دم أنا حاسه زى ما يكون باتعلم المشى ..

وقال هاشم وابتسامة كبيرة تملأ وجهه :

ـــ أصلك اتعودت على الكسل ..

وقالت أمى :

ـــ ألف حمد الله على السلامة يا نوجا .

والتفت لفتة سريعة الى مرآتى .. ان لونى أصفر فى لون الكريم .. وكرهت أن أبدو أمام هاشم ووجهى ممتقع الى هذا الحد .. وابتسمت .. افتعلت ابتسامة كبيرة .. لعل الابتسامة تشد عضلات وجهى فتحرك فيه الدماء .. وترد اليه بعض لونه ..

وقدم لى هاشم الصندوق الذى جاء به قائلا :

ـــ خدى شوفى بأه أنا جبت لك ايه ..

وفتحت الصندوق بأصابع ترتعش باللهفة ، وأمى فوق رأسى تطل بعينين لامعتين ..

وضحكت ..

زغردت الدماء فوق وجنتى ..

كان فى الصندوق عروسه صغيرة .. شعرها فى لون

شعرى .. وترتدى فستانا لونه أحمر ..

وصحت :

ــ الله .. جنان .. تجنن ..

ورفعت عينى الى وجهه وبى رغبة ملحة فى أن أقبله فى وجنته .. فى عينيه .. فوق أنفه الكبير ..

ثم رفعت العروسة فى مواجهة أمى ، وعدت أصيح :

ــ شوفى يا ماما ..

وقالت أمى فى برود :

ــ حلوه ..

ربما كانت تنتظر أن تجد فى الصندوق شيئا آخر .. ان أول هدية أهداها لى عبد الفتاح لم تكن عروسة لا تساوى أكثر من ثلثمائة جنيه ..

وضممت العروسة الى صدرى .. وضغطتها الىّ .. بكل عواطفى .. بكل فرحتى .. كأنى أضم قطعة من هاشم ..

وقال هاشم وابتسامته ملؤها الحنان :

ــ أصلك اتولدت من جديد . قلت أجيب لك عروسه تلعبى بيها لغاية ما تكبرى ..

وأحسست فعلا أنى ولدت من جديد .. أحسست كأنى طفلة .. وفى قلبى فرحة الطفلة .. وفى عينى طهارة الطفلة ..

وجذب هاشم مقعدا وجلس امامى ، وأمسك بيدى ، وعروسته فى يدى الأخرى أضغطها الى صدرى ، وقال فى صوت خافت كأنه يودعنى :

ــ انتى خفيتى خلاص يا نجوى .. قلبك بأه بمب .. والروماتزم راح ومش حايرجع طول ما انتى واخده بالك من

نفسك .. وتقدرى دلوقتى تجرى وتتنططى .. انتى فى النادى الأهلى ؟ ..

قلت وابتسامتى تذوب على شفتى :

ــ لا ..

قال :

ــ يعنى ما بتلعبيش كوره ؟

قلت وأنا احاول أن أضحك :

ــ لا ..

ــ خلاص .. تبقى تقدرى تعملى كل حاجه ، من غير ما تخافى على قلبك ..

ولم أستطع أن اضحك ..

كان الاحساس بأنه يودعنى ، يكاد يمزقنى ..

وعاد يقول كأنه يمنحنى لحظة اخرى قبل الوداع :

ــ انتى خفيتى من زمان .. وكان ممكن تسيبى السرير من اسبوع .. انما حبيت أريحك زياده شويه .. كل اللى لازم تعمليه دلوقتى انك تتقوى .. عايز اشوف خدودك فى لون الورد .. تاكلى كويس .. وتنامى كويس .. وتاخدى أدويه مقويه .. وتضحكى ..

ويدى لا تزال فى يده ..

لا اريد أن يتركها ..

لا تتركها ..

خيل الىّ انه لو ترك يدى فسأسقط .. سأضيع ..

وقام هاشم واقفا ، وقال :

ــ مبروك ..

وقلت فى لهفة :

ـــ حاشوفك امتى ت !

قال :

ـــ انتى خفيتى خلاص ..

قلت :

ـــ انت مش بتزعل لما ما بسألش عنك الا وأنا عيانه .. انت مش قلت لى كده .. أهو أنا دلوقتى مش عيانه ..

ونظر الىّ وفى عينيه شيء أكثر من الحنان .. شيء يربطنى به .. وقال فى تردد :

ـــ اضربيلى تلفون بكره .. علشان تطمنينى عليكى .. بكره الصبح .. انتى عندك نمرة تلفونى الخصوصى ..

قلت :

ـــ لأ .. ما اعرفهاش ..

وأعطانى نمرة تليفونه الخاصة ..

حفظتها دون أن أكتبها .. ودون أن يكررها ..

وقلت :

ـــ وحا اشوفك ؟

ـــ بكره أقول لك ..

وأمى واقفة بيننا تلتقط كلماته .. وتدير عينيها بينى وبينه .. ووجهها المكرمش جامد كلوح الصفيح لا يعبر عما يدور فى رأسها ..

ونمت ليلتها وعروسة هاشم فى حضنى ..

من يومها .. وعروسة هاشم تنام معى ..

واتصلت بهاشم فى اليوم التالى ..

انه لا يستطيع أن يتحدث طويلا وهو فى عيادته .. كلماته سريعة متعجلة .. ولكنها رقيقة حلوة .. ككلمات برقية تحمل أحلى ما يستطيع رجل أن يعبر عنه ..

وجاء فى اليوم التالى .. وجلس معى فى الصالون لأول مرة .. وهو لبس غريبا .. لقد كان يتجول فى أنحاء البيت طول مدة مرضى .. ببساطة .. كأنه فى بيته ولكنه صمم فى هذه المرة أن يجلس فى الصالون .. لقد كنت أنتظره فى حجرتى كما هى العادة .. مرتدية قميص النوم وفوقه الروب ديشامبر .. وكان وجهى لا يزال ممتقعا .. فكرت أن ألون خدى بالأحمر .. ولكنى عدلت عن فكرتى .. قررت أن يرانى كما أنا .. خيل الى كأنى أخدعه لو وضعت الأحمر على خدى .. واكتفيت بأن الروب ديشامبر لونه أحمر .. وشريطة حمراء فوق شعرى .. واللون الأحمر يعكس ظلاله على خدى فيبدد بعض ما فيهما من صفرة .. ودخل هاشم الى حجرتى ، وجذبنى من يدى الى الصالون ، وقال ضاحكا وهو يشدنى وراءه :

ـــ انتى خلاص ما بقتيش عيانه .. وأنا اتضايقت من الأوده دى .. باتضايق من كل أود النوم .. كل ما اخش أودة نوم أحس انى دكتور .. متهيألى انى لو اتجوزت ، حانام أنا ومراتى فى الصالون ..

وجلست بجانبه فى حجرة الصالون . وكلماته تتردد فى خيالى وتثيره .. خيل الىّ وأنا بجانبه مرتدية قميص النوم والروب ، انى ممكن أن أكون زوجته .. وننام فى الصالون .. وأمى معنا ..

وأمى معنا ..

تدير عينيها بينى وبينه ..

وتحاول أن تجره فى حديث معها .. ولكن هاشم ، ليس كعبد الفتاح ، انه يفضل أن يتحدث معى أكثر مما يحب أن يتحدث

الى أمى .. وحديثه منطلق بسيط ، رائع .. ليس فيه هذا الذكاء الخبيث الذى يتميز به عبد الفتاح والذى يتعامل به مع أمى ..

واتصلت بهاشم فى اليوم التالى فى التليفون ..

واصبحت اتصل به كل يوم .. واحيانا مرتين فى اليوم ..

واتسع أفق أحاديثنا .. ورغم أنه دائما حديث سريع متعجل ..

وجاء لزيارتنا مرة ثانية .. وكان قد قال لى انه سيأتى فى الساعة الثانية بعد الظهر بعد موعد عيادته .. فأرسلت السائق واشترى مجموعة من الساندويتشات .. وما كاد هاشم يصل ويجلس فى الصالون حتى وضعت قطع الساندويتش امامه .. ونظر اليها هاشم وقال ضاحكا :

— ايه ده ؟

قلت وانا ابتسم له :

— علشان الوقت اللى حاتضيعه عند بتاع الساندويتشات تقعده معايا ..

وكنت أعرف أن هاشم لا يتناول طعام الغداء ، ولكنه يستعيض عنه بقطع الساندويتش ، حتى لا يثقل فى معدته ، ولا يضيع وقتا ، ويستطيع أن يعود الى عيادته نشيطا ..

وفى المرة الثالثة التى زارنا فيها هاشم ، صحبنى انا وامى فى سيارته .. وصعدنا الى الهرم ..

كانت المرة الأولى التى اخرج فيها من البيت .. ونزلنا نحن الثلاثة من السيارة .. وتمشينا قليلا ، ثم اجلسنى هاشم على احدى الصخور الملقاة تحت سفح الهرم .. وفعلت امى نفس ما فعلته ، عندما خرجنا مع هاشم أول مرة .. ادعت انها فى

حاجة الى أن تتمشى .. وتركتنا وحدنا ..

ورحت انا وهاشم فى حديث طويل ؛

لم يقل انه يحبنى ..

ولا قلت له انى احبه ..

لم يلمسنى ..

ولم المسه ..

ولكن كان بيننا شىء كبير .. شىء كنت معترفة به .. الحب .. ولكن هاشم كان يبدو كأنه لا يستطيع أن يصدق أنه يحبنى ، وانى احبه .. كانت عيناه لا تكادان تلتقيان بعينى ، حتى يبعدهما عنى .. وكانت كلماته لا تكاد تهم بأن تعبر عن عواطفه ، حتى يقطعها .. يمزقها .. ويحيلها الى شىء آخر .. كنت احس به يعانى من التردد .. التردد أمام نفسه .. أمام عواطفه .. كأنه يروض شيئا فى صدره يريد أن ينطلق ..

لاحظت كل ذلك باحساسى .. بذكائى .. بحواسى المتفتحة التى تلتقط كل لفتة من لفتاته .. كل هزة رمش .. كل تنهيدة تنطلق مع انفاسه ..

وعندما قمت من جلستى وسرنا نحو السيارة ، وجد كل منا يده فى يد الآخر .. لم يتعمد أن يلتقط يدى فى يده .. بل اننا لم ننتبه الى أن يد كل منا فى يد الآخر الا عندما اقتربنا من السيارة .. تنبهنا الى ضغطة سرت فى يدى ويده .. لم أدر هل هو الذى ضغط على يدى ، ام انا التى ضغطت على يده .. وتوقفنا عن السير .. واطل على بعينيه .. وعيناى مرفوعتان اليه .. مبتهلتان .. والتقت نظرتانا فى حديث صامت .. ثم همس فى صوت محشرج ويده تضغط على يدى :

— انا عايزك تستحمليني يا نجوى ..

قلت وانفاسى تلهث :

— أستحمل ايه ؟

قال :

— حاجات كتير .. بس لازم تستحملينى ..

قلت :

— أنا طول ما انت جنبى ما باحسش انى باستحمل حاجه ..

وابتسم كأنه يشفق علىّ من نفسه .. وقال :

— انتى حاجة تانيه .. انتى أصغر منى بكتير .. و ..

قلت اقاطعه فى عجلة :

— ابدا .. انا عندى عشرين سنه دلوقتى .. واحد وعشرين ..

قال فى اشفاق :

— وانا واحد واربعين ..

انه لا يدرى ..

لا يدرى أن عمرى اكبر من سنواته .

لا يدرى ماذا صنعت هذه الفتاة بعمرها ..

قلت وأنا ابتسم له :

— انا حاسه دلوقتى انى اكبر منك .. تعرف العروسه اللى جبتهالى .. بيتهيألى انك ادها .. وساعات بيتهيألى انها انت .

وضحك ..

وأمى تقترب منا ..

وعدنا .. وأنا جالسة بجانبه .. وأمى فى المقعد الخلفى .. وبيننا صمت .. حاولت أمى مرارا أن تقطعه .. ولكننا .. هو

وبيننا صمت .. حاولت أمى مرارا أن تقطعه .. ولكننا .. هو وانا .. صامتان .. نستمع الى دقات قلبينا ..

جلست أمى فى حجرتى وانا أبدل ثيابى ، وقالت :

— ايه رايك بأه .. بيحبك ولا لا ؟

قلت :

— يمكن ..

قالت :

— يا بت بلاش كهن .. انتى عارفه ومتأكده اكتر منى انه بيحبك ..

قلت وانا ساهمة :

— يا ريت ..

قالت :

— انما تفتكرى ييجى منه ؟

قلت :

— ييجى منه ايه ؟

قالت :

— يعنى يتجوزك ..

قلت :

— يتجوزنى ازاى .. انتى مش مجوزانى لعبد الفتاح ..

وقالت فى بساطة وذكاؤها الخبيث يطل من عينيها :

— وده يمنع ..

ونظرت اليها وكرهتها .. كرهتها من اجل هاشم .. لا يمكن ان اتركها تفعل بهاشم ما يمكن ان تفعله بأى رجل آخر .. انه ليس مجرد رجل آخر .. انه حبيبى ..

ورغم ذلك سكت ..

انى فى حاجة اليها .. انى لا استطيع الآن أن أتحداها ... انى لا أزال ضعيفة .. ثم انى لو تحديتها فان أول ما تفعله أن تبعد هاشم عنى ..

وقالت :

ــ انما ده باين عليه مش سهل ..

قلت :

ــ والنبى يا ماما بلاش تخريف ..

وقالت فى حدة :

ــ تخريف ليه بأه .. انتى فاكراه انه كبير علينا ولا ايه .. ولا علشان راجل مشهور .. ولا يهمك .. اذا كنتى عايزه انا أجوزه لك ..

لم أرد ..

وقالت وهى تبتسم ابتسامة تنضح بذكائها الخبيث :

ــ سكتى ليه .. انتى فاكره يا بت انى مش فاهماكى .. ده أنا أمك اللى مربياكى .. وفاهماكى من جوه ومن بره .. وعارفه انك بتحبيه .. كده ولا لأ ؟ !

وترددت قليلا .. ثم ألقيت نفسى فوق صدرها وأخذت أقبلها من وجنتيها .. وقلت :

ــ باحبه يا ماما .. باحبه ..

وكان يجب أن أفعل ذلك .. كان يجب أن أعترف لها بحبى .. حتى لا تحرمنى منه .. وحتى لا أشعرها بأنى أخفى عنها شيئا ..

وربتت على كتفى ، وهى فرحة بقبلاتى .. وقالت :

ــ خلاص .. سيبى الموضوع ده علىّ أنا ..

وفى هذه اللحظة جاء عبد الفتاح .. سمعت صوته خارج غرفتى .. فأسرعت بارتداء قميص النوم .. وألقيت نفسى فى فراشى ، وأنا أقول لأمى :

ــ أنا عيانه .. عيانه خالص .. أوعى تسيبينى معاه لحظة واحده .. لو قرب منى حا أموت نفسى فاهمه ..

وقالت ووجهها المكرمش يعود صامتا كلوح الصفيح ..

ــ طيب اسكتى .. فهمت ..

وسوت غطاء السرير حولى .. ودخل عبد الفتاح ، ونظر فى وجهى ، ثم نظر فى وجه أمى ، كأنه يشك فى كلتينا وقال :

ــ مالها نوجا ..

وقالت أمى :

ــ أنا عارفه .. الدكتور سمح لها تخرج من البيت .. خدنا العربيه واتمشينا بيها ربع ساعه .. بصيت لقيت وشها أصفر .. وزى ما يكون حا يغمى عليها .. رحت راجعه بيها على طول ..

قال عبد الفتاح وكأنه نكب فى أعزّ أمانيه :

ــ مش كانت كويسه أول امبارح ..

وقالت أمى :

ــ أنا عارفه جرى لها ايه ؟

وصرخ عبد الفتاح :

ــ ده دكتور حمار .. ازاى يقول لها تخرج ..

وتأوهت ..

تأوهت لأكتم أعصابى قبل أن تثور لهاشم وأنا أسمع عبد الفتاح يهينه ..

واقترب منى عبد الفتاح ، واخرج من جيبه علبة صغيرة

فتحها أمام عينى .. وفيها قرط فى كل فردة منه حبة من اللؤلؤ .. وقال :

ــ أنا جبت لك الحلق ده هدية الشفاء .. لو ما خفتيش مش حاديه لك ..

وتنهدت ، كأنى لا أستطيع أن أتكلم ..

وقال عبد الفتاح :

ــ احنا لازم نجيب دكتور تانى ..

وقلت فى عجلة :

ــ لا .. أنا كويسه يا أونكل .. بس تعبت من الهواء .. أصلها أول مره أخرج فيها ..

ووضع عبد الفتاح القرط فى أذنى بأصابعه القصيرة الغليظة .. ثم انحنى فوق وجهى ليقبلنى ، وأدرت وجهى ، فسقطت قبلته فوق شعرى .. وقلت :

ــ نفسى .. مش قادره أخد نفسى .

وقالت أمى :

ــ معلهش يا نوجا .. دلوقتى تهدى يا حبيبتى ..

وجلس عبد الفتاح بجانبى ، وخيبة الأمل تكسو وجهه .. لقد جاء اليوم ومعه هدية اللؤلؤ على أمل أن يعوض حرمانه الطويل منى خلال فترة مرضى .

ثم حمل خيبة أمله ، وخرج ليشرب فنجال القهوة مع أمى ..

ــ ٥ ــ

و ... واتحدث مع هاشم فى التليفون مرتين فى اليوم .. ثم أصبحت أحدثه فى بيته بعد أن يعود اليه .. حديثا طويلا لا ينتهى .. ساعة .. ساعتين .. ونجد دائما كلاما لا ينتهى ..

ويأتى لزيارتنا ..

وأمى تنظم مواعيد الزيارة بينه وبين عبد الفتاح .

وكلما جاء عبد الفتاح ادعيت المرض ..

وعندما يأتى هاشم لزيارتنا لا تتركنا أمى أو تغيب عنا بل تجلس معنا ، ثم تتركنى له المدة التى تقررها بينها وبين نفسها .. . احيانا عشر دقائق ، واحيانا ربع ساعة .. ولكن هاشم لا يحاول شيئا فى غيبة أمى .. كل ما يفعله أن تحتضن يده يدى .. ونستغرق فى حديثنا .. حديثنا حلو يكاد يغنينا عن القبلات .. وعندما تعلم أمى أنه لم يقبلنى ، تطيل مدة غيبتها عنا فى الزيارة التالية .. لتترك له فرصة أكثر .. ولكنه لا يقبلنى .. وانا لا أحاول أن أدفعه الى تقبيلى .. اننا لا نحاول شيئا مفتعلا .. ولا شيئا مسروقا .. انى أعلم أنه سيأتى يوم تلتقى فيه شفاهنا .. ولكن ليس هنا .. ليس لأن أمى تركتنا وذهبت الى الحجرة الأخرى ..

وفى احدى زيارات هاشم قالت له أمى :

ــ ايه رأيك يا دكتور .. نجوى جاى لها عريس .. ابن محمود بيه حلمى ، بتوع البحيره .. مش تفتكر انها لازم تتجوز ..

لقد بدأت أمى تنفذ خطتها ..

ونظر الى هاشم مبتسما .. ثم التفت الى أمى وقال ضاحكا :

— نجوى ما تستاهلش تتجوز ..

وقالت أمى فى دهشة :

— ليه بأه ..

وقال هاشم :

— لأنها لسه ما خدتش الشهاده .. اما تنجح فى الامتحان .. نبقى نجوزها .

وأخذت الشهادة ..

نجحت فى الثانوية العامة ..

وكان مجموعى ثمانية وستين فى المائة .

أصبحت مشكلتى هى أن أقنع أمى بأن تسمح لى بالخروج مع هاشم وحدى .. وقد كنت أخرج مع هاشم كثيرا ، ودائما مع أمى .. كان يأخذنا فى نزهة بسيارته .. ومرة أو مرتين دعانا الى الشاى فى مينا هاوس .. ولم يكن منظرنا حلوا وأمى معنا .. خصوصا وان هناك شيئا ينقص أمى لتبدو كأنها أم .. ولتبدو كأنها أم مودرن تخرج مع ابنتها وحبيبها لتناول الشاى فى مينا هاوس .. لا أدرى ما هو هذا الشىء .. ربما الثياب التى ترتديها .. المعطف الأسود والعمامة السوداء .. وربما تصرفاتها .. وربما نظرات عينيها الخبيثة .. وربما قلة احترامى لها .. لا أدرى .. ولكنى كنت أتضايق منها وأنا مع هاشم أكثر مما أتضايق منها فى أى وقت آخر .. وأخجل منها .. أحس كأنها فضيحة لى .. وكنت أنظر فى وجه هاشم كأنى أبحث عن آثار فضيحتى .. ولكن هاشم لم يكن يبدو عليه أنه يتضايق من أمى .. ولا يحس نحوها احساسى بها .. بالعكس .. انه يحترمها .. ربما اكثر مما احترمها أى رجل من الذين عبروا فى حياتى .. وأحيانا يبدو انه يحبها .. وقال لى مرة :

— أنا عمرى ما شفت أم بتحب بنتها زى مامتك ما بتحبك ..

وقلت له وأنا أتنهد فى ضيق :

— يمكن علشان مش أمى ..

— يجوز .. انما ده فى مصلحتك .. انا باحترمها علشان بتحبك الحب ده كله ..

وكان هذا الاحترام هو الذى يمنعه من أن ينتهز الفرص التى تمنحها له أمى ليقبلنى .. ليأخذ منى شيئا ..

انه انسان طيب .. يعيش فى عالم نظيف .. ويتخيل الناس كلهم طيبين مثله .. نظفاء مثله .. ونيته سليمة .. لا يفترض السوء فى أحد .. ولا يحاول أن يبحث ورائى أو وراء أمى .. انه يصدق ما يراه بعينيه ويصدق ما يسمعه منى ومن أمى ..

ولم يحاول هاشم فى هذه الأيام ان يطلب منى أن اخرج معه وحدى .. كان يبدو كأنه سيكتفى طول عمره بأن نبقى هكذا .. نتحدث فى التليفون ، ونلتقى تحت عينى أمى .. بل انه حتى هذه الأيام .. لم يكن قد صرح لى بحبه .. كنت ألمح الحب يطل من تحت جفنيه المنتفختين .. وكنت أحسه فى لمسات أصابعه السريعة المترددة .. وفى شفتيه عندما تتطلعان فى حيرة الى شفتى .. وكنا نتحدث أحيانا عن الحب .. نتحدث عنه كأننا نراجع موضوعا علميا .. كأنه ليس شيئا قائما بينى وبينه .. وأتلقف الكلمات من شفتيه لعله يصرح لى بحبه .. ولكن لا .. انه لا يحدثنى عن حبه .. ولا عن الزواج .

ونوبات من الحيرة تقتلع قلبى .. لعل هناك فعلا صداقة

يمكن أن تقوم بين الرجل والمرأة وهو يؤمن بهذه الصداقة .. لعله يكتفى منى بالصداقة .. ويمنح حبه لأمينة .. والحيرة تكاد تخنقنى ..

وأمى أشد حيرة منى .. انها لا تستطيع ان تصدق ان رجلا — حتى لو كان الدكتور هاشم — يمكن أن يعرفنى ، ويهتم بى ، وتمنحه كل هذه الفرص ، ثم لا يحاول أن يطلب منى شيئا .. لا يحاول حتى أن يقبلنى .. وحيرتها تجعلها تشك فى نيات هاشم .. بدأت تشعر به كأنه اقوى منها .. اقوى من ذكائها .. وأقوى من خططها .. وكانت تسلط عليه نفس الخطط التى تسلطها على كل الرجال .. تحشره فى حياتنا ، وتعرض عليه مشاكلها .. معظمها مشاكل مفتعلة .. بل كانت تفتعل مشاكل وخناقات بينى وبينها حتى تدخل هاشم ليصلح بيننا .. وتبدو امامه دائما فى صورة المرأة العجوز الوحيدة الضعيفة التى أصيب زوجها بالشلل ، واضطرت أن تواجه الحياة وحدها ، وحملت مسؤوليه تربيتى وحمايتى وحدها .. وتقول له والدموع تكاد تقفز من عينيها :

— الناس طمعانه فىّ وفى نوجا لأنهم عارفين ان معاناش راجل .. وأنا تعبت خلاص يا دكتور .. تعبت من الناس ومن نوجا .. ما بقتش قادره أستحمل .. واحده فى سنى مش ممكن تستحمل ده كله ..

ولم اكن احاول ان احذر هاشم من هذه الخطط .. كنت اخاف أن اشعر امى بأنى اقف بجانبه عليها .. اخاف أن تحرمنى منه .. وأخاف على حبى من حقيقتى .. كنت اكتفى بأن اقول له فى ضعف وأنا لا انظر اليه :

— ما تصدقهاش يا دكتور .. ماما دايما تبالغ ..

كنت لا ازال اناديه بلقب « دكتور » ..

وكان هاشم يصدق أمى .. بل يصدقها اكثر مما يصدقنى .. ويهتم بالمشاكل المفتعلة التى تعرضها عليه ، اهتمامه بمريض من مرضاه .. وكان يقول لى عندما يخلو بى :

— اسمعى يا نجوى .. انتى لازم تريحى مامتك .. دى بتحبك ومالهاش فى الدنيا غيرك .. وانتى ذكيه وتعرفى ازاى تريحيها ..

وأسكت .. انه لا يعرف امى .. والحقيقة تشرخ حلقى ولا استطيع أن أنطق بها ..

وفى يوم قال لأمى وهى تشكو له :

— اسمعى يا عزيزه هانم .. ارجوكى تعتبرى انك مش لوحدك فى الدنيا .. انتم عشتوا طول عمركم تلاته .. انتى .. وطاهر بيه جوزك .. ونجوى بنتك .. ودلوقتى بقيتو اربعه انا الرابع ..

وابتسمت ابتسامة كبيرة ..

خيل اليها أن خطتها نجحت ..

اعتبرت هذا الكلام ، كأن هاشم يخطبنى منها .. يطلبنى للزواج ... بل انها بدأت ترتب فعلا حياتنا بعد أن يتزوجنى هاشم ، كأنه لم يكن هناك شىء يمكن أن يفسد ترتيبها .. لا شىء .. لا حقيقتى كامرأة .. ولا علاقتى بعبد الفتاح .. ولا المال الحرام الذى نعيش عليه .. لا شىء ابدا يمكن أن يقف فى طريقها .. فى طريق خيالها .. ان خيالها يتسع لكل انواع الزيف .

ولكن هاشم لم يتقدم خطوة اخرى .

لا يصرح لى بحبه ..

ولا يطلبنى للزواج ..

وكل ما يهمه من مستقبلى هو الحاقى بالجامعة ..

ولم أعد أطيق .. اننى أحبه .. لا يهمنى اذا دخلت الجامعة أم لم أدخلها .. لا يهمنى اذا تزوجنى أم لا .. كل ما يهمنى انى احبه .. واريد منه حق الحب .. أريده .. أريد ذراعيه .. أريد شفتيه .. أريد همساته .. أريد أن ننطلق وحدنا فى دنيا نملكها وحدنا .. دنيا ليست فيها أمى ، ولا أبى ، ولا عبد الفتاح .. وبدأت اغتاظ من هاشم .. كيف يطيق هذا الحرمان الطويل .. واذا استطاع أن يحرم نفسه منى ، ما ذنبى حتى يحرمنى منــه .

ثم كان يوم .. وجاء هاشم لزيارتنا فى الساعة التاسعة مساء بعد انتهاء عيادته .. واستعددت له فى هذا اليوم أكثر من اى يوم آخر .. لا أدرى لماذا .. فلم يكن قد جد شىء ، ولكن احسست بنفسى فى حاجة لأن استعد له .. كامرأة .. ارتديت ثوبا من الشيفون ، أزرق سماوى .. يكشف عن ذراعى ، ومساحة كبيرة من صدرى .. وله ايشارب من نفس اللون يلتف فى اهمال حول عنقى .. وحذاء اسود . فرنيه .. سبعة سنتى .. وتعطرت بعطر « فام » .. واثقلت من العطر أكثر من عادتى .. وتحليت بخاتمى الماس ، والدبوس ، والقرط .. هدايا عبد الفتاح .. وصبغت شفتى بأحمر فاتح .. ووضعت ظلالا من « الأومبر » فوق جفونى .. وكحل .. ورروميل .. وخصلة من شعرى ملقاة فوق خدى .. كنت امرأة .. كأنى متجهة الى حفلة من حفلات زيزى ..

واستقبلته فى الصالون .. حيث يحب دائما أن أستقبله ، حتى لا اذكره بانه طبيب اذا استقبلته فى حجرة النوم .. ونظر الى فى بهرة .. ارتفعت كل جفونه المنتفخة ، لتكشف عن كل عينيه .. وقال وهو ينظر الىّ كأنه لا يصدق :

ـــ ايه ده كله .. رايحه فين ؟

قلت وانا اتخايل امامه ، واحاول ان ارى نفسى فى عينيه كأنى احاول أن أرى نفسى فى مرآتى :

ـــ ولا حته .. ليه .. باين علىّ انى رايحه حته ؟

قال :

ـــ باين عليكى انك رايحه حفله كبيره قوى ..

قلت وانا انظر اليه بعينين جريئتين :

ـــ أبدا انت حفلتى !

وابتسم ابتسامة قوية كأنه يجمع بها ارادته حتى لا يندفع الىّ ويأخذنى بين ذراعيه .. ثم اتجه يصافح أمى فى حرارة ..

وجلست أمى معنا قليلا ، وهى تنظر فى عينى هاشم وهما يطلان علىّ ، كأنها ترصد النجوم لتتنبأ بمستقبلى .. ثم قامت واحتجت ببعض مشاغلها ..

وتركتنا وحدنا .

وهاشم جالس على الأريكة .. يدخن سيجارته .. وخيل الىّ أنه يدخنها بعصبية ..

وانا جالسة على المقعد الفوتيل .. ظهرى مشدود .. عنقى مفرود .. كأنى عروسة فى الكوشة ..

وقلت له :

ـــ تحب تتفرج على صورى وانا صغيره ..

ونظر الىّ وقال مبتسما فى حنان :

ـــ أنا متهيألى انى شفتك من يوم ما تولدت .. انما ورينى الصور علشان افتكر أيام زمان ..

وجريت الى غرفتى .. وعدت بألبوم كبير أحتفظ فيه بصورى الفوتوغرافية .. صور وأنا طفلة .. وصور وأنا فى المدرسة .. وصورة وأنا أمثل عندما كنت فى فرقة التمثيل .. وهناك صور أخرى .. صور لى وأنا فى الأوبرج والأريزونا مع شلة زيزى .. ولكن هذه الصور لا أحتفظ بها فى الألبوم ..

والفيت نفسى جالسة بجانبه على الأريكة .. وفردت الالبوم فوق ركبتى وركبتيه .. وبدأنا نقلب فى الصور .. وانحنى فيكاد خدى يلامس خده .. وانفه الكبير وهو يتنفس يكاد يشفط خصلة شعرى .. وركبتى تصطدم بركبته من تحت الالبوم .. وحاولت أن ابعد ركبتى ، وحاول أن يبعد ركبته .. ولكن ركبتينا تعودان وتصطدمان .. وعطرى يختلط بهذه الرائحة النظيفة التى تفوح منه كأنها الهواء النقى .. وأنفاسى تسخن وتلتقى بأنفاسه .. انفاسه أسخن .. كل شىء حولنا وفينا يسخن .. وأنا أحس بشعور جديد .. ليس الحب وحده .. شعور مثير يسرى فى أعصابى كلها ، ولا أدرى هل يخدرها أم ينبهها .. انى اشعر بأنى امرأة .. انى لم أشعر من قبل بأنى امرأة .. لم يستطع عادل ولا عبد الفتاح أن يشعرانى بأنى امرأة .. ولكنى اشعر بنفسى الآن بأنى امرأة .. انى لا أستطيع ان احب كفتاة .. لأنى امرأة ..

وخفت صوتانا ، ثم لم نعد نتكلم ، ولم نعد نرى الصور .. نقلب صفحات الالبوم دون أن نرى شيئا .. وأنا فى انتظار شىء .. اى شىء .. أن ترتفع ذراعه وتضمنى اليه .. أن يلتفت بوجهه ليلتقى بشفتى .. أن يشدنى من شعرى .. أن يضربنى .. اى شىء .. أى شىء ..

وفجأة نظر هاشم فى ساعته ، وازاح البوم الصور من فوق

ركبته .. وقفز واقفا كأنه ينجو بنفسه .. كأنه يفر من النار .. وقال :

— انا لازم أنزل .. عندى ميعاد مع جماعه أصحابى فى سميراميس ..

وصرخت عيناى ..

وقلت بصوت محشرج :

— لسه بدرى ..

وابتسم هاشم كأنه يمدنى ببعض قوته ، وقال :

— ما اقدرش .. لازم أنزل ..

ثم مد يده والتقط يدى ، وجذبنى لأقف بجانبه ، وقال فى حنان وهو لا يزال ممسكا بيدى :

— احسن انى أنزل دلوقت ..

واحنيت رأسى كأنى اهم بالبكاء :

— زى ما يعجبك ..

ووضع يده الأخرى تحت ذقنى ورفع وجهى اليه ، وقال وابتسامته الحلوة الحانية معلقة بين شفتيه المنفرجتين :

— على فكره .. نسيت اقول لك .. اختى عازماكى عندها على العشا يوم الخميس ..

وخيل الى انى لم اسمعه تماما .. أو انى لم استطع أن اصدقه .. وطارت منى فجأة احاسيس المرأة ، وقلت :

— بتقول ايه ؟

قال فى هدوء :

— اختى عازماكى يوم الخميس ..

قلت :

— بس انا ما اعرفهاش ..

قال :

— لازم تعرفيها .. مش ممكن حاتقدرى تعرفينى الا اذا عرفتيها ..

قلت :

— وهى ما تعرفنيش ..

قال :

— هى عارفاك من يوم انا ما عرفتك ..

قلت وفرحة غامرة تملأ قلبى :

— كلمتها عنى ؟ ..

قال :

— كتير ..

وسكت برهة لالتقاط انفاسى المبهورة ..

.. ثم قلت كأنى تائهة :

— أنا خايفه ..

قال وهو يضغط يدى :

— خايفه من ايه ؟

قلت :

— من اختك ..

وضحك ضحكة كبيرة وقال :

— ما حدش فى الدنيا يخاف من اختى مديحه ابدا .. هى اللى دايما تخاف .. تخاف على جوزها .. وتخاف على ولادها .. وتخاف علىّ ..

قلت :

— تخاف عليك من ايه ؟ ..

قال :

— من الستات طول ما انا مش متجوز .. وهى خايفة على .. متهيأ لها انى حانذب .. واقع على دماغى ..

وبلعت ريقى ، وقلت فى صوت منهار وأنا أدير عينى عنه :

— لها حق ..

وقال هاشم :

— ماما راحت فين ؟ ..

ثم رفع صوته قبل ان اجيبه ، وملأ البيت كله هاتفا :

— يا عزيزه هانم .. عزيزه هانم ..

وقلت وأنا أنظر اليه فى تردد :

— وماما معزومه ..

قال فى طلاقة :

— لو جت حاتضايق .. لأن كل المعازيم ستات صغيرين .. انما طبعا معزومه ..

وجاءت أمى على صوته ، وقال لها هاشم فى بساطة :

— أختى عازمه نجوى عندها يوم الخميس .. وأرجو انك تسمحى لها تيجى ..

ونظرت اليه أمى بعينيها الخبيثتين ، ووجهها المكرمش ، وقالت :

— وماله يا بنى .. نتشرف ..

وقال هاشم :

— مرسى يا افندم ..

ثم التفت الىّ وأنا مذهولة وقال :

— مديحه حاتضرب تليفون بكره ، تعزمك بنفسها .. تصبحوا على خير ..

وصافحنى .. وضغط على يدى .. كأنه يدفع الأمل فى

عروقى .. ثم صافح امى .. وخرج .. وقبل ان يصل الى الباب ، افقت من ذهولى ، وجريت وراءه لألحق به عند الباب ، وقلت له فى صوت متهور :

ــ تفتكر البس ايه ؟ ..

وعاد هاشم يضحك ، وقال :

ــ اى حاجه ..

ثم نظر الى ثوبى الذى ارتديه وقال :

ــ بس بلاش الفستان ده .. لانه عاملك زى ما تكونى واحده ست .. مش ممكن يكون فستان بنت رايحه الجامعه ..

وقلت وابتسامة باهتة على شفتى وريقى يتجمد فى زورى :

ــ لك حق ..

وابتسم كأنه يقبلنى بعينيه ..

وخرج ..

وجريت الى غرفتى ، والقيت نفسى على فراشى ، ودفنت وجهى فى وسادتى .. وبكيت .. دموعى كالسيل تزيح امامها الكحل والروج والعطر ، وتلطخ بها الوسادة .. وكلى ارتعش ..

وجاءت [illegible] ورائى ، وقالت فى جزع :

ــ بتعبطى ليه .. هو قالك حاجه .

وصرخت وأنا أضرب الفراش بيدى وقدمى :

ــ سيبينى .. ابعدى عنى .. سيبينى اعملى معروف ..

وقالت وهى تجلس على الفراش :

ــ ايه يا اختى الدلع ده .. ما تقولى بتعيطى ليه ..

واخذت ابكى .. وأبكى .. وهى جالسة فى انتظار ان انتهى من البكاء .. ثم قلت من خلال دموعى كأنى أحادث نفسى :

ــ ده اول راجل من اللى عرفتهم ، بعد عادل ، يعرفنى بعيلته .. أول رجل يحترمنى .. ما فيش راجل من اللى كنا نخرج معاهم عرض علىّ انه يعرفنى بأمه ولا اخته ..

وقالت وهى لا تشعر بشىء مما احس به :

ــ وماله فيها ايه يعنى دى .. هو انتى حبيتى تتعرفى بعيلة حد وما تعرفتيش ..

ولم أرد عليها .. انها لن تفهمنى أبدا ..

وعادت تقول :

ــ انتى عارفه معنى العزومه دى ايه .. معناها جواز .. ما هو لو ما كانش ناوى على جواز كان عرفك بأخته ليه .. المسأله بالعقل .. بس برضه لازم ناخد بالنا ..

ورن فى أذنى صوت هاشم وهو يقول : « طول ما انا مش متجوز أختى خايفه على انى أندب ، واقع على دماغى » .

هل اتركه يندب ..

يندب فىّ ..

لا .. مستحيل .. انى احبه الى حد انى لن اتركه يندب ..

ولكن ..

لماذا لا أصرح له بالحقيقة .. كل الحقيقة .. انى لا ذنب لى فى حياتى .. وهو لا يستطيع أن يفهم .. ويعذرنى .. ويتزوجنى بعد أن يفهمنى ويعذرنى ..

لا .. اذا كان قد احبنى ، فقد احبنى كما يتصورنى .. فتاة بريئة ، طاهرة عذراء .. لم يحبنى على انى امراة .. عشيقة رجل غنى ..

لن اصرح له بحقيقتى ..

حتى لا افقد حبه ..

انى اريد حبه .. ولا اريد الزواج منه ..

ولكن الحب أهم من الزواج .. ان الزواج يمكن فسخه ببساطة .. ولكن الحب .. لا يمكن . ان فسخ الحب شيء كالذبح .. كالقتل .. وسأذبح .. سأموت .. اذا أقمت حبى على خديعة ، ثم فسخه هاشم بعد أن يكتشف حقيقتى .

ودموعى تجف .. كل شيء فىّ يجف .. وقلت وأنا ساهمة :

ــ أنا مش رايحه عزومة أخته ..

وقالت أمى وهى تنظر الىّ فى استنكار :

ــ ايه العبط ده .. ليه بأه ..

قلت :

ــ ومش عايزه أشوفه تانى ..

قالت :

ــ ليه ده كله يا بنتى .. هو حصل منه حاجه ..

قلت :

ــ لأ .. بس أنا حاسه ان حياتى كلها حا تتلخبط .. وأنا مش مستعده ألخبط حياتى ..

قالت :

ــ ولا تتلخبط ولا حاجه .. احنا نفضل معاه لغاية ما نشوف آخرته ايه .. والله اذا طلع راجل كويس ، كان بها .. ما طلعش ، ما خسرناش حاجه .. وما تخافيش ، ما يقدرش يلعب بيكى .. أنا حاسه انه راجل كويس .. بس خواف ..

قلت :

ــ خواف من ايه ؟

قالت :

ــ من الستات .. ومن الجواز ..

وظلت أمى تتحدث .. وتتحدث .. وأنا ساهمة .. أسمع

نصف كلامها ، والنصف الآخر لا يصل الىّ .. وأفكار كثيرة تتجاذبنى .. احيانا أقرر ان اذهب .. ثم أعود وأقرر ألا اذهب .. واحيانا أقرر ان أصرح لهاشم بحقيقتى ثم أعود وأقرر ألا أصرح له بشيء .. ويمتلىء خيالى بصورة أخته .. وبصورة بيته .. وأتصور نفسى كأنها أحبتنى .. وأتصورها كأنها كرهتنى واكتشفت سرى .. وأسمع صوتها يرتفع ويملأ السموات والأرض وهى تصرخ فى أخيها .. أوعى تندب .. أوعى تندب ..

وأمى لا زالت تتحدث ، وقلت لها كأنى أرد على نفسى :

ــ اعملى حسابك لو رحت العزومه دى .. مش حاتيجى معايا ..

وقالت أمى كأنها فوجئت :

ــ الا دى .. رجلى على رجلك ..

واعتدلت فى فراشى جالسة ، وقلت لها فى حدة وحزم كأنى تزودت بقوة جديدة :

ــ اسمعى يا ماما .. هاشم مش زى بقية الرجاله .. وادى انتى شفتى .. بقالك ست أشهر تسيبينى معاه لوحدى .. ما حاولش يبوسنى .. ودول ناس مودرن ، ما عندهمش مانع ان الأخ يعزم صاحبته فى البيت عنده .. و ..

وقالت أمى تقاطعنى :

ــ أنا ما اعرفش مودرن ومش مودرن .. هم المودرن مش رجاله ، ولا ايه .. أنا ايه عرفنى حايخدك فى بيتهم يعمل فيكى ايه ..

قلت فى حدة وسخط :

ــ يعنى حايعمل فىّ ايه .. ايه اللى فاضل علشان يعمله فىّ !

قالت كأنها تهم بالصراخ :

— لا .. بأه اسمعى .. اذا كنتى فاكره انك حره .. تبقى غلطانه .. كل حاجه عندى لها حساب ..

قلت أقاطعها :

— الا أنا ..

قالت كأنها جزعت :

— ازاى بأه .. أمال كل اللى عملته ده علشان مين .. هو انا اللى ساكنه فى الفيللا دى لوحدى .. والعربيـــه اللى حضرتك رايحة جايه بيها طول النهار .. والفساتين .. والصيغه والمجوهرات .. كل ده بتاع مين وعلشان مين ولو ما كنتش انا .. مش كان زمانك مرميه زى الكلبه مع الواد اللى اسمه عادل .

قلت :

— ما فيش لازمه للكلام ده .. وبا اقولك من دلوقتى .. اذا رحت العزومه حاروح لوحدى ..

ونظرت فى وجهى كأنها تبحث فيه عن شىء ، وعادت تقول :

— تكونيش بتستعرى منى يا بت .. ولا فاكره انى مش من مقام الدكتور بتاعك والست أخته ..

قلت ولمسة من الشفقة تمر على قلبى :

— ابدا يا ماما .. بس هو قال لى ان كل المعزومين ستات صغيرين .. وحاتبقى انتى فى وسطيهم نشاز .. وكمان .. لازم تفهميه انك بتثقى فيه .. وهاشم حساس يقدر معنى الثقة دى ..

وسكتت أمى قليلا كأنها تحاول أن تقنع نفسها ، ثم هزت رأسها بعنف كأنها لا تستطيع أن تقتنع ، وقالت فى عناد :

— لأ .. لا ثقة ولا مش ثقة .. انا ما فهمش الكلام ده .. رجلى على رجلك ..

قلت فى حدة :

— يبقى مش رايحه .. ومن فضلك تسيبينى انا بأه .. انا تعبت ..

وقمت وخلعت ثوبى كأنى أمزقه عن جسدى .. واطحت بفردتى حذائى من قدمى فى فراغ الغرفة .. وعدت الى فراشى ..

وصممت أم على أن تنام بجانبى .. وأعطيتها ظهرى .. وتركتها تتكلم .. لم أرد عليها .. وانا مغمضة العينين .. وكلى متيقظة .. عقلى .. وقلبى .. وأعصابى ..

وسكتت أمى ..

خيل الىّ أنها نامت ..

وأنا لم أنم ..

لا أستطيع أن أنام ..

وقمت من فراشى .. ومشيت حافية على أطراف أصابعى .. وسمعت فجأة صوت أمى ورائى ، كأنها ذئبة لا تنام الا بعين واحدة :

— رايحه فين ؟

قلت دون أن التفت اليها :

— رايحه أنام جنب بابا ..

وكنت اريد فعلا أن أنام بجانبه .. ان أبى هو القطعـــة الوحيدة النظيفة المغلوبة على أمرها فى هذا البيت .. أريد أن الجأ اليها .. الجأ الى شىء نظيف ..

وفتح أبى عينيه .. ونظر الىّ كأنه يستطيع أن يفهم كل مشاكلى دون أن أرويها .. وتدلت ابتسامة حانية فوق شفتيه

المشلولتين كأنه يواسينى بها .. وخرجت من تحت لسانه المشلول أصوات هادئة ، كأنها حب الأخرس .. وتركنى أنام على ذراعه المشلول ..

ان حياتى أيضا مشلولة ..

وبعد مدة .. جاءت أمى وهزتنى فى رفق معتقدة أنى نائمة ، وقالت هامسة حتى لا توقظ أبى :

ــ خلاص .. اتفضلى روحى العزومه لوحدك .. قومى بأه نامى فى سريرك ..

وابتسمت مشفقة عليها من حبها لى ..

وعدت الى سريرى ..

ونامت بجانبى ..

نمنا فى الخامسة صباحا ..

وفى صباح اليوم التالى ، اتصلت بهاشم فى التليفون وقلت له :

ــ انا مش رايحه ..

وقال فى دهشة :

ــ ليه ؟

قلت :

ــ خائفة ..

قال :

ــ ما تبقيش مجنونه .. انا قلت لأختى انك قبلت العزومه .. وزمانها حاتكلمك فى التليفون دلوقت .. وبكره حافوت عليكى الساعة تسعه ونروح سواء ..

قلت :

ــ مش حاقدر يا دكتور ..

قال :

ــ اعملى معروف يا نجوى .. انا عندى شغل .. واذا كنتى مش عايزه تيجى لوحدك تعالى مع ماما .. خلاص .

قلت :

ــ حا افكر ..

قال :

ــ لأ .. ما تفكريش .. حا افوت عليكى بكره ..

وأنهى المحادثة ..

واتصلت بى أخته .. كنت انتظرها .. كنت جالسة بجانب التليفون طول الوقت ، متخشبة ، فى انتظارها .. وسمعت صوتا رائقا .. متزنا .. فى اتزانه طيبة ومرح .. وقالت كأنها تعرفنى من زمان طويل :

ــ نجوى ..

قلت :

ــ أيوه يا افندم .. مين ؟

وكنت أعرف من هى .. ولكن كان يجب أن أقول « مين » .

وقالت فى طلاقة :

ــ أنا مديحه أخت الدكتور هاشم .. أنا اتحايلت على أخويا انه يعزمك بكره عندنا على العشا .. نفسى أشوفك من كتر ما كلمنى عنك .. وباذن الله تقدرى تيجى .

قلت :

ــ مرسى قوى يا افندم .. متشكره .. بس .. أصل ..

قالت تقاطعنى وبنفس لهجة أخيها كأنها هى أيضا دكتورة :

ــ ده أنا نفسى أشوفك قوى .. وهى عزومه صغيره ..

عشرة أنفار بس .. وحايعجبوكى لما تتعرفى بيهم . خلاص .. حاستناكى يا نجوى ..

وقبلت دعوتها .. كانت بساطتها وانطلاقها أقوى من محاولتى التدلل .. أحسست أنها تعلم أنى اريد ان أقبل دعوتها .. وخجلت من ان أستمر فى الرفض .. او حتى فى اطالة الحديث ....

وقالت :

— انا حاسه اننا حانبقى أصحاب .. وانتى عاجبانى من كتر ما هاشم اخويا كلمنى عنك .. ويمكن اعجبك انا كمان .. وعلشان اعجبك ما تسمعيش كلام اخويا عنى .. لأنه دائما يشنع علىّ ...

قلت :

— ده بيحبك قوى ..

قالت :

— بس برضه بيشنع علىّ ..

واحسست انها أقرب الناس الى قلبى .. صوتها .. وبساطتها .. واسلوبها .. شىء آخر غير زيزى والنساء اللاتى عرفتهن وصادفتهن عن طريق زيزى ..

وارتديت يومها ثيابى خمس مرات ..

من الساعة الحادية عشرة صباحا وانا ارتدى ثيابى .. البس ثوبا وحذاء .. وأمشط شعرى .. وأجرب الكحل ، والأومبر .. ثم اخلع الثوب والحذاء .. والبس ثوبا آخر وحذاء آخر .. والخبط شعرى .. وأمسح الكحل والأومبر .. و .. و .. وفى الساعة الخامسة ذهبت الى الحلاق بقيت عنده حتى السابعة .. ثم عدت الى البيت ولخبطت كل ما صنعه الحلاق ..

واعدت تسريحة شعرى .. اخترت تسريحة بسيطة ، وثوبا بسيطا .. وروج بسيط كأنى بنت على وشك أن تلتحق بالجامعة ...

وقد جعلت البيت كله طول اليوم فى حالة عصبية .. وامى تنظر الىّ وتتعجب ، ثم تقول :

— اللى يشوفك بتعملى كده .. بيتهيأله انك عمرك ما رحت حفله .. يابت اثبتى ..

ثم تنظر الىّ كأنها تطل فى قلبى لتقيس مدى حبى .. وفى عينيها شىء كالندم يشوبه الخوف .. كأنها نادمة لأنها تركتنى لهاشم .. وخائفة أن يأخذنى منها .. انها على الأقل واثقة انه اخذ قلبى .. وهذا وحده يخيفها .

وجاء هاشم ..

ونظرت الى نفسى فى عينيه ..

عيناه مبهورتان ..

وقال والبهرة تخنق صوته :

— انتى هايله .. مدهشه .. أحلى يوم شفتك فيه .. النهارده ..

وقلت وقلبى يرتجف ، اريد ان اصدقه :

— صحيح والنبى يا دكتور ..

قال وهو لا يزال مبهورا :

— أختى مش حاتصدق انك حلوه للدرجه دى ..

وجاءت أمى ، وارتاحت قسمات هاشم عندما وجدها بثياب البيت ، ولكنه قال :

— انتى مش جايه معانا يا عزيزه هانم ..

قالت فى جفاف :

— لا .. تعبانه شويه .. انما حتى لو كنت تعبانه ما كنتش ممكن أسمح لنجوى تخرج لوحدها الا لأنها خارجه معاك .. ولأنى باثق فيك ..

فقال :

— متشكر قوى ..

قالت :

— بس نجوى لازم ترجع الساعه اتناشر .. اتناشر بالضبط .. أنا مش حانام الا لما ترجع .. لا أنا ولا أبوها ..

قال :

— خلاص .. امرك .. اتناشر بالضبط حاتكون هنا .. زى سندريلا ..

وقبلت أمى ..

وصافحها هاشم قائلا :

— اطمنى ..

وخرجت معه ..

كأنى عروسته ..

وأمى تنظر خلفنا وطبقة من الدموع تلمع فى عينيها .

وكانت المرة الأولى التى أخرج فيها مع هاشم وحدى .

شىء آخر أحس به وأنا معه وحدى .. أحس كأنى فى عمرى .. عمر العشرين .. وأحس بعواطفى كلها نشطة منطلقة .. احس بالحياء .. والخوف .. والرهبة .. والتردد .. والترقب .. كل حركة من هاشم تثير شيئا فىّ .. كأنى لا أزال فتاة .. عذراء .. ساذجة .. بريئة .. وأحس بحبى نظيفا .. طاهرا .. لا يلطخه خبث أمى ، وخططها .. ان الحب يكون أكثر براءة وطهرا بعيدا عن الأمهات ..

وبقينا صامتين فى السيارة ..

كأننا فعلا عروس وعريس فى أول لقاء لهما ، كل منا يعيش فى عواطفه ، ويعجز عن التعبير عنها ..

وقبل أن نصل الى المعادى ، أوقف هاشم السيارة فجأة على الرصيف المحاذى للنيل .. وتطلعت اليه فى دهشة .. والتفت الىّ .. وما كدت ألتقى بعينيه ، حتى غلبنى الخفر ، فأرخيت عنه عينى ..

وقال هاشم وهو يستدير فى جلسته نحوى :

— أنا عايز أقول لك حاجه قبل ما نوصل البيت ..

وقلت فى صوت خفيض يرتعش بعواطفى :

— خير ...

قال وهو يطلق عينيه الى صفحة النيل :

— أنا سبت أمينه .. خلاص ..

وفوجئت .. لقد كانت أمينة آخر ما يخطر على بالى فى هذه اللحظة .. ولكن .. لعله أذاقنى هذا الحرمان الطويل حتى ينتهى من أمينة .. لم يكن يريد أن يجمع بينى وبين أى فتاة اخرى فى حياته .. ولعله لم يدعنى الى بيته الا بعد أن تخلص من أمينة .. لعله منذ اليوم سينطلق الىّ بكل حبه ، وكل حياته .. ما أروعه .. لم أكن أصدق انه لا يزال فى الدنيا مثل هذا الرجل ..

وقلت وأنا أقبله بابتسامتى :

— من امتى ؟ ..

قال :

— من اسبوع .. وكان لازم أقول لك .. علشان تعرفى كل حاجة عنى .. زى ما انا عارفة كل حاجة عنك .

واحسست كأن سكينا شق قلبى .

انه لا يعرف شيئا عنى .. لا يعرف .. لا يعرف أنى لست الفتاة البريئة التى يحبها .. لا يعرف أنى عشيقة رجل عجوز غنى ..

وبلعت ريقى وانا انظر فى الخاتم الماسى الذى فى اصبعى .. خاتم عبد الفتاح :

ــ انا كنت عارفه انك حاتسيبها ..

وكتمت الجرح الذى انفتح فى قلبى ، وتحاملت على نفسى حتى ابتسمت ابتسامة كبيرة وقلت وأنا أرفع عينى اليه :

ــ ورينى عينيك ..

قال مبتسما :

ــ ليه ؟ ..

قلت :

ــ علشان أشوف عينيك اذا كان فاضل منها حاجه فيك ، ولا لا ...

قال ضاحكا :

ــ اطمنى .. مش فاضل منها حاجه أبدا ..

قلت :

ــ كل الرجاله كده .. ينسوا بسرعه ..

قال :

ــ أصلى بافكر فى حاجه تانيه ..

قلت :

ــ ايه ؟

قال :

ــ بعدين اقول لك ...

والتقط يدى ، ورفعها الى شفتيه ، وقبلنى فى راحة كفى .. أول لمسة من شفتيه .. سرت حتى أصبع قدمى .. ودفعت الدماء فى وجنتى .. ثم أدار موتور السيارة ، ودخل الى المعادى .

وقلبى واجف ...

وأبذل مجهودا عنيفا ، حتى أحتفظ بشخصيتى كاملة فى مواجهة أخته .. وعندما وصلنا الى البيت كنت قد استطعت أن أسيطر على كل أعصابى .. سيطرت على مشيتى .. على ابتسامتى .. على لسانى .. على عقلى .. ولكن بقى شىء فى يرتعش ..

واستقبلتنى مديحة أخته فى ترحيب مرح .. ونظرت الى نظرة واحدة شملتنى كلى .. وقالت فى بساطة كأننا صديقتان من زمان :

ــ أهلا نجوى .. انتى حلوه قوى .. تعالى أعرفك بأصحابى ..

وأخذتنى الى الصالون وهاشم يسير حولى .. كل انتباهى موجه الى السيطرة على أعصابى ..

ووقف الرجال فى استقبالى .. واتجهت كل عيون السيدات الى .. خيل الى أن كل سيدة لها ألف عين .. ودارت بى مديحة تقدمنى لهم ، وتقدمهم لى .. ومع كل منهم عين كأنها المنظار المعظم ..

وأنا متماسكة ..

كان كل احساسى متجها الى أننى يجب أن أشرف هاشم بى ، أمام عائلته وأصدقاء عائلته .. وأجلستنى مديحة بجانبها على الأريكة .. كنت أفضل أن أجلس على مقعد .. ان جلستى

على مقعد تساعدنى أكثر على التماسك .. ولكنى جلست على حافة الأريكة .. مشدودة الظهر .. مفرودة العنق .. أحاول أن أحتفظ فى عينى بنظرة هادئة ، وبين شفتى ابتسامة ثابتة .. والعيون كلها تلتقى عندى ، ثم تنتقل الى هاشم .. وأحس أنهم يجمعون بينى وبينه فى خيالهم .. ربما اعتقدوا أننا على وشك أن نعلن خطوبتا ...

وأصدقاء مديحة كانوا مرحين .. مرح هادىء مهذب .. وبسطاء .. بساطة ناس لم تتعقد حياتهم .. وبسرعة أدمجونى معهم فى أحادبثهم .. وبسرعة أحسست أننى منهم .. وبدأت أجد القدرة لأطوف فى البيت فى انحاء البيت .. الذوق هادىء مريح ، أنيق .. شىء آخر غير الذوق الصارخ الذى أحسست به فى بيت زيزى .. وقد يكون فى بيت زيزى قطع من الأثاث أو من السجاد أغلى، مما رأيته فى بيت هاشم .. ولكن هنا تحس بأن كل قطعة مستريحة .. هادئة .. تحس بالجلال ..

واسترحت ...

استرحت فى هذا البيت .. أحسست انى كنت واقفة طول حياتى ثم جلست .. أحسست كأن أعصابى كانت متيقظة العمر كله ، ولم تنم الا الآن .. وآنية كبيرة أنيقة ممتلئة بالزهور أمامى ، أرى طريقى من خلالها ، كأنه مفروش بالورد .. وهاشم يجلس بعيدا عنى يبادلنى نظرات حلوة أحس من خلالها كأنه يتباهى بى .. كأنه فخور بى .

وقمنا الى مائدة العشاء .. وكنت أخاف لحظة العشاء .. ان عملية الأكل عملية مربكة ، أخاف خلالها أن أفقد سيطرتى على أعصابى .. ولكن كل شىء تم فى بساطة .. أجلستنى مديحة فى مكان الشرف ، على يمين زوجها .. باعتبارى ضيفة جديدة .. وساعدنى زوجها بمرحه وطيبته على أن أكون على طبيعتى .. وهاشم جالس بعيدا عنى .. يسأل عنى بعينيه فى كل لحظة ..

ولا نظرة جرحتنى .. ولا كلمة مستنى .. الجو نظيف .. نظيف . الرجال هنا يشربون كثيرا من الويسكى .. ولكنهم لا يسكرون ولا يتبذلون ، ليسوا كأصدقاء زيزى .. ربما لأن اصدقاء زيزى يشربون ليبتذلوا ، أما هؤلاء الرجال فيشربون ليرتاحوا من عناء يومهم ..

وفى الساعة الثانية عشرة الا ربعا وقف هاشم .. وقال لى ضاحكا :

ــ الأوامر اننا نكون فى البيت الساعه اتناشر ..

وقمت ..

والسيدات صافحننى جالسات ، وكل منهن تسألنى وعدا أن ترانى مرة ثانية .. والرجال قاموا واقفين فى وداعى .

وخرجت مديحة معى حتى الباب الخارجى ، والتفتت الى هاشم قائلة :

ــ اسمع يا اخويا .. نجوى من هنا ورايح صاحبتى أنا .. مالكش دعوه بيها .. فاهم ..

وقال هاشم ضاحكا :

ــ صاحبتك آه .. انما ماليش دعوه بيها ، لأ ..

وهمست مديحة فى أذنى قائلة :

ــ اذا عمل حاجه ، قوليلى .. أصلى أنا عارفه اخويا .. ... عمايله تجنن ..

قلت وانا اضحك :

ــ لغاية دلوقتى كويس ..

وقبلتنى مديحة فوق كلتا وجنتى ..

وركبت بجانب هاشم فى سيارته ، وقلبى مفعم بالفرحة .. لقد نجحت .. ربما نجحت هذه المرة بمجموع تسعة وتسعين فى المائة .. أخته أحبتنى .. وصديقاتها أحببننى .. والرجال نلت اعجابهم واحترامهم .. لم أفكر لحظتها فى هاشم ، قدر ما فكرت فى نجاحى .. ولكن فجأة ، قفز الى رأسى خاطر أسود .. والتفت الى هاشم وسألته فى لهفة :

— هاشم .. قول لى .. انت عرفت أمينه باختك ؟ .

ولم أنتبه الى انها كانت المرة الأولى التى أناديه فيها باسمه مجردا ، بلا لقب « دكتور » ..

وابتسم هاشم ، وقال :

— لأ .. انما هى اللى عرفت نفسها بأختى .. كانت بتكلمها فى التليفون .

واسترحت ..

ثم أوقف السيارة على جانب الطريق والتفت الىّ بكل جسمه واستطرد قائلا :

— ما كانش ممكن اعرف حد بأختى الا انتى .. انتى حاجة تانيه .. واللى بينى وبينك مش ممكن يكون كان بينى وبين حد تانى .. انتى مش بنت حلوه انتى أكتر من كده .. شخصيتك .. عقلك .. أنا متهيألى ان ما فيش حد كان ممكن يفهمنى الا انتى .. وكلام كتير بتقوليه ، بيتهيألى انى انا اللى باقوله .. لدرجة انى ساعات وأنا باكشف على عيان واحتار فيه ، أسأل نفسى .. يا ترى نجوى رأيها ايه .. وساعات يتهيألى انك اكبر منى .. عمرى ما حسيت بالاحساس ده قبل كده .. حتى وأنا صغير كان بيتهيألى انى اكبر من ابويا ..

وأنا أنظر اليه مبهورة ..

كيف استطاع أن يحرمنى من كل هذا الكلام هذه الشهور ...

ولم أتكلم ..

لم أستطع أن أتكلم ..

عيناى معلقتان فى وجهه ، كأنى عبيطة .. لا أدرى كيف أتكلم ، ولا أدرى ماذا أفعل ..

وسكت هاشم ..

وعيناه تبحثان فى عينى عن شىء يسأل عنه ..

ثم اقترب منى بوجهه .. وقبل أن يصل .. ألقيت بوجهى اليه .. ولف ذراعه حولى .. وضغطنى الى صدره .. وخده يضغط خدى .. وأنفاسه تمسح على عنقى .. أريد أن أنام على هذا الصدر .. على هذا الخد .. أريد أن أنام فى هذه الأنفاس ..

وشفتاه قريبتان جدا من أذنى .. ثم أحس بهما على خدى .. ثم فوق شفتى .. وأنا مغمضة عينى .. اتلقى قبلته الأولى .. هادئة .. ناعمة .. كأنه يقبلنى بقلبه .. لا أريد أن أفتح عينى .. انى أراه بشفتى .. أرى قلبه .. أرى حنانه .. أرى طيبته .. أرى رجولته العارمة .. أرى دنيا آمنة .. حلوة ..

وفتح عينيه ..

وفتحت عينى ..

وشفتاى لا تزالان فى شفتيه ..

كأننا لا نصدق ..

كأننا نريد أن نتأكد ..

نتأكد أنى أنا .. وأنه هو .. وأن هذا هو الحب ..

وخبأت وجهى فى صدره ، وهمست :

— احنا تأخرنا يا هاشم ..

واعتدل أمام عجلة القيادة صامتا .. وقاد السيارة بيـــد

واحدة .. ويده الأخرى ممسكة بيدى .. تضغط عليها طول الطريق ونحن صامتان .. يدى ويده فى حديث طويل .

وصلنا الى بيتنا فى شارع الهرم .. وافقت من حلمى الجميل على منظر أمى وهى واقفة فى الشارع أمام باب البيت ، وشعرها منكوش ، كالمجنونة ..

وما كادت السيارة تقف بجانبها حتى صرخت فينا :

ـــ اتأخرتم ليه .. أنا كنت رايحه ابلغ البوليس دلوقت ..

ونظرت اليها وتمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعنى .. مستحيل .. مستحيل أن أطيق هذه الأم .. انها فضيحة .. فضيحتى ..

ونزل هاشم من السيارة بسرعة ، وقال لها فى رقة :

ـــ آسف يا عزيزه هانم .. اتأخرنا نص ساعة بس .. على بال الستات ما وقفوا يسلموا على بعض ..

ونظرت اليه نظرة مجنونة سريعة ، ثم التفتت الىّ ، وقالت :

ـــ اتفضلى يا ست هانم ..

ونزلت من السيارة وأنا أدعى اللامبالاة ، وهمس هاشم :

ـــ بكره الصبح .. أول ما تصحى من النوم .. اضربيلى تليفون ..

وقلت وأنا اتطلع اليه كأنى أشرب من وجهه :

ـــ حاضر ..

ورفع صوته قائلا :

ـــ تصبحى على خير يا عزيزه هانم .

وردت عليه وهى تدير ظهرها له .

وجاءت ورائى وهى تصيح فى :

ـــ أوعى تعملى كده تانى مره .. فاهمه .. كنتى حاتجننينى

.. انا ما استحملش كده .. ودى آخر نوبه تخرجى فيها لوحدك ..

ولم اكن أريد أن اناقشها .. لم تكن لى طاقة لأن أتحداها .. أريد أن أخلو بنفسى لأستعيد قبلة هاشم الأولى .. لأعيش فى احساسى بها ..

والتفت اليها وقبلتها حتى أسكتها وقلت :

ـــ ربنا يخليكى لى يا ماما ..

وجلست أمى على سريرى ، ووضعت رأسها فوق كفها وقالت :

ـــ احكيلى ..

وحكيت لها .. بسرعة .. أريد أن أخلو بنفسى .. ولكنها لا تكتفى .. تسأل عن مزيد من التفاصيل .. واتعذب وأنا أرد على أسئلتها الكثيرة .. حرام .. حرام والله .. حتى حقى فى ان اخلو بنفسى فى غرفتى ، تأخذه منى ..

واخيرا .. نمت ..

وعيناى متفتحتان .. أستعيد قبلته .. وكلماته .. انى حفظت كل كلمة خطرت بيننا .. وجمعت فى خيالى كل لمحة .. واخته .. وأصدقاؤه .. وبيته .. وآنية الزهر .. و .. وفجأة هجم على خاطر كالكابوس ..

انه لا يحبنى أنا ..

انه يحب فتاة اخرى .. فتاة عذراء .. طالبة فى الجامعة .. لست أنا .. أنا لست عذراء .. أنا عشيقة رجل عجوز ..

وأهرب من هذا الخاطر فى ذكرى قبلته ..

انه لا يستطيع أن يحرمنى من قبلته .. لا يستطيع .. انى فى حاجة اليها .. يستطيع دائما أن يعطيها لى ..

وقمت فى الصباح منهكة .. أنهكتنى الفرحة .. وأنهكنى الحب .. وأنهكنى الخوف ..

وحادثته فى التليفون .. وقلت وقلبى يقفز فى داخل سماعة التليفون :

— صباح الخير يا دكتور ..

قال فى عجلة كعادته عندما يتكلم وهو فى العيادة :

— صباح النور .. حاتعملى ايه دلوقتى ..

قلت :

— يمكن انزل البلد ..

قال :

— طيب اسمعى .. تعرفى الترزى كاربوشيان اللى فى شارع عدلى ..

قلت :

— لا .

قال :

— تلاقيه جنب محل ريفولى .. فوتى عليه ، ونقى بدله صيفى ، وست قمصان ، وخليه يفصلهم .. هو عنده مقاسى ..

كان يتكلم ببساطة .. كأنى .. كأنى زوجته ..

قلت فى تردد :

— بس ده ما يعرفنيش ..

قال :

— أنا حاكلمه فى التليفون ..

قلت :

— وعايز البدله لونها ايه ..

قال :

— زى ما يعجبك ..

قلت :

— بس يا دكتور .. و ..

وقاطعنى قائلا :

— وفيه محل فى شارع ابراهيم بيبيع مسدسات .. فوتى عليه واشترى لى مسدس ..

وقلت فى دهشة :

— انت عايز مسدس ؟

قال :

— أيوه ..

قلت :

— ليه ..

قال :

— علشان أضرب نفسى بيه لو سمعتك تانى مره تقوليلى يا دكتور ..

قلت ضاحكة :

— طيب خلاص .. مش حا اقول لك ..

قال :

— حاتقوليلى ايه ..

قلت :

— مش حاقول لك دكتور ..

قال :

— قولى ..

قلت :

— أقول ايه ..

قال :

— قولى هاشم ..

وترددت .. أحسست انى فى حاجة لأن يقبلنى مرة ثانية حتى أنطق باسمه دون لقب دكتور .. وقلت فى حياء وكأن كل حرف من اسمه يحمل قطعة من قلبى ..

— ها .. شم ..

وقال :

— طيب سيبينى بأه أحسن العيان اللى فى أودة الكشف زمانه قلع هدومه ..

وقبلت سماعة التليفون ، قبل أن أعيدها الى مكانها ..

ونزلت الى البلد .. ومعى أمى .. فى سيارتى الأوبل البيضاء .. وأمى تعود وتسألنى الأسئلة التى سألتها ليلة الأمس .. ثم تعود وتضغط على سؤال بالذات :

— تفتكرى حا يتقدم لك امتى ؟

وقلت :

— ما اعرفش يا ماما .. ده لسه معرفنى بأخته امبارح ..

قالت :

— ما انا عايزه أطمن يا نوجا .. عايزين نعرف رايحين معاه على فين ..

ولم أرد عليها ..

وكل نشاط ذهنى موجه الى البدلة والقمصان التى سأختارها لهاشم .. وقد قضيت فى محل كربوشيان الترزى أكثر من نصف ساعة .. أسأله عن ذوق هاشم .. وعن البدل التى سبق أن فصلها .. ولم أشعر بالحيرة قدر ما شعرت بها وأنا أختار له بدلته .. خيل الىّ أن حبى كله معلق على هذا الاختيار ..

ثم اخترت له القمصان ..

ثم قررت فجأة أن اشترى له كرافت هدية .. قررت أن اشترى له كرافت واحدة .. ولكن كان هناك أكثر من كرافت جميلة .. كلها أريدها لهاشم .. فاشتريت له عشر كرافتات ..

وأمى واقفة مذهولة ..

تحاول أن تمنعنى عن الشراء .. ولكننى صممت ..

وعدنا الى البيت ، وقالت أمى وهى تخلع عمامتها السوداء من فوق رأسها .

— عبد الفتاح بيه جاى النهارده الساعه تلاته ..

والتفت اليها مذعورة كأنها أطلقت علىّ ثعبانا .. وقلت فى حدة :

— وما قلتيش ليه من الصبح ..

قالت :

— ودى فيها ايه دى .. غريبه ان عبد الفتاح ييجى ..

قلت وانا أخلع حذائى والقيه كأنى أضرب به الدنيا :

— أنا عيانه ..

قالت فى هدوء :

— لا .. ما بقاش يصدق حكاية العيا .. امبارح قعد يكلمنى ساعه فى التليفون .. الراجل شامم فيه حاجة فى الجو .. وده راجل نبيه وبيفهمها وهى طايره .. مش حانقدر أنا وانتى عليه ..

قلت فى حدة :

— نقدر ولا ما نقدرش ، مش ممكن يقرب لى ..

وقالت :

— بأه اسمعى يا نوجا .. عصفور فى اليد خير من عشره

على الشجره .. وأنا ما اطيرش عبد الفتاح من ايدينا علشان خاطر سى الدكتور بتاعك .. يوم ما نعرف هو عايز ايه بالضبط ، نبقى نتصرف .

قلت :

— لا عصفور ولا عشره .. أنا ما بقتش أقدر أطيق عبد الفتاح .. ما اقدرش .. ما اقدرش ..

قالت فى هدوء :

— أمال طايقه فلوسه ازاى ..

قلت وأنا أصرخ :

— مش عايزه فلوسه .. ياخدهم ويغور من وشى ..

قالت كأنها تسخر منى :

— وتشترى للدكتور هاشم كرافتات منين .. تسمحى تقوليلى ..

وكانت لفافة الكرافتات لا تزال فى يدى .. فنظرت اليها فى فزع كأنها تضم ثعابين لا كرافتات .. وفتحت راحة يدى .. فسقطت على الأرض ..

وعادت أمى تقول :

— ولما يرجع هاشم ويلاقينا ساكنين فى شقه بخمسه جنيه حاتقولى له ايه .. وحا تجيبى منين فساتين تروحى بيهم لاخته ..

وأنا أنظر فى وجهها المكرمش القاسى .. كأن تجاعيده حبال تلتف حول عنقى ..

— ما تبقيش مجنونه .. وما تنسيش نفسك .. وما تنسيش ان عبد الفتاح جوزك ..

وصرخت :

— ما تقوليش جوزى .. ده مش جوزى .. وانتى عارفه

انه مش جوزى .. «أنتى بعتينى له بالفلوس .. انتى بتاجرى بى .. أنتى عايشه من جسمى ..

ونظرت الىّ كأنها صدمت فىّ ، ثم قالت فى صوت محشرج :

— الله يسامحك يا نوجا يا بنتى .. هو أنا كنت غصبتك على حاجه .. ما انتى مع الراجل بقالك سنة .. وساكته وحامده ربنا ..

وجريت من أمامها الى غرفتى ، وصوتها يجرى خلفى وهى تصيح :

— اعملى حسابك انه جاى الساعة تلاته .. ومش عايزه دلع ... فاهمه .

وانكفأت على سريرى أبكى .. ووجدت نفسى أهمس خلال نشيجى .. هاشم .. هاشم .. كأنى أستغيث به ..

وهدأ بكائى ..

وهدأ صوت أمى ..

هدأ البيت كله ..

وقمت ، وخرجت من غرفتى .. أسير على أطراف أصابعى .. وأتلفت حولى .. لعل أمى فى المطبخ .. أو فى حجرة أبى .. وخرجت من البيت ..

وجريت فى الشارع ..

وركبت سيارة تاكسى ، وذهبت الى الوايلية .. الى بيت أمى .. أمى الحقيقية ..

طول الطريق الى الوايلية وأنا أحس بأنى أهرب من لحظة لقائى مع عبد الفتاح .. اللحظة التى تغلق فيها أمى حجرة النوم علينا .. أنا وهو .. وتقف خلف الباب كخفير الدرك ، لتطمئن الى أن عبد الفتاح أخذ حقه منى .. الحق الذى اشتراه بماله

.. وقد كنت أستطيع حتى بعد أن تغلق أمى الباب علينا أن أصد عبد الفتاح عنى .. أدعى المرض .. أقاومه .. أبكى .. أفعل أى شيء حتى لا يصل الى جسدى .. ولكن مجرد التفكر فى هذه المحاولات أصبح يقززنى من نفسى .. وكانت تتملكنى رغبة أكيدة جارفة فى أن أهرب من هذا الجو كله .. أن اغير حياتى .. أغير نفسى .. أن أكون فعلا الفتاة التى يتصورها هاشم ويحبها .. ولكنى لم أكن أدرى كيف أهرب من هذا الجو .. ولا أدرى كيف اغير نفسى .. وكنت ذاهبة الى « الوايلية » عند أمى الحقيقية ، وأنا لا أدرى ماذا سأقول لها .. ولم أكن قد اتخذت قرارا لأقيم معها .. لم أكن أفكر فى شيء من هذا .. كان كل ما أفكر فيه هو أن أهرب من لحظة لقائى مع عبد الفتاح ، وأن أحاول أن أكون الفتاة التى يحبها هاشم ..

و « الوايلية » حى شعبى من أحياء العباسية .. كنت أحس دائما كلما زرته وأنا فى سيارتى الأوبل ، كأنى سائحة تتفرج على حى أثرى من أحياء القاهرة القديمة .. ولكن فى هذه المرة لم أكن فى سيارتى الأوبل البيضاء .. ولم أحس بأنى سائحة .. أحسست أنى أعود الى بيتى .. الى أصلى .. أحسست كأنى غسلت حياتى من الزيف البراق ، وعدت كما أنا .. بنت هذا الشارع الضيق المزدحم بالضجيج ولم ابتسم لعم حسنين البقال الذى يفتح دكانه تحت بيت أمى .. وهو يمد عنقه خارج دكانه ويصيح مرحبا بى :

— يا صلاة الزين على الزين ..

ولم ألتفت الى سلامة العجلاتى وهو يدق لى جرس احدى عجلاته ويصيح :

— وسع للجميل ..

ان أهل الحى هنا يعرفون قصتى .. يعرفون أن أمى تنازلت عنى لخالتى الغنية .. ورغم انى لم اكن ازور أمى الا نادرا كل ستة شهور أو سبعة .. الا أنهم كانوا يعتبروننى دائما بنت حيهم ، رغم سيارتى الأوبل ، وثوبى الأنيق ، وابتسامتى المتعالية التى تعودت أن ألقيها اليهم ..

وصعدت الى بيت أمى ..

وفتحت لى الباب أختى الصغيرة ، هناء .. وما كادت ترانى حتى هللت ، وفرحة كبيرة تزغرد على وجهها ، وصاحت :

— أبله نجوى جت ..

ثم جرت الى داخل البيت قبل أن تصافحنى ، وهى تنط وتصيح :

— أبله نجوى جت .. أبله نجوى جت ..

وفى لحظة انطلق البيت كله الىّ .. أمى .. واخوانى البنات الأربع .. وأخى اسماعيل .. وأخى الصغير سمير .

وكلهم يقبلوننى ويضموننى الى قلبهم .. وفرحتهم الكبيرة تطوف بى ، وتتسلل الى قلبى .. وكان من عادتى كلما زرت بيت أمى أن أحمل لهم معى شيئا .. صندوق شيكولاتة .. بعض الثياب القديمة .. أصنافا من البقالة .. اى شيء .. وكانوا يفرحون بهذه الهدايا .. ولكنى فى هذه المرة ذهبت اليهم وأنا لا أحمل لهم شيئا .. ورغم ذلك لم تقل فرحتهم بى ..

وأتت أمى خلفى .. وقالت :

— أمال فين مامتك عزيزه ..

وقلت بلا مبالاة :

— مش جايه .. أنا جيت لوحدى .

وكانت هذه أيضا أول مرة أذهب اليهم وحدى .. وليست

معى « ماما عزيزه » .. وكان هذا حدثا هاما ؛ فان « ماما عزيزه » كانت تحرص على أن تكون معى كلما ذهبت الى أمى الحقيقية التى أناديها بلقب خالتى .. كانت تحرص على ان تكون معى ، أكثر من حرصها على اى شىء آخر .. فقد كانت تغار من أمى الحقيقية .. وكان أكثر ما تخافه هو اليوم الذى أتذكر فيه أن لى أما اخرى .. أما حقيقية .

ونظرت أمى الى وجهى كأنها تحاول ان تكتشف سرى .. ولكنها لم تسألنى شيئا .. وجذبتنى أختى سميرة من يدى ، قائلة :

— تعالى معى أوريكى فستانى الجديد ..

ودخلت معها الى حجرة اخواتى البنات ، والجميع معى .. شفاههم المبتسمة ، وعيونهم المبتسمة ، تكاد تحملنى من على الأرض ..

والبيت كله ثلاث غرف صغيرة .. كل غرفة أصغر من حمام الفيلا التى أسكنها فى شارع الهرم .. أمى وأخى الصغير ينامان فى غرفة .. وأخى الكبير فى الغرفة الأخرى .. واخواتى البنات فى الغرفة الثالثة .. ومائدة طعام فى الصالة .. وتطلعت حولى وتساءلت هل أستطيع أن أقيم فى هذا البيت .. هل أجد لنفسى مكانا فيه .. أين .. هل أنام مع أمى .. أم مع اخواتى الأربع .. أم مع أخى .. وأحسست ساعتها أنى لو أقمت فى هذا البيت فسأكون عبئا على الجميع ..

وصاحت أختى الصغيرة هناء :

— انتى شفتى رقصى يا أبله نجوى .

قلت :

— لأ .. ورينى كده يا هانو ..

وبسرعة ، شدت هناء الطبلة من تحت السرير الحديدى الصغير ، وأعطتها لأختى فوزية .. والتقطت سميرة ايشارب حزمت به هناء .. وارتفعت نقرات الطبلة .. حلوة .. مرحة .. على واحدة ونصف .. وبدأنا نصفق على دقات الطبلة .. وهناء ترقص .. وأمى تصيح فى مرح ضاحك :

— يا بت هزى وسطك .. ده رقص ده ...

ثم صاحت :

— قومى انتى يا سميره ورى أختك نجوى رقصنا .

وقامت سميرة ترقص .. انها ترقص أحسن من نجوى فؤاد .. وأخذت أمى الطبلة تنقر عليها بنفسها .. وقامت فوزية أيضا ترقص .. وانا أضحك .. وأصفق بيدى .. وقلبى يرقص على « واحدة ونص » .. ومشكلتى تبتعد عن رأسى ... وتبتعد ..

ان فى هذا البيت شيئا أقوى من كل المشاكل .. فيه حب .. وكل قرش فى هذا البيت مشكلة .. مشكلة صعبة .. ولكن الحب يحلها .. أما فى بيتنا .. البيت الذى أقيم فيه فالقروش فيه ليست مشكلة .. مشكلته أن ليس فيه حب .. فيه أم قاسية .. وأب مشلول .. وبنت مغلوبة على أمرها ..

وصاحت أختى هناء :

— قومى انتى بأه يا أبله نجوى ..

وقلت :

— لأ .. بلاش انا ..

وقالت أمى :

— دى تلاقوها خيبه .. جسمها وقف من ركبة العربيه ..

قلت ضاحكة كأنى أتحداها :

ــ كده .. طيب والله لأوريكم ..

وقذفت بفردتى حذائى فى الهواء .. ووقفت .. حزمتنى أختى سميرة .. ورقصت .. رقصت بكل قطعة من جسدى .. .. رقصت كأنى أشكو .. كأنى أناجى هاشم .. كأنى أتمرد .. كأنى أستغيث ...

وبهرتهم برقصى ..

رقصت احسن مما رقصت أختى سميره ..

وصاحت أمى :

ــ ايه ده كله يا نوجا .. والله عزيزه عرفت تربى ..

وقالت أختى سميرة :

ــ هم بتوع شارع الهرم بيعرفوا يرقصوا كده ..

وصاحت أختى هناء :

ــ رقصك حلو قوى يا أبله .. يا ريتنى أعرف أرقص زيك كده ..

وأنا أرقص .. وارقص .. لا اريد ان أكف عن الرقص .. ودقات الطبلة تملأ قلبى .. وتملأ رأسى .. وتملأ جسدى .. وضجيجها الحلو أعلى من ضجيج همومى وعذابى .. الى ان تعبت .. أحسست بخفقات قلبى ترتبك .. كأنى سأمرض من جديد ..

والقيت نفسى على السرير الحديدى الصغير ..

وسكتت نقرات الطبلة ..

والجميع يهللون ..

قالت أمى :

ــ قومى تسطحى على سريرى شويه ..

ثم جذبتنى من يدى ، والتفتت الى اخواتى قائلة :

ــ سيبونا لوحدنا شويه يا بنات خلونى أتهنى ببنتى .. دى وحشانى .. وانتى يا سميحه خشى المطبخ وحطى حلة الخضار على الوابور .. انتى مش حا تتغدى معانا يا نوجا ؟

قلت وأنا التقط أنفاسى من الرقص :

ــ أيوه ..

وأخذتنى الى حجرتها .. وأرقدتنى على فراشها .. ورقدت بجانبى .. وابتسامة كبيرة حلوة بين شفتيها :

ــ ايه بأه حكايتك يا ست نوجا .. زعلانه ليه ؟

ونظرت اليها ، واحترت ماذا أقول لها ..

انى لا أدرى اذا كانت تعلم حقيقة علاقتى بعبد الفتاح ، أم لا .. انها تعرف عبد الفتاح ، وتعرف أنه صديق العائلة . وسبق أن وظف أخى فى احدى شركاته .. ولكن هل تعلم حكاية الورقة التى وقعتها والتى تربطنى به .. وهل تعلم أنى عشيقته .. وهل تعلم أنه ينفق علىّ وعلى البيت كله .. لا أدرى .. فلم يسبق لى أو لها أن تحدثنا فى هذا الموضوع ..

ولم ارد عليها ..

علقت عينى فى سقف الغرفة ، وسكت ..

وعادت أمى تسألنى :

ــ عزيزه أختى عاملة فيكى ايه .. ما انا عارفاها .. جباره ، طول عمرها .

وانطلقت دموعى فجأة ، وقلت :

ــ خلاص .. مش قادره أطيقها .. مش قادره أستحملها .. ده حبسانى زى ما اكون مجرمه .. بتعاملنى زى ما اكون لسه

عندى اتناشر سنه .. تصورى انى عمرى ما خطيت الشارع لوحدى .. عمرى ..

ثم استدرت ودفنت وجهى فى صدرها واستطردت وأنا أجهش بالبكاء :

ـــ أنا مش عايزه أقعد عندها .. مش عايزه .. الموت أرحم .. عايزه أقعد معاكى انتى .. انتى ماما .. مش ممكن يكون لى أمين .. ما ليش الا أم واحده بس .. انتى ..

وضمتنى أمى الى صدرها فى حنان ، وقالت ودموعها تنهمر هى الأخرى :

ـــ طبعا يا حبيبتى .. أنا أمك .. وما فى يوم مر على نسيت فيه انك بنتى .. هو الضنا يتنسى يا حبيبتى .. وبيتى بيتك .. واهى اللقمه اللى تكفى سبعه تكفى تمانيه ..

قلت :

ـــ أنا حاقعد هنا من النهارده .. من دلوقتى ..

وقالت وهى تربت على ظهرى فى حنان :

ـــ ومالة .. بس والنبى لو جيتى للحق عزيزه اختى بتحبك ما تقدرش تستغنى عنك .. غيرش انها صعب شويه .. واذا كانت مضايقاكى فى الخروج فلأنها خايفه عليكى و ...

وقاطعتها قائلة :

ـــ يعنى ما بتخافيش على سميره أختى .. أمال بتسمحى لاها بالخروج ازاى ؟ ..

قالت وهى تبتسم :

ـــ أنا حاجه تانيه .. أنا مربيه بناتى على الحريه .. ومفهماهم وموعياهم .. وبعد كده اللى تغلط اهى غلطتها تيجى على دماغها ..

قلت :

ـــ أهو أنا عايزه أم زيك كده ..

قالت ضاحكة :

ـــ ما انا أمك يا بت .. بس مسلفاكى لاختى تلعب بيكى شويه ..

واستمر حوارنا .. كلامنا لا ينتهى .. ولكن لم أجرؤ على ان أصرح لها بعلاقتى بعبد الفتاح .. ولا هى بدا عليها انها تعرف شيئا عن هذه العلاقة .

وطيف هاشم يطوف بى ..

انى فى حاجة اليه حتى يمنحنى الأمل والقوة .. لقد منحنى القوة حتى يشفى قلبى .. وأنا فى حاجة اليه الآن ليشفى حياتى ..

وأحسست أنه أوحشنى .. احسست أنى بعدت عنه كثيرا ، منذ وصلت الى الوايلية .. وتمنيت أن أتصل به فى التليفون .. ولكن ، ليس فى هذا البيت تليفون .. ترى هل استطيع أن أعيش فى بيت ليس به تليفون أتصل به بهاشم .

وأنا وأمى لا نزال نتحدث ..

وفجأة سألتنى :

ـــ انما ما قلتليش .. مين اللى شاغل بالك اليومين دول ؟

وابتسمت .. وربما احمر وجهى ..

وعادت أمى تقول فى مرح :

ـــ أظن حاتقولى لى ما فيش حد ..

قلت :

ـــ لا .. فيه ..

واعتدلت جالسة فى الفراش وقالت وفى عينيها نظرة حلوة متطلعة كأنها صديقتى الحميمة :

ـــ مين .. قوليلى ..

قلت :

ـــ الدكتور هاشم .. اللى كان بيعالجنى ..

وسرحت أمى بعينيها برهة كأنها تتذكر ، ثم قالت :

ـــ افتكرته .. شفته نوبه لما كنت عندكم وانتى عيانه .. ده راجل ابهه .. ومحترم .. وشكله يهوس .. أصل انا احب الرجاله اللى شكلهم حلو .. انما قوليلى عملتى معاه ايه ؟ ..

قلت :

ـــ ولا حاجه .. تصورى بقاله ست أشهر داخل خارج فى البيت .. وعمره ما لمسنى ، ولا قال لى كلمه كده ولا كده .

قالت :

ـــ انما فهمتى منه ايه .. بيحبك ..

قلت فى دلال :

ـــ موت ..

قالت :

ـــ وناوى على جواز .. ولا ايه ؟

قلت :

ـــ لسه ما كلمنيش فى جواز .. اصله مش ممكن يتجوز الا ما يتأكد من الحب الأول .. انما عرفنى باخته ..

قالت :

ـــ خلاص .. يبقى ناوى .. وعزيزه أختى عارفه الحكايه دى ؟

قلت :

ـــ عارفه .. ومطلعه دينى .. خانقانى .. تصورى انها مش راضيه تسيبنى أروح أقابله ولا مره لغاية دلوقتى .. قال ايه .. رجلها على رجلى .. تصورى بأه لما أروح أقابل هاشم وهى معايا .. يبقى شكلنا يكسف ..

قالت :

ـــ اذا كانت هى دى مشكلتك .. سيبيها علىّ انا .. انا حاكلمها ..

وحديثنا لا ينتهى ..

وحديث أمى .. أمى الحقيقية .. فيه حلاوة لسانها .. وخفة روحها .. وطيبة قلبها .. وايمانها بالحب .. انها هى نفسها حملت كل مآسى الحياة لأنها تزوجت الرجل الذى أحبته .. وفجأة ..

سمعنا طرقا على الباب ..

ودخلت أمى الثانية .. وجهها المكرمش الصامت كلوح من الصفيح الصدىء .. ودون ان تحيى أحدا ممن فى البيت ، نظرت الىّ بعينين غاضبتين قاسيتين ، وقالت :

ـــ اتفضلى قومى معايا ..

قلت وأنا أنزوى فى جانب من السرير كأنى أتشبث بمكانى :

ـــ مش قايمه .. ومش حارجع بيتك تانى ..

وقالت فى لهجة آمرة لا تخلو من تهكم كأنها تعرف دائما كيف تصل الىّ . وكيف تعيدنى اليها :

ـــ قومى .. الدكتور هاشم مستنى تحت فى عربيته .

وقفزت من فوق الفراش وأنا أصرخ :

ـــ هاشم .. ايه اللى جابه ..

قالت فى غرور كأنها تتباهى بذكائها :

ـــ أنا ..

انها هذه السيدة .. لقد عرفت أنه لن يعيدنى اليها الا هاشم فجاءت به ..

وقالت أمى الحقيقية :

ـــ بس أنا عايزه أقعد أتكلم معاكى يا عزيزه يا اختى ..

وقاطعتها أمى الثانية قائلة :

ـــ مش وقته ..

ثم التفتت الىّ قائلة :

ـــ احنا حانسيب الراجل مستنى وسط القرف اللى فى الشارع ده ، ولا ايه ..

وقلت وانا أنظر فى تحد :

ـــ أنا نازله ..

ولبست حذائى ، ونزلت معها .. وكلانا صامت ..

واستقبلنى هاشم بابتسامة صغيرة ، وفتح لى باب سيارته .. وجلست بجانبه .. وجلست أمى فى المقعد الخلفى ..

وأنا ثائرة .. ثورة داخلية .. وتائهة فى ثورتى .. لا أستطيع حتى أن أبتسم لهاشم .. وأحس بموجة من الكراهية لهذه الأم التى تجلس فى المقعد الخلفى .. أكرهها لأنها أقوى منى .. وأذكى منى .. ولأنى لا أستطيع أن أهرب منها .. ولأنها تستغل ضعفى لحبيبى .. وتستغل براءة حبيبى وجهله بحقيقتها . وحقيقتى ..

وقال هاشم وهو يقود سيارته فى شارع رمسيس :

ـــ أنا زعلان منك .. مش لأنك خرجتى .. انما لأنك خرجتى من غير ما تقولى لى أنا .. نفرض انك زعلانه من ماما .. وانا .. زعلانه منى أنا كمان ؟

قلت وأنا لا أنظر اليه :

ـــ لأ ..

قال :

ـــ أمال ما كلمتنيش ليه قبل ما تخرجى ..

قلت :

ـــ كنت متضايقة .. ما كنتش عارفه باعمل ايه ..

ومرت بقلبى لمسة من الفرحة وهاشم يحاسبنى .. انه يعتبر نفسه رجلى .. انه رجلى ..

وسكت هاشم ..

ووجدت نفسى أنتقل بخيالى الى بيت أمى الحقيقية فى الوايلية .. أرقص على نقرات الطبلة .. وأنام على مرتبة ملقاة على الأرض بين اخواتى .. واطبخ على وابور الجاز .. وأستحم بماء فى صفيحة الغلية ، بدلا من البانيو .. وأضحك .. وأمرح .. وأحب .. ترى هل كان هاشم يحبنى فى هذا البيت .. هل كنت التقيت به أصلا لو أنى أعيش فى هذه الحياة ..

وصلنا الى البيت فى شارع الهرم ..

والتفت هاشم الى أمى وقال :

ـــ تسمحى لى يا عزيزه هانم أكلم نجوى كلمتين ؟

وقالت أمى وهى تنزل من السيارة :

ـــ كلمها يا بنى .. أما اشوف أخرة البنت دى ايه ؟

ودخلت الى البيت .. ولكنى كنت واثقة أنها تطل علينا من خلف باب أو من خلف شباك ..

وقال هاشم بعد برهة صمت كأنه يستجمع فيها افكاره :

ـــ انا عايز اسألك يا نجوى وتجاوبينى بصراحه .. انتى لسه فيه بينك وبين عادل حاجه ؟

وفوجئت ..

لقد نسيت عادل من زمان .. انه ذكرى من ذكريات الطفولة لا أذكرها الا كلما ذكرت طفولتى .. وقلت والدهشة تملأ وجهى :

— عادل .. ايه اللى فكرك بيه .. انت عارف انى نسيته من زمان ..

قال :

— أمال مامتك افتكرت انك هربتى علشان تروحى له ليه ؟

قلت :

— هى قالت كده ؟

قال :

— أيوه .. وأخذتنى لغاية بيته فى حلوان علشان تسأل عليكى هناك ..

قلت كأنى أخاطب نفسى :

— عجيبه ..

ثم تنبهت من دهشتى وقلت :

— انت عارف ماما .. مش ممكن تصدق انى أهرب الا علشان عادل .. خدت على كده ..

قال :

— أمال هربتى منها ليه ؟

قلت وأنا أرخى عينى :

— علشانك ..

قال :

— ازاى ؟

قلت :

— لأنها مش عايزه تسمحلى اقابلك لوحدى ..

وابتسم هاشم كأنه استراح .. ثم قال فى هدوء :

— احنا لازم نستحمل مامتك يا نجوى .. من حقها انها تخاف عليكى .. ومن حقها انها تفكر بعقليتها .. وضرورى حانلاقى طريقه نشوف بعض بيها من غير ما نزعلها .. وانتى أقوى منها .. أقوى بشبابك وجمالك ، وحبها لك .. وفى أى وقت تقدرى تعملى اللى انتى عايزاه ..

انه لا يعرف أمى ..

وهممت ساعتها أن أحدثه عنها .. أن أقول له كل شىء .. ولكن هل أستطيع .. لا .. لا أستطيع .

وتركت هاشم على أن أحدثه فى المساء ..

ودخلت البيت .. ووقفت أمام أمى ، وصرخت فيها بتحد :

— أنتى ازاى تاخدى هاشم لغاية بيت عادل .. وتفهميه انى يمكن أكون هربت هناك ..

وقالت فى برود :

— أنا كنت فاهمه كده ..

قلت :

— انتى عارفه كويس انى سبت عادل من زمان ..

قالت :

— ايش عرفنى .. يمكن تكونى اتجننتى .. وكان لازم الدكتور يفهم ان فيه واحد تانى علشان يتنحرر شويه ..

وقلت وقد فهمت ما تقصده :

— من فضلك ما لكيش دعوه بالدكتور .. ارحميه وارحمينى من خططك ..

ونظرت الىّ وعيناها الضيقتان كأنهما ثقبان فى لوح الصفيح ، وقالت :

— خلينا فى الجد .. أنا دلوقتى عايزه أعرف انتى عايزه ايه بالضبط ؟

قلت :

— عايزه تعرفى انى ما بقتش بنت صغيره .. أنا عندى عشرين سنه .. ومن حقى أخرج وأدخل زى ما أنا عايزه ..

قالت :

— علشان تقابلى الدكتور هاشم .. مش كده ؟

قلت :

— آه ..

وتنهدت كأنها تستعين بالصبر .. وقالت :

— وعبد الفتاح ؟

قلت فى حدة :

— مش عايزه أشوفه ..

وعادت تتنهد كأنها تشد حبال الصبر ، وقالت :

— ونعيش منين ؟

قلت :

— ما اعرفش .. انشا الله حتى نعيش فى الوايليه وناكل عيش بدقه . وفيها ايه لما نرجع نسكن فى شقتنا اللى فى الجيزه .. ونعيش زى ما كنا عايشين قبل ما نعرف عبد الفتاح ..

قالت فى هدوء :

— ده كلام عيال .. انتى ما تقدريش تعيشى زى ما كنتى عايشه فى الجيزه . أنا حا اقول لك على اللى يتعمل .. انتى عايزه تتجوزى الدكتور هاشم .. مش كده ؟

قلت وأنا لا زلت محتدة :

— أنا باحبه .. مش مهم انى أتجوزه ..

ورفعت أمى الى عينيها كأنها تتعجب لوقاحتى ، ثم قالت :

— طيب عايزه تقابليه لوحدك ..

قلت :

— آه ..

قالت :

— وانتى عارفه انك مش ممكن تقابليه لوحدك الا اذا وافقت أنا .. انشالله تهربى لأخر الدنيا حتلاقينى وراكى .. مش حا اهنيكى بدقيقه واحده لا مع هاشم ولا مع غيره .. الا اذا اتفقنا ..

قلت وأنا أتحداها فى تهكم :

— وايه الاتفاق ؟

قالت :

— أنا حاسمح لك تخرجى تقابلى الدكتور ..

قلت وأنا لا زلت أتهكم :

— متشكره قوى .. نعمه ..

قالت :

— بس على شرط ..

قلت :

— عارفه ان فيه شرط .. اتفضلى اتكلمى ..

قالت :

— على شرط تكونى لطيفه مع عبد الفتاح .. وأوعدك يوم ما الدكتور يتجوزك .. مش حاتشوفى عبد الفتاح .. وانتى عارفه ان عبد الفتاح ما عندوش مانع انك تتجوزى .. ولسه من شهرين وعدنى انك يوم ما تتجوزى حايجهزك بنفسه جهاز أحسن من جهاز بنته ..

قلت :

— بس له شرط ..

قالت :

— شرط ايه ؟ الراجل ما اشترطش حاجه ..

قلت :

— شرط ضمنى .. انى أفضل لطيفه معاه حتى بعد ما اتجوز !

قالت وهى تنظر الىّ فى غيظ :

— ساعتها يبقى يحلها ربنا .. ومش ممكن أشوفك متجوزه واحد زى الدكتور هاشم ، وحد يبقى لو عين عليكى .. المهم .. خلينا فى الموضوع .. رأيك ايه فى اتفاقنا ..

وقلت بلا مبالاة :

— موافقه ..

ونظرت الىّ كأنها لا تصدق أذنيها .. كأنها لم تكن تنتظر أن تأتى موافقتى بهذه السرعة والبساطة .. وقالت وهى تحدق فى وجهى :

— يعنى اتفق مع عبد الفتاح ييجى بكره ؟

قلت :

— لا .. بعده ..

قالت :

— ليه مش بكره ..

قلت :

— لأنى بكره عايز اقابل هاشم ..

قالت :

— بس ده عبد الفتاح النهارده كان حايتجنن ، لما ضربت له تليفون وقلت له انك خرجتى تزورى خالتك ، علشان عيانه ..

قلت :

— أحسن .. خليه يتجنن كمان وكمان ..

قالت فى كمد :

— أمرك يا ست نوجا .. أما أشوف أخرتها معاكى ايه ..

ودخلت غرفتى ..

وجاءت ورائى ..

ونظرت اليها فى تحد وصرخت فى وجهها :

— من فضلك سيبينى أنام لوحدى .. أنا مش طايقه حد ينام جنبى ..

واتسعت عيناها فى هلع ، كأنى طعنتها بخنجر فى قلبها .. ثم ابتلعت الطعنة .. وأحنت ظهرها فى يأس .. وخرجت من غرفتى تسير فى خطوات مترنحة ..

وألقيت نفسى فى فراشى ..

أبكى ..

★ ★ ★

والأيام تمر ..

التقى بهاشم ..

واستقبل عبد الفتاح ..

وحياتى تلتوى أكثر .. وتتعقد أكثر .. وقطرات العذاب تنزف فى داخل صدرى .. وتنقر فى عقلى ..

وكان هاشم يلقانى فى سيارته .. ونذهب الى ترعة المنصورية .. أو الى طريق المطار .. وأحيانا نتناول الشاى فى مينا هاوس

أو فى استراحة الهرم .. ومرات كثيرة كان يصحبنى الى مطعم « الستريو » عند أول طريق الفيوم ، ساعة الغداء ، ثم يدخل وحده ويشترى قطعا من الساندويتش نأكلها فى السيارة وأحيانا تدعونى أخته الى جلسة عائلية ، وهو دائما رقيق معى .. طيب حنون .. يعاملنى كأنى عذراء .. كأنى ملاك .. كأنى مصنوعة من زجاج رقيق معرض للكسر .. ويخاف علىّ أن تكسرنى كلمة أو لمسة .. وليس بينى وبينه سوى هذه القبلات التى تأخذ قلبى وتنقله الى عالمه النظيف ، النقى ، الطاهر .. وأحيانا كثيرة كانت قبلاته تسرى فى دمى وتحرك أنوثتى .. تشعرنى انى امرأة .. انه لا يزال الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يشعرنى بأنى امرأة .. وأكاد أصيح فيه .. خذنى .. خذنى كامرأة .. أكاد أعترف له بكل قصتى .. ولكنى لا أستطيع .. أخاف أن أفقده .. فأستسلم لعذابى .. وأحيانا كثيرة كنت أشعر به هو الآخر ورجولته تزأر بين شفتى .. شفتاه تفقدان رقتهما وتنطلقان فى صخب .. وذراعاه القويتان يفقدان حنانهما ويلتفان حولى فى قسوة .. وأغمض عينى وأتمنى أن يزداد فى قسوته .. وفى انطلاقه .. ولكن لا .. ان ارادته أقوى من غرائزه .. ويسيطر على نفسه بسرعة ، ثم ينظر الىّ وفى عينيه اعتذار .. ويعود رقيقا ، حنونا .. ورقته تعذبنى .. تشعرنى أكثر بمصيبتى ..

الى أن قال لى مرة :

ـ تعرفى يا نجوى انا كل ما بعرفك أكتر ، باتوه فيكى أكتر .. كل ما اعرف عنك حاجة يتهيألى ان فيه حاجات كتير عايز أعرفها ..

ونظرت اليه بعينين مذعورتين .. ماذا يقصد .. هل يشك فىّ .. هل سمع شيئا عنى .. وقلت وحلقى جاف :

ـ انت عارف عنى كل حاجة ... ما فيش حاجة ما قلتش لك عنها ..

قال وهو يبتسم :

ـ طبعا .. بس انا باكلمك عن احساسى .. دايما حاسس انى منتظر انك حاتقوليلى حاجه جديده ..

قلت :

ـ زى ايه ؟ ..

قال وهو يهز كتفيه :

ـ ما اعرفش ..

قلت :

ـ اسألنى عن اى حاجه ، وانا أقول لك ..

قال وابتسامته تتسع :

ـ برضه مش فاهمانى .. انا باكلمك عن احساسى .. مجرد احساس .

ثم رفع يدى الى شفتيه وقبلها .. وانحنى يقبلنى بجانب أذنى ..

ان احساسه صادق .. اشياء كثيرة لم يعرفها عنى .. اشياء هائلة .. آه لو عرفها .. وربما كان هذا الاحساس الصادق الذى يحيره هو الذى يجعله يتردد حتى اليوم فى تحديد نوع علاقته بى .. وهو لا يدرى انى اتعذب .. ولا يدرى انى ارضى بأى علاقة يختارها بيننا .. اى علاقة .. الا أن يستمر فى تعذيبى برقته .. وحنانه .. يعذبنى أكثر مما يعذبنى عبد الفتاح ..

وعبد الفتاح يشعر بأنى تغيرت .. تغيرت كثيرا .. انى لم أعد أستطيع أن امثل له دور المراة .. دور الفانية .. لم أعد استطيع وأنا معه أن افتعل احاسيس المراة .. لم أعد استطيع أن أستقبله باحساس اللامبالاة ، كأن الجسد الذى أعطيه له ليس جسدى .. لقد أصبح يؤلمنى .. كل شىء فيه يؤلمنى .. ألما حقيقيا .. شفتاه تؤلمانى .. لمساته تؤلمنى .. جسده يؤلمنى .. ولم يكن عبد الفتاح يطلب منى الحب .. كان كل ما يطالبه منى ، هو ساعة متعة .. ولكن هذه الساعة لم اعد أستطيع أن اعطيها له .. انى أعطيه ساعة عذاب .. انى اشعره بعجزه .. بالفرق الكبير بين سنى وسنه .. وقد أصبح يشك فى .. أصبح يعتقد ان هناك شيئا حدث لى .. رجل آخر فى حياتى .. وقد صرح بشكوكه لأمى .. واجابت أمى :

— أبدا والنبى يا ابنى .. ما فيش حد .. انما هى من يوم ما قامت من العيا وهى متغيره ، وزى ما تكون بقت واحده تانيه .. اسألنى أنا ، دى موريانى القلب ..

ولكن عبد الفتاح لم يصدق أن السر فى تغيرى هو مرضى .. بدأ يبحث ورائى .. ويحاسبنى .. ويحاسب أمى ..

وأمى تنفث النار من أنفها ومن عينيها فى انتظار نتيجة علاقتى بهاشم .. وتحاول أن تصل الى معرفة نياته عن طريق اثارة زواجى .. فى كل مرة يزورنا تدعى أمامه أن خطيبا قد تقدم لى .. وكان هناك خطاب يتقدمون لى فعلا ، ولكن أمى لم تكن تعنى أن تستشير هاشم فيهم .. كان كل همها أن تدفعه ليحدد موقفه .. وقالت له :

— ايه رايك يا دكتور فى عبد العزيز رحمى .. تعرفه ! ؟

وقال هاشم فى هدوء :

— لا ..

وقالت أمى :

— ده مهندس معروف .. عنده تلاتين سنه .. وعمارتين .. ومتقدم لنجوى .. وأمه رايحه جايه .. وما بتبطلش كلام فى التليفون .. ومش عارفه أقول لها ايه ..

وقال لها :

— اللى تقوله نجوى ..

وقالت :

— نجوى بتدلع .. انما انا شايفه ان كفايه دلع بأه .. ولازم نقنعها بالجواز .

وقال هاشم :

— فعلا .. نجوى لازم تتجوز .. انما مين وامتى ، ده هى اللى تقرره لوحدها ..

وقالت أمى :

— بوحدها ازاى بأه .. واحنا مالناش راى ..

وقال هاشم وابتسامته الهادئة بين شفتيه :

— لا .. مش احنا اللى حانتجوز ..

وسكتت أمى وهى تنظر اليه فى غيظ ..

وبعد أن خرج هاشم ، صرخت فى وجهها :

— أوعى تانى مره تتكلمى قدام هاشم عن الجواز .. دى طريقه بلدى .. مكشوفه .. واللى زى هاشم مش عبيط .. فاهمك أكتر ما انتى فاهماه ..

وقالت فى حدة :

— ولما هو فاهمنى ، ساكت ليه ، لغاية دلوقتى .. ما يقول أيوه ، ولا لا .

وعدت أصرخ فى وجهها :

— مالكيش دعوه بيه .. با اقول لك ما لكيش دعوه بيه ..

وسكتت أمى وهى تنظر الىّ كأنها تتربص بى ..

ويوما بعد يوم ، لم يعد موضوع الزواج هو ما يشغل بال أمى .. لقد أحسست أنها بدأت تفقدنى .. تفقد ارتباطى بها .. وتفقد سيطرتها وتأثيرها علىّ .. وأحسست أنى حتى لو تزوجت هاشم ، فلن يردنى هذا اليها .. بل ستفقدنى أكثر .. سيأخذنى هاشم الى عالم بعيد عنها .. بعيد عن نفوذها .. وعن عقليتها .. وكانت الساعات التى تسمح لى فيها بالخروج للقاء هاشم تفقدها عقلها .. وكنت أعود لأجدها شبه مجنونة ، ولم يكن يهمها ماذا فعل هاشم بى .. ولكن كان كل ما تحس به انى تحررت من سيطرتها ساعة أو ساعتين .. انها تغار .. تغار من هاشم .. تغار اكثر مما يغار عبد الفتاح .. كأنها تعشقنى كما يعشقنى رجل .. انها تملكنى ، لا كما تملك ام ابنتها .. ولكن شىء آخر .. ملكية شاذة .. وتحس بهاشم كأنه يعتدى على أملاكها .. انها لا تريد أن اكون سعيدة إلا فى حدود السعادة التى تهبها لى .. السعادة التى تأتى الىّ عن طريقها .. أما أن أكون سعيدة بعيدا عنها .. سعادة استمدها من رجل يأخذنى ولا يأخذها معى .. مستحيل .. وزاد من جنونها انى اصبحت الح عليها كثيرا أن تذهب لزيارة أمى الحقيقية .. أصبحت أذهب اليها كل أسبوع على الأقل .. وترانى هناك سعيدة أضحك وأرقص ، ولا أتأفف من الفقر الذى يحيط بى .. كأنى أفكر فى كل لحظة أن أقيم فى هذا البيت وسط هذا الفقر ...

وكل ذلك من تأثير هاشم ..

وهى تعلم أنى أحب هاشم ... وتعلم أنها لن تستطيع

أن تنزع هذا الحب من قلبى بكلمة منها .. ولقد حاولت كثيرا أن تمنعنى من الذهاب للقائه .. اصبحت تثير مشكلة فى كل مرة اكون على موعد معه .. وأصرخ فى وجهها ... وتصرخ فى وجهى ... ثم أهددها .. أهددها بأن أقطع علاقتى بعبد الفتاح وأن أصرح له بحبى لهاشم .. وأهددها بأن اذهب وأقيم مع أمى الحقيقية .. وأخيرا تضطر أن تسمح لى بالخروج وحدى ، وتتستر علىّ حتى لا يعلم عبد الفتاح شيئا ..

وفى يوم ... جاءت ورقدت بجانبى وعلى شفتيها ابتسامة تشق وجهها المكرمش كأنها فتحة علبة من الصفيح الصدىء .. وضمتنى الى صدرها فى حنان .. وقالت لى أنها استطاعت أن تدخر ثلاثة آلاف جنيه .. من نقود عبد الفتاح طبعا .. وأنها قررت أن تدفع هذا المبلغ كمقدم لعمارة تشتريها وتكتبها باسمى ..

وقلت لها :

— مرسى ..

واغتصبت قبلة ، طرقعتها فوق خدها ..

وسكتت أمى قليلا ثم قالت :

— اسمعى يا نوجا .. تعالى نتكلم بالعقل بأه فى الموضوع اياه ..

قلت :

— موضوع ايه ؟ ..

قالت :

— موضوع الدكتور بتاعك ..

قلت وقد اكتشفت سر العمارة التى قررت أن تشتريها لى :

— اتكلمى ..

قالت وهى ترشونى بابتسامة :

— بأه انا شايفه ان الدكتور ده مش بتاع جواز .. ده راجل عنده اتنين وربعين سنه ولسه ما تجوزش لغاية دلوقت .. يبقى ايه اللى حايخليه يتجوز بعد العمر الطويل ده كله .. صدقينى ده مش بتاع جواز ..

قلت :

— أمال بتاع ايه ؟

قالت :

— بتاع ستات ..

قلت :

— ولما هو بتاع ستات ما طلبش منى حاجه لغاية دلوقتى ليه .. ده بيبوسنى بالتيله ..

قالت :

— طيب .. بتاع حب .. ما هو فيه رجاله كده ، غاويين حب .. وبعد ما الواحده تقع فى الحب ما يرحموش .

قلت فى ضيق :

— عايزه تقولى ايه .. قصدك ايه .

قالت :

— قصدى ان احنا نشيل حكاية الجواز دى من دماغنا .

قلت وانا انظر فى وجهها أحاول أن أزيح عنه سحب الخبث لأكتشف سرها :

— طيب افرضى اننا شيلنا حكاية الجواز .. ايه اللى حايحصل ..

قالت :

— يبقى خلاص .. نعرفه من غير ما نلف ولا ندور .. والشرط بينا نور ..

قلت وانا أنظر اليها فى قرف :

— يعنى ايه ؟ ..

قالت :

— يعنى ييجى يشوفك فى البيت هنا .. بدل ما تمرمطى نفسك فى الشارع .. خصوصا ان الناس ابتدت تتكلم عنك وعنه .. واننى مهما قلتى ، لغاية النهارده ما حدش قدر يتكلم عنك .. سمعتك زى البرلنتى ، والخطاب رايحين جايين ..

قلت وأنا أدعى الغباء :

— ما هاشم بييجى يزورنا فى البيت .

قالت وقد ظننت أنها على وشك أن تقنعنى :

— لا .. قصدى انكم تقعدوا هنا لوحدكم .. انشا الله حتى تيجى كل يوم .. وانا ماليش دعوه بيكم .. اللى تعملوه اعملوه ..

قلت فى تهكم مر :

— يعنى زى عبد الفتاح .. مش كده ؟ ..

قالت :

— وهو هاشم مش راجل وعبد الفتاح راجل .. كل الرجاله زى بعض .. واللى عايزينه من الست ما بيتغيرش .. والشاطره هى اللى تعرف تستفيد ..

وسلطت كل ارادتى على اعصابى حتى لا تثور ، وقلت فى هدوء أكتم به نارى :

— انتى وحشه يا ماما .. وحشه قوى .. أنا حبيت هاشم لأنه اقنعنى بأنى أقدر أكون بنت كويسه .. انما انتى مصممه على انك تخلينى بنت وحشه .. وأفضل طول عمرى بنت وحشه ..

وقالت :

— سيبك من الكلام ده اللى لا يودى ولا يجيب .. احنا بنتكلم بالعقل .. و ..

وصرخت .. انطلقت النار :

— سيبينى .. اخرجى من أودتى .. مش عايزه أسمع ولا كلمه منك .. اخرجى .. اخرجى ..

ورفعت الوسادة ووضعتها فوق راسى ، وسددت بها أذنى حتى لا أسمع كلامها .

وخرجت أمى ..

وتركتنى أبكى ..

ولم تحاول أن تعود الىّ فى تلك الليلة .. وفى الصباح كانت هادئة ، ووجهها جامد .. ولم تحاول أن تعيد علىّ حديث الأمس .. لم يبد عليها أننا اختلفنا على شىء ..

ثم ..

اتصلت بهاشم فى التليفون كعادتى كل صباح .. وقال لى وصوته ينبض بالحيرة :

— اسمعى يا نجوى .. فيه حاجه محيرانى ، قعدت طول الليل أفكر اقولها لك ولا لأ .. ولغاية دلوقت محتار .. انما يظهر انى لازم أقولها لك .. لأنك أحق بيها منى ..

قلت :

— خير ..

قال :

— ماما اتصلت بى امبارح بالليل .. وطلبت انها تشوفنى لوحدها .. بره البيت .. ووصتنى انى ما قلش لك ..

وشهقت .. انى أعرف ماذا تريد أمى منه .. وكتمت شهقتى ، وقلت وكل عقلى سارح وراء أمى ووجهها المكرمش :

— وقلت لها ايه ؟ ..

قال وهو يضحك :

— اديتها ميعاد النهارده الساعه أربعه ونص ، قدام نفق الجيزه .. زى الحبايب ..

وقلت له فى توسل .. أكاد ابكى :

— ما تروحش .. اوعى تروح تقابلها .. علشان خاطرى يا هاشم .. وحياتى عندك ..

قال فى دهشة :

— ليه ؟ ..

قلت :

— بعدين أقول لك .. انت أصلك ما تعرفش ماما ..

قال ودهشته تستبد به :

— بس أنا وعدتها ..

قلت :

— اعتذر لها .. وحياتى .. وحياة أختك .. ورحمة مامتك ..

قال :

— بس مش اعرف ليه ..

قلت :

— حاقول لك بعدين ، أنا حاقابلك النهارده بدل ماما .. بلاش اربعه ونص .. خليها اتنين ونص .. بعد العياده على طول ..

قال :

— واعمل ايه فى مامتك ..

قلت :

— اعتذر لها .. أنا حاقفل السكه دلوقتى .. وانت اضرب

لها تليفون .. قول لها ان جاتلك حاله مستعجله ..

وقال هاشم كأنه ليس مقتنعا تماما :

— حاضر ..

وضع السماعة فى بطء كأنه لا يفهم شيئا ..

وكنت أعلم ما تريده منه أمى ..

انها تريد أن تعقد معه اتفاقا كالذى عقدته مع عبد الفتاح .. ورقة مكتوبة .. ويدفع الفى جنيـــه .. وتبيعنى له .. ولا مانع أن تبقى ورقة عبد الفتاح أيضا .. لا مانع من أن تبيعنى لاثنين بدلا من واحد ..

وبعد قليل دق جرس التليفون ..

وردت أمى .. تركتها ترد .. انه الدكتور هاشم .. ورايت وجه أمى يتغير .. وسمعتها تقول كأنها ساهمة :

— متشكره قوى يا دكتور .. كويسه والحمد لله .. عايز تكلم نجوى .. طيب .. مع السلامه ..

ثم أعادت السماعة ..

ونظرت الىّ نظرة واحدة .. ثم أرخت عنى عينيها بسرعة .. ولم تتكلم .. انها لا تستطيع أن تقول لى أنها حاولت ان تتفق مع هاشم علىّ ، من وراء ظهرى ..

وسألتها وأنا أتظاهر بالسذاجة :

— مين ؟ ..

قالت :

— ده الدكتور هاشم .. مستعجل .. ماقدرش يكلمك ..

وتركتنى ودخلت الى المطبخ ، كأنها تفر منى ..

ولم أقل لها انى على موعد معه ..

لم أستأذنها قبل أن أخرج ..

ذهبت اليه ..

ونظر الىّ هاشم وأنا بجانبه فى السيارة ، وقال وهو يقبلنى بابتسامته :

— مالك .. مبوزه ليه ؟ ..

قلت وانا لا انظر اليه :

— ماما مزهقانى فى عيشتى ..

قال وهو يمسح عذابى بابتسامته :

— احنا اتفقنا ان احنا الاتنين نستحملها ..

ولم أرد ..

بقيت ساهمة فترة .. وهاشم يقود السيارة فى طريق شارع الهرم .. ثم قال :

— تحبى نروح سقاره ؟ ..

قلت وانا لا زلت ساهمة :

— انت كنت بتقابل أمينه فين ؟

وبوغت هاشم ، ونظر فى وجهى كأنه يحاول أن يكتشف ما بى ، وقال :

— ايه لازمة السؤال ده دلوقتى .. احنا ما نسينا أمينه من زمان ..

قلت كأنى أكاد أصرخ :

— لازم اعرف .. كنت بتقابلها فين ؟

— فى الشقه ..

قلت :

— انت عندك شقه ؟ ..

قال :

— أيوه ..

قلت :

— وما قلتليش ليه ؟ ..

قال :

— كان حاييجى يوم اقولك ..

قلت :

— عايزه أشوفها ..

قال فى دهشة وقد عاد ينظر فى وجهى :

— ايه هى ؟

قلت :

— الشقه ..

قال :

— باذن الله نروح نشوفها يوم ..

قلت :

— عايزه أشوفها دلوقتى .. دلوقتى حالا ..

قال :

— بس مش اعرف ليه ؟

— لأنى لازم اعرف كل حاجه عنك .

ونظر فى وجهى كأنه يفحص مريضة من مرضاه .. مريضة بعقلها .. مجنونة .. وقال :

— حاضر ..

وأدار عجلة القيادة ..

واتجه فى الطريق الى الزمالك ..

كنت أعرف بالضبط ماذا أريد من هاشم ، فى هذا اليوم ..

كنت قد قررت ان أضع حدا لهذه المهزلة التى اعيش فيها .. قررت أن أضىء النور لأبدو أمام حبيبى على حقيقتى .. مهما كانت حقيقتى .. مهما جازفت بحبى .. مهما كان مصيرى .. لم اعد أطيق هذا الخداع .. هذا الغش .. هذا الكذب .. أصبح أرحم على أعصابى أن أفقد حبيبى ، من أن أستمر فى خداعه ..

ودخلت شقة هاشم وأنا لا أكاد أرى منها شيئا .. كنت أتظاهر بأنى أتلفت حولى ، ولكنى لم أر لون الجدران ، ولا شكل قطع الأثاث .. كان كل ما أراه هو اللحظات القادمة التى أعد نفسى لها ..

وطاف بى هاشم على جميع الحجرات .. أقف على باب كل حجرة ، وأطل فيها بعينين ساهمتين .. والمطبخ .. والحمام .. ثم عدنا الى الصالة الخارجية .. وهممت أن أجلس على المقعد ، ولكنى تنبهت الى خطتى ، فاخترت أن أجلس على الأريكة .. وجلس هاشم بجانبى .. قريبا جدا منى ، ولكنه ليس ملتصقا بى .. وقال وعلى شفتيه ابتسامة تنبض بطيبته :

— استريحتى .. آدى الشقه يا ستى .

قلت وأنا أبتسم كأنى أنفس عن نفسى شرودها ، واسترد نشاطى :

— أنا شايمه ماضيك كله ..

قال ضاحكا :

— لا .. مش كله .. نصه بس ..

قلت :

— والنص التانى فين ؟ ..

قال وهو لا يزال يضحك :

— فى شقه تانيه .. كنت واخدها قبل دى ..

قلت وأنا أبتسم ابتسامة كبيرة :

ـــ أصل ماضيك ما تساعوش شقه واحده ..

وضحك .. وترددت ضحكته فى أنحاء الشقة كأن كل قطعة فيها تضحك معه .. ثم اقترب بوجهه منى ، وقال فى صوت جاد حنون ، وصدى ضحكته بين شفتيه ، وفى عينيه حب كبير :

ـــ أنا خلاص ما بقاليش ماضى .. شطبته .. نسيته .. أنا دلوقتى ماليش الا مستقبل .. انتى مستقبلى ..

وأحنيت رأسى أنظر فى أظافر يدى .. كأن رأسى لا يستطيع أن يحمل كل هذا الحب ويظل مرفوعا .. لا يستطيع أن يحمل مستقبله ..

ومرت بيننا فترة صمت ..

ووجهه قريب جدا من وجهى .. احس بنفسى كأنى اغرق فى عينيه .. أغرق فى أنفاسه .. وأكاد أهم بأن ألقى نفسى بين شفتيه ..

وقلت فى صوت خافت وأنفاسى مبهورة :

ـــ تعرف انى ساعات ما بصدقش .. باشك فيك .. بيتهيألى انك بتعرف بنات كتير ..

قال وذراعه ترتفع ويلقى بها فوق حافة الأريكة خلف ظهرى :

ـــ لو كان فيه واحده تانيه ، كنتى عرفتى ..

قلت :

ـــ ازاى ؟ ..

قال :

ـــ كان بان علىّ .. اصلى ما بعرفش أخبى .. من كتر ما انا مشغول بانسى انى أخبى .. وبانكشف فى الحاجات دى بسرعه ..

قلت :

ـــ أمال لسه عندك شقه ليه ؟

قال :

ـــ علشان أعمل فيها قهوه .. على فكره .. تحبى أعمل لك قهوه ..

قلت :

ـــ لأ .. مرسى ..

وهم أن يقوم من جانبى وهو يقول :

ـــ ده أنا أحسن واحد يعمل قهوه .

وجذبته من يده حتى لا يقوم من جانبى ، وقلت وعيناى معلقتان بعينيه :

ـــ صحيح مش عايزه يا هاشم ..

وعيناه تطلان فى عينى .. وشفتاه تطلان على شفتى .. وقال وصوته بدأ يخفت ، ولمسة حمراء تطوف على خديه :

ـــ أنا آسف .. ما عنديش حاجه اقدمها لك الا القهوه ..

قلت وصوتى مبهور :

ـــ بس ؟ !

قال :

ـــ وأنا ..

ثم سقط على شفتى ..

إن قبلته هنا ، تختلف عن قبلته فى السيارة .. قبلة مرتاحة .. لا تخاف .. ولا تتردد .. ولا تحسب حساب أحد قد يمر فى الطريق ..

وأغمضت عينى .. وكل أعصابى ترتاح بين شفتيه .. اريد أن أبقى هكذا العمر كله ..

وطالت قبلتنا ..

أطول مما تعودنا ..

وتطورت ..

أحس بها تنطلق .. وأنطلق معها .. وذراعاه تضغطنى اليه ، وأضغط نفسى اليه أكثر .. ووجهه يسخن ، ووجهى .. وأصابعه تتحسس ظهرى ثم تكاد تنغرز فيه .. وكل شىء يطير من عقلى .. كل ما كنت افكر فيه .. كل ما قررته .. فقط أريد أن يقبلنى .. ويقبلنى أكثر .. بلا حساب .. بلا حدود ..

وفجأة نزع شفتيه من شفتى ..

وابتعد عنى قليلا ..

وفتحت عينى كأنى افقت من حلم ..

وجمعنا الصمت .. وهو يتشاغل عنى محاولا أن يشعل سيجارة .. وأنا أنظر اليه كأنى الومه لأنه يشعل سيجارته .. انه يستطيع أن يشعلنى أنا .. وقال وهو لا ينظر الىّ :

— متأكده انك مش عايزه تشربى قهوه ..

قلت :

— لا ..

ثم بدأ يقلع سترته فى هدوء .. لم يبد عليه أنه يخلعها متعمدا .. انما يخلعها لأن الجو حار .. وكل شىء حولنا كان حارا .. نار ..

وقال وأنفاسه مبهورة ، والصهد يفح من وجهه ، وعيناه مرخيتان لا يريد أن ينظر بهما الىّ :

— ما قلتليش .. ما رضيتيش انى اروح أقابل مامتك ليه ..

وأنا أنظر اليه بكل عينى .. لم أعد أستطيع أن أمثل دور الفتاة العذراء .. دور الملاك .. انى امرأة .. ويجب أن يعرف انى امرأة .. ويرحمنى ..

وقلت وأنا أعود بوجهى اليه لأتدفأ بصهده :

— ولا حاجة .. ما حبيتش انها تشوفك لوحدها ..

وابتسم ابتسامة ترتعش بانفعاله ، وقال :

— ليه ؟

قلت :

— كده .. باغير عليك ، حتى من أمى ..

ووضعت خدى على خده ..

وبقى صامتا برهة كأنه يقاوم .. ثم التفت الىّ كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم .. وأخذنى بين ذراعيه ..

واستسلمت ..

استسلمت لاحساسى بأنى امرأة .. الاحساس الذى لم أشعر به أبدا الا معه .. وقبلتى تقنعه بأنى امرأة ... كل حركة من حركاتى تقنعه بأنى امرأة .. وهو يفتح عينيه كأنه لا يصدق ما يحس به .. ثم يغمضهما ، ويعود يستجيب لندائى .. نداء كل قطعة منى ..

وفجأة .. عاد ونزع شفتيه من شفتى .. وكله مبهور .. عيناه .. شفتاه .. أنفاسه .. وحاجباه معقدان ، كأنه يعانى الما ..

وتعلقت به ، وهمست .. همسة كالصراخ :

— بوسنى يا هاشم .. بوسنى .. ما تسبنيش ..

ونظر الىّ كأنه يسألنى شيئا .. كأنه يستأذننى ..

وربما تلقى الجواب من عينى ..

وعاد الىّ ..

اخذنى بين ذراعيه ، ومال بى فوق الاريكة ..

ولم يعد يحاول أن يقاوم ..

استسلم لرجولته ..

وحاول أن يأخذنى كفتاة .. عذراء ولكنى مكنته من نفسى كامراة ..

أنا التى مكنته من نفسى ..

تعمدت ..

وفتح عينيه ملؤهما الدهشة .. ثم عاد وأغمضهما بسرعة ، كأنه اكتشف أن هذه ليست لحظة السؤال .. ولا الدهشة ..

وانا لا اشعر بالخطيئة ..

ولا اشعر بأنى أتحدى ..

ولا اشعر بأنى أعطى ..

ولا أشعر بأنه يأخذ ..

لا أشعر بشىء مما شعرت به مع عادل .. أو مع عبد الفتاح .. ولا شىء مما كنت أتصور أن أشعر به لو كان رجلا آخر غير هاشم .

انى اشعر بالحب فى قمته .. أعلى قممه .. والحب يسرى فى أعصابى .. هادئا .. جميلا .. كالطفل الوديع .. فى كل قطرة من دمى طفل يبتسم ..

وانهمرت دموعى .. دموع صامتة .. لعلها دموع السعادة .. سعادة لم اكن أعلم بها ..

وشفتاه لا تزالان بين شفتى ..

وأنا هائمة فى أنفاسه ..

ثم ارتخت أعصابنا ..

وسحب هاشم شفتيه من بين شفتى ، ودفن وجهه فى طيات شعرى ..

وبقينا صامتين ..

دقات قلبينا يختلط بعضهما ببعض .

وأنفاس كل منا تستريح فى أنفاس الآخر ..

ثم اعتدل هاشم جالسا على حافة الأريكة ، بجانب جسدى الممدد .. انه يعرف الآن انى لست عذراء .. وانكفأت على وجهى .. واغمضت عينى ، فى انتظار أن أسمع كلمته .. كأنى فى انتظار أن أسمع حكم القدر ..

ووضع هاشم رأسه بين يديه .. وطال سكوته .. ثم قال فى صوت خافت كأنه يتنهد :

ـ أنا مش عايزك تقوليلى حاجة مش عايزه تقوليها ..

ولم أرد ..

لم أعرف ماذا أقول ، وقلبى يرتجف بين ضلوعى .. ودموعى عادت تسيل على خدى .. دموع أخرى غير التى سالت من قبل .. تحمل احساسا آخر .. معنى آخر .. تحمل مصيبتى ..

ومرت فترة صمت أخرى ..

ثم عاد هاشم يقول فى صمت خافت كأنه اتخذ قرارا بينه وبين نفسه :

ـ احنا حا نتجوز ..

وصعقت .. انى لا أستطيع أن أصدق ما سمعته ..

واستدرت .. رفعت وجهى المبلل بالدموع اليه .. ورأيته محنى الرأس ينظر الى بوز حذائه كأنه أصيب بمصيبة .. كأنه فقد شيئا غاليا عليه .. وعلى شفتيه ابتسامة مسكينة يواسى بها نفسه ..

وانطلقت دموعى كلها ..

وارتفع صوت نشيجى ..

وعدت انكفىء على وجهى .. واضرب الأريكة التى ارقد عليها ، بيدىّ وقدمى ..

واستدار هاشم الىّ بوجهه ، وقال وهو يضع يده على ظهرى فى حنان حزين :

— انتى بتعيطى علشان حانتجوز ..

ورفعت وجهى اليه ، وصرخت من خلال دموعى :

— ما نقدرش .. ما نقدرش ..

وقال والدهشة تكسو وجهه :

— ما نقدرش ليه ؟ ..

قلت :

— ما نقدرش نتجوز ..

قال وهو غارق فى الدهشة :

— ليه ؟

قلت :

— لأنى متجوزه ..

واتسعت عيناه كأن يدا امتدت الى عنقه وخنقته .. وقال :

— بتقولى ايه ! ؟ ..

وعدت أصرخ وسط نشيجى كأنى طفلة صغيرة ، وانا اضرب الهواء بقدمى :

— متجوزه .. متجوزه ..

وسكت ..

ونظرت اليه ، وقلت :

— كان لازم أقول لك قبل كده ، انما .. و ..

وقاطعنى قائلا :

— استنى .. ما تتكلميش ..

ثم قام من جانبى ، وألقى بنفسه على المقعد العريض الموضوع بجانب الأريكة .. ووضع يده على قلبه ... وأخذ يلتقط أنفاسه من الهواء .. ثم شد نفسا عميقا ، كأنه يقاوم به الاختناق ..

واعتدلت جالسة ، والتقطت حقيبتى .. وأخرجت منديلا اجفف به دمعى .. ونظرت اليه .. انه يبدو كأنه يعانى ألما حادا .. يبدو كأنه كبر فى لحظة عشرة أعوام ..

والتهف قلبى عليه ..

خفت عليه ..

لم أكن أعتقد أنه سيصدم الى هذا الحد ..

لم اكن اعتقد انه يحبنى الى هذا الحد ..

ولم أدر ماذا أفعل ..

ولا ماذا أقول ..

ولكنى أحسست ساعتها انى كنت قاسية عليه أكثر مما تصورت .. قسوت عليه عندما أخفيت عنه حقيقتى .. وقسوت عليه عندما صرحت له بها .. احسست أنى مجرمة .. كأنى ذبحت حبيبى .. ذبحت ابنى .. ابنى المسكين .. الصغير .. الذى لا يعرف ان فى الدنيا كل هذه الدناءة .. لا يعرف ، ولم يكن يتصور ، أن أمه .. حبيبته .. هى هذه المراة الخاطئة ..

وتمنيت ساعتها ان أضع وجهه فوق صدرى ، وأبكى فوق راسه ، لعل دموعى تغسل عنه الألم ، وتخفف عنه الصدمة ..

ولكن هاشم رفع راسه ، وأثار الجهد الذى بذله ليضبط اعصابه بادية تحت عينيه ، وقال وبين شفتيه ابتسامة مهزوزة يحاول أن يستعين بها ليبدد صدمته ، وقال فى صوت يحاول أن يكون مرحا :

— اظن من حقى اشرب قهوه دلوقتى .

ثم قام قبل أن يسمع اجابتى ودخل المطبخ ، وغاب فيه ، وتركنى أحاول أن أعد فى ذهنى الكلام الذى سأقوله له .. ولم أكن أنوى أن أخفى عنه شيئا .. ولكنى كنت أختار الكلمات التى لا تجرحه .. التى تخفف عنه مصيبتى ..

وعاد هاشم يحمل فنجالا كبيرا من القهوة ، وجلس على المقعد العريض ، واشعل سيجارة ، ثم قال وهو يبتسم لى كأنه يخفف عنى بقدر ما أحاول أن أخفف عنه :

— نبتدى من الأول .. انتى بتقولى انك متجوزه ..

وقلت ودموعى متحجرة فى عينى كحبات الحصى :

— أيوه ..

قال وابتسامته تتسع :

— قولى كمان مره ..

قلت وأنا اتمنى أن يعذبنى .. ان قسوته فى هذه اللحظة أرحم من شهامته :

— أنا متجوزه ..

قال :

— من امتى ؟

قلت وأنا اخفى عنه عينى :

— من سنه ونص تقريبا ..

قال :

— يعنى من قبل ما تعيى ..

قلت فى صوت خافت :

— أيوه ..

قال :

— أمال ما شفتش جوزك ليه ؟

قلت فى صوت ثابت :

— لاننا متجوزين فى السر ..

وارتفع حاجباه فوق أنفه الكبير ، وقال والدهشة تملأ صوته :

— ليه .. ايه اللى يخللى واحده زيك تتجوز فى السر ؟

قلت :

— لأنه متجوز واحده تانيه ..

قال فى لهجة أشبه بالتهكم :

— وحبتيه .. ضرورى تكونى حبتيه ..

قلت :

— لأ .. ما حبتوش ..

وقال فى صوت محتد كأنه يصرخ :

— أمال اتجوزتيه ليه ؟

قلت فى بساطة :

— علشان فلوسه ..

وصرخ :

— مش معقول .. مش معقول .. ما تقوليش عن نفسك كده ..

قلت ودموعى المتحجرة تحرق جفونى :

— أنا كده .. احنا مش أغنيا يا هاشم زى ما انت شايفنا دلوقتى .. وانت ما خدتش بالك من الفرق بين عيشتنا لما كنا ساكنين فى الجيزه ، وعيشتنا دلوقت واحنا ساكنين فى شارع الهرم .. ما حاولتش تاخد بالك ... ما شفتش أن بقى عندى عربيه .. وفساتين .. وصيفه .. وفيللا .. وسفرجيه .. كل ده جابه عبد الفتاح .. ؟

قال وعيناه جاحظتان فوق انفه الكبير :

— عبد الفتاح مين ؟ ..

قلت :

— عبد الفتاح رفعت .. تعرفه ؟

قال :

— ده اللى انتى متجوزاه .. متجوزاه جواز يعنى ؟ ..

قلت :

— ماما بتقول انى متجوزاه ..

قال :

— يعنى ايه ماما بتقول انك متجوزاه ؟ !

قلت :

— خلتنى أمضى على ورقة .. وقالت ده يبقى جواز .. جواز عرفى ..

وقلب شفتيه وقال فى امتعاض قاس :

— ما فيش حاجه اسمها جواز عرفى ، وجواز شرعى .. فيه حاجه اسمها جواز وحاجه اسمها حب ، وحاجه اسمها رفق .. واللى بتتكلمى عنه ده ما اسموش جواز ولا حب ..

وابتلعت قسوته صامتة .. ان من حقه أن يقسو .. من حقه أن يضربنى بالسياط ، ولا اشكو ..

وسكت هاشم .. اعطانى ظهره .. ورفع فنجال القهوة بعصبية ، وارتشف رشفة ، كأنه يسكر بالقهوة .. يسكر لينسى .. ثم شد نفسا عميقا من سيجارته ، كأنه ينفث عذابه ..

وقلت بعد فترة صمت كأنى استجديه الرحمة :

— ماما هى اللى خلتنى اعمل كده ..

والتفت الىّ وصرخ وعيناه غاضبتان :

— ما تقوليش ماما .. انتى مش عيله صغيره .. انتى أقوى من ماما .. أقوى منها بشبابك ، وجمالك ، وذكائك ، وارادتك .. اذا كنتى عملتى حاجه تبقى عملتيها لانك عايزه تعمليها .. مش لأن ماما أقوى منك .. مش لأنها خلتك تعمليها ..

قلت وأنا أتمنى أن أبكى :

— أنا كنت أيامها مصدومه فى حبى لعادل .. ما كنتش عارفه أنا باعمل ايه .. وماما هى اللى اتفقت مع عبد الفتاح .. وكتبوا الورقه دى علشان ما يبقاش لى الحق أتجوز من وراها ..

وانهمرت دموعى ..

دموع صامتة حزينة .. أبكى بها على نفسى ..

وأدار لى هاشم ظهره ، وأخذ ينفث دخان سيجارته فى غل ..

وطالت فترة صمتنا ..

وبدأ هاشم كأنه استعاد سيطرته على أعصابه ، والتفت الىّ وعلى شفتيه ابتسامة حزينة وقال فى صوت خافت بحشرجة حنانه :

— انا آسف .. اعذرينى .. أصلك فاجأتينى ..

ثم ضحك قائلا :

— احمدى ربنا انى ما قمتش ضربتك علقه ..

قلت :

— لو كنت ضربتنى كان يبقى لك حق ..

قال :

— أنا مقدر ظروفك .. وعارف ان كل انسان له ظروفه .. ما فيش انسان بيعمل حاجه غلط الا لأن الغلط أقوى منه

.. لأن ظروفه بتدفعه غصب عنه للغلط .. وانتى كويسه .. وحا افضل طول عمرى مقتنع انك كويسه .. ويمكن لو كانت أختى ولا أمى فى مكانك كانت عملت زى ما عملتى .. انا آسف .

والتقط منديلى من يدى ، واخذ يجفف به دمعى من فوق وجنتى ، وقال وهو يبتسم فى وجهى ابتسامة كبيرة :

ــ فين ابتسامة شفايفك ؟

ولم استطع أن أبتسم .. وقلت ورأسى ملقى على صدرى كأن رقبتى قد قطعت ، فلم أعد أستطيع أن أرفعها لأتباهى بها :

ــ أنا مش عارفه أعمل ايه يا هاشم ؟

قال وهو يضغط على يدى كأنه يمدنى بقوته :

ــ انتى تقدرى تعملى كل حاجه ..

قلت :

ــ أعمل ايه يعنى ؟

قال فى لهجة حازمة كأنه يثير ارادتى :

ــ تقدرى تفضلى مع الراجل ده زى ما انتى معـــاد .. وتقدرى تتجوزيه جواز حقيقى .. وتقدرى تسيبيه وقت ما تحبى .

قلت :

ــ وأمى ؟

قال :

ــ انتى أقوى منها .. ما حدش فى الدنيا يقدر يفرض ارادته عليكى ..

قلت :

ــ انت ما تعرفش ماما .. ده مستعده تعمل اى حاجه ..

قال :

ــ تأكدى انها ما تقدرش تعمل حاجه اذا انتى صممتى على اللى عاوزاه .

قلت وأنا أشعر بعروقى تمتلىء بارادتى .. وعيناى تتسعان ويتألق منهما بريق الحزم :

ــ أنا حاسيبه .. حا اقطع الورقه اللى بينه وبينى .. وحاروح أعيش مع أمى فى الوايليه ..

وسكت هاشم قليلا ، ثم قام واقفا يتمشى أمامى ، وقال :

ــ بس فى حاجه لازم أقولها لك ..

قلت وأنا أرفع وجهى اليه :

ــ ايه ؟

قال :

ــ اذا كنت حاتسيبيه ، مش عايزك تسيبيه علشانى ..

قلت :

ــ يعنى ايه ؟

قال :

ــ يعنى لو سبتيه علشانى تبقى ما عملتيش حاجه .. تبقى مش قويه ولا حاجه .. انما لازم تسيبيه علشان نفسك .. لازم تسيبيه وانت مقتنعة انك كان لازم تسيبيه حتى لو ما كنتش انا فى حياتك .. تسيبيه علشان شخصيتك .. علشان تحسى ان ما فيش فى حياتك حاجه غلط .. علشان تثبتى لنفسك انك اقوى من ظروفك .. ولازم تعرفى ان مش مهم الناس تعرف انتى بتعملى ايه ولا ما تعرفش .. انتى مهما خبيتى على الناس مش ممكن تخبى على نفسك .. ومهما كذبتى على الناس مش ممكن تكذبى على نفسك ، حتى لو الناس ما اقتنعوش بيكى ..

ونظرت اليه بعينين مبهورتين أحاول ان ألاحق بهما كلماته السريعة .. ثم قلت :

— أنا من يوم ما عرفته وأنا أحاول أسيبه ..

وقال وهو لا يزال يروح ويجيء أمامى ، كأنه يخاطب نفسه ، وكأنه لم يسمع كلمتى :

— أنا مش حا اساعدك على انك تسيبيه .. ده قرار لازم تاخديه بنفسك ، وتنفذيه لوحدك .. لو ساعدتك حا احس كأنى بانافس الراجل التانى عليكى .. وانا عمرى ما نافست حد على بنت .. مش لأنى مغرور .. ابدا .. انما لأنى باحترم ارادة البنت لدرجة انى باسيبها تختار بارادتها من غير تأثير منى و ..

وقلت أقاطعه :

— أنا ما طلبتش منك حاجه يا هاشم .

وتوقف عن المشى ، ووقف أمامى وخط من الألم يشق جبينه ، وعيناه مكدرتان مهمومتان ، وشفتاه ممطوطتان كأنه طفل غاضب .. وقال :

— أنا ما قلتش انك طلبتى منى حاجه .. ولازم تعرفى انى باحبك .. ما حبتش حد فى حياتى أد ما حبيتك ، وكنت مقرر انى أتجوزك .. حتى بعدما عرفت النهارده انك مش بنت .. كنت مقرر انى اتجوزك برضه .. ما غيرتش رأيى .. كنت عارف انك حبيتى واحد قبلى ، وفضلتى مخطوبه له خمس سنين .. وكان ممكن فى الخمس سنين دول يحصل أى حاجه .. ورغم كده فضلت محترم حبك .. ومحترمك .. لأنك مخبتيش عنى حاجه .. انما دلوقتى .. دلوقتى حاجة تانيه .. متهيألى انى لازم أعرفك من جديد .. لازم ابتدى أحبك من أول وجديد .. مش عارف .. مش عارف ...

قلت وانا أعود وألقى براسى على صدرى :

— أنا كمان مش عارفه .. مش عارفه اذا كنت حاتفضل تحبينى والا لأ .. كل اللى أنا عارفاه انى أنا باحبك .. وانى بقيت واحده تانيه من يوم ما حبيتك ..

قال وهو يتنهد :

— ازاى قدرتى تخبى على المدة دى كلها .

قلت :

— كنت خايفه .. مش خايفه منك .. انما خايفه على حبك .. وكان ممكن أقدر أخبى على طول .. انما ما اقدرتش .. لأنى باحبك ..

وألقى بنفسه جالسا بجانبى على الأريكة .. والتقط من صدره نفسا عميقا كأنه عاد من مشوار بعيد منهكا ، وقال وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

— اما حتة حكاية .. انما انا قلبى كان حاسس .. كنت دايما حاسس ان فيه حاجه عنك لسه ما عرفتهاش .. وقلتلك ..

— كان لك حق .. انما تأكد ان كل يوم كنت عاوزه أقول لك ..

والقى رأسه على صدره كأنه طفل غلبه النعاس ، وقال :

— أنا عمرى ما انصدمت زى النهارده .. تعرفى انى لأول مره أحس انك أقوى منى ..

وقلت :

— أنا قويه بيك يا هاشم .

ورفع رأسه .. ورفع الى عينيه .. وشفتاه قريبتان من شفتى .. وقال وهو ينظر الى كأنه يثير حماسى :

— انتى مش محتاجه لحد .. لا لى .. ولا لغيرى .. انتى تقدرى تخشى الجامعه وتنجحى وتشتغلى .. وتقدرى تتجوزى

فى اى وقت .. أوعى تقولى انك قويه بى .. انتى قويه بذكائك وشبابك وارادتك .. قويه بنفسك .. بشخصيتك ..

قلت وأنا غارقة فى عينيه :

— أنا أوعدك انى حاكون بنت كويسه ..

قال :

— وأنا أوعدك انى مش حاسيبك .. انا قلت لك انى مش حاساعدك فى انك تحددى موقفك .. انما مش معنى كده اننا نسيب بعض .. وكل اللى أنا عايزم انك تسحملينى .. لغاية ما اخرج من حيرتى ..

قلت وأنا أبتسم :

— عمرى ما حسيت انى باستحملك .. ولا فى يوم حا احس انى باستحملك .. كل اللى باحس بيه انى باحبك .

وانحنيت أقبل شفتيه المهمومتين بحيرته .. وأقبل خط الألم الذى يخط جبينه .. وأقبل عينيه المكدودتين المعذبتين ..

ثم قمت واقفة وأنا أنظر فى ساعة يدى ، وقلت :

— ياه .. الساعه خمسه ونص .. ميعاد العياده يا هاشم ..

قال :

— ما اظنش انى حاروح العياده النهارده .. مش حا اقدر اشتغل ..

قلت :

— لأ .. لازم تشتغل .. علشان انا كمان أروح أشتغل .. أنا عندى شغل كتير مع أمى ..

قال :

— حاضر ..

قلت :

— أوعدنى ..

قال :

— حاحاول ..

ثم وقف الى جانبى ، وأخذنى بين ذراعيه .. وضمنى الى صدره فى رفق ، وقال وصوته محشرج :

— ما تنسيش انك قويه ..

قلت :

— اطمئن .. انا عمرى ما حسيت انى قويه اد النهارده ..

ثم قبلته فى شفتيه ..

وشفتاه حزينتان ، متعبتان ، نائمتان ..

وقلت :

— مش نازل ..

قال وهو يوصلنى حتى الباب :

— حاقعد شويه ..

وفتح لى الباب .. وهممت بالخروج .. ولكنى عدت اليه وقد لطشنى خاطر جديد ، وقلت له :

— حاتقول لمديحه اختك ؟

قال وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

— مش حاقول لها الا اذا سمحتى لى ..

قلت ورأسى مرفوع :

— قول لها ..

وخرجت ..

ورأسى لا يزال مرفوعا .. واحس بنفسى قوية .. قوية .

انى لم أكن أبدا قوية كما أنا قوية فى هذا اليوم .. احس بشخصيتى كاملة . أحس كأنى تحررت .. كأنى انطلقت فى عالم

جديد ، أسيطر عليه ، وأفرض عليه ارادتى وأنا وحدى سيدته .. عالم داخل نفسى ..

ولم أفكر طوال الطريق فيما قلته لهاشم ، ولكنى كنت أفكر فيما سأقوله لأمى .. والكلمات تزدحم فى خيالى .. كلمات قوية حازمة .. كأنها كلمات القدر .. قدرى ..

وقد وجدت أمى جالسة فى الصالون ورأسها على كفها .. وبجانبها عبد الفتاح ..

ودخلت اليهما .. قوية .. ونظرت فى وجه كل منهما دون أن ترتعش عيناى ..

ورفعت أمى وجهها المكرمش الىّ .. وصرخت :

— أنا خلاص .. ما ليش دعوه بيكى .. انتى حاتجننينى .. حا تموتينى .. واهوه عبد الفتاح بيه يعرف شغله معاكى ..

وابتسمت ابتسامة ساخرة تدلت على جانب شفتى ..

وتنحنح عبد الفتاح ، وقال فى هدوء مفتعل ، ولهجة وقوره أكثر افتعالا :

— انتى كنتى فين ؟

قلت :

— مالكش دعوه ..

وارتفع حاجباه فوق عينيه كأنه دهش لجرأتى .. لم أكن من قبل أجرؤ على محادثته بهذه اللهجة الصريحة ..

وضاقت عيناه وهو ينظر الى وجهى كأنه يحاول أن يكتشف سرى ، وقال :

— أنا عارف كنتى فين .. كنتى مع الدكتور هاشم .. مش كده ..

ونظرت أمى الىّ فى جرأة ساخرة .. وقالت كأنها تولول :

— أنا قلت له على كل حاجه .. خلاص ، ما بقتش اقدر أحمل مسؤوليتك لوحدى ..

ونظرت الى عبد الفتاح وأنا لا زلت واقفة عند الباب وقلت فى استخفاف :

— أيوه .. كنت مع الدكتور هاشم .

وعاد وحاجباه يرتفعان فوق عينيه .. وازرد وجهه .. وقال وهو يحاول أن يضبط أعصابه :

— انتى عارفه هاشم ده كويس .. عارفه انه عرف ميت بنت قبلك .. وعارفه انه كان ماشى مع واحده اسمها أمينه .. ومرمطها وخللى سمعتها فى التراب .. وبعدين سابها زى الكلبه .. و ..

قلت وأنا أقاطعه ساخرة :

— وانت حاتيسبنى زى ايه ؟

وفلتت منه أعصابه وصرخ :

— أنا عايز أفهم ، انتى بتكلمينى بالشكل ده ازاى ..

وقلت وأنا انظر اليه فى تحد :

— أنا اللى عايزه أفهم ، انت بتحاسبنى بصفتك ايه ؟

وتردد قليلا .. ثم نظر الى أمى كأنه يستشيرها ، ثم عاد الىّ بوجهه الكريه ، وقال :

— أنا جوزك يا ذوجا ..

قلت :

— ده مش جواز ده .. الجواز يعنى بيت وأولاد وناس .. اذا كنت عايز تعتبر نفسك جوزى اتفضل اتجوزنى قدام الناس .. زى ما اتجوزت مراتك .. وزى ما جوزت بنتك .. أنا مش أقل من مراتك ، ولا من بنتك ..

قال فى تحد :

ــ واذا ما اتجوزتكيش ..

قلت :

ــ تبقى تاخد فلوسك وما تورنيش وشك ..

وصرخت أمى ..

ــ اخرسى ..

وقال عبد الفتاح فى خبث :

ــ ده اللى انت عايزاه .. ولا ده اللى قاله لك هاشم .

قلت :

ــ ده اللى كان لازم يحصل ..

قال :

ــ حاضر يا ست نوجا .. نتجوز ، زى ما انت عايزه .

قلت كأنى أبصق فى وجهه :

ــ طيب لما تحدد انت وماما يوم الجواز .. ابقى تعالى كلمنى وحاسبنى ..

وتركتهما مبهوتين ..

وأخذت التليفون من أمامهما .. ودخلت به الى حجـــرتى وأغلقت بابها ورائى بالمفتاح ..

وهما صامتان ..

واتصلت بهاشم ..

كنت أريد أن أطمئن علية .. بعد أن تركته مصدوما ..

ولم اجده ، وقالت لى ممرضة العيادة انه اتصل بها واعتذر عن عدم استطاعته الحضور لانه مريض ..

لعلها المرة الأولى التى يتخلف فيها هاشم عن عيادته .. بسببى ..

انى مجرمة ..

لم يكن عبد الفتاح جادا عندما وعدنى بالزواج زواجا كاملا شرعيا يعلنه للناس .. انما كان يعتقد أنه يستطيع بخبثه أن يجرنى وراء هذا الوعد الى أن أهدأ ، وأستسلم ، وأعود اليه كما كنت ..

وانا أيضا لم أكن أعنى ما أقول عندما طالبته بأن يتزوجنى زواجا شرعيا .. كنت فقط ، أتحداه .. وأتحدى أمى .. كنت اثير فى وجههما مشكلتى .. كنت أحاول أن أفتح ثغرة فى الجدار الذى يسجننى وراءه .. لأهرب منها .. ولكنى لم أتصور نفسى لحظة زوجة له .. لم أكن أريد .. لا أريد شيئا من ماله ، ولا من اسمه العريض .. كانت شخصيتى الكاملة القوية التى أعادها الى هاشم ، ترفض عبد الفتاح .. حتى لو أصبح زوجا لى .. انى اريد أن أكون شيئا آخر .. شيئا نظيفا ، بريئا .. ينطلق فى الحياة بلا خجل ، وبلا عقد ، وبلا خطيئة .. شيئا يستحق هذا الحب الكبير الذى أحاطنى به هاشم .. وأنا قوية .. هاشم منحنى القوة .. وأستطيع أن أكون هذا الشىء النظيف ..

ولكن ..

الطريق الى الحياة النظيفة صعب ..

خضت معركة ..

معركة هائلة ..

عبد الفتاح وأمى فى جانب ... وأنا وحدى فى الجانب الاخر .. وحدى .. حتى هاشم يرفض أن يقف بجانبى .. يرفض ان يتدخل .. يرفض أن يقوم بأى عمل يخفف عنى عبء المعركة .. انه لا يزال مصرا على أنها معركتى وحدى .. وقد زودنى بالقوة لأخوضها .. وعلىّ أن أنتصر .. أو أيأس ..

لا .. لن أيأس ..

وأمى وعبد الفتاح ، لا يكفان عنى .. أصبح عبد الفتاح يأتى الى البيت كل صباح قبل أن يذهب الى المصنع ، وكل مساء قبل أن يعود الى بيته .. وأمى تصرخ .. وعبد الفتاح يصرخ .. وأنا أصرخ .. والصراخ ينطلق فى رأسى كأنه ألسنة النار .. ولكنى أحتمل .. أقاوم .. وأصر على ما أطلبه .. ولم أكن أطلب الا شيئا واحدا ، هو أن يخرج عبد الفتاح من حياتى .. وأن تمزق الورقة التى وقعتها .. وأن يتركنى حرة ..

وقال عبد الفتاح وهو يفتعل الهدوء :

— اسمعى يا نوجا .. اسمعى كلامى كويس .. انا حاشتريلك الفيلا اللى انتو ساكنين فيها دى .. وتستنى على شهر ولا شهرين ، لغاية يومين التأميم دول ينتهوا ، وبعديها اتجوزك .. انتى عارفه انى كاتب كل حاجه باسم مراتى ، ولو اتجوزتك دلوقتى ، وعرفت انى اتجوزت ، حا ابص الاقى نفسى من غير ولا مليم .. ايه رأيك بأه .

وقلت وأنا أنظر اليه فى قرف وتحد :

— رأيى ان ما فيش فايده ..

وصرخت أمى ..

— يا اخواتى .. الراجل اكل عقل البنت .. الله يقطع سنين هاشم ويوم ما شفنا هاشم ..

وقلت ساخرة :

— لو ما كناش شفنا هاشم كان زمانى مت ..

وعادت أمى تولول :

— يا ريتنى يا شيخه كنت شفتك ميته .. ولا انى أشوفك مجنونه .. يا بنت اعقلى .. شوفى عبد الفتاح بيه بيقول لك ايه .. حا يشتريلك الفيلا .. والله ما تستاهلى ولا أوده .. ولا حتة خرابة .. انتى فاكره نفسك ايه .. حلوه .. الحلوين على قفا من يشيل .. فاكره نفسك امبراطورة الانجليز .. يا بنت حطى عقلك فى دماغك ..

وقاطعها عبد الفتاح قائلا : كأنه اكتشف طريقا جديدا الى قلبى :

— مش مهم الفيلا يا عزيزه هانم .

ثم التفت الىّ وهو يمسك بيدى وشفتاه الغامقتان ترتعشان على وجهه الأزرق :

— المهم انى باحبك يا نوجا .. باحبك لدرجة انى ما اقدرش اتصور نفسى من غيرك .. ما فيش حاجه حلوه فى حياتى الا انتى ..

ونظرت اليه .. ربما كان صادقا بل انه فعلا صادق .. انه يحبنى .. وربما كنت مسئولة عن هذا الحب .. لقد تركته حتى أحبنى .. وهو لم يخدعنى .. ان كل ما اعطيته له ، أعطيته بارادتى .. وليس ذنبه انى كنت أيامها ضعيفة .. أو كنت مغلوبة على أمرى .. أو كنت يائسة .. ليس ذنبه وحده أنه احبنى .. وربما ليس من حقى حتى الآن ان أذبح حبه .. ليس هذا من حقى ..

ومرت على قلبى لمسة من الضعف .. كدت أشفق عليه .. وارتعشت رموشى فوق عينى .. وربما لاحظ ارتعاشها ، فقد ابتسم ابتسامة مسكينة ، وتنهد كأنه يسترد أنفاسه .. ولكنى استعدت قوة تصميمى .. حتى لو كان يحبنى ، فهو ليس حبا نظيفا .. لو كان يحبنى حبا نظيفا لما رضى لى

بالحياة التى وضعنى فيها حتى لو رضيت أنا بها .. لأنها حياة لا يرضاها لابنته ..

وسحبت يدى من يده ، واستقرت رموشى حول عينى . وقلت فى هدوء :

ـــ أسفه يا عمى ..

ولأول مرة أحس بأنى أقسو عليه وأنا أناديه بيا عمى .

ونظر الىَّ فى حدة كأن كرامته ثارت وقال :

ـــ أسفه يعنى ايه ؟

قلت :

ـــ يعنى ما فيش فايده .. لازم حكايتنا تخلص ..

وصرخ :

ـــ اذا كنتى فاكره ان الدكتور بتاعك حايتجوزك ، يتفضل يتجوزك .. أنا موافق .. بس يتجوزك ..

ثارت دمائى وصرخت :

ـــ انت مش من حقك انك توافق .. ولا من حقك انك ترفض .. انت فاكرنى جاريه عندك .. فاكر انك اشتريتنى بفلوسك ..

ووقف عبد الفتاح بجسده القصير السمين ، ورفع يده الغليظة وهوى بها على صدغى .. وهو يصيح :

ـــ انت بتكلمينى كده ليه .. من امتى قلة الأدب دى .. من امتى بتقدرى تحطى عينك فى عينى .. اسمعى .. انا باقولك أهو .. اذا كنتى فاكره انك حاتقدرى تخلصى منى ببساطه .. تبقى غلطانه .. مش ممكن أسيب بنت مفعوصه زيك تلعب بىَّ .. فاهمه ..

وارتججت تحت وقع صفعته .. ولكنى لم أصرخ .. ولم أبك .. ولا وضعت يدى على خدى مكان الصفعة .. وسيطرت

على نفسى بسرعة .. ونظرت فى عينيه الجاحظتين باستحقا .. وشعرت ساعتها انى اكرهه اكثر مما كرهته فى أى لحظة مضت .. أكرهه بقرف .. وقمت واقفة ، وقلت ورأسى مرفوع :

ـــ اعمل اللى انت عايزه ..

ثم أدرت له ظهرى .. ومشيت بخطوات ثابتة الى غرفتى .

وأغلقت الباب بالمفتاح ..

وكنت أستطيع أن أبقى فى غرفتى يوما كاملا .. لا يهمنى أن اكل ولا أن أشرب .. كنت أجتر غذائى من قوتى .. قوة تصميمى على موقفى .. وكانت أمى تقف خلف الباب تتوسل الىَّ أن افتح لها فأرفض ، وأصر على الرفض .. لم أكن أفتح لها إلا عندما تجر أبى المشلول فى عربته ، وأسمعه ينقر على باب غرفتى بذراعه السليم ، وأسمع صوته الأخرس ينطلق متحشرجا فى زوره ، ينادينى فى توسل .. فأفتح له .. وألقى بنفسى على صدره .. وأبكى .. أستريح برهة من قوتى ..

وسلطت علىَّ أمى صديقاتها سيدات جمعية نور الهدى .. فكن فى الأوقات التى يغيب فيها عبد الفتاح وتتشاغل فيها أمى . يلتففن حولى برهة وهن متشحات بطرحهن البيضاء كالعفاريت .. ويتبادلن « الزن » فوق رأسى .. يحاولن اقناعى بأن علاقتى بعبد الفتاح ، حلال .. وأن الورقة التى وقعتها تتيح له أن يطلبنى فى بيت الطاعة .. و .. و .. كلام كثير يحاولن أن يخفننى به حينا .. ويغريننى به حينا .. انى أعرفهن .. سيدات نور الهدى .. ان عبد الفتاح دفع لهن باسم البر والتقوى .. كثير من الرجال يدفعن لهن ، ليسحبن اليهم بنات الناس ..

وكل هذا كنت أستطيع احتماله ..

ولكن ما لم احتمله أنى لم أعد أستطيع أن أرى هاشم .

ولا حتى أحادثه فى التليفون حديثا يشجعنى .. يصبرنى .. يمدنى بمزيد من القوة ..

وكانت أمى منذ رفض هاشم أن يقابلها على انفراد قد اقتنعت بأنه يريد أن يأخذنى منها .. وانه لا يعترف بملكيتها لى .. وانه يريد ان يصل الىّ عن غير طريقها .. ثم بعد ذلك عندما رفضت أن أروى لها تفاصيل ما دار بينى وبينه يوم ذهبت للقائه فى شقته وأصررت على الرفض .. اقتنعت أن هاشم أصبح أقوى منها علىّ .. اقوى تأثيرا .. أقوى فى سيطرته .. وانى اصبحت أحبه الى حد أن أضحى بها .. الى حد أن أخفى عنها التفاصيل .. وجنت .. وأعلنت الحرب الصريحة عليه ..

قررت الا يدخل هاشم بيتنا .. ولم يكن هاشم يأتى الى البيت الا بعد أن ادعوه والح عليه .. وقد أحس بالقرار الذى أصدرته امى ، لأنى لم أعد أدعوه ..

ثم أصبحت أمى تمنعنى من التحدث فى التليفون .. كانت تضع التليفون دائما بجانبها ، وتحمله فى يدها وهى تنتقل من غرفة لأخرى .. فاذا ألححت عليها أن أحادث احدى صديقاتى ، أصرت على أن تدير الرقم بنفسها .. وفى المرات القليلة التى استطعت أن أسرق فيها لحظة احدث فيها هاشم فى التليفون ، لم أكن أستطيع أن أقول له شيئا . كان كل شىء يختلط ويرتبك فوق لسانى ، ربما لأنى كنت أحاول أن أقول له كل شىء فى لحظة .. ثم أفاجأ بأمى واقفة أمامى كالصيبة .. وانظر اليها فى سخط وتحد .. وأقول لهاشم :

— بعدين حابقى أكلمك .. لو قدرت ..

وأضع السماعة فى هدوء .. والتفت الى امى قائلة :

— ما تسألنيش أنا كنت باكلم مين .. لأنى مش حاقولك ..

وترد ، وهى تقبض على التليفون بيد قوية ، كأنها تخنق صوتى ، وصوت هاشم :

— مش حاسألك .. لأنى عارفه كنت بتتكلمى مين ..

ثم تأخذ التليفون وتختفى به ...

وكانت تمنعنى من الخروج .. حتى لزيارة أمى الحقيقية .. سجنتنى ، وسجنت نفسها معى .. وسلطت كل خدم البيت ليتجسسوا علىّ .. دائما ورائى عين تراقبنى .. كلما نمت و صحوت وكلما دخلت غرفة أو خرجت من غرفة .. وانقضت أيام طويلة وأنا لا أرى أحدا الا وجه أمى المكرمش ، ووجه عبد الفتاح الأزرق ، ووجوه سيدات نور الهدى ، الباردة كالثلج .. وأثير فى كل يوم خناقة لأقل استفزاز .. ثم ادخل حجرتى وأغلق بابها علىّ ، وأتعذب ..

وكنت فى عذابى أستغيث بهاشم .. وأحيانا كنت ألومه الى حد السخط عليه .. لماذا يتركنى وحدى .. لماذا لا يفعل شيئا لينقذنى من مصيبتى .. انه لا يحادثنى فى التليفون .. ولا حاول أن يتصل بى .. ولكنى كنت أعود وأهدأ .. أعود الى دفء الحب .. حب هاشم .. ان هاشم لا يستطيع شيئا .. لا يستطيع أن يتصل بى فى التليفون .. أمى ستلقى السماعة فى وجهه ، وقد تلعنه وتسلط عليه لسانها الطويل ، وهو أكثر اعتزازا بكرامته من أن يعرضها لهذا الموقف .. ثم انه لا يستطيع أن يأتى الى البيت بلا دعوة ، لينقذنى ، أو ليطلبنى للزواج .. انه يعلم الآن أنى متزوجة .. هذا النوع من الزواج .. ولا يمكن لرجل أن ينقدم للزواج من امرأة متزوجة .. انه لا يستطيع شيئا .. وقد كان على حق عندما قال لى انها معركتى وحدى .. نعم ، انها معركتى وحدى .. ولعله يتعذب الآن قدر عذابى ..

ربما اكثر .. يتعذب بحيرته .. ويتعذب بالصدمة .. ويتعذب بحرمانه منى ..

واجد نفسى خلال سحب العذاب التى تحيط بى ، أبتسم له .. لهاشم .. كأنى أواسيه فى عذابه .. كأنى أعتذر له عما سببته له .. ثم أتخيل نظرته الطيبة الحنون التى تطل من عينيه .. وأتخيل لمسة شفتيه فوق شفتى .. وأتذكر كلماته القوية النظيفة .. وأستمد من كل ذلك قوة أكبر على المقاومة .. وعلى التصميم .. والطريق يتضح أمامى .. الطريق النظيف .. انى أفعل كل ذلك لأكون زوجة لهاشم .. لا .. لا يهم الزواج .. ولكن المهم ان أكون فتاة تستحق حب هاشم .. ومن السهل أن أتصور نفسى هذه الفتاة .. فتاة كاملة الشخصية .. تدخل الجامعة وتنجح .. وتعمل .. وبعدها يستطيع أن يتزوجها أى رجل وهو مرفوع الرأس ، فخور بها .. وأستطيع ان أحب زوجى ، حبا كاملا ، بلا عقد وبلا شروخ ..

وأمى عادت تستعين بالسحر .. والشعوذة ، كما فعلت أيام حطمت حبى لعادل .. ولكنى فى هذه المرة لم أستسلم لها .. انى أرفض أن أسلم نفسى للسحرة والمشعوذين .. فكانت تسرق المشط الذى أمشط به شعرى .. وتعطيه للست فيكتوريا لتنقش عليه طلاسمها السحرية .. وكانت توقد شمعة فى الحمام عقب أن أستحم ، فى يوم من أيام النصف الأخير من الشهر العربى ، وتتركها موقدة طول الليل .. و .. و .. أشياء كثيرة فعلتها اعتقادا منها ان السحر يستطيع أن يمحو حب هاشم من قلبى .. وكنت ألحظ كل ما تفعله دون أن أعلق بشىء .. انظر اليها باستخفاف وأعطيها ظهرى ، وأبتعد وانا واثقة ان حبى أقوى من السحر .. بل انها وصلت الى أكثر من ذلك .. أقامت

لى « زارا » .. زارا صامتا .. أوصتها به الشيخة زهرة .. فأعطتها حجابا وضعته دون أن أدرى تحت وسادتى قبل أن أنام .. وفى الصباح التالى ، جاءت أمى الىَّ ، تسألنى فى رقة وحنان على الحلم الذى حلمته وأنا نائمة .. وقلت لها انى حلمت بأنى أجرى نازلة على السلم .. ووقعت ، ثم حاولت أن أقوم فلم أستطع .. اكتشفت أن رجلى قد كسرت .. وكنت فعلا قد حلمت هذا الحلم .. وعادت أمى تسألنى باهتمام ، اذا كنت قد رأيت فى الحلم دما ينزف منى .. فأجبتها بالايجاب .. دون أن ألحظ ساعتها ، اهتمامها .. وحملت أمى الحلم الى الشيخة زهرة ، وفسرته الشيخة بأنه يجب أن يذبح لى جدى أسود .. وبعدها بأيام نادتنى أمى الى حجرة بجانب المطبخ ، كنا نستعملها كمخزن .. فذهبت اليها .. وما كدت أخطو داخل الغرفة ، حتى ذبحوا تحت قدمى الجدى الأسود .. وصرخت من المفاجأة .. وتلفت حولى فرأيت الشيخة زهرة .. وثلاث سيدات من جمعية نور الهدى .. وأمى .. وكلهن متشحات بالطرح البيضاء ، حتى أمى .. وعدت أصرخ فيهن :

— ايه العبط اللى بتعملوه ده .. انتم فاكرين انكم تقدروا توصلوا لحاجه بالطريقة دى .. اعقلى بأه يا ماما .. وبلاش جنان ..

وعدت الى غرفتى وأنا مصممة ألا أبقى فى هذا البيت ..

وبقيت الشيخة زهرة وسيدات نور الهدى فى البيت ثلاثة أيام بلياليها ، يتلون التعاويذ فوق دماء الجدى الأسود ..

وقررت أن أهرب ..

صحوت من النوم ذات يوم ، وأنا مصممة على الهرب .

لم تعد تجدى المقاومة ..

ان صبر أمى وصبر عبد الفتاح أطول من صبرى ..

وبدوت هادئة فى هذا اليوم ، حتى أكتسب ثقتها .. ثم انتهزت فرصة انشغالها ، ودخلت حجرتها .. وفتحت الدرج الذى أعلم أنها تحتفظ فيه بالنقود التى تصرف منها على المطالب اليوميه .. ولم أجد فيه سوى ثلاثة جنيهات .. أخذتها .. وأبى راقد فى الفراش ينظر الىّ بعينين مبتسمتين ملؤهما الحب .. دون أن يبدو عليه أنه فهم شيئا ، أو ارتاب فى شىء .. والقيت نفسى على صدره ، وقبلته .. قبلات كثيرة ، ودموعى حبيسة خلف جفونى .. كنت أودعه .. كنت مصممة يومها على الا أعود الى هذا البيت أبدا .. وكان أبى هو الشىء الوحيد الذى أحبه فى هذا البيت ..

وخرجت من غرفة أمى ، وصحت بأعلى صوتى فى الخادمة :

— روحى املى البانيو .. عايزه اخد حمام ..

وسمعتنى أمى ..

ودخلت حجرتى برهة ، الى أن سمعت صوت الماء يملأ البانيو ، وتأكدت أن الخادمة فى الحمام .. وخرجت .. تسللت على أطراف أصابعى الى خارج البيت .. وجريت فى الشارع .. جريت حتى وجدت سيارة تاكسى ركبتها .. وقلت للسائق :

— اطلع على الزمالك يا أسطى ..

ونزلت قريبا من شقة هاشم .. ثم اتصلت به فى التليفون من دكان بقال هناك .. والساعة الثانية بعد الظهر . موعد انتهائه من عيادته .. وقلت فى لهفة بمجرد أن سمعت صوته :

— أقدر أشوفك دلوقتى يا هاشم ..

وقال وصوته ينتبه كأنه يفيق من يأسه :

— انتى فين ؟ ..

قلت :

— أنا باكلمك من الشارع .. جنب الشقه بتاعتك ..

قال :

— حاكون عندك بعد عشر دقايق ..

قلت :

— نتقابل فى الشقه ؟

قال :

— أيوه ..

قلت :

— هى نمره كام .. نسيت ؟

قال :

— الدور التالت .. شقه واحد وتلاتين ..

قلت :

— ما تتأخرش يا هاشم .. أنا فى الشارع ..

قال :

— مسافة السكه ..

ووضعت سماعة التليفون .. وأخذت أسير على مهل حول العمارة التى فيها الشقة ، الى أن مر أكثر من ربع ساعة .. ثم صعدت اليه ..

وفتح لى ..

ووقفت انظر اليه ، كأنى أشرب من ملامحه بعد عطش طويل .. ان خط الألم لا يزال يشق جبينه .. والحيرة تركت بصمات غامقة تحت عينيه .. وابتسامته حزينة وخيل الىّ أن وجهه نحيل أكثر مما عرفته .. وأنفه أكبر . ونظرته مترددة لا يستطيع أن يستقر بها على مكان معين من وجهى .. وخيل

الى أن شعراته البيض قد ازدادت فوق رأسه كأنه ينسج منها كفنا الأفكار تعذبه ..

وحاولت ن أبقى عينى فوق وجهه . ولكنى لم أستطع .. شعرت بكل قوتى .. قوة شخصيتى .. تنسلت منى .. على قدر ما كنت أشعر بقوتى أمام أمى وعبد الفتاح ، أشعر الآن بضعفى أمام هاشم .. وأرخيت عينى عنه ، ووقفت أمامه صامتة ..

وظلت نظرته الحائرة تطوف بوجهى برهة ، ثم جذبنى اليه ، واحتوانى بين ذراعيه ، وأسند وجهه فوق رأسى .. وبقى صامتا ..

كل منا يستريح فوق صدر الآخر .

كل منا يسترد أنفاسه ..

كل منا عاد الى الآخر ..

وأبعدنى عنه فى رفق .. ونظر الىّ ، وابتسامته أكبر ، وحزنه أكبر .. ثم أخذنى من يدى ، وأجلسنى على الأريكة .. وقال كأنه يهمس :

— وحشتينى ..

قلت وأنا أرخى عينى :

— وانت كمان ..

قال :

— انتى خسيتى ..

ورفعت عينى الى وجهه ، وقلت :

— وانت كمان ..

قال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة ، كأنه يسخر بها من نفسه :

— أنا كان لازم أخس أكتر من كده .. انما علشان خاطرك قررت انى أبطل خسسان ..

قلت وأنا لا انظر اليه :

— أنا تعبت قوى يا هاشم ..

قال :

— وعملتى ايه ؟

قلت :

— هربت ..

وارتفع حاجباه دهشة ، وقال :

— هربتى ورحتى فين ؟

قلت :

— جيتلك ..

وترك يدى من يده ، وقال وهو ينظر الى بوز حذائه :

— بس ده مش حل ..

قلت كأنى أهم بالبكاء :

— ما لقيتش حل غير كده .. انت ما تعرفش بيعملوا فى ايه ..

وأخذت أروى له ما حدث لى .. وهو يسألنى ، ويستزيدنى من التفاصيل .. ثم قال بعد أن قلت له انى قررت أن أهرب من البيت :

— وناويه تعملى ايه ؟

قلت :

— ناويه أقعد هنا على طول ..

ونظر فى وجهى ، وقال فى هدوء :

ـــ ده مش حل ..

قلت وأنا أنظر اليه كأنى أتهمه بأنه لا يحس بمشكلتى :

ـــ أمال الحل اليه ؟

قال :

ـــ الحل انك ترجعى البيت ، وتفضلى فيه لغاية ما توصلى للى انتى عايزاه ..

قلت :

ـــ ولا أشوفكش .. مش كده ؟

قال فى هدوء وهو يضغط أصابعه بعضها ببعض :

ـــ المشكلة مش انك تشوفينى ، ولا ما تشوفينيش .. مشكلتك دلوقتى انك تختارى الحياه اللى انتى عايزاها ..

ونظرت اليه كأنى أحاول أن أرى شيئا خلف عينيه ، ثم قلت ، وقلبى يرتجف :

ـــ هاشم .. قول لى بصراحه .. انت لسه بتحبنى ؟

ونظر الىّ نظرة سريعة ، ثم عاد ينظر الى أصابعه ، وقال :

ـــ مش عارف ..

وارتعش قلبى كعصفور مذعور ، وقلت بصوت مبحوح :

ـــ مش عارف ازاى .

وقام واقفا واخذ يتمشى أمامى ، قائلا فى عصبية :

ـــ مش عارف حاجه .. مش عارف اذا كنت باحبك ، ولا ما بحبكيش .. انا مش حيران فيكى ، انا حيران فى نفسى .. وحيران فى كل يوم فات علىّ من ساعة ما عرفتك .. أنا حبيتك وأنا متصورك بنت صغيره ، بريئه ، قويه ، طيبه .. كانت دى البنت اللى باحبها .. ومره واحده بصيت لقيت قدامى بنت تانيه .. لقيت قدامى ست لها راجل بيصرف عليها ، وفاتح

لها بيت .. ست قدرت تخبى علىّ سنه بحالها .. وابتديت أشك فى كل يوم من أيامنا .. وأشك فى كل كلمه حلوه قلتيها لى .. مش قادر أصدق انى لما كنت بانزل من بيتكم كان راجل تانى بيخش بعدى .. مش قادر أصدق ان كان فيه راجل تانى بيبوسك بعد ما ابوسك .. مش قادر أصدق ان أمك بالشكل ده .. مش قادر أصدق انى كنت مغفل للدرجه دى .. وانك انتى اللى استغفلتينى .. مش قادر .. يمكن لو كنتى قلتيلى على حكايتك من أول يوم ، كنت حبيتك برضه .. حبيتك من غير ما ييجى يوم أكتشف فيه انى كنت مغفل .. انما دلوقتى .. مش قادر أعرف أنا باحب مين .. باحب البنت البريئه ولا باحب الست اللى لها راجل تانى .. حيران .. حيران .. عمرى ما احترت أد اليومين دول .. الحيره حاتجننى .. مش عارف اشتغل .. لأول مره باسرح وأنا باكشف على عيان .. لأول مره ما بعرفش أنام الا وأنا سكران .

وانهمرت دموعى .

دموع صامتة ..

كان يضربنى بالسياط .. ولا أستطيع ن أشكو ، ولا أن أعترض .. فقط أبكى فى صمت .. وتوقف عن المشى ، وجاء الىّ وركع بجانبى ، وأمسك بيدى ، وقال فى لوعة وهو ينظر الى دموعى :

ـــ افهمينى يا نجوى .. أرجوكى تفهمينى .. أنا محتاج لمساعدتك أكتر ما انتى محتاجه لمساعدتى .. وأنا عارف انك كويسه .. مش ممكن تكونى وحشه .. مش ممكن تكونى قصدتى انك تخدعينى ، ولا تخبى عنى .. انما لازم تعذرينى يا نجوى .. لازم تعرفى ان المشكله مش مشكلتك .. انتى مالكيش مشكله ،

لانك تقدرى تختارى .. تقدرى تقولى أيوه .. وتقدرى تقولى لأ .. انما المشكله مشكلتى أنا .. لأنى مش قادر أختار .. مش قادر أقول أيوه ولا أقول لأ .. مشاكل الواحد مع الناس لها حل ، انما مشكلته مع نفسه هى اللى مالهاش حل .. وانتى مشكلتك مع أمك ومع الراجل اللى انتى عايشه معاه .. مالكيش مشكله مع نفسك ، لأنك عارفه انتى عايزه ايه .. وعارفه انك بتحبينى .. انما انا مشكلتى مع نفسى .. مش عارف باحبك ولا ما بحبكيش .. واذا كنت باحبك استسلم لحبك ولا اقاومه .. واذا استسلمت ، أتجوزك ، ولا أعيش معاكى من غير جواز .. و ..

ورفعت اليه عينى المبللتين بالدموع ، وقاطعته قائلة :

— أنا ما طلبتش انك تتجوزنى يا هاشم ..

وصرخ وهو يقفز من ركعته ويلقى بنفسه على المقعد العريض :

— انماأنا كنت عايزا اتجوزك .. كنت باحبك حب مالوش نهايه الا الجواز ..

قلت :

— ودلوقتى ؟

قال وهو يلهث :

— ما اعرفش ..

قلت :

— أنا حافضل قاعده هنا لغاية ما تعرف .. اقعد يوم .. شهر .. سنه .. أنا باحبك يا هاشم .. باحبك .. ما اقدرش استغنى عنك .. ومش عيزه منك حاجه الا انك تحبنى ..

قال فى صوت خافت كأنه يحادث نفسه :

— لأ ..

قلت :

— لأ .. ايه ؟

قال :

— ما تقعديش هنا .. البنت اللى حاتقعد هنا مش هى البنت اللى حبيتها .. وتبقى ما عملتيش حاجه .. تبقى ما تغيرتيش .. زى ما كنتى قاعده مع عبد الفتاح ، حاتقعدى معايا .. لو كنتى بتحبينى ما تعمليش معايا اللى عملتيه مع راجل تانى .. اذا كنت بتحبينى لازم حبك يخلق منك واحده تانيه .. واحده تانيه خالص ..

قلت ودموعى تزحف على خدى كأنها تسعى اليه لتغسل قدميه :

— أنا مش ممكن حا اكون معاك زى ما كنت مع عبد الفتاح ، أنا ..

وقاطعنى :

— مش حاصدق .. ما تنسيش انى باشك فيكى .. مش حا أحس انك بتضحى بحاجه يوم ما تسيبى أهلك وتيجى تقعدى معايا .. كل اللى حا احس بيه انك متعوده على كده .

وأحسست كأنه طعننى بسكين باردة فى قلبى ، وترنحت فى جلستى ، وأسندت ظهرى على مسند الأريكة ، حتى لا أقع ، ثم تنهدت كأنى أبتلع دمى المنزوف ، وقلت وانا أستسلم لليأس :

— انت مش عايزنى يا هاشم ..

وقام من مكانه وجاء بجانبى ووضع ذراعه على كتفى وقال وهو ينظر فى عينى :

— يا ريت .. يا ريت أحس انى مش عايزك .. ما فيش يوم فات على حسيت فيه أنى مش عايزك .. ما اقدرتش اكرهك .. ما اقدرتش احقد عليكى .. ما اقدرتش اقنع نفسى انى أقدر أستغنى عنك ..

قلت وأنا أسند رأسى على صدره :

— وما اقدرتش تسامحنى ..

قال وهو يضغطنى اليه فى رفق :

— ما اقدرتش أنسى .. ما فكرتش انى أسامحك ، انما حاولت انى أنسى .. ما قدرتش ..

ورفعت اليه وجهى وهمست وعيناه تتوسلان اليه :

— انس يا هاشم .. انس ..

وشفتاى قريبتان من شفتيه ..

وانحنى يلمس شفتى .. لمسهما لمسة خفيفة .. ثم ضمنى اليه بعنف وقبلنى بكل شفتيه .. ثم عادت شفتاه ورقتا .. امتلأتا بالحنان .. قبلنى .. كأنه يمسح فوق جرحى برفق .. وأنا محتارة فى قبلته .. وأريد أن أهيم فى عنفه ، فيفاجئنى برقته ..

وسحب شفتيه من بين شفتى ، وقال وأنفه الكبير يصطدم بأنفى ، وابتسامة حزينة مسكينة بين شفتيه :

— تعرفى انى حيران أبوسك ازاى ..

قلت وصدرى يمتلىء بالبكاء :

— ما تعذبنيش يا هاشم .. انا اتعذبت كفايه ..

ونظر الىّ بكل عينيه .. ثم سقط على شفتى بكل شفتيه .. يقبلنى فى عنف .. كأنه ينتقم منى .. كأنه ينفث فى كل عذابه .. وشفتاه عصبيتان .. وذراعاه عصبيتان .. واصابعه عصبية تزحف على ظهرى وتندس بين طيات شعرى ، ثم تجذبه فى

قسوة .. وأنا مستسلمة لعصبيته ، وعنفه ، وقسوته .. اريد أن أنسى نفسى .. أريد أن أنسى عمرى كله ..

وفجأة تركنى ..

قام من جانبى .. ووجهه محتقن .. وأنفاسه لاهثة .. ثم اسند رأسه على حائط الغرفة .. ثم استدار وأخذ يضرب الحائط بقبضة يده ، وهو يردد :

— لا .. لا .. لا ..

واعتدلت فى جلستى .. وساويت ثوبى .. وساويت شعرى .. ثم وضعت رأسى بين كفى ، واستسلمت لليأس ..

وقال هاشم وقد هدأت أنفاسه ، واستدار الىّ ووقف مستندا بظهره الى الحائط :

— ده مش حل ..

ورفعت إليه عينى اليائستين ، وقلت :

— هو فيه حل ؟ !

قال :

— لازم يكون فيه حل ..

قلت :

— تفتكر ايه الحل ..

قال :

— اننا نبتدى نعرف بعض من أول وجديد ..

قلت :

— ازاى ؟

قال :

— ما نتقابلش هنا فى الشقه .. نتقابل فى أى حته بره ..

ونـدى لنفسنا وقت لغاية ما أحبك زى ما انتى ، مش زى ما كنت متصورك ..

وسكت ..

لم أتكلم ..

واقترب هاشم منى .. عاد وجلس بجانبى .. وقال وهو يمسك بيدى ويبتسم لى :

ـ كل ده علشان باحبك يا نجوى .. لو ما كنتش باحبك ما كانش بقى فيه مشكله خالص ..

قلت له وأنا أبتسم من خلال يأسى :

ـ عارفه ..

قال :

ـ كل اللى حصل ان حبى اتهز .. اتصدم .. استنى عليه لغاية ما يفوق من الصدمه ، ويرجع زى ما كان ..

قلت :

ـ أنا مش حا أحس انى باستنى ، لأنى باحبك حتى وانت مهزوز ..

وابتسم قائلا :

ـ وتوعدينى ؟

قلت :

ـ بايه ؟

قال :

ـ بانك تساعدينى .. ومش حاتقدرى تساعدينى الا اذا أقنعتينى بأنك بنت قويه .. حياتك كلها قويه .. أقوى من ظروفك .. وأقوى من أمك ..

قلت :

ـ اطمن .. أنا مصممه ..

قال :

ـ وأنا أوعدك ، انى حا احاول انى أرجع زى ما كنت ..

قلت :

ـ اوعدنى انك مش حا تكرهنى حتى لو ما قدرتش ترجع زى ما كنت ..

قال :

ـ انتى عبيطه .. أنا باحبك يا مجنونه .. أكرهك ازاى ..

وابتسمت له ابتسامة تقطر دمعا ..

ثم قمت واقفة واتجهت الى الباب ..

وقال وهو يقوم معى :

ـ حا تروحى فين دلوقتى ؟

قلت :

ـ مش عارفه ..

قال :

ـ حا ترجعى البيت ؟!

قلت :

ـ مش عارفه .. حا ابقى اتصل بيك ، وقول لك أنا فين ..

قال :

ـ علشان خاطرى ترجعى البيت ..

قلت وأنا أحس بكل قوتى .. بكل شخصيتى :

ـ سيبنى أتصرف يا هاشم .. أنا عارفه ظروفى كويس .. واطمئن ..

قال :

ـ زى ما انتى عايزه ..

ونظرت فى وجهه .. ان خط الالم لا يزال يشق جبينه .. وبصمات الحيرة تحت عينيه .. ووجهه النحيل ينضح بالعذاب ..

وفتح لى الباب ..

والتفت اليه قائلة :

— قلت لأختك على حكايتى ؟

قال وهو يحنى راسه فى أسى :

— لا ..

قلت :

— ليه ؟

قال :

— ما اقدرتش ..

ونظرت اليه فى اشفاق كأنى أمده ببعض قوتى ، ثم لمست خده بشفتى .. وخرجت ..

ولم افكر طويلا ، الى أين اذهب ..

كنت أعرف أين أذهب ..

ذهبت الى أمى الحقيقية فى الوايلية . واستقبلنى اخواتى والفرحة تزغرد على وجوههن الضاحكة .. والتفقن حولى يهللن كعادتهن .. ويصرخن :

— ابله نجوى جت .. ابلة نجوى جت ..

لكنى ابتسمت لهن ابتسامة حزينة ، وتطلعت بعينى ابحث عن أمى ..

وجاءت أمى بوجهها السمح البشوش ، وهى ترحب بى بابتسامة كبيرة حلوة ، كأن كل قطعة منها تضحك :

— أهلا ببنتى حبيبتى .. أهلا بست الكل ..

وقلت وأنا أرد ضحكتها بابتسامتى المهمومة :

— عايزه أقعد معاكى شوية يا ماما ..

واختفت ابتسامتها ، وقالت فى جزع :

— تعالى يا حبيبتى ..

ثم التفتت الى اخواتى قائلة :

— باللا يا بنات .. خشوا أودتكم .. سيبونى أنا ونوجا لوحدنا شويه .

ثم أخذتنى من يدى ودخلت بى الى حجرتها .. وقلت وأنا اجلس على حافة السرير :

— اسمعى يا ماما .. أنا جايه النهارده علشان أقعد هنا على طول .. عندك مانع ..

قالت :

— مانع !! مانع ايه يا بنتى .. ده بيتك يا حبيبتى .. وأنا أمك .. بس مش أعرف السبب .. أصل ما فيش حد يسيب فيلا فى شارع الهرم وييجى يقعد فى الوايليه الا بسبب .. سبب مهم ..

وسكت .. ابتلع ريقى ..

وعادت أمى تقول :

— برضه أختى عزيزه مضيقه عليكى وكاتمه نفسك ؟

قلت :

— أكثر من كده ..

قالت :

— ايه بس يا حبيبتى طمنينى ..

قلت :

— تعرفى عمى عبد الفتاح ..

قالت :

— طبعا يا بنتى .. فيه حد ما يعرفوش ..

قلت :

— تعرفى ان هو اللى بيصرف علىَّ ..

قالت وهى تخبط على صدرها :

— يصرف عليكى ليه بأه يا بنتى .. دى أختى عزيزه غنيه .. عندها معاش جوزها ، وعشر فدادين .. وبيت فى السبتيه .. مش محتاجه ..

قلت :

— بس عبد الفتاح هو اللى بيصرف .. هو اللى بيدفع ايجار البيت .. وهو اللى اشترالى العربيه .. وهو اللى بيلبسنى .. هو كل حاجه ..

قالت وعيناها تتسعان :

— غريبه .. وليه بأه الصرف ده كله ..

قلت وأنا أرخى عينى عنها :

— لأنه متجوزنى ..

وصرخت وهى تخبط على صدرها :

— بتقولى ايه .. متجوزك .. متجوزك ده ايه .. ده راجل أد أبوكى .. دى بنته أكبر منك .. قولى كلام غير ده يا نجوى يا بنتى ..

قلت :

— متجوزنى .. و ..

قالت تقاطعنى وهى تصرخ وعيناها تنطقان بالغضب :

— ويتجوزك ازاى من غير ما اعرف .. هو انا مش أمك .. هو انا مت .. ولا كنت مت ..

قلت :

— وياريته متجوزنى .. ده مرافقنى .. يعنى عايش معايا من غير جواز ..

وقفزت واقفة ، وكل خلجة من وجهها تصرخ كأنها جنت .. وأمسكتنى من كتفى وأخذت تهزنى بعنف وهى تصيح :

— ايه اللى بتقوليه ده يا بنت .. ما كتبتوش عقـــد .. ما جيبتوش مأذون ..

قلت وأنا مستسلمة لهزاتها العنيفة :

— لا ..

قالت :

— ورايح جاى من غير جواز ..

قلت :

— أيوه ..

قالت :

— يعنى انتى مش بنت ..

قلت :

— لا ..

وصرخت :

— يا خرابى .. يا مصيبتى فى بنتى .

واندفع اخوتى الى الغرفة على صوت صراخ أمى .. فنظرت اليهن كالمجنونة وعادت تصرخ :

— اطلعوا بره .. امشوا من هنا ..

ثم اغلقت الباب علينا ، وهى تقول كأنها تخاطب أختها :

— والله عال يا عزيزه يا اختى .. بأه اديكى البنت تقومى تاخديها تشغليها على الرجاله ، وتكسبى من شرفها .. اشحال

اذا ما كانش عندك عشر فدادين .. اخص عليكى يا عزيزه .. اخص عليكى .. طيب لما اشوف .. والنبى لوريكى ..

ثم فتحت دولابها الفقير .. وأخرجت معطفها وجلست على حافة السرير تلبس الجورب والحذاء .. وقلت لها :

ــ رايحه فين ..

قالت :

ــ رايحه لست عزيزه .. رايحه للست المحترمه الكباره ..

ثم التفتت الىّ بعينيها المجنونتين وقالت كأنها تصرخ :

ــ الراجل ده لازم يتجوزك على سنة الله ورسوله ..

قلت :

ــ مش عايزم اتجوزه ..

قالت :

ــ تتجوزيه غصب عنك .. ويتجوزك ورجله على رقبته ، والا والله وسيدنا الحسين أعمل له فضيحه بجلاجل .. هو فاكرنا ايه .. اكمننا فقرا .. فقرا انما شرفا .. و ..

وفجأة .. سمعنا خبطا على باب الشقة ..

ودخلت أمى ..

أمى الثانية ..

كان على وجه أمى عزيزة صرخة غضب .. كل خط فى وجهها المكرمش يصرخ بالغضب .. غضب ينضح بالغيظ .. وركزت عينيها المحتدتين المنطلقتين بالشرر ، فوق وجهى .. وصرخت :

ــ انتى فاكره إنى حافضل طول عمرى اجرى وراكى ، والمك من كل حته شويه .. اتفضلى قدامى .. قومى انجرى .. و ..

وقاطعتها أمى الحقيقية ، وقد وقفت بينى وبينها منتصبة ، تنظر اليها فى تحد قوى كأنها مستعدة أن تذبحها لو وضعت يدها علىّ ، وصرخت هى اخرى :

ــ حيلك يا ست عزيزه هانم .. حيلك يا ست يا تقيه ياللى بتعرفى ربنا .. حيلك شويه .. فهمينى .. ايه حكاية سى عبد الفتاح بيه ..

وارتجت أمى فى وقفتها كأن حجرا ثقيلا سقط فوق رأسها وارتعشت نظرتها الغاضبة ونظرت الىّ كأنها لا تصدق انى أفشيت سرى لأمى الحقيقية ، ثم قالت وقد بدأ صوتها يتخاذل وينكمش :

ــ ماله عبد الفتاح بيه ..

وعادت أمى الحقيقية تصرخ :

ــ ماله يعنى ايه .. بأه أديكى بنتى علشان تملا عليكى بيتك ، تقومى تاخديها تتاجرى بيها .. تبيعيها للرجاله .. اشحال اذا ما كنتيش غنيه وعندك عشر فدادين ..

وجلست أمى عزيزة على حافة السرير كأنها سقطت من طولها ، وقالت وصدرها يلهث بأنفاسها :

ــ توجا هى اللى قالت لك كده ! ؟

وقالت أمى الحقيقية :

ــ أيوه هى اللى قالت لى .. وكان لازم تقوللى من زمان لولا تربيتاك المهببه ..

وقالت أمى عزيزة وهى تتنهد وراسها منكس :

ــ هو الجواز ببقى اسمه بيع يا خديجه يا ختى ..

وقالت أمى خديجة :

ــ وده جواز ده ..

ورفعت أمى عزيزة عينيها كأنها قررت ان تخوض المعركة الى أخرها وقالت :

— ايوه اسمه جواز .. جواز محلله ربنا .. جواز عرفى .. ونص ستات البلد واللى أحسن من نوجا متجوزين جواز عرفى .

وصرخت أمى خديجة :

— وانا بنتى تتجوز جواز عرفى ليه .. ناقصها ايه علشان تتجوز جواز عرفى ..

وردت أمى عزيزة :

— الراجل ظروفه كده .. ماكنش ممكن يتجوز الا جواز عرفى ..

وصرخت أمى خديجة :

— يعنى ايه ظروفه كده .. واحنا مالنا ومال ظروفه .. ذنب بنتى ايه فى الظروف دى ..

وقالت أمى عزيزة :

— راجل متجوز وله مركزه .. حايعمل ايه يعنى ..

وقالت أمى خديجة :

— يتلم ويرحم بنات الناس .. ولا يعنى يدور يشتريهم بفلوسه .. دى عمله تعمليها يا عزيزه يا ختى .. يا عزيزه يا كباره ..

وقالت أمى عزيزة وهى تحاول أن تتغلب على احساسها بفضيحتها :

— وأنا عملت ايه يعنى .. عملت ايه غير انى حبيت اعيش بنتى زى أحسن بنت فى البلد .. جوزتها راجل غنى .. فاتح لها سرايه .. ومركبها عربيه .. ولبسها أشكال وألوان .. انتى فاكره العشر فدادين يكفوا العيشه اللى عايشاها نوجا .. ده ايرادهم ما يكفيش حساب الخياطة ..

وقالت أمى خديجة :

— ولما انتى ما عملتيش حاجه .. خبيتى عنى ليه ؟ ..

وقالت أمى عزيزة :

— كان الشرط كده .. ان ما حدش يعرف ..

وقالت أمى خديجة :

— ولا أنا ! ؟

وقالت أمى عزيزة :

— ولا انتى ..

وقالت مى خديجة وهى تصرخ :

— ده أنا أمها يا عزيزة ..

وقالت أمى عزيزة فى تحد كأنها تدافع عن حياتها :

— أنا أمها .. انتى شيلتيها تسعة أشهر .. وأنا شيلتها عشرين سنه .. ابقى أنا أمها ..

وقالت أمى خديجة وهى تنظر الى أمى عزيزة فى قرف واحتقار :

— لو كنتى أمها ما كنتيش عملتى فيها كده ..

وقالت أمى عزيزة :

— لو كنتى أمها كان زمانها عايشه فى الفقر اللى انتى عايشه فيه ..

وقالت أمى خديجة :

— انتى اللى فقيره .. الفقير هو اللى ناقصه حاجه .. وأنا مش ناقصنى حاجه والحمد لله .. بناتى ما فيهمش واحده متجوزه فى السر .. واللقمة بتكفينا .. الدور والبقيه على اللى عينهم فارغه .. انما الحق علىّ أنا .. ورينى الورقه ..

وقالت أمى عزيزه كأنها دهشت :

— ورقة ايه ؟

وصرخت أمى خديجة :

— ورقة الجواز .. أمال احنا بنتكلم فى ايه من الصبح ..

وقالت أمى عزيزة وهى تخبط على فخذها بيدها وتتنهد كأنها تشد حبال الصبر :

— مش معايا ..

وصرخت أمى :

— يعنى ايه مش معاكى .. لازم أشوفها ..

وانتفضت أمى عزيزة واقفة وصرخت وهى تشوح بيدها :

— أنتى فاكره حامشى وأنا شايله ورقة جواز بنتى فى شنطتى .. ده أنا نسيت أشيل شنطه .. خرجت من البيت زى المجنونه ..

وانا واقفه فى ركن الغرفة وراء ظهر أمى خديجة ، وأحس بنوع من الشماتة فى أمى ، كأنى انتصرت عليها ، كأنى أقف وراء مدفع يدمرها ..

وعادت أمى خديجة تقول :

— اسمعى يا عزيزه يا اختى .. نوجا لازم تتجوز الراجل ده جواز شرعى .. تتجوزه قدام الناس .. افرضى انه سابها ، يبقى اللى حاييجى يتجوزها بعد كده ، مش لازم يعرف حكايتها .. ولا حاتقول له ايه .. حانقول ايه لما يلاقى البنت مش بنت ..

وابتسمت أمى عزيزة ابتسامة مرة ساخرة ، وقالت :

— والله عبد الفتاح ماله ذنب فى الحكاية دى ..

وصرخت أمى خديجة :

— يعنى ايه مالوش ذنب ..

وقالت عزيزة وهى تنظر الىّ كأنها تعايرنى :

— هو أنا عملت كده الا من غلبى منها .. على كل حال سيبى الحكاية دى علىّ أنا ..

وقالت أمى خديجة فى اصرار :

— ما سيبهاش .. بنتى لازم تتجوز جواز ربنا .. هى مش أقل من حد .. لو كان الملك حتى لازم يتجوزها قدام الناس .. والا والله العظيم أعمل له فضيحه من هنا لرب السما .. دلوقتى ما بقيتش انتى لوحدك .. لازم تعرفى كده ..

وقالت أمى عزيزة كأنها تسخر من جهل أمى خديجة :

— ونوجا ترضى تتجوز قدام الناس !

وقالت أمى خديجة :

— تتجوزه غصب عنها ..

وقالت أمى عزيزة :

— ما فيش حاجه بالغصب .. يوم ما اجوزت عبد الفتاح جواز عرفى .. ما غصبتش عليها .. مضت على الورقه بخط ايدها ..

وصرخت وأنا واقفة فى ركن الغرفة ، أدافع عن نفسى :

— انتى عارفه أنا كنت حالتى شكلها ايه ..

وقالت أمى عزيزة :

— حالتك .. المهم ان ما حدش غصب عليكى ..

وقالت أمى خديجة :

— وافرضى ان الراجل غواها .. ولا ضحك عليها .. دى بنت صغيرة ، وما تعرفش .. المهم انتى يا ست عزيزه .. سبتيها للراجل ليه ..

وقالت أمى عزيزة وهى تنظر الىّ والى أمى الثانية كأنها تسخر منا :

— والنبى بلاش كلام فاضى .. المهم ان الست نوجا دلوقتى عايزه تتجوز واحد تانى ..

وقالت أمى بسرعة :

— وماله .. ما دام بتحبه .. مش قصدك الدكتور هاشم ،
قالت أمى عزيزة :

— هى حكت لك كمان عن الدكتور هاشم ..

وقالت أمى كأنها تتباهى بأنها تعرف كل شىء :

— طبعا .. حكت لى .. حكت لى من زمان ..

وقالت امى عزيزة ساخرة ووجهها المكرمش ينضح بالغيظ والقسوة :

— بس المهم ان البيه الدكتور مش عايز يتجوز .. بقاله سنه داخل خارج .. وياخد البت فى العربيه ويغيب بالساعتين والتلاته .. ولغاية دلوقتى ما جبش سيرة الجواز على لسانه .

وصرخت وأنا أنظر اليها فى غيظ :

— أنا ما قلتش انى عايزه أتجوز هاشم ، ولا انه عايز يتجوزنى .. انتى اللى بتقعدى تدبرى فى خطط .. ومن فضلك ما تغيريش الموضوع .. احنا دلوقتى بنتكلم عن عبد الفتاح .. خلصونى الأول من عبد الفتاح ، وبعدين ابقوا اتكلموا عن هاشم ..

وقالت امى عزيزة :

— سمعتى يا خديجه .. بأه ده اسمه كلام .. نسيب راجل قبل ما نعرف حانعمل ايه مع التانى .. مش الواحد قبل ما يخطى يشوف حايحط رجله فين ؟

واهتزت رموش أمى خديجة كأنها بدأت تحتار ، ثم قالت فى عناد :

— ايه اللى يحط رجله وما يحطش رجله .. هى بيع واشترى .. نوجا لها حق .. المهم وقبل كل شىء ، اننا نشوف حل لسى عبد الفتاح بتاعك ..

وقالت أمى عزيزة :

— حاضر .. نشوف حل .. بس لو قعدنا نتكلم كده للصبح ، مش حانلاقى لا حل ولا ربط ..

ونظرت الىّ من فوق رأس أمى الثانية .. واستطردت قائلة :

— ياللا يا نوجا .. نروح دلوقتى .. وبكره الصبح يحلها حلال ..

وقلت وأنا أنظر اليها فى تحد :

— أنا مش حاروح معاكى .. انا مش حادخل بيتك تانى .. خلاص ، ما بقتش بنتك .. أنا رجعت لأمى ..

ونظرت الىّ وسحابة صفراء تتخلل تجاعيد وجهها المكرمش ، ثم عادت تجلس على حافة السرير وقالت وهى تتنهد فى تعب حقيقى :

— بأه اسمعى يا نوجا .. أنا ما بقاش فىّ .. قومى خلينا نروح بأمن الله .. واللى انتى عايزاه يتعمل ..

قلت فى اصرار تتجمع فيه كل ارادتى :

— لا يعنى لا .. انا حاقعد هنا .

وأحست برنة الاصرار فى صوتى ، ونظرت الىّ وعيناها تشهقان .. ثم عادت ونظرت الى أمى خديجة ، وقالت كأنها تتوسل اليها :

— عقليها يا خديجه يا اختى ..

وقالت أمى وهى تنظر الى أختها فى عطف :

— ده بيتها يا عزيزه .. عايزانى أعقلها أقول لها ايه .. أقول لها امشى اطلعى من بيتك ..

وانطلقت نظرات مجنونة من عينى أمى عزيزة ، وصرخت :

— انتم حا تجننونى .. بتعذبونى ليه .. بتعملوا فىّ كده ليه .. أنا ما سبتش بنتى لحد ..

واستمر صراخها ..

وأنا مصرة على موقفى .. لن أذهب معها .. وكلما ارتفع صراخها ، ازددت تشبثا ، وامتلأت بقوة أكبر على الاصرار .

وأمى خديجة تعطف على أختها حينا .. وتكاد تهم بأن تطلب منى أن أذهب معها .. ثم تعود وتعطف على وتؤيدنى فى موقفى ..

وأخيرا انتفضت أمى واقفة .. ووجهها ممتقع ، كأنى صفيت كل دمائها .. وانطلقت خارجة ، وهى تصرخ :

— طيب خليكى .. أما أشوف آخرتها معاكى ايه ...

ثم عادت والتفتت الى" واستطردت فى صراخها :

— أما أشوف أخرتها معاكى ايه انتى وسى هاشم بتاعك ..

وأزاحت اخوتى الذين كانوا متجمعين خلف الباب ، واندفعت خارجة من البيت وهى ترتعش فى مشيتها ..

وفى هذه اللحظة تأكدت انى اقوى منها ..

أقوى منها بحاجتها الى" ..

بحبها لى ..

وقد تجمع اخواتى حولى بعد أن خرجت أمى عزيزة ..

وحاولن أن يرفهن عنى بضحكاتهن .. وجئن بالطبلة وأخذن يرقصن لى .. وحاولت أن أندمج فى مرحهن ورقصهن .. ولكن أفكارى كانت تغلبنى .. فأسرح .. وأمى أيضا كانت تسرح معى .. وتعشينا .. أكلنا سمك مقلى أرسلت أمى فى شرائه من سوق الوايلية ، احتفاء بى .. واجتمعنا كلنا حول المائدة الموضوعة فى الصالة .. نتخاطف السمك بأيدينا ، وندب أصابعنا فى طبق الطحينة .. وأكلت كثيرا .. وضحكت كثيرا .. ولكنى كنت أعود فى لحظات وأسرح .. وتنقطع ضحكتى .. ويتوقف فكى عن المضغ .. وتصرخ أختى الكبيرة :

— ممنوع السرحان .. الليلة سمك .. لبن .. تمر هندى ..

وأعود أضحك ..

ثم نام اخوتى .. وجلست أنا وأمى فوق سريرها .. وأخى الصغير نائم بجانبنا .. ثم جاءت أختى الكبيرة وجلست معنا .. نتحدث فى حكايتى ، ونعيد ما نقوله .. وأسرح .. ثم بدأت أشعر بالضيق .. انها الليلة الأولى فى حياتى التى أقضيها فى بيت أمى .. الليلة الأولى التى أقضيها خارج بيتى .. وشعرت ليلتها أن بيت أمى ليس بيتى .. بيتى هناك فى شارع الهرم .. وبدأت أفتقد أشياء كثيرة .. سريرى .. مخدتى .. مرآتى .. قميص نومى .. زجاجات العطر المصفوفة بجانب المرآة .. فرشاة أسنانى .. الحمام .. و .. و .. انى أحس أنى فى العراء .. لا لأن بيت أمى فقير .. ولكنى لم أتعود على الفقر .. وكان يجب أن أقاوم هذا الاحساس .. احساسى بالغربة .. احساسى بأنى لست مرتاحة .. وساعدتنى طيبة قلب أمى ، وخفة دمها على المقاومة .

ونمنا ..

أمى ، وأخى الصغير ، وأنا ، فى سرير واحد ..

وأرقت ..

كنت أحس طول الليل كأنى ممددة على خيط أدق من الشعرة ، أخاف أن أغمض عينى فأتحرك ، وأقع من فوقه ..

ولكنى نمت فى الساعات الأولى من الصباح .. نمت من التعب ..

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ، فوجئنا بأمى تدخل ومعها عبد الفتاح .. كنا جميعا لا زلنا بقمصان النوم .. وجرت اخواتى البنات وهن يتضاحكن ودخلن حجرتهن .. ووقفت

امى تستقبل عبد الفتاح وهى بجلباب النوم ، وفوق كتفيها شال وعيناها مرتبكتان مبهورتان كأنها لا تصدق أن رجلا عظيما مثل عبد الفتاح يمكن أن يتنازل ويدخل بيتها ..

وقالت وهى تنظر الى أمى عزيزة فى لوم :

— مش كنتى تدينا خبر يا عزيزه يا اختى ..

ووقفت بجانبها وأنا بقميص النوم .. انظر فى وجه عبد الفتاح وقد ازداد زرقة . وفى وجه امى ، وقد ازداد كرمشة وصفرة .. ولم ألق اليهما بتحية الصباح .. بقيت انظر اليهما فى صمت .. وعبد الفتاح ينظر الىّ نظرة مرتعشة كأنه يعاتبنى ، وأمى تنظر الىّ نظرات فيها غيظ مجنون .. ثم خطوت أمامها صامتة ، ودخلت حجرة اخى الكبير ، وأغلقت بابها ورائى بالمفتاح ..

وأمى عزيزة تصيح خلفى :

— عجايب .. شوفوا البنت قليلة الأدب .. مش هاين عليها تقول صباح الخير ..

ومضت أكثر من ساعة وانا جالسة وحدى فى غرفة اخى اتخيل ما يمكن ان يقوله عبد الفتاح لأمى خديجة .. انه قادر بخبثه وهدوء أعصابه أن يقنع السيدات العجائز .. قادر على أن يثير أطماعهن الساذجة .. ويحركهن فى طريق اغراضه .. فهل يستطيع أيضا أن يثير أطماع أمى خديجة ، كما أثار أطماع أمى عزيزة .. هل لأمى خديجة هى اخرى أطماع ولو كانت على حساب سعادتى .. هل تختلف الأم الحقيقية عن الأم بالتبنى ..

وبعد أكثر من ساعة طرقت أمى خديجة على باب غرفتى ، وسمعت صوتها الحنون :

— اخرجى يا نوجا .. عايزينك ..

قلت :

— مش حاخرج الا لما الضيوف ينزلوا ..

قالت :

— ما نبقيش كده يا نوجا .. بلاش عند .. افتحى ..

قلت فى اصرار :

— مش حافتح ..

قالت :

— علشان خاطرى .. افتحى بس .. نتفاهم يا حبيبتى ..

وصرخت :

— مش حاافتح .. مش حاافتح .. اتفضلوا اكسروا الباب ..

وسمعت صوت عبد الفتاح هادئا خبيثا :

— مش ضرورى يا خديجه هانم .. أبقى أفوت عليكم مره تانيه ..

وقالت أمى خديجة :

— والنبى أنا مكسوفه قوى يا سى عبد الفتاح بيه .. انما اعذرها يا اخويا اصلها واخده على خاطرها شويه ..

وصرخت من داخل الغرفة :

— وماما عزيزه كمان تنزل قبل ما افتح الباب ..

وصرخت أمى عزيزة بعلو حسها :

— انتى بتطردينا يا بت .. والا فاكره انى عايزه اشوف خلقتك .. الحق على أنا .. ده انا لو كنت ربيت تعبان كان سر فيه ..

ولم أرد ..

ولكنى احس بقلبى ينقبض .. انى لا أستطيع أن اقسو

عليها الى هذا الحد .. ولكنى يجب أن أقاوم .. يجب أن أقاوم الى حد القسوة ..

وسمعت صوت أقدام عبد الفتاح وأمى عزيزة ، وهما يخرجان من البيت .

وفتحت الباب ..

واخذتنى أمى الى حجرتها ، وقلت لها وعيناى ملؤهما الشك :

— خير ..

وقالت أمى وهى تنظر الىّ كأنها تحاول أن تمسح عنادى :

— والنبى الراجل بيتكلم كلام معقول ..

ونظرت اليها والغيظ يكاد يخنقنى .. الغيظ من عبد الفتاح ، وقلت فى حدة :

— طبعا قالك انه كان مضطر يتجوزنى فى السر علشان شغله ، ولأنه كانت كل أملاكه باسم مراته .. وانه مستعد يضمن مستقبلى .. ومستعد يعلن جوازنا بعد شهرين تلاته .. وعرض عليكى انه يديكى شقه فى العماره بتاعته .. مش كده ..

ونظرت الىّ أمى فى دهشة وقالت :

— ايش عرفك انه قال ده كله ؟

قلت وأنا لا زلت محتدة :

— أنا عارفاه .. واحب أقول لك انه مش حايعلن جوازنا .. ده بس بيقول كده علشان أرجع له .. مش مستعد يعمل اى حاجه الا انه يدفع فلوس .. فلوس بس .. وأقول لك أكتر من كده .. أنا متأكده انه مش متجوزنى خالص حتى ولا فى السر .. الورقة اللى مضيتها مش ممكن تكون ورقة جواز .. انتى قريتيها .. ماما عزيزه جابتها لك !؟

وقالت أمى خديجة ووجهها يمتقع :

— لا .. ما شفتهاش ..

قلت :

— ولا انا شفتها .. انا مضيت من غير ما اقراها .. ما اعرفش فيها ايه .. يمكن تكون ورقة فاضية ضحكوا بيها علىّ .. وكل ما أقول لماما عزيزه توريهالى .. ما ترضاش ..

وقالت أمى خديجة ووجهها يمتقع :

— طيب بس يا بنتى .. اقعدى ..

وأجلستنى بجانبها على السرير ، وقالت :

— تفتكرى ايه العمل دلوقتى ..

قلت ودموعى تنطلق من عينى :

— مش ممكن أرجع له يا ماما .. مش ممكن .. حتى لو حط تحت رجليه مال قارون .. ده حرام .. حرام ..

قالت :

— خلاص يا بنتى .. ما فيش حاجه غصب عنك .. بس حاتعملى ايه بعد كده ؟

قلت :

— حاقعد عندك هنا على طول ..

قالت :

— بس صعبان علىّ تتمرمطى معانا بعد ما أخدتى على العز .. ده كل اخواتك بيحسدوك على اللى انتى فيه ..

قلت :

— انا باتمرمط هناك اكتر .. وانا باحسد اخواتى اكتر ما بيحسدونى ..

قالت :

— وهاشم ؟ ..

قلت كأنى فوجئت :

ـ ماله هاشم ..

قالت وهى تبتسم لى :

ـ ما أنا اللى فهمته ان هو اللى غير مخك ..

قلت وأنا التقط دموعى بأصابعى :

ـ هو اللى فتـــح عنيه .. هو اللى حسسنى بانى كنت عايشه زى الحيوانه .. حيوان جميل بيلبسوا فيه ويزوقوه .. انما برضه حيوان .. ما اقدرش دلوقت ارجع حيوانه تانى ..

قالت :

ـ يعنى موقفه ايه ؟

قلت :

ـ ما اعرفش ..

قالت :

ـ ما تعرفيش ازاى .. لازم تعرفى ..

قلت :

ـ كل اللى اعرفه انى باحبه ..

قالت :

ـ وهو ؟

قلت :

ـ بيحبنى .. انا متأكده انه بيحبنى ..

قالت :

ـ وعارف حكايتك ؟

قلت :

ـ كلها ..

قالت :

ـ ومستعد يتجوزك ..

قلت :

ـ ما اعرفش .. أصله ما عرفش حكايتى الا اليومين دول ..

وسكتت أمى .. ثم قالت بعد برهة :

ـ والنبى أنا خايفه يا نوجا .. الحكايه ملعبكه قوى ..

قلت :

ـ ما تخافيش .. المهم انى ابقى بنت كويسه .. وحابقى ..

قالت :

ـ ربنا يستر ..

ثم أخذتنى بين ذراعيها وضمتنى الى صدرها فى حنان كبير ، وقالت بعد برهة ، وهى تضحك :

ـ انا ما كنتش يا بت فاكره انى باحبك للدرجه دى .. ده اتارى البعيد عن العين ، قريب من القلب .. قومى ياللا اغسلى وشك والبسى فستانك ، ووريني حلاوة بنتى ..

قلت :

ـ بس بعد ما اساوى اودتك ..

قالت ضاحكة :

ـ ابدا .. لا يمكن .. احنا حانفضل محترمينك تلات أيام لغاية ما تاخدى على الجو ، ونبتدى نشغلك ..

وفى المساء ..

عادت أمى عزيزة ..

عادت كما يعود العاشق المهجور .. عيناها مجنونتان .. ووجهها أكثر من كرمشة وأكثر صفرة .. وحاولت أن تعيدنى الى البيت .. ولكنى رفضت .. واصرررت على الرفض .. ووضعت شروطى .. أن تمزق الورقة التى تحمل توقيعى .. وأن يخرج

عبد الفتاح من حياتى .. وأن تتركنى حرة ، وتعاملنى على انى فتاة فى الحادية والعشرين لا على انى فتاةقاصر .. وأن ادخل الجامعة . والا تتدخل بينى وبين هاشم ..

ورفضت أمى جميع الشروط .. كبرياؤها ، وعنادها ، رفضا الخضوع .. وكانت تعتمد فى رفضها على أنى لن اطيق حياة الفقر فى الوايليه .. وانى قد احتمل يوما أو يومين ولكنى لن أحتمل أكثر من ذلك بعد أن عودتنى على الحياة المرفهة ..

وقد بدأت أعانى فعلا من حياة الفقر .. أشياء كثيرة تنقصنى .. والزحام فى البيت يكاد يخنقنى .. وكل شىء فوضى .. الثياب ملقاة فى الأرض .. والمقشة فوق السرير .. وحذائى كل فرده منه فى غرفة .. وأخى الصغير يأخذ قلم الكحل ويرسم به على الحائط .. ان الفقر لا يحتمل النظام .. النظام يكلف غاليا .. وأنا قد تعودت على النظام .. ومضت ايام لا أستطيع ان أرتدى ثيابى .. ولا أن اتجمل .. ولا أعرف كيف أستحم فى ماء صفيحة الغلية بعد أن كنت أستحم فى البانيو .. ولكنى أقاوم .. كل دقيقة فى يومى أحس أنى أقاوم شيئا .. وأحس انى فى حاجة لكل ارادتى حتى أقاوم ..

وليس فى البيت تليفون ..

لا أستطيع أن أتصل بهاشم ، الا اذا حادثته من تليفون الصيدلية التى تقع فى أول شارع الوايلية ..

وحادثته مرة بعد أن مضت خمسة أيام لم اسمع فيها صوته .. وكان حديثا عاجلا لم استطع ان اقول له خلاله شيئا .

وبعد خمسة أيام طلبت من ماما خديجة أن تسمح لى بالخروج للقائه .. لم اكن أريد أن اخدعها او أكذب عليها .. ولم اكن

حتى هذااليوم قد خرجت من البيت .. أكثر من عشرة أيام لم اخرج فيها من الغرف الثلاث ..

وقالت امى خديجة فى حنان وابتسامة كبيرة على شفتيها :

— وحشتك ..

قلت :

— موت ..

قالت :

— خدى معاكى حد من اخواتك ..

وفرحت ..

وفرحت أكثر لانى سأصحب معى واحدة من اخواتى .. خيل الىّ أنى سأتباهى بأختى أمام هاشم .. ان احساسى بأنى اعيش فى عائلة كبيرة وان لى اخوة واخوات ، احساس جديد على .. يفرحنى ..

واتصلت بهاشم فى التليفون ، وطلبت منه أن يلقانى فى سيارته عند أول شارع الملك فى الساعة الثالثة بعد الظهر ..

ووقفت اخواتى البنات يساعدننى فى زينتى قبل أن أخرج .. كلهن يعلمن أنى ذاهبة للقاء هاشم .. وكلهن يعلمن ان هاشم حبيبى ..

وفوجىء هاشم عندما رأى معى أختى الصغيرة سميرة .. لمحت المفاجأة فى عينيه وهو ينحنى ليفتح لى باب السيارة .. ثم انقلبت نظرة المفاجأة الىنظرة شك .. لعله اعتقد أنى جئت معى بأختى بناء على خطة موضوعة .. انه يشك فىّ ، وقد سبق أن صرح لىّ بأنه يشك فىّ منذ صرحت له بقصتى ..

وخط الألم يشق جبينه .. وبصمت الحيرة تحت عينيه .. وابتسامة باهتة فوق شفتيه ..

وقاد سيارته ، وانا بجانبه ، واختى سميرة فى المقعد الخلفى .. ونظر الىّ كأنه لا يدرى ماذا يقول أمام اختى ..

والتفت الى سميرة ، وقلت لها حتى يعلم انها تعرف كل شىء ..

— اهو ده الدكتور هاشم يا ستى .. عجبك ..

وقالت سميرة :

— ده هايل .. أحلى من وصفك..

واتسعت ابتسامة هاشم قليلا ..

وانطلقت سميرة تقول :

— دى ابله نجوى بتحبك قوى يا دكتور .. طول النهار والليل بتكلمنا عنك ..

وقال هاشم وهو ينظر الىّ نظرة سريعة :

— وانا كمان باحبها قوى .. بس مش لاقى حداكلمه عنها ..

ونظرت اليه ودمائى تتصاعد الى وجنتى ..

ومرت بيننا فترة صمت طويلة .. وانا مرتبكة ، لا أدرى لماذا .. ولكنى أحس بشىء كالضباب يتجمع بينى وبين هاشم .. وسميرة أختى مرتبكة .. تنطق بكلمات لا معنى لها كلما ضايقها ارتباكها .. وهاشم مرتبك يخفى ارتباكه تحت صمته ..

ووصلنا الى مصر الجديدة ، وأوقف هاشم السيارة فى طريق المطار ، واستدار نحوى ونظر الىّ من خلال صمته ، ينتظر منى أن اتكلم ..

وتكلمت ..

قلت له ما جرى لى منذ رأيته آخر مرة .. انطلقت أروى له كل التفاصيل دون أن اخشى وجود سميرة معنا .. فسميرة تعرف كل شىء .. لا يمكن اخفاء شىء فى بيت أمى خديجة .. ان الغرف الثلاث اضيق من أن تضم سرا ..

وهاشم يستمع صامتا . ويقطع صمته احيانا بكلمة او كلمتين تعليقا على كلامى .. ثم قال بعد أن قلت له كل شىء :

— أنا مش عارف أعمل ايه يا نجوى ؟

قلت وأنا ابتسم له لعلى ابدد ارتباكه :

— ما تعملش حاجه .. أنا حا اعمل كل حاجه ..

قال :

— بس أنا حاسس اننا بنبعد عن بعض قوى .. ما بتقدريش تشوفينى .. وما بتقدريش تكلمينى فى التليفون .. وانا ما بقدرش اتصل بيكى ..

قلت :

— معلهش . . استحمل اليومين دول يا هاشم ..

قال :

— أنا باقعد اتخيل حاجات كتير .. خيالى بيودينى وبيجيبنى .. وبتوحشينى ..

قلت :

— وانت بتوحشنى أكتر .. واعمل معروف ما تتخيلش حاجه .. انا ماباخبيش عنك حاجه .. كل حاجه انت اعرفها ..

وابتسم ابتسامة مسكينة ، وقال :

— حاضر .. مش حاتخيل ..

وادار محرك السيارة ، وعاد بنا ..

وقالت سميرة فجأة ونحن نقترب من مدخل شارع الوايلية :

— انت مش حاتتجوز أبله نجوى يا دكتور ..

وقال هاشم وقد فوجىء :

— يا ريت يا سميره ..

والتفت اليها وقلت وأنا افتعل الغضب :

— اسكتى يا بت ..

وعادت سميرة تقول فى تحد :

— انتم مش بتحبوا بعض .. خلاص .. اتجوزوا ؟

وضحك هاشم ، ضحكة كبيرة عصبية ..

وعدت أقول لها :

— اسكتى بااقول لك .. أحسن والله أوريكى شغلك فى البيت ..

وضحكت سميرة ، ضحكة القلب الخالى السعيد بصباه ..

ونزلنا فى شارع رمسيس ، والتفت الىّ هاشم قبل أن أنزل ، وقال وهو ينظر الىّ بعينين حانيتين :

— مش عايزه حاجه ..

وقلت وأنا انظر فى حنان .. حنان كبير .. كأنى أمه :

— لأ .. مرسى ..

قال :

— وحاشوفك ازاى ؟

قلت :

— حابقى أتصل بيك ..

واحتفظ بيدى فى يده برهة ، ثم قال بصوت خافت :

— مع السلامة ..

وانطلق بسيارته .. بعيدا ..

كان لقاء فاترا .. مرتبكا .. أحسست خلاله بأن هاشم ابتعد عنى أكثر .. ورغم ذلك فقد شعرت بهدوء نفسى .. أشعر بالسكينة .. وأشعر بقوتى بل أشعر أنى أصبحت أقوى من هاشم .. أقوى بوضوح الطريق أمامى .. أقوى بارادتى .. وعدت الى البيت .. وأناأشد تصميما على موقفى ..

والتف حولى اخواتى البنات يسألننى فى مرح عما جرى بينى وبين هاشم .. وسميرة تحكى لهن .. وتصرخ .. ده هايل .. مدهش .. نفسى لما اكبراحب واحد زيه .. وضحكاتهن ونكاتهن تجعلنى أرتفع فوق مشاكلى .. واضحك معهن .. وأحس نفسى كأنى أميرة .. كأنى عروس .. ان الحياة أجمل وأسهل عندما نعيش مع اخواتنا ..

وأمى عزيزة تأتى لزيارتنا كل صباح .. وأحيانا تأتى فى الصباح والمساء .. وتتوسل الىّ أن أعود الى بيتها .. وتحاول حينا أن تذكرنى بأبى المشلول وتشدنى من قلبى الملهوف عليه ، لأعود .. وحينا تهددنى .. ولكنى أصر .. ولا أتزحزح .. يجب أن تنفذ شروطى أولا .. والمح الهزال يدب فى عودها .. ووجهها يزداد كرمشة .. أحس كأنى ثقبت ثقبا فى قلبها تنزف منه .. وتجف .. صبحت كعود الخشب .. انها تحبنى .. لن تستطيع أن تعيش بدونى .. ولكنها تقاوم .. لا تريد أن تتنازل عن عنادها .. لا تريد أن تبدو ضعيفة أمامى ..

وعبد الفتاح أيضا جاء الى البيت أربع مرات .. ولا اكاد اراه حتى ادخل غرفة اخى واغلق على نفسى بالمفتاح .. وأمى خديجة تستمع الى كلامه فتقتنع .. ثم تستمع الى كلامى فتقتنع ايضا .. ولا تدفعنى الى شىء .. انها واقعة فى حيرة .. حيرة كبيرة ..

ومضى أكثر من خمسة عشر يوما ، لم أستطع خلالها أن أحادث هاشم فى التليفون الا مرتين .. هذهالكلمات السريعة المرتبكة ، التى لا تشبع ..

ثم كان يوم ..

واتفقت مع أختى الكبيرة على أن أمر عليها فى مقر الشركة التى

تعمل بها فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر .. لنذهب سويا ونطوف بالدكاكين .

ونلزت من البيت فى الواحدة والنصف .. واتصلت بهاشم فى عيادته فلم اجده .. ربما عاد الى بيته .. واتصلت به فى البيت ؛ فلم اجده .. ربما ذهب لعيادة أحد مرضاه .. ووجدت نفسى اتجه الى الزمالك .. الى شقته .. لم اتعمد أن اذهب الى هناك لأبحث عنه ، ولكنى ذهبت فقط لأمر من امام الشقة التى شهدت مأساة حبى ..

وفوجئت عندما رايت سيارته امام باب العمارة ..

— ولا ادرى كيف أفسر شعورى ساعتها ..

لقد ابتسمت أولا ابتسامة هادئة .. كأنى أشاهد ابنى وهو يلعب .. ثم احسست بنفسى ابتسم ابتسامة ساخرة .. كأنى أسخر من الرجل الذى أحبه .. ثم بدأ قلبى ينبض شيئا فشيئا . ثم بدأت أشعر بصاروخ من النار يندلع فى صدرى .. وهممت أن اصعد الى الشقة .. ولكننى لم أصعد .. ربما كان جالسا فى الشقة وحده ، يشرب فنجال القهوة كعادته .. ورغم ذلك لم اجرؤ على أن أصعد الى الشقة .. ولكننى صممت أن أنتظر الى ان أتأكد من أنه فى الشقة وحده .. وأخذت امشى حول العمارة بحيث لا يغيب بابها عنى .. واتلكأ حول فوانيس النور .. واتظاهر بأنى ابحث عن عنوان .. وطول الوقت وأنا احاول أن أقنع نفسى بأنى مجنونة .. وانى يجب أن أعود .. ولكننى لا استطيع .. ونظرات البوابين تلاحقنى .. ونظرات المارة تلقى على وجهى كأنها قطع الطوب .. ثم وجدت دموعى تنهمر على خدى .. صامتة .. غزيزة ..

وحاولت ان اوقف دموعى ..

فلم أستطع ..

ثم انتظرت ..

ساعة .. ساعتين .. ثلاثا .. لا ادرى .. ولكنى انتظرت الى أن رأيت من خلال دموعى فتاة تخرج من العمارة ، لم أر ملامح وجهها .. بل لم أرلون شعرها ، ولا لون ثوبها .. ولكنى أحسست أن هذه الفتاة بالذات هى التى كانت مع هاشم .. وتتبعتها بعينى الى أن رأيتها تركب تاكسى من عند موقف التاكسيات فى اول الطريق .

وبعد خمس دقائق خرج هاشم من العمارة .. وركب سيارته ، ومر من أمامى دون أن يرانى .. لم تكن تبدو عليه السعادة .. ولكن كان يبدو عليه الانهاك .. وجهه ممصوص .. وشعره اكثر بياضا ..

وسرت أتعثر فى دموعى ، وركبت تاكسى الى بيتنا فى الوايلية .. كان موعدى معاختى قد ضاع ..

واستقبلتنى أختى فى البيت غاضبة ثائرة ، لانى اهملت موعدها .. ولم أرد عليها ..

واستقبلتنى أمى جزعة لانى تأخرت .. ولم ارد عليها ايضا .. وجلست بجانبى تنظر فى لوعة الى آثار دموعى فوق خدى ، ثم قالت :

—انتى شفتى الدكتور هاشم ..

وقلت كأنى اخاطب نفسى :

— أيوه شفته مع واحده تانيه ..

ومصمصت أمى شفتيها ، وأسندت رأسها على يدها ، وصمتت برهة ، ثم قالت فجأة كأنها قررت أن تزيح شيئا عن صدرها :

— وأنا كمان شفته ..

قلت :

— امتى .. النهارده ! ؟

قالت :

— لا .. أول امبارح ..

قلت :

— فين ؟ ..

قالت :

— فى عيادته .. رحت له بنفسى ..

قلت صارخة :

— رحتى له ليه ؟

قالت :

— علشان أطمئن يا بنتى .. كلمته بصراحة .. قلت له ان بنتى متعلقه بك قوى .. ومن حقى انى اعرف اذا كان ناوى على جواز ولا مش ناوى ..

وشعرت بدمائى تغلى ، وقلت وانا اكتم بخار الدم المغلى :

— وقال لك ايه ؟

قالت وهى تخفى عينيها عنى :

— قال انه بيحبك .. انما ما يقدرش يفكر فى الجواز دلوقتى ..

وصرخت :

— انتى مجنونه .. انتى زى ماما عزيزه .. كلكم مجانين .. ما حدش فيكم فاهمنى .. ما حدش فيكم بيرحمنى .. انتم مالكم ومالى .. ومالكم وماله .. مين قال لكم انى عايزه اتجوز ..

وقالت امى :

— أنا أمك يا نوجا . ولازم اطمئن .. مااقدرش أشوفك بتعملى ده كله ، من غير ما اعرف أخرة ده كله ايه ..

وتملكتنى نوبة عنيفة من العناد ، وقلت لها فى صوت كالصراخ :

— اسمعى .. اذا كان هاشم مش حايتجوزنى ، فمش معنى كده انى أرجع لعبد الفتاح .. ولا ارجع شارع الهرم .. واذا كنتى مش مستحملانى فى بيتك انا مستعده أخرج منه دلوقتى ، وانشا الله أعيش فى الشارع ..

وصرخت امى :

— ده بيتك يا نوجا .. ده مش بيتى يا حبيبتى .. ده بيت ولادى .. لولا انتم ما كانش بقى لى بيت ..

وحاولت أن تخفف عنى .. وقالت لى انها اخفت خبر مقابلتها لهاشم عنى حتى لا تصدمنى .. والتف حولى اخواتى .. كل منهن تحاول أن تضع شيئا حلوا فى قلبى .. ولكن كنت قد انقلبت الى كتلة جامدة من العناد .. لم اعد أفكر .. لم اعد احس بشىء الا بعنادى .. عنادى فى أن أبدل حياتى كلها ..

ومرت عشرة أيام اخرى ..

وجاءت أمى عزيزة ، ووقفت امامى كعود الخشب الذى نخره السوس ، وقالت وكلها ترتعش ونظراتها منهارة :

— اتفضلى قومى ارجعى بيتك .. واللى عايزاه حاينعمل .. بس علشان خاطر أبوكى .. ومش حاتشوفى عبد الفتاح بعد كده .. هو كمان مش عايز يشوفك .. وادى الورقه المهببه .

واخرجت من صدرها ورقة، نزعت طرفها الأخير بسرعة ، واعطته لى قائلة :

— مش دى امضتك .. اتفضلى كليها .. ولا بليها واشربى مينتها ..

ثم بسرعة .. اخذت تمزق باقى الورقة فى عصـــبية قطعا صغيرة .

مزقتها قبل ان يقراها احد ..

ربما كانت ورقة بيضاء ..

من يدرى ..

وانا أنظر اليها فى دهشة .. وشك .. اخاف ان أصدقها ..

وهى واقفة منتصبة كعود الخشب الذى نخره السوس ، وعيناها تطلان من خلال وجهها المكرمش وفيهما نظرات ضعيفة مستسلمة ..

وقمت والقيت نفسى بين ذراعيها ..

وبكيت ...

وأحسست بها تبكى معى ..

انى أحس عندما ارى ماما عزيزة تبكى ، كانى ارى جبلا من الصخر يذوب ! ..

عدت الى البيت ..

انى غريبة فى كل بيت الا فى هذا البيت .. انى غريبة حتى فى بيت امى الحقيقية وبين اخواتى .. اما هنا .. فانى فى بيتى .. سريرى .. دولابى .. مرآتى .. شبشبى .. لقد احسست عندما وضعت قدمى داخل شبشبى ، انى وضعتهما فى مكانهما ..

واستقبلنى ابى كأن الحياة ردت اليه .. التمعت عيناه المطفأتان .. وانتعشت وجنتاه الذابلتان .. ومد ذراعه السليمة الى ، وخيل الى ان ذراعه المشلولة كاد تتحرك .. وانطلقت همهمات فرحة من تحت لسانه المتحجر ، كأنها زغاريد مخنوقة ..

والقيت نفسى على صدره ، وانا اردد :

ــ انا آسفة يا بابا .. آسفه .. سامحنى ..

وضمنى بذراعه السليمة ، واخذ يمسح على شعرى بيده . وشفتاه الذابلتان راقدتان على خدى ..

وبقيت بجانبه طول النهار .. اروى له حكايات مرحة عن الحياة فى بيت امى الحقيقية ، وهو ينظر الى بعينين مبتسمتين فاهمتين ، كأنه فاهم كل شىء ، ولكنه لا يستطيع أن ينطق ..

وأمى تروح وتجىء فى البيت تتظاهر بالنشاط .. نشاط مفتعل .. ان خطواتها ليست قوية كما تعودتها .. ونظراتها ليست حازمة آمرة كما كانت .. وصوتها مهزوز كأنها لم تعد تدرى ما تقول .. والهزال والتعب يبدوان عليها ..

.. ولم تستطع أن تستمر طويلا فى التظاهر بالنشاط فجاءت وجلست على الأريكة فى حجرة أبى ، وتنهدت تنهيدة حارة كأنها قررت أن تستريح بعد كل هذا العمر الطويل .. ونظرت الى نظرة طويلة فيها ظل فرحتها بعودتى اليها ، وفيها بعض اللوم كأنها تلومنى على قسوتى عليها فى حين انى أعلم أن لا حياة لها بدونى ..

ولم تتكلم ..

ظلت صامتة ، كأنه لم يحدث شىء بيننا يستحق الكلام .. كأنها تريد أن تتجاهل كل ما حدث بيننا .. كل قصتى ..

وفى المساء ، بعد أن نام ابى ، جاءت الى حجرتى ، ولم تجلس فى فراشى كعادتها ، بل جلست على المقعد الموضـــوع بجانب المرآة ، ونظرت الى وبين شفتيها ابتسامة مرتعشة ، وقالت :

ــ اسمعى يا نوجا .. انا تعبت خلاص .. ما بقاش فى .. كبرت يا بنتى واتهديت .. ومن هنا ورايح انتى ست البيت .. انتى اللى تمسكى كل حاجه .. و ..

وقاطعتها فى لهفة حقيقية :

— ما تقوليش كده يا ماما .. انتى الخير والبركة .. و ..

وقاطعتنى هى الأخرى :

— سيبينى اكمل يا حبيبتى .. شوفى .. أنا محوشه تلات آلاف جنيه .. وآدى انتى عارفه ايراد الأرض وايراد البيت .. ومعاش أبوكى .. والصيغه بتاعتك وبتاعتى .. واتصرفى انتى بأه .. انتى حاتمسكى المصروف .. ما ليش دعوه بحاجه .. عيشينا زى ما انتى عايزه .. انتى كبرتى ومابقتيش صغيره ..

قلت :

— انتى لسه زعلانه منى يا ماما ؟

قالت وهى تخفى عينيها عنى :

— أبدايا نوجا .. بس أنا كنت باتصرف على انك لسه صغيره .. البنت يا نوجا عمرها ما بتكبر فى عين أمها .. ما كنتش قادره أحس ان بأه عندك واحد وعشرين سنه .. أنا اللى كنت غلطانه ..

قلت وأنا أقترب منها :

— لا يا ماما .. ما حدش فينا كان غلطان .. اللى حصل حصل .. وأنا آسفه اللى زعلتك .. ومن هنا ورايح نبتدى من أول وجديد .. وكل حاجه حاتبقى حلوه ..

قالت :

— باذن الله يا بنتى ..

ثم تنهدت واستطردت قائلة وهى تقوم من على مقعدها :

— أما أقوم انا بأه ..

قلت فى جزع :

— مش حاتنامى جنبى ؟

قالت كأنها عاشق يتدلل :

— لا .. حا انام جنب ابوكى ..

قلت وأنا أقترب منها وأحيطها بذراعى :

— علشان خاطرى يا ماما .. اخص عليكى .. ما وحشتكيش ! ...

وضمتنى الى صدرهافى حنان ، ودموعها تطل من عينيها ، وقالت فى صوت مبهور :

— وحشتينى يا حبيبتى .. وحشتينى قوى ..

وخيل الى لحظتها أن وجهها المكرمش .. قد انفرد .. وأشع نور الحنان .. نور الأمومة ..

ونمت ليلتها بين ذراعيها ..

نمت ملء جفونى ..

كأنى لم أنم طوال الخمسة والعشرين يوما التى مضت .

وخطرت على خيالى صورة هاشم قبل أن أنام ، ولكنى لم أكد اهم بأن أفكر فيه حتى غلبنى النوم .. كأنى غبت تحت تأثير البنج .. كنت متعبة .. أيام كثيرة من التعب مرت بى ..

واستيقظت فى الصباح ، واستيقظت معى صورة هاشم الراقدة فى خيالى ..

ودخلت الحمام واستلقيت فى البانيو .. وحاولت أن أرخى أعصابى فى الماء الفاتر ، وأن أتمتع بحمامى ، بعد كل هذه الأيام التى كنت فيها أستحم بماء صفيحة الغلية .. ولكنى لم أستطع .. لم احس بحلاوة الماء الفاتر .. كان كل فكرى منطلقا وراء هاشم .. وكل أعصابى مشدودة اليه ..

ان هاشم لا يعلم حتى الآن انى عدت الى بيت شارع الهرم ..

لم اتصل به لأقول له ما حدث ؟

لم أتصل به بعدما رأيته يخرج من الشقة وراء فتاة أخرى ؟! ..

قالت وهى لا تنظر الىّ :

ـــ عبد الفتاح بيه بقاله مده بيضرب تليفون .. و ..

قلت اقاطعها :

ـــ وما قلتليش ليه ؟

قالت وهى تجلس على المقعد من ضعفها :

ـــ خفت منك ..

قلت :

ـــ وعايز ايه ؟

قالت :

ـــ عايز يشوفك .. وحلف لى مش عايز حاجه الا انه يشوفك ، ويتكلم معاكى كلمتين ..

قلت :

ـــ ورأيك ايه ؟

قالت وهى تنظر الى نظرة سريعة ثم تعود وتخبىء عينيها عنى :

ـــ رايى رايك .. انا قلت له انى دلوقتى سايبالك كل حاجه ..

قلت وأنا أزم شفتى كأنى أستجمع بينهما كل قوتى :

ـــ لما يتكلم تانى ابقى قولى له يتفضل ..

وجاء عبد الفتاح فى اليوم التالى ..

واستقبلته فى الصالون كأى ضيف .

وجهه الأزرق الصلد ، قد لان وخفت زرقته .. وعيناه الحازمتان الجشعتان تبدو فيهما الطيبة وقد غلبت الجشع .. وابتسامته الذكية الخبيثة تبدو مستسلمة مسكينة .. وقام واقفا يصافحنى وينظر فى وجهى بعينين قلقتين .. لم يضغط على يدى وهو يصافحنى .. بل لم يبق يدى فى يده أكثر من اللازم ..

ونظرت اليه بكل عينى .. قوية .. عنقى مفرود يتباهى براسى ..

وقال وهو ينظر بين يديه وكأنه لا يدرى من أين يبدأ الكلام :

ـــ عزيزه هانم قالت لى انك قدمتى فى الجامعه ..

قلت :

ـــ أيوه .. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ..

قال :

ـــ ما كنتى دخلتى كلية التجارة .. مستقبلها اضمن واوسع ..

قلت كأنى أتحداه :

ـــ لأ .. أنا فضلت كلية الاقتصاد .

وضحك ضحكة صغيرة وقال :

ـــ أنا كنت عايز آخدك معايا فى الشركة .. تبقى مديرة حسابات ..

قلت :

ـــ مرسى ..

ونظر الىّ كأنه دهش من شخصيتى الجديدة .. واستمر حديثنا عن الجامعة .. وأمى تشترك معنا .. الى أن أصبح حديثا فارغا ، نعيد فيه ونكرر .. وكل منا يحس بالحرج والسخافة .. كل منا يحس أن هناك شيئا آخر يجب أن نتحدث فيه ..

الى أن نظر عبد الفتاح الى أمى وقال لها فى رقة مفتعلة :

ـــ تسمحى تسيبينى أنا ونجوى شويه يا عزيزه هانم ..

ونظرت الى أمى كأنها تسألنى رأيى .

وقلت وأنا أعتدل فى جلستى كأنى أستعد لمعركة :

ـ انت عارف انى ما بخبيش حاجة على ماما يا عمى .. وضغطت على لفظ « عمى » كأنى أعنيه وأصر عليه ..

وقال عبد الفتاح :

ـ عارف .. بس .. أصلى ..

وسكت دون ن يتم ..

واحسست كأنى اشفق عليه .. وقلت لأمى :

ـ طيب سيبينا شويه يا ماما .

ونظرت الىّ أمى فى دهشة ، ثم نظرت الى عبد الفتاح ، ثم قالت تلتمس لنفسها عذرا :

ـ أما أقوم أشوف أبوكى ، يمكن عايز حاجه ..

وقامت تجر قدميها .. وتمشى فى تعب ..

وخرجت ..

وقال عبد الفتاح وراسه مدلى فوق صدره ، وعيناه معلقتان فوق سجادة حجرة الصالون ، ويفرك احدى يديه بالأخرى :

ـ أنا عارف ان كل اللى بيننا انتهى ..

قلت وأنا جالسة متحفزة :

ـ فعلا ..

قال :

ـ بس فاضل حاجات كتير لازم تفضل بينا ..

قلت فى قسوة :

ـ زى ايه ؟

ونظر الىّ كأنه يلومنى على قسوتى ، وقال :

ـ انتى ما كنتيش اى واحده بالنسبه لى يا نجوى .. لو كنتى أى واحده ما كنتش عملت لك كل ده ، ولا فضلت معاكى المده دى

لها .. أنا عرفت ستات كتير ، انما ما حبتش الا انتى .. انا كنت باحبك يا نوجا .. ولسه باحبك ..

ونظرت اليه كأنى حائرة فيه ، ثم قلت وأنا استجمع ارادتى تى لا أشفق عليه :

ـ أظن كل ده انتهى .. والكلام ده ما بقالوش لازمه دلوقتى ..

وعاد ينظر الىّ فى لوم ، وقال فى صوت محشرج :

ـ اللى فاضل بيننا هو انى أشوفك سعيده .. واشوفك ناجحه .. تأكدى ان الحاجه الوحيده اللى ممكن تخفف عنى انى اشوفك سعيده ..

وصدقته ..

لا ادرى لماذا .. ولكنى صدقته ..

وقلت وقد خفت حدتى :

ـ باذن الله حاكون سعيده .. وانجح ..

قال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة طيبة :

ـ انتى كنتى بتناديني يا عمى .. وكل اللى انا عايزه منك انك تعتبرينى عمك فعلا .. عمك بصحيح .. وانتى عارفه ان باباك عيان .. ومامتك كبرت وتعبت .. ولازم يبقى جنبكم راجل تعتمدوا عليه .. وكل اللى انا عوزه انى أبقى انا الراجل ده .. ابقى عمك .. ومسئول عنكم ..

قلت :

ـ مرسى يا عمى .. على كل حال انا اقنعت ماما بأننا نعيش على قدنا .. وايرادنا يكفى اننا نعيش كويس ..

قال :

ـ انا ما بتكلمش عن الفلوس بس .. انا باتكلم عن كل حاجه .. مش كتير عليكى انك تعتبرينى عمك ..

قلت :

— أبدا .. مش كتير .. انا حا اعتبرك عمى فعلا ..

قال فى حماس وابتسامته تتسع :

— ما هو لازم تعرفى انى كرجل أعمال يهمنى ان كل حاجه ادخل فيها تنجح .. وأنا دخلت عيلتكم ولازم اطمن انها عيله ناجحه .. وعيلتكم يعنى انتى .. انتى لازم تنجحى يا نوجا .. لازم تنجحى فى اى حاجه تعمليها .. اذا اتجوزتى لازم تنجحى .. اذا دخلتى الجامعه لازم تنجحى .. مش معنى ان علاقتنا اتغيرت انى مش عايزك تنجحى .. ابدا .. زى المصنع بتاعى بعد ما أتأمم ، لسه باتمنى له النجاح .. والحكومه شغلتنى فيه علشان أنجحه .. انتى كمان بافترض انك اتأممتى .. انما برضه لازم أكون مسئول عن نجاحك .

قلت وأنا اضحك :

— بأه انا زى المصنع يا عمى ؟ ! ..

قال فى صوت ينبض بالصدق :

— المصنع وانتى ، الحاجتين اللى حبيتهم فى حياتى ..

ثم استطرد كأنه نسى شيئا :

— وأولادى ..

ولم أدر ماذا أقول .. ولكنى قلت وأنا لا أنظر اليه :

— اطمن يا عمى .. حانجح ..

وقال وهو ينظر الىّ كأنه يتوسل :

— اذا كنتى اعتبرتى اللى فات غلط ، فعذرى انى كنت فاهم الحياه كده .. وكنت فاهم ان الحب كده .. واذا اختلفنا فى الفهم فمش معنى كده انى وحش .. انا مش وحش يا نوجا . تأكدى انى مش راجل وحش ..

قلت فى صوت خفيض :

— اذا كان اللى فات غلط ، فهى غلطتنا كلنا ..

ونظر الىّ بعينين حانيتين تطلان من خلال وجهه الأزرق :

— خلاص حا تعتبرينى عمك ؟

قلت :

— خلاص ..

قال :

— وحاتقوليلى لو عرفتى حاجه ؟

قلت :

— باذن الله ..

وقام واقفا وقال وهو يتنهد كأنه أزاح عن صدره عبئا :

— أقوم أنا بأه ..

ثم اقترب منى ، ومد يده يصافحنى ..

وأبقى يدى فى يده ..

وخيل الىّ أنه يحاول أن يقترب أكثر ..

خيل الىّ أنه يهم ان يقبلنى ..

وابتعدت خطوة الى الوراء .. ووقفت أمامه منتصبة القامة ورأسى مرفوع .. نظراتى ثابتة .. وسحبت يدى من يده ..

وطافت لمسة حمراء على وجنتيه .. وقال كأنه يدارى ارتباكه :

— هى مين عزيزه هانم ؟ !

وجاءت أمى ..

وودعناه حتى الباب ..

وقد صدقت عبد الفتاح .. صدقت أنه يحبنى .. صدقت انه مخلص فى عرض صداقته علىّ .. ولكن داهمنى احساس جارف بالخوف .. خفت اليوم الذى أحتاج فيه اليه .. الى نقوده

.. انى أستطيع أن أكون دائما أقوى منه لو ضمنت انى لن أحتاج اليه ، يجب ن أقتصد فى نفقات معيشتنا .. يجب أن أهجر هذه الفيلا التى نقيم فيها .. وأعود الى ست عزيزة الخياطة .. وأستغنى عن السفرجى والسائق .. وأستغنى عن كل هذه المظاهر الفارغة .. وأن أعيش فى حدود دخل أبى وأمى .. وهو دخل يكفينا كى نعيش مستورين .. كأحسن ما تعيش أسرة متوسطة ..

ولكن ..

ماذا يقول الناس .. وماذا تقول صديقاتى .. عندما يروننا فجأة ، وقد انتقلنا من فيلا فى شارع الهرم ومن حياة باذخة ، الى شقة كالشقة التى كنا نقيم فيها فى الجيزة .. ان كلام الناس لا يهمنى عندما انتقلت الى شارع الهرم ، ولن يهمنى كلام الناس عندما أعود الى الجيزة ..

وبدأت اقنع أمى بأن ننتقل الى شقة متواضعة .. وأن نقتصد فى حياتنا .. ولم يكن اقناعها سهلا .. لقد عاشت طول حياتها متعلقة بالمظاهر .. تدعى صلتها بالعائلات الكبيرة .. وتدعى انها غنية . وتكذب وتحتال حتى تتمكن من أن تطل برأسها على الطبقة العليا .. ولم يكن ضعفها أمام عبد الفتاح ، الا ضعفها أمام حبها للمظاهر وتطلعاته الطبقية .. ولكنها كانت قد ضعفت أمامى .. وكان خوفها من أن تفقدنى مرة ثانية قد جعلها تستسلم لى .. ان حياتها معى فى أى مستوى ، أرحم من أن تعيش وحيدة فى قصر لست فيه .. أنا حياتها .. أنا ضحكتها .. أنا كل اهتمامها .. أنا المحور الذى تدور حوله دنياها ودنيا أبى .. أنا كل ما بقى لها من معالم الحياة ..

واقتنعت ..

وبدأنا فعلا نبحث عن شقة صغيرة ، قريبة من الجامعة . وفى يوم .. خرجت من البيت لزيارة صديقة لى ، تسكن أيضا فى شارع الهرم .. قريبة من بيتنا .. كنت ذاهبة اليها على قدمى لا فى السيارة .. وما كدت أخطو فى شارع الهرم حتى لمحت هاشم يقود سيارته فى بطء .. وبجانبه فتاة .. وتحولت عيناى بسرعة الى وجه الفتاة .. انها جميلة جمالا لم أر مثله من قبل .. لعلها ليست مصرية .. وصغيرة .. تبدو أصغر منى .. بيضاء وشعرها أسود .. أسود جدا .. تنعكس أشعة الشمس عليه فيبرق فيه شعاع أزرق .. وهاشم ملتفت ليها ، ويتحدث .. يتحدث فى حماس .. ويشرح بيديه .. وأصابعه الطويلة الرفيعة تتحرك كأنه يعزف على الهواء لحنا عاطفيا ..

وغلت دمائى ..

سرت النار حتى أطراف أصابعى ..

وقد كنت طوال هذه الأيام التى امتنعت فيها عن الاتصال بهاشم ، أتصوره مع بنات .. وكنت أخفف عن نفسى بمحاولة الاقتناع بأنه ليس من حقى أن أغار عليه .. ويكفينى منه أنه أعطانى حبا أنقذ حياتى .. ولكن الخيال أرحم من الحقيقة .. أستطيع أن أحتمل أن أراه بخيالى مع فتاة أخرى ، ولكنى لا أستطيع أن أراه مع فتاة أخرى بعينى .

وحاولت أن أستمر فى طريقى الى بيت صديقتى ..

ولكنى لم أصل أبدا الى بيت صديقتى .. مشيت .. ومشيت .. ساهمة ، أحترق بنارى فى صمت .. وأحاول أن أقنع نفسى .. أن أصبر نفسى .. ولكن النار أقوى من عقلى .. تكاد تحرق عقلى .. وأجن ..

وعدت الى البيت بعد ساعات ..

ووجدت نفسى أرفع سماعة التليفون وأنا ساهمة ، كأن هناك قوة أكبر منى تحركنى .. وأدرت رقم العيادة ..

وسمعت صوته ..

وقلت فى صوت منهار ..

— ازيكَ يا هاشم ..

وصرخ بمجرد أن سمع صوتى :

— ايه ده يا نجوى .. الناس قبل ما تسيب بعض مش تقول مع السلامه .. ولا أورفوار .. تسيبينى كده من غير ولا كلمه ..

قلت والنار تنطفىء رويدا رويدا :

— أنا مسبتكش يا هاشم ..

قال فى حدة :

— أمال بقالك أكتر من عشرين يوم ما سألتيش عنى ليه ؟ ! .

قلت فى هدوء :

— اربعه وتلاتين يوم ..

قال وهو لا يزال محتدا :

— ولما انتى عداهم ما اتصلتيش بى ليه ؟

قلت :

— ظروفى .. مش عارف كان حاصل لى ايه ؟ !

قال :

— المفروض انك كنت تقوليلى على اللى ببحصل أول بأول ..

قلت :

— ما قدرتش ..

قال :

— وبتتكلمى منين دلوقتى ؟

قلت :

— انا رجعت بيتنا .. انما اطمن كل حاجه اتغيرت ..

ومرت برهة صمت .. كأنه يفكر .

ثم عدت أقول له وأنا أحاول الا تبدو فى صوتى ، رعشة قلبى :

— أنا شفتك النهارده ..

قال فى دهشة :

— فين ؟

قلت وأنا أبتسم لنفسى ابتسامة مسكينة :

— فى شارع الهرم .

وضحك ضحكة صغيرة ساخرة ، وقال :

— علشان كده بتكلمينى ..

قلت :

— لأ .. كان لازم أكلمك من زمان .. كان لازم أعرف ان مش من حقى انى آخد قرار لوحدى ..

قال وهو لا يزال ساخرا :

— انتى خدتى قرار ..

قلت وأنا أحاول أن أبدو قوية :

— أيوه ..

قال :

— قررتى ايه ؟

قلت :

— أما أشوفك أقول لك .. أشوفك امتى ؟

وسكت برهة .. **ثم قال فى تردد :**

— بكره الساعة اربعه ..

قلت :

— فين ؟

قال :

— فى الشقه ..

قلت :

— لأ .. بلاش الشقه .. فوت علىّ قدام البيت .. نقعد فى العربيه ..

وعاد يسكت برهة ثم قال ساخرا :

— هو ده القرار اللى اتخذتيه ؟

قلت :

— أرجوك يا هاشم .. و ..

وقاطعنى :

— حاضر .. حا افوت عليكى قدام البيت .. زى زمان !

وقضيت الليل وأنا أقاوم الانهيار . كنت أعلم انه لم يعد لى نصيب فى هاشم ..

أو على الأصح .. لم يعد لى مستقبل معه ..

ان أى علاقة يمكن أن تربطنى بهاشم اليوم ، لا يمكن الا أن تكون مغامرة .. انى أحبه .. ولعله لا يزال يحبنى .. ولكن هذا الحب لم يعد يصلح للحياة .. انه حب غيرنى الى فتاة أفضل ، ولكنه جعل من هاشم رجلا حائرا ، يشك فىّ . ولا بستطيع أن ينسى أنى كذبت عليه عاما كاملا .. لا يستطيع أن يعيش معى .. لا يستطيع أن يفخر ويزهو بى كما كان يفعل . وانا لا استطيع أن اقدم على مغامرة جديدة .. لا أستطيع أن أقلب هذا الحب الكبير الى مجرد مغامرة .. لا استطيع .. ولا استطيع أن الوم هاشم .. وخير لى أن احمل هذا الحب الكبير فى صدرى .. وأجتر ذكرياته فى صمت .. ذكرياته الحلوة

الرائعه .. الذكريات التى جعلت منى هذه الفتاة القويه ، وحررتنى من العقد .. ومن يدرى .. لعل جرح قلبى يندمل يوما ما .. أن كل الجروح تندمل حتى الجروح العاطفية .. ان من طبيعة الانسان أن يجدد نفسه .. ويجدد عواطفه .. كل خلاياالانسان تتجدد بعد أن تذبل .. تولد من جديد .. وسأنتظر الى أن يولد قلبى من جديد ، وأحب من جديد ، ولن يكون هذه المرة حبا معقدا ..

وكانت كل هذه الخواطر تطوف برأسى وأنا أقاوم الانهيار .. أقاوم لهفتى الى هاشم ، وحاجتى اليه .. وكنت أعلم أن هذه المقاومة ستستمر طويلا .. وتكلفنى جهدا كبيرا .. ولكنى كنت مصممة على الا أضعف .. وكنت واثقة من قوتى .. يجب أن أبقى قوية ، من أجل نفسى ، ومن أجل هاشم ..

وخرجت اليه فى اليوم التالى ..

قلقة عصبية ..

وكانت أمى تعلم أنى خارجة للقاء هاشم . .وكانت تنظر الىّ بعينين منزعجتين فيهما توسل .. كان هاشم فى نظرها غول ، تخشى أن يفترسنى !

وهاشم فى سيارته .. ينظر الىّ وبين شفتيه ابتسامة صغيرة .. ويحاول جهده ألا تهتز نظرته ، أو ابتسامته .. ووجهه ازداد نحولا فبدا أكثر نبلا .. كأنه فارس من فرسان الأساطير .. أنفه أكبر .. وجفونه أكثر انتفاخا .. وشفتاه ابتعدت احداهما عن الأخرى أكثر .. بل انه يبدو كأنه صغر فى سنه منذ تركته آخر مرة .. لعل الأزمة العاطفية التى مر بها قد أذابت الشحم عن وجهه فبدا فى هذه الصورة النبيلة .. فقط شعره .. أكثر بياضا ..

ونامت يدى فى يده ، لا تريد أن تصحو .. وكل منا ينظر الى الآخر فى صمت .. وخدى وخده يرتعشان بخفقات قلبينا .. ثم قال وصوته يحشرجه انفعاله :

— يعنى دلوقتى لما احب أشوفك أروح أجيب بنت تانيه وأتمشى بيها قدام بيتكم ، تروحى مكلمانى فى التليفون على طول ..

قلت وأنا أحاول أن أبتسم :

— ومين اللى اتمشيت بيها امبارح ..

قال وهو ينظر من خلال زجاج السيارة :

— دى صديقه من لبنان ..

قلت وقلبى يتلوى :

— صديقه بس ؟ !

قال وهو لاينظر الىّ :

— لغاية دلوقتى ..

وسكت برهة ، ثم قلت ورموشى ترتعش فوق عينى :

— اسمها ايه ؟

والتفت الىّ وهو يضحك ، قائلا :

— ما أظنش انك بتغيرى علىّ ..

قلت وأنا أنظر اليه فى لوم :

— ما اغرش عليك ليه ؟

قال :

— لو كنتى بتغيرى علىّ .. ولا بتخافى علىّ .. ما كنتيش سبتينى لوحدى المده دى كلها .. مهما كانت ظروفك .. ومهما حصل لك ..

قلت وأنا أنظر فى يدى :

— أنا كنت فاكره ان الأحسن اننا ما نكلمش بعض ..

قال فى دهشة حقيقية :

— ليه ؟

قلت :

— لأنى شفتك قبل كده فى الشقه نازل مع واحده ..

وارتعشت نظرته رعشة خفيفة ، وقال :

— امتى .

قلت :

— زمان ومش بس علشان كده ..

قال :

— أمال علشان ايه كمان ..

قلت :

— لانك مره قلت لى ان الحل الوحيد لنا اننا نبتدى نعرف بعض من جديد .. ولما فكرت ، لقيت ان مش ممكن نعرف بعض من جديد .. ما نقدرش ننسى اللى فات .. ولكن اللى حا يحصل انك حا تبتدى تعاملنى بشكل جديد .. وخايفه ييجى يوم تفقد احترامك لى .. زى ما فقدت احترامك الأمينه .. وانت قلت لى ان مافيش حب كامل من غير احترام ..

وقال هاشم كأنه يعتذر :

— انتى حاجه تانيه يا نجوى ..

قلت وأناأنظر اليه بكل عينى :

— أنا عارفه اننا مش حانتجوز يا هاشم .. حتى لو حبيت انك تتجوزنى ، أنا مش حارضى .. لأن جوازى حايعذبك .. مهما حبيتنى حاتفضل طول عمرك حاسس بالندم .. حاتفضل طول

عمرك تتمنى لو كنت جبيت واحده تانيه ، واحده ما عملتش اللى عملته ..

قال فى صوت خفيض :

ــ أنا أجلت التفكير فى الجواز .. و ..

قلت أقاطعه :

ــ مش معنى كده انى ما استاهلش انى أتجوزك .. أنا بقيت كويسه .. وحافضل كويسه ..

قال وهو ينظر الىّ فى حنان :

ــ أنا عارف انك كويسه .. وأحسن من بنات كتير ما عملوش اللى انتى عملتيه .. انما أنا اتصدمت .. وباحاول أفوق من الصدمه ، مش قادر .. لغاية دلوقت مش قادر .. مش قادر أقول لك حاجه .. ومش قادر أوعدك بحاجة .. انما مهما حصل لازم تفضل حاجه بيننا ..

قلت :

ــ ايه ؟

قال :

ــ نفضل أصدقاء ..

قلت :

ــ يا ترى نقدر نبقى أصدقاء .. متهيألى ان أسهل نحاول ننسى ..

قال :

ــ لا .. لازم أفضل فى حياتك ، ولازم تفضلى فى حياتى .. مش ضرورى نشوف بعض .. انما لازم كل واحد فينا يبقى مطمن على التانى ..

ولم أرد ..

سرحت أحاول أن أتصور كيف يمكن أن نكون أصدقاء .. مجرد أصدقاء بعد كل هذا الحب الكبير ..

وقلت وأنا لازلت سارحة :

ــ ما قلتليش .. اسم اللى كانت معاك امبارح ايه ؟

قال ضاحكا :

ــ ليه .. عايزه تعرفى اسمها ليه ؟

قلت :

ــ احنا مش أصدقاء !!

وقال وآثار ضحكته بين شفتيه :

ــ اسمها رحاب ..

قلت وأنا أكتم شيئا يكاد ينفجر فى صدرى :

ــ أسم غريب .. انما حلو .. وهى حلوه .. وصبغة شعرها جنان .. لازم صبغاه فى لبنان ..

قال فى دهشة :

ــ شعرها مصبوغ ؟

قلت :

ــ طبعا .. بأه فيه لون أسود طبيعى بالشكل ده .. وتبقى دكتور قد الدنيا وما تعرفش الشعر المصبوغ من الشعر الطبيعى ..

قال فى ثقة :

ــ لا .. شعرها مش مصبوغ .. لسه ما لحقتش تصبغه ..

اغتظت من هذه الثقة التى يتحدث بها .. لقد أصبح يصدقها اكثر مما يصدقنى .. وقلت فى حدة انطلقت رغم أنفى :

ــ ابقى اسألها ..

قال :

— حاضر .. حا أسألها ..

ونظرت الى وجهه كأنى أودع كل قطعة منه .. اودع انفه الكبير .. وأودع عينيه المنتفختين . .وأودع شفتيه المنفرجتين ..

ثم قلت فى همس :

— بتحبها ؟

قال :

— ما اعرفش .. أنا مش عارف حاجه أبدا اليومين دول .. مش عارف باتصرف ازاى .. وباتصرف كده ليه .. مش مستقر .. ما فيش حاجه فى حياتى مستقرة .. حتى شغلى .. مش قادر أرجع أشتغل زى ما كنت ..

قلت وقلبى ملهوف عليه .. أحس كأنه ابنى :

— أنا أتمنى انك تحبها ..

قال :

— ايه ؟

قلت :

— لأنك محتاج تحب من جديد .. ولأنها حلوه .. ولايقه عليك ..

قال فى دهشة :

— لايقه على ازاى ؟

قلت :

— ما اعرفش .. حاسه انها لايقه عليك ..

وضحك قائلا :

— أختى كانت بتقول انك لايقه علىّ ..

قلت وأنا أشاركه ضحكته :

— رحاب كمان لايقه عليك ..

وسكتنا ..

وعلى شفتى كل منا ابتسامة يحاول أن يضمد بها جراحه ..

وعاد بى الى البيت .. وانحنى قبل أن أنزل من السيارة ، ولمس خدى بشفتيه .. ونظرت اليه بعينين مبهورتين .. ثم انحدفت على صدره ، وضممته الى صدرى .. ضممته بكل لهفتى ، بكل حاجتى اليه ، بكل حرمانى منه .. ورفعت اليه شفتى .. وغبنا فى قبلة طويلة .. لا تريد أن تنتهى .. شفاهنا لا تعترف بالمنطق الذى حكم علينا بالفراق ..

وكانت قبلتنا الأخيرة ..

وهمس وأنا أنزل من السيارة :

— حاتكلمينى فى التليفون ؟

ونظرت اليه فى تردد ..

وعاد يهمس :

— احنا مش اتفقنا نكون أصدقاء ..

وهززت رأسى بالايجاب ..

وجريت الى داخل البيت ..

ولم نلتق بعد هذا اليوم ..

ولكنى كنت أحادثه فى التليفون ، فى فترات متباعدة .. وكان يحدثنى عن رحاب بلا تفاصيل .. وكنت أخاف أن أسأله عن التفاصيل حتى لا تجرحنى .. وكان هناك دائما شىء يشد أحدنا الى الآخر .. وكان كل منا يقاوم هذا الشىء .. كل منا يقاوم حتى لا يجرى نحو الآخر ..

وقال لى مرة :

— اسمعى يا نجوى .. اذا طلبت انك تقابلينى ابقى ارفضى .. وانتى اذا طلبتى انك تشوفينى أنا حارفض .. موافقه ؟ !

قلت :

— موافقه ..

قال :

— طيب حاشوفك امتى ؟

قلت بسرعة :

— تعال دلوقتى ..

وضحكنا نحن الاثنين .. ولم نلتق .. وانا هادئة .. مؤمنة بالحب ..

ان الحب هو الذى أنقذنى .. هو الذى حول حياتى .. هو الذى فتح لى أبواب الجامعة .. هو الذى رفع رأسى ، وأشاع فى عمرى النور ، والاستقرار .. بل انى اصبحت أؤمن أن كل حياتى كانت حبا . حتى أخطائى كانت أخطاء الحب .. كل ما هنالك أن الذين احبونى ، احبنى كل منهم حسب عقليته .. أمى الحقيقية أحبتنى فأعطتنى لأختها حتى تبعدنى عن الفقر الذى نعيش فيه .. وأمى الثانية أحبتنى فجاءت لى بعبد الفتاح ليوفر لى الحياة التى كانت تتمناها لى .. وعبد الفتاح أحبنى . والحب كما يفهمه هو شراء .. وعادل أحبنى وجعل منى امرأة لأنه أراد أن يتزوجنى .. كلهم احبونى .. حبا صادقا حقيقيا .. لم يتعمد أحد منهم ايذائى .. لم يتعمد احد منهم أن يتعسنى .. كل ما هنالك أنى كنت ضعيفة .. ضعيفة الشخصية .. فلم أستطع أن أختار نوع الحب الذى أريده .. ان الحياة كلها حب .. كل طريق فيها مفروش بالحب .. والمهم أن أختار الطريق الذى أريده .. الذى أقتنع به .. الذى يؤدى بى الى مكان أستريح فيه .

الى أن جاء هاشم فمنحنى هذا الحب .. الحب الذى اقتنعت به .. وعندما اقتنعت بالحب ، استعدت قوتى .. قوة شخصيتى .. واستطعت أن أختار الطريق ..

ان هاشم رائع ..

مدهش ..

انه الرجل فى أكمل صورته ..

وانا طالبة فى الجامعة .. وبطلة فرقة التمثيل فى الكلية .. ومندوبة النشاط الاجتماعى .. وزملائى وزميلاتى يحبوننى .. اننا نقضى معا أوقاتا سعيدة .. ضاحكة .. حلوة .. ولكنى أعفيت من التدريب العسكرى .. لأنى لا زلت أخاف على قلبى .. أحيانا كثيرة أهم بأن أستغنى عن قلبى ، وأشترك فى التدريب العسكرى .

وقد نجحت هذا العام بتفوق ..

وابراهيم نجح أيضا ..

من هو ابراهيم ؟ !

هذه قصة أخرى ..

العين الثالثة

— ١ —

أنا رحاب ..

أصدقائى يدعوننى « روللى » .. وأحيانا ، « رو » ..

ولا أدرى ما الذى جاء بى الى القاهرة .. قبلها بأسبوع واحد كنت أستعد للسفر الى لندن .. فصديقتى هند تقيم هناك وانا أحب صديقتى هند .. وكنت أعتقد انى أحبها الى حد أن أحتمل برد لندن وضبابها .. ولكنى بدات أحس ، كلما اقترب موعد سفرى ، ببرد لندن فى عروقى وضبابها يملأ عينى .. انى أكره البرد والضباب ، أكرههما اكثر مما أحب صديقتى هند .

وكان يجب ان أترك بيروت ..

أصبحت بيروت تقززنى .. كل شىء فيها يقززنى .. بناتها وأولادها .. وشوارعها .. وبحرها .. والجبال التى تطل عليها .. ودكاكين سوق الطويلة « والستاركو » .. وضحكاتها الغليظة .. وقسوتها .. وسياراتها .. ودموعها .. وليراتها .. أصبحت كلما لمست ليرة أحس كأنى ألمس شيئا لزجا مقززا كبطن السحلية .. والملل والزهق يخنقانى .. احس انى أدور حول نفسى .. وأدور .. وأدور .. وينتابنى صداع عنيف .. ألف مطرقة تضرب على رأسى .. وأحس بالاختناق .. تنحبس الدماء

فى عروق رقبتى .. ويزدرد وجهى .. وأسقط .. كانت تنتابنى فعلا هذه النوبات ..

وكان يجب أن اترك بيروت هربا من الزهق والملل ونوبات الاختناق ..

الى لندن ..

وقد اخترت لندن من أجل صديقتى هند ، ولكن هذا الاحساس بالخوف من البرد والضباب ظل يلازمنى .. الى أن صحوت ذات صباح ، وقد قررت أن اسافر الى القاهرة بدلا من لندن .. لا أدرى لماذا القاهرة .. ربما لأحتمى فيها من برد لندن وضبابها .. فلم يكن هناك اى شىء يغرينى بالقاهرة .. لم يكن يربطنى بها شىء .. ليس لى فيها أصدقاء .. ولست من هواة الآثار .. لا اريد أن أرى الأهرام ولا ابو الهول .. ولا افهم شيئا فى السياسة حتى أدعى انى اخترت القاهرة ايمانا بالوحدة العربية .. ابدا .. ولكنى اخترت القاهرة والسلام .. كما أختار قماش ثوبى فى لحظة من لحظات الزهق ..

وذهبت الى أبى قبل أن يخرج الى عمله ، وقلت كأنى أنطق بكلمة القدر :

— سأذهب الى القاهرة ..

وكان أبى قد تعود على نزواتى .. لم يعد شىء منى يدهشه .. فابتسم لى ابتسامته الحلوة الهادئة .. وقال :

— ولندن ؟

قلت :

— ضباب وبرد ..

قال :

— وصديقتك !

قلت :

— سأكتب لها .. اننا لا نختلف عندما نتراسل ، ولكننا نختلف كثيرا عندما نلتقى ..

قال :

— ولكنا حجزنا لك هناك .. وحولنا لك الليرات ..

قلت :

— الغ الحجز والتحويل ..

ونظر فى وجهى كأنه يبحث عن حقيقتى . ثم قال :

— لماذا القاهرة !

قلت :

— هيك بلا سبب ..

قال وهو يضحك :

— أخشى عليك من الشباب هناك .. انهم ملاعين ..

قلت فى عصبية :

— اف .. انك تحدثنى كأنى صرصارة .. بنتك يا حاج عبد الرحمن لا يخاف عليها من الشباب فى أى مكان ..

وضحك ضحكة كبيرة ..

انه يثق فى .. طول عمره يثق فى رغم كل نزواتى التى ضجت منها بيروت ..

وقال وكرشه الكبير لا يزال يهتز بضحكته :

— أقصد .. انى أخشى على شباب القاهرة منك .. انهم عرب مسلمون ، وحرام أن نرسل اليهم شيطانه مثلك .

وقلت وأنا أتظاهر بالزهق تدللا عليه :

— خلصنى .. ما رأيك ؟

وفكر برهة ، ثم قال :

— عائلة محيى الدين لا تزال تقيم هناك .. تستطيعين أن تقيمى عندهم .. انهم أنسباؤنا كما تعلمين .. والرجل لا يزال مدينا لى بعشرة آلاف ليرة ..

وقفزت جالسة على ركبته وقبلته على خده ، وصحت :

— انت أعظم أب يا حاج عبد الرحمن .. بتجنن ..

وارتعشت وجنتاه من فرط سعادته .. ان اللحظات التى أدلله فيها هى دائما أسعد لحظات عمره .. انه يحبنى .. يحبنى أكثر من كل أولاده وبناته .. فأنا أجمل البنات .. وأذكاهن .. وأصغرهن .. لا .. لقد كذبت .. لست أصغر البنات .. لى أخت أصغر منى ، ولكنى لا أحب ذكرها .. لا أحب أن تكون لى أخت أصغر منى .. لا أحب أن اكون أبدا فى الوسط .. وسط أى شىء .. الوسط ليس له لون ، ولا طعم ، ولا شخصية .. الوسط ليس صفة .. أبدا ليس صفة يستطيع الانسان أن يتصف بها ويحدد بها شخصيته .. ان الشخصية تجدها فى القمة .. قمة أى شىء .. قمة الذكاء أو قمة الغباء .. قمة الفوضى أو قمة القبح .. قمة السعادة أو قمة الشقاء .. بل انى وجدت أن كل هذه الصفات تلتقى كلها فى قمة واحدة .. ان الأحاسيس البشرية كالجبل الضخم ، تتباعد جوانبه عند السفح .. فتجد الاحساس بالسعادة فى جانب والاحساس بالشقاء فى جانب آخر .. والاحساس بالذكاء فى جانب والاحساس بالغباء فى جانب آخر .. والجنون فى جانب والهدوء فى جانب .. و .. وكلما ارتفع الجبل ، اقتربت هذه الأحاسيس بعضها من بعض ، الى أن تلتقى كلها عند القمة .. ولأنى أعيش دائما فى القمة فانى أحس بكل هذه الأحاسيس فى لحظات متتالية سريعة .. سعيدة فى لحظة ، وشقية فى اللحظة التالية .. مجنونة فى

لحظة ، وهادئة فى لحظة .. ذكية فى لحظة .. وغبية فى لحظة .. ان حياتى ليست سنوات ولا شهورا ولا أياما .. انها لحظات .. حتى مظهرى الخارجى يتغير بين لحظة وأخرى .. ويحتار فيه أهل بيروت .. فى لحظة أخرج اليهم وانا البس البنطلون والبلوز ، وحذاء بلا كعب .. وشعرى الأسود يسيل فوق عينى .. كأنى صورة من مجلة « ال » .. ثم أذهب الى مقهى الدوليشيفيتا ، وأجلس بين الشبان ، وأشعل سيجارة أضعها فى فم أسود طويل ، وأتصرف كأنى فتاة وجودية من فتيات الحى اللاتينى فى باريس .. ثم فجأة أقفز وأرتدى ثوبا من الأورجانز المنفوش ، وأضع فى قدمى حذاء عاليا ، وألم شعرى الأسود الى الخلف ، وأضع فوق رأسى تاجا محلى بفصوص اللؤلؤ .. فأبدو كأنى الملكة اليزابث ، ثم ادعو بعض صديقاتى ، ونذهب ونجلس فى فندق فينيسيا ، نتناول عصير البرتقال .. فى هدوء واتزان ..

انى دائما هكذا .. فى القمة .. قمة الاحساس .. والواقع ان أحاسيسى هى التى تحكمنى .. لا شىء يمكن أن يحكمنى أبدا الا أحاسيسى .. ولا أحد يستطيع أن يحكمنى .. لا أبى ، ولا أمى ، ولا أخى .. فقط أحاسيسى .. انى أعتبر ان أى تصرف لا ينبع من الاحساس ، هو نفاق ، أو جبن .. وأنا لا أنافق حتى الله .. انما الصلة بينى وبين الله تحكمها أحاسيسى أنا .. فى لحظة أضع مصحفى الذهبى على صدرى ، وفى لحظة أخرى أرفعه بلا سبب الا لأنى أحس فى لحظة بالله ، وفى لحظة أخرى ، لا أحس به ..

ولأنى مستسلمة دائما لأحاسيسى ، فانى أعجز أحيانا كثيرة عن تبرير تصرفاتى .. لأنى فى أحيان أعجز عن فهم أحاسيسى

.. وأعجز عن التعبير عنها حتى لو فهمتها .. منذ متى وأنا مستسلمة لأحاسيسى ؟

ربما منذ ولدت ...

وأذكر وأنا فى السابعة من عمرى ، وكنا نقضى شهور الصيف فى « ضهور الشوير » أن استيقظت من نومى فى الصباح ، وقلت لأمى انى ذاهبة فى رحلة .. وطلبت منها أن تعد لى طعاما آخذه معى فى رحلتى .. ودهشت أمى .. وحاولت أن تعرف منى الى أين أذهب ، ومع من .. ولكنى لم أستطع ان اجيبها .. لم أستطع ، لأنى انا نفسى لم اكن أعلم اين اذهب ولا مع من .. ولكنى فقط كنت أحس بأنى ذاهبة فى رحلة .. احساسا قويا عنيفا يملكنى كلى .. وعندما عارضتنى امى وأصرت على الا اخرج من البيت تملكتنى هذه النوبة اللعينة ، نوبة الاختناق .. كأن احساسى حاكم مجنون يخنقنى اذا لم اخضع له .. ولم أستطع أن افيق من النوبة ، الا بعد أن أعدت لى أمى الطعام الذى طلبته ووضعته لى فى سبت الرحلات ، ثم تركتنى أخرج بعد أن أوصت سائق سيارتنا بأن يتبعنى .. ولكنى لم أخرج الى الشارع .. بل خرجت الى حديقة البيت الواسعة .. لم اكن أعلم الا لحظتها انى خارجة الى حديقة البيت .. وفى الركن البعيد من الحديقة .. خلف الأشجار التى تخفى البيت ، جلست من الساعة التاسعة وسبت الرحلات بجانبى .. جلست من الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة السادسة مساء .. وحدى !!

ماذا أفعل !!

كنت أتحدث الى النمل الأسود الكبير .. خيل الىّ يومها انى ملكة النمل .. وأخذت أحاكم رعيتى .. أحكم على بعضها

بالموت .. وأمنح البعض الحياة .. كنت أزيح بكفى الصغيرة فريقا من النمل .. وأصرخ فيه : انت تموت .. ثم أدفنه تحت التراب .. وأشير الى فريق آخر ، وأصيح : انت تعيش .. وأتركه يسعى .. ثم يخيل الى أن الفريق الذى حكمت عليه بالموت مظلوم ، فأنبش التراب لأعيده الى الحياة ، ولكنى لا أجده .. فأبكى .. وتقترب منى نملة كبيرة ، ويخيل الىّ أنى أسمعها تحدثنى .. فأعود أبتسم .. وأضحك !!

بقيت هكذا حتى الساعة السادسة ، دون أن يحاول أحد من أهلى أن يقترب منى .. كل منهم يخاف أن تعاودنى النوبة لو حاول أن يعيدنى الى البيت .. الى أن عدت وحدى ، أحمل سبت الطعام ، كأنى عائدة فعلا من رحلة .. واستقبلتنى أمى وهى تبتسم لى قائلة :

ـــ هل تمتعت برحلتك ؟

وأجبتها فى بساطة :

ـــ لماذا تكذبين .. انت تعلمين أنى لم اكن فى رحلة .. تعلمين انى كنت طول الوقت فى حديقة الدار ..

وهربت أمى من لسانى ..

وقد كبرت هذه التصرفات معى .. تصرفات لا تحكمها الا أحاسيسى .. أصر على أن التحق بالقسم الداخلى فى المدرسة .. ولا اكاد اقضى فيه أسابيع ، حتى أصر على أن أعود الى القسم الخارجى .. وأدخل مدرسة فرنسية ، ثم أصر على أن أدخل الكلية الأمريكية .. ثم أعود الى المدرسة الفرنسية .. و .. و .. وخيل الى أمى يوما أنى مريضة نفسيا .. ربما خيل اليها أنى مجنونة .. فصحبتنى الى طبيب نفسانى .. ولكن الطبيب النفسانى لم يفهمنى .. لم يفهم انى انسانة طيبة ، كل

ما هنالك انى لا احاول ابدا أن أقاوم أحاسيسى وأستسلم لها .. ولكنى ولا شك كنت فى طفولتى ، عصبية .. وكانت أعصابى تأكل من جسمى ، فكنت رفيعة ، ضعيفة ، وكانت أمى لا ترحمنى من الأدوية المقوية ..

ان أمى مسكينة ، انها لا تفهمنى .. ولا تستطيع أن تفهمنى .. ان الحياة عندها خطوات محسوبة .. أرقام .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. و .. وتجمع هذه الأرقام ، فتكون النتيجة زوجا غنيا .. لا مكان فى هذه الحياة للأحاسيس .. انها لا تعترف بشىء يمكن أن يسمى باحساس .. الاحساس عندها هو أيضا مجموعة أرقام .. مجموعة فضائل وتقاليد .. فاذ اختل رقم من هذه الأرقام فيجب أن يستدعى الطبيب ..

وهى أم صغيرة .. لا تتجاوز الثامنة والثلاثين .. جميلة .. أنيقة .. من أكثر سيدات بيروت أناقة .. ومن بيت مشهور فى طرابلس .. بيت كمال الدين .. ولأنها من بيت كبير .. وجميلة .. وفاضلة .. ومهذبة .. فقد تزوجت أبى ، لأنه رجل غنى .

جمعتهما حسبة ..

وكلاهما مقتنع بعلم الحساب ..

ولكن أبى كان أكثر طيبة ، وأرهف قلبا ، فى معاملته لنا .. ربما لأن عقله كله مشغول بتجارته ، ومشاكل تجارته .. انه واحد من بين خمسة تجار كبار مسلمين فى بيروت .. ولكنى لا أعلم بالضبط فيم يتاجر .. لم أحاول أن أعرف .. فانى أحس أن أهل بيروت كلهم مثل بعضهم البعض .. كلهم تجار .. وكلهم يقفون فى دكان واحد .. بيروت كلها دكان واحد .. يقف فيه رجل واحد .. وحوله أدراج وأرفف كثيرة .. درج فيه قماش .. ودرج فيه وظائف .. ودرج فيه بهارات .. ودرج فيه سياسة .. ودرج فيه مختلف أنواع الأديان .. و .. و .. وكلشىء للبيع .. والتاجر قد يكون أبى ، أو عمى ، أو خالى .. أو أنطون .. أو سليم .. أو قسيس .. أو وزير .. ولكنه دائما نفس الرجل .. الرجل الذى يقف فى دكان بيروت .. يبيع !

وقد حاول أبى وأمى أن يطبقا علىّ وعلى اخوتى علم الحساب ، الذى نشآ عليه .. أعدا لنا كل شىء .. أرقام محسوبة .. بيت كبير فى « الأشرفية » ، وقد انتقلنا منه منذ سنوات الى « رأس بيروت » .. وألقونا بأحسن مدارس .. وسيارات .. وخدم .. ونصائح .. و .. ولكن علم الحساب لم يفلح الا مع أختى الكبيرة .. انها صورة طبق الأصل من أمى .. فى أخلاقها ، وفى اتزانها ، وفى نفاقها .. وأفلح علم الحساب أيضا مع أصغر اخوتى الصبيان .. انه ليس كأبى ، ولا كأمى .. انه غبى .. بليد .. يدخن الأرجيلة ، ويكتفى بأنه ابن التاجر الكبير الحاج عبد الرحمن .. والغباء لا يتعارض مع علم الحساب .. أما أخى الكبير فقد كان مجنونا ، فى نظر أمى على الأقل .. كان يثير بيروت كل ليلة بفضيحة ، ثم فجأة اختفى وعلمنا أنه هاجر الى أمريكا الجنوبية .. وصدم أبى .. انها أول مرة رأيته فيها منهارا .. لقد كان يبكى .. كان يحب ابنه الكبير .. ولم يكن هناك سبب لهجرته .. اننا أغنياء فى بلادنا ، فلماذا نبحث عن الغنى فى بلاد الناس .. كان هذا منطق أبى يومها .. ثم لم يكد يمر عام آخر ، حتى صدم صدمة ثانية عندما هاجر ابنه الثانى الى بلجيكا .. أيضا بلا سبب الا أنه لم يخضع هو الآخر لعلم الحساب ..

ولم يبق لأبى الا ابنه الغبى ، وبناته .. أختى الكبيرة .. وانا .. وأختى الصغيرة التى لا اعترف بوجودها ، وساعدنى على عدم الاعتراف بها انها دائما فى مدرسة داخلية .. كثيرات من صديقاتى لا يعلمن بوجودها ..

وأنا أجمل البنات .. انى أشبه أودرى هبورن ، وجاكلين كيندى ، وكريستين كيلر .. ان فى كل واحدة من الثلاث شيئا من الأخرى .. وأنا أجمع بين الثلاث فى ملامحى .. قوامى كقوام أودرى هيبورن .. وعيناى كعينى كريستين كيلر .. وابتسامتى كابتسامة جاكلين كيندى ..

وتنبهت الى انى جميلة وانا فى الرابعة عشرة من عمرى .. عندما بدأ « أندريه » يحلق فى وجهى ، فى بلاهة .. وينتظرنى كل يوم امام باب البيت حتى أركب سيارة المدرسة ، ثم يلاحقنى بسيارته .. أيامها وقفت امام مرآتى ، واكتشفت انى جميلة .. شعرى أسود .. اسود .. ينطلق منه بريق لامع ، كأنه شعاع من القمر ينطلق فى الليل .. وملامحى كلها دقيقة .. عيناى صغيرتان مستديرتان ممتلئتان بالحياة .. وشفتاى رقيقتان مرهفتان .. وأنفى صغير أنيق طرفه مرفوع .. ووجنتان ناضجتان .. ولم يكن أحد ممن لا يعرفوننى يعتقد أنى لبنانية .. كانوا يعتقدون انى باريسية .. وغسان كان يشبه وجهى بالتفاحة وانفى بعنق التفاحة .. كان يقول انه كلما رآنى أحس بأنه يهم بأن يأكلنى .. ولكن لندع غسان الآن .. انه ليس أول رجل فى حياتى .. أول واحد فى حياتى كان أندريه الذى قابلته وانا فى الرابعة عشرة من عمرى ..

وكان اندريه أيامها شابا كبيرا فى الحادية والعشرين من عمره .. أمه فرنسية .. وابوه لبنانى ارثوذكسى .. شعره

أصفر .. وعيناه ملونتان .. ووجهه أحمر .. واذناه مفرودتان .. كنت أضحك كلما نظرت الى أذنيه .. وكنت أقول له ضاحكة :

— اذهب الى أمك ودعها تشد اذنيك الى الخلف بشريط مصمغ ..

وكان يغتاظ ..

ولم يكن بينى وبين أندريه شىء .. لعله لم يكن بينى وبين أى رجل شىء حتى اليوم .. الا اذا اعتبرنا القبلات شيئا .. اننا فى لبنان غير البنات والأولاد فى مصر .. فى مصر كل خطوة تقود الى الأخرى .. واحساس كبير بالجنس .. ربما لأن الجو فى مصر حار .. ولكننا فى لبنان لانفكر كثيرا فى الجنس .. ليس فى شلتنا على الأقل .. اننا نمرح .. ونضحك .. ونخرج الى رحلات .. ونذهب الى السينما .. ودائما فى شلل صغيرة .. أما الجنس فقد تفكر فيه المتزوجات .. الحياة الجنسية تبدأ فى لبنان بعد الزواج حتى بعيدا عن الأزواج ..

وقد اعتبرنى أندريه فتاته ..

واعتبرته فتاى ..

وكنا نخرج فى شلة من الأصدقاء والصديقات .. كل ولد له بنت .. ونذهب الى السينما .. والى الجبل .. والى البحر .. وقبلنى أول مرة تحت شجرة من أشجار غابة بولونيا .. ليست غابة بولونيا فى باريس .. ولكن غابة بولونيا فى ضهور الشوير ..

قبلنى على شفتى ..

وكرهت قبلاته ..

لقد أصبت بالدوار بعدها .. لا من النشوة .. ولكن من شىء يقززنى .. وقد بقيت بعد ذلك سنوات طويلة أكره أن يقبلنى

أحد على شفتى .. فقط على خدى .. وعندما أكون سعيدة أترك القبلات تنزلق على عنقى ..

وفى الرابعة عشرة من عمرى ، بدأت أضع الكحل حول عينى .. وأدمنت الكحل .. انه يجعلنى فتاة كبيرة .. أكبر مما أنا .. انى الى الآن لاأستعمل من الأصباغ الا الكحل .. حتى « الروج » لا أستعمله الا نادراً ..وكنت أخرج من البيت وانا لا أحمل الا قلم الكحل وورقة من أوراق الكلينكس بدلا من المنديل .. لم أكن أحمل حقيبة أبدا .. أعصابى لا تحتمل أن أحمل فى يدى حقيبة .. النقود أضعها فى جيبى ، واذا لم يكن فى ثوبى جيب ، أطبقعليها يدى مع قلم الكحل وورقة الكلينكس .. لكنىأبدا لا أحمل حقيبة ..

وتركت أندريه ..

لقد شعرت فجأة أنى أكبر منه .. لم تعد أحاسيسى تطيقه .. كل كلمة من كلماته التافهة تلوى أعصابى ..

ولاحقنى أندريه طويلا .. انه لا يستطيع أن يستغنى عنى .. كنت فى هاتين السنتين قد ملأت حياته كلها .. أضع برنامج يومه .. وانتقل به من مكان لمكان .. وأضحكه ، وأبكيه .. وأتركه يزهو بى أمام أصدقائه .. لم تعد له شخصية بدونى .. أنا شخصيته .. انا كل ما عنده .. ولكن آسفة .. لم أعد أطيقه .. انى ملك خاص الأحاسيسى ،ولم تعد أحاسيسى تطيقه .

وجاء بعده نزار ..

لا شىء أيضا ..

سوى هذه القبلات التى أتلقاها على خُدى وأتركها أحيانا لتنزلق على عنقى .

ثم جاء بعد نزار ، حازم ..

لا شىء .. لا شىء ..

ان كل هؤلاء الأولاد لم يكونوا شيئا .. انى أختارهم فقط لأكمل بهم مجموعة الشلة .. لنضحك أكثر .. ونجرى بين الشجر .. ونسبح فى البحر .. ونتزحلق على الثلج .. ونخرج الى نزهات مجنونة بالسيارة .. ولم يستطع واحد منهم أن يغرينى بأن أبتعد به عن صديقاتى البنات .. .. كنت أفضل دائما أن أكون معهن ، وهو معى .. ولم يستطع واحد منهم أن يترك فى قلبى .. ولا خدشا على جسدى .. أبدا ..

انها صداقة .. مجرد صداقة .. نوع معين من الصداقة ..

وفى هذه الأيام هويت الرقص .. وأجدته الى حد أذهل بيروت .. كنت أرقص التشاتشا والمارنجى أحسن من أى فتاة .. وأرشق .. بل انى كنت أبتكر خطوات جديدة يذهل لهـا محترفو الرقص الذين يملئون الستريوهات .. والستريوهات فى لبنان كانت تبدأ من الساعة الثالثة بعد الظهر خصيصا للبنات والأولاد فى عمرنا.. فكنت كل يوم وفى الساعة الثالثة بالضبط أذهب الى استريو .. ألبس البنطلون ، وحذاء بلا كعب ، وشعرى سائل على عينى ، ويدى قابضة على قلم الكحل وورقة الكلينكس .. وفى يدى الأخرى ولد .. وكنت فى هذه الفترة أصادق الأولاد الذين يجيدون الرقص ..

ولم يكن أهلى يعلمون شيئا عن حيـاتى خارج البيت .. كانوا يعلمون أنى أخرج مع صديقاتى البنات .. وربما اعتقدت أمى أنى أخرج فى شلة من الأولاد والبنات .. ولكن أحدا لم يكن يعلم التفاصيل .. ولا أختى .. وكان بينى وبين أمى خناقات طويلة حول خروجى من البيت .. وكانت عندما تصر على ألا أخرج

.. اجن .. أجن فعلا .. أحس بنوبة الاختناق .. وأمزق كتبى .. وأحيانا أهجم على دولاب أمى ، والقى ما فيه من ثياب على الأرض .. وهى واقفة أمامى ترتعش .. تخاف أن يقترب منى حتى لا أبدا فى تمزيق ثيابها .. ثم لا أكف عن جنونى ولا تزايلنى نوبة الاختناق الا بعد أن تسمح لى بالخروج .. تخضع لى .. ثم استسلمت نهائيا . .لم تعد تناقشنى فى خروجى ودخولى .. وأياما كثيرة كنت أخرج فى الصباح ولا أعود الا فى المساء .. فى الساعة الثامنة .. لم أكن أتأخر أبدا عن الثامنة .. لا تعمدا .. ولا خوفا من أهلى .. ولكن لأنى كنت أشعر بالنوم يداهمنى ابتداء من الساعة الثامنة ..

وفى سن السابعة عشرة وجدت نفسى فى وسط آخر من أوساط بيروت الاجتماعية .. وسط يضم أدباء وفنانين وصحفيين ، ومجانين ، وشبانا يتحدثون بحماس فى السياسة ، وفى الأدب والفلسفة .. ويجتمعون فى المقاهى التى تحيط بالجامعة الأمريكية .. فى مقهى فيصل ، وأونكل سام ، ويملئون مقاعد مقهى الدولشيفيتا فى المساء ..

وبهرت بهذا الوسط ..

كل وجه فيه يبهرنى ..

كل كلمة فيه تبهرنى ..

واحسست أن أبواب عالم جديد فتحت أمام عينى .. آفاق جديدة فتحت أمام عقلى ..

احسست أنى كبرت ..

احسست أنى كبرت ..

ورحب بى سكان هذا العالم الجديد .. ولم أدهش لترحيبهم .. انى أستطيع أن أجتذب قلوب الناس ببساطة .. شكلى الرقيق الناعم يثير فى الناس اعجابا بريئا .. احساسا حلوا ..

كأنهم يرون عروسة جميلة فى فترينة الله .. يضحكون لها .. ويخافون عليها .. ويلمسونها فى رفق ..

وبسرعة اندمجت فى هذا الوسط الجديد ... واصبحت حياتى مبعثرة بين مقاهى فيصل ، وأونكل سام ، والنيجرسكو ، والدولشفيتا .. والتقطت بسرعة الكلمات التى يتداولونها .. اصبحت أتكلم مثلهم .. وأصبحت لا أمل حديث الأدب ، رغم انى لا أفهم معظمه .. ولا حديث السياسة التى لا أفهم فيها شيئا .. واعتبرت نفسى وجودية .. دون أن أحاول أن أفهم ما هى الوجودية .. كل ما فهمته أن الوجودية هى أن أتكلم كما أشاء ، وأتصرف كما أشاء .. وأحتفظ بشعرى سائلا على عيونى ..

وبدأ هذا الوسط ينقل الى عدوى السخط الساخر على كل شىء .. انهم يسخطون فى سخرية على العالم كله .. على السياسة .. وعلى الأديان .. وعلى الله .. وكرهت أن أكون فتاة غنية ، أو على الأصح ابنة رجل غنى ، لأنهم يسخرون من الأغنياء .. وأصبحت أتظاهر بالفقر .. والفقر فى بيروت ليس كالفقر فى مصر .. الفقر فى بيروت هو الا تملك سيارة .. لم أعد أتنقل فى سيارة العائلة .. أصبحت أركب الأتوبيس .. وترام بيروت .. وأمشى فراسخ .. وآكل فلافل وحمص بالطحينة ..

ولم أكن البنت الصغيرة الوحيدة فى هذا الوسط .. بنات كثيرات مدمجات فيه .. جذبتهن اليه الثورة المكبوتة الى الانطلاق .. الانطلاق الى لا شىء .. فقط الانطلاق .. التحرر من سجن بلا أبواب وبلا سجان .. سجن العقد المتراكمة فى صدورهن ، منذ أعطى الاسلام لكل أربعة منهن رجلا واحدا ، ومنذ قدمت لهن المسيحية صورة عذراء بلا رجل ..

ولكنى كنت ألمح كل هؤلاء البنات . والاعجاب الحلو الرقيق

الذى ينطلق حولى من عيون الرجال ، بدأ يتبلور فى اشتهاء .. وبدأ كل رجل من الرجال الفنانين العباقرة يريدنى له وحده .. انهم رجال .. مجرد رجال .. سواء جلسوا فى أونكل سام ، أو تسكعوا فى ساحة البرج ..

وهم رجال كبار .. ليسوا شبابا كالذين تعودت أن أصادقهم .. بعضهم فى الثلاثين .. فى الخامسة والثلاثين . فى الثامنة والثلاثين ..

ورغم ذلك لم أخف ..

بل انى وجدت الرجال أكثر أمنا من الشبان ..

وبدأت أختار من هذا الوسط الجديد أصدقاء لى ..

اخترت أكثرهم جنونا ..

كان أولهم سامى ..

قصير .. عيناه مشروطتان ضيقتان .. يشعان بالطيبة ، والحيرة .. وينطلقان أحيانا بنظرات شاردة مجنونة .. وهو رسام .. لا يبيع رسومه .. لأن الذين يريدون شراءها لا يستحقونها ، والذين يستحقونها ، لا يستطيعون شراءها .. هكذا كان يقول .. ورسمنى سامى أكثر من مائة صورة .. رسمنى على علبة كبريت .. وعلى مفرش المائدة .. وعلى لوح زجاج المقهى الذى تعودنا أن نلتقى فيه .. انه يرسمنى كلما رآنى ..

وكان سامى يخاف من السكاكين .. أى سكين يراها تثير فيه الرعب .. تتسع عيناه الضيقتان .. ويشهق .. ثم يلتقط السكين من فوق المائدة بأطراف أصابعه المرتعشة .. ويلقيها تحتها .. أو يلقيها من النافذة .. ثم يستريح ..

وكنا نلتقى دائما فى ملهى « الابجلز نست » ، أى ، عش النسور .. ودائما نجلس على نفس المائدة .. ونتحدث .. ويرسمنى .. ولا شىء أكثر .. لا شىء أبدا .. ولا حتى هذه القبلات التى تعودت أن أتلقاها على خدى ، وأتركها أحيانا تنزلق على عنقى .. فقد أرسل سامى الىّ بعد عامين من صداقتنا ، وبعد أن سافرت الى القاهرة .. خطابا قال لى فيه : « انى لا أدرى لماذا لم أحاول أن أقبلك .. ولماذا لم أحاول أن أطوقك بذراعى .. يا رو الشهية » !

وقد كنت أشفق على سامى .. انه اكبر منى بكثير .. وفى رأسه ثقافة توازى مليون ضعف ما فى رأسى .. ولكنى كنت أشفق عليه .. لا أدرى لماذا .. ولكنى كنت أشفق عليه ، وكانت شفقتى تشعرنى بأنى مسئولة عنه .. لم أكن أطيق أن أراه غاضبا .. أو حائرا .. أو فى احدى نوبات جنونه .. وكنت أنا الوحيدة التى أستطيع ، بمجرد ملامح الطفولة فى وجهى ، أن أمسح غضبه ، وأشده من حيرته ، وأفيقه من جنونه .. لقد كنت أحيانا كثيرة أشعر انى أمه ..

ولكن سامى لم يكن الوحيد الذى يثير شفقتى ..

طلال أيضا كان يستحق الشفقة .. انه شاعر .. اعجز دائما عن فهم شعره .. ولكن لابد أنه شاعر رائع ، لأن طلال مؤمن به الى حد الهوس .. الى حد أن يتضارب بالأيدى كلما ناقش أحد شعره .. وهو مفلس دائما .. أبوه مهاجر غنى فى أفريقيا ، ولكنه ترك أباه ، وجاء الى لبنان ليعيش مفلسا .. وهو لا يريد أن يكون غنيا .. انه يحتقر الغنى .. يحتقر الليرات .. الليرة تستطيع أن تبنى بها عمارة ، ولكنك لا تستطيع أن تبنى بها بيتا من الشعر .. وهو انسان معقد .. تغلبه عقده أحيانا

فيبكى كالطفل .. ثم يخلع حذاءه ويلقيه فى الشارع وهو يصيح « على صرمايتى العالم كله ! » .

وأصبح طلال أيضا صديقى .. التقى به فى نفس المقهى الذى التقى فيه بسامى .. الايجلز نست ! وغيره ..

غسان فى الثلاثين من عمره .. درس علم النفس .. ويصر على انه طبيب نفسانى .. طبيب بلا عيادة .. وقد أصيب فى حادث سيارة فى صغره .. افاق منه وهو يعرج ويتوكأ على عصا .. وفى عينه اليمنى رعشة دائمة .. وكان يتردد كل يوم على مقهى فيصل ليتناول الغداء .. ويجلس على مقعد ويمد رجله على مقعد آخر .. وفى يوم أشار الى من بعيد يدعونى اليه .. وتجاهلته .. فصرخ بأعلى صوته فى وسط المقهى .. رحاب .. من فضلك دقيقة .. ونظرت اليه .. واشفقت عليه .. وعندما اقتربت منه قال لى انه كان يتابعنى منذ مدة ، وانى فى حاجة الى علاج نفسى قبل أن تستفحل حالتى .. وابتسمت ..

وأعطيته موعدا فى نفس المكان .. الايجلز نست .. وبعد أن جلست معه دقائق وجدت نفسى اعالجه .. أنا التى أتولى علاجه .. وغيره ..

— أصبح لى خمسة أصدقاء .. التقى بهم واحدا بعد الآخر فى نفس المكان .. بل دائما على نفس المائدة .. وفى نفس الموعد .. وعرفنى الجرسون ، وأبقى لى المائدة محجوزة .. وكل منهم أشفق عليه ، وأحس بمسؤوليتى عنه .. ثم بدأت أحس بأن هذا الاحساس بالمسؤولية عن هؤلاء

الخمسة ، أصبح أقوى منى .. واصبحت لا أستطيع أن أتحرر منه .. وأصبحت أشعر أن فى أعماقى احساسا آخر يريد ا يطفو على سطح حياتى .. انى لا أستطيع أن أعيش على الشفقة .. لا أستطيع أن أعيش فى عمرى الصغير وأنا أحمل مسؤوليات هذه الصداقات الغريبة .. كنت فى حاجة الى شىء آخر .. ربما كنت فى حاجة الى الحب !

وأصبحت كلما واعدت واحدا من هؤلاء الخمسة على اللقاء ، قررت بينى وبين نفسى أن أخلف موعده .. أن أهرب .. حتى اذا اقترب الموعد ، أخذ احساسى بالمسؤولية يغلبنى .. أحسست بصدرى يضيق ، والدموع تتجمع فى عينى .. وأبكى .. وأبكى كثيرا .. ثم أقوم الى مرآتى ، وأمسح دموعى .. وأضع الكحل حول عينى .. وأترك شعرى يسيل على وجهى .. وأذهب أليه .. الى واحد من الخمسة ..

وبدأ الملل والزهق يطوفان حول رأسى من جديد ، ويتجمعان فى سحب كثيفة تملأ عينى ، وتجثم على صدرى ، وتخنق أنفاسى .. أصبحت أحس أن حياتى واقفة .. لا تتحرك .. لا شىء فيها يتحرك .. السيارات واقفة .. والناس واقفون كقطع الحجارة المنتثرة فى واد أجرد .. والوجوه جامدة كأنها تماثيل من شمع .. والنظرات ميتة .. كل شىء ميت .. الأرصفة ميتة والمقاهى ميتة .. وبيتنا ميت .. والبحر ميت .. والجبل قبر كبير .. وانا واقفة فوق فروع شجرة ميتة كالبومة اطل بعينين مفتوحتين واقفتين على وادى الموت ..

وقد اشتد احساسى أيامها بأنى بومة .. لقد كان كل من يرانى يشبهنى بالقطة .. وجهى كوجه القطة .. ولكنى أصبحت

احس انى أشبه البومة .. وتملكنى هذا الاحساس الى حد أن اشتريت تمثالا صغيرا ، كنت أضعه أمامى ساعات طويلة وانظر فيه كأنى انظر فى مرآتى ..

واتكلم .. فأحس انى كالأسطوانة المشروخة ، اقول اليوم نفس ما قلته بالأمس .. وأقول لسامى ما اقوله لطلال ونفس ما أقوله لغسان .. نفس ما اقوله لكل واحد من الخمسة .. ولكل من أعرفهم .. ونفس ما قلته فى العام الماضى .. ونفس ما سأقوله غدا .. وفى العام القادم .. وصوتى لا تتغير رنته .. لا يرتفع ولا ينخفض .. كصوت البومة ..

وكدت أجن ..

والنوبات العصبية تلاحقنى ..

وأبى وأمى لا يستطيعان شيئا الا ان يستسلما لكل ما اطلبه ، ولكل ما أفعله .. وأمى تحرص على أن تناولنى حبات زيت السمك ، وحبات فيتامين « ب » ، وتحرص على أن تسقينى كوبين من اللبن فى اليوم .. اعتقادا منها أن أزمتى نتيجة ضعف صحتى .. ولم أكن أشرب اللبن .. كنت أسكبه من نافذة حجرتى .. وأنظر الى خيط اللبن وهو ينسكب فى الفضاء ويخيل الى انى أسكب الضباب المتجمع فى صدرى .. واشعر برهة بالراحة وانا اسكب اللبن ، أكثر مما اشعر بالراحة وانا اشربه ..

وقد حاولت أن اتغلب على حالتى هذه ..

قررت أن أشتغل .. ان اعمل ..

وكل مكان ذهبت لأعمل فيه ، استقبلنى صاحبه بترحاب كبير .. ربما لأنى جميلة ، وربما لأنى ابنة الحاج عبد الرحمن التاجر الكبير .. وفى بيروت لايسألون عن كفاءتك ، ولكنهم يسألون عن اسم ابيك !

وقد اشتغلت أياما فى الاذاعة . وأياما فى محل ازياء .. وأياما فى بنك ..

وفى كل مكان كانوا يحددون لى راتبا قبلأن أبدأ فى العمل .. راتبا أكبر بكثير مما أستحقه .. وصل الى خمسمائة ليرة فى الشهر .. لمجرد انى جميلة ، وابنة الحاج عبد الرحمن .. ويستطيع كل صاحب عمل أن يزهو بأنى أعمل عنده ، حتى لو لم اعمل شيئا .. كل منهم يعلقنى على صدره كالوردة .. وكل منهم يدعونى أن اذهب معه الى حفلات الكوكتيل التى يدعى اليها ، لا لشىء الا ليزهو بى أمام زملائه .. كأنى ركلام للشركة !

واختنقت فى جو العمل .. انه يكلفنى احتمال سخافات كثيرة .. واحتمال هذه النظرات اللزجة اللئيمة التى تلاحقنى من مكتب الى مكتب .. واحتمال شره رجال عجائز فى الستين وأكثر .. ووجدت نفسى مضطرة الى النفاق .. ومضطرة الى التغابى عن معانى الكلمات والنظرات التى تنتشر حولى .. بدأت أكره نفسى .. أتقزز من نفسى ، وعندما جاء اول الشهر ، وأخذنى زملائى معهم الى الصراف ، ومددت يدى لأقبض أول مرتب ، ارتعشت من التقزز .. احسست كأنى امد يدى الى ثعبان ليلدغنى .. وازدحمت دمائى فى رأسى .. دماء تغلى ، وتحرق وجنتي .. فسحبت يدى بسرعة .. قبل أن المس الليرات .. وجريت وزملائى يضحكون ورائى .. وضحكاتهم تصيبنى كقطع الطوب ..

وهربت سريعا من أوساط العمل فى بيروت ..

ان دماء بيروت تسفك على هذه المكاتب وفى هذه الدكاكين .. كل ما فى الانسان من خير وكرامة ، واحساس ، يعتصر ليتحول الى ليرات .. الى ورق .. والذين يعملون فى بيروت ،

ناس من رخام .. جف ما فيهم من خير .. ومن كرامة .. وتحولوا الى رخام .. و ..

وفى هذه الأيام قابلت تيسير ..

كنت ألمح تيسير دائما فى مقهى فيصل ، وفى الأونكل سام ، وفى الدولشفيتا .. كان دائما حيث أكون .. وكنت التقى بعينيه احيانا وهما يتطلعان الىّ ، ولكنه لم يحاول أبدا أن يفتعل مناسبة ليقدم نفسه الىّ .. حتى عندما كان يرانى جالسة مع بعض أصدقائه ، لم يكن يحاول ان يقحم نفسه علينا .. وهو شاب وسيم .. فى حوالى الحادية والعشرين من عمره .. أبوه سورى ، وأمه لبنانية .. ومات أبوه .. ولم يترك شيئا لعائلته .. فعادت به أمه الى بيروت ، لتقيم مع عائلتها .. واضطر تيسير أن يعمل .. عمل فى احدى شركات السياحة ، بمرتب ضئيل لا يتجاوز المائتين والخمسين ليرة فى الشهر .. وفى نفس الوقت كان يتم دراسته فى الجامعة الأمريكية ..

عرفت كل ذلك من حديث أصدقائه عنه .. ولم أهتم .. الى أن قدموه لى فى حفلة من حفلات الجامعة .. ووجدت نفسى اتساءل وأنا أمد يدى لأصافحه .. هل يمكن أن يكون شيئا جديدا .. هل يمكن ان يثير فى احساسا جديدا يخلصنى من هذا الزهق ..

وتيسير يطل علىّ بعينين ثابتتين متعاليتين فيهما كبرياء متحفزة كأنه يهم بأن يضربنى لو جرحته بكلمة ..

ولم أجرحه ..

ولكنى ارتحت الى حديثه .. انه يتحدث كثيرا فى السياسة .. وأنا لا أحب السياسة ولكنى أحب حماسه وهو يتحدث فى السياسة .. حماس ينبض بالسخط ، ويكاد يمزقه ..

وأصبح تيسير صديقى ..

كل يوم نلتقى ..

عرفت به ..

وعرفت بى ..

وليس معنى ذلك أننى تخليت عن أصدقائى الخمسة .. او عن مسؤوليتى عنهم .. لا .. ولكن صداقتى لتيسير جعلتنى اقل ضيقا بهذه المسئولية .. ولم يكن تيسير يعترض على صداقتى لغيره .. كانت كبرياؤه تقف فى حلقه وتمنعه من أن يفصح عن غيرته علىّ ..

وكنت أنا لا أزال اتساءل .. هل يمكن أن يكون تيسير شيئا آخر فى حياتى .. هل يمكن أن أحبه ..

الى أن كان يوم .. ومشى معى ليعود الى البيت ..

ووقف بى أمام باب بيتى .. وأخذ ينظر الىّ طويلا بعينيه الثابتتين المتعاليتين ، كأنه يحاول أن يتخذ قرارا .. ثم ، كأنه اتخذ القرار .. مشدنى اليه ، وضمنى الى صدره ، وأخذ يقبلنى قبلات كثيرة على وجهى .. وأشحت برأسى حتى تنزلق قبلاته على عنقى ..

وهمس تيسير ، بصوت مبحوح :

ــ احبك يا رو .. احبك ..

وانفلت منه وجريت الى داخل البيت .. ووجهى وعنقى لا يزالا يطنان بقبلاته ..

منذ شهور طويلة لم يقبلنى احد .. ورغم ذلك فانى لا احس بأن فى قبلاته شيئا جديدا .. لا احس .. هذا الاحساس الذى يكمن فى أعماقى لم يطف الى السطح .. ولكنى كنت فى حاجة الى شىء جديد .. فى حاجة الى الاحساس بجديد ..

فافتعلته .. أخذت أقنع نفسى طول الليل بأن تيسير ليس كالآخرين ، وأن قبلاته شىء جديد .. لم يكن هذا صحيحا ، ولكنى افتعلته ..

وأصبح تيسير يقبلنى دائما ..

هو وحده — دون بقية أصدقائى — الذى يقبلنى ..

ثم استسلمت لمحاولة تقبيلى على شفتى .. ولم احب قبلاته على شفتى ، ولكنى اصبحت اكثر احتمالا لها ..

انى افتعل ..

افتعل الحب ..

افتعله ، لانى لا اجده ..

وكنت كلما خرجت مع تيسير وجلسنا فى مقهى ، او ذهبنا الى السينما ، دفع كل منا ثمن ما طلبه .. او ثمن تذكرة السينما .. وكانت هذه هى عادتى مع كل من أخرج معه .. انى احس بحريتى وبشخصيتى أكثر عندما لا أكون مدعوة مع احد .. وفى أحد الأيام ، طلبت من تيسير أن يصحبنى فى سيارة تاكسى الى بيتنا .. وقبل أن انزل من السيارة اعطيته ورقة بخمسة وعشرين ليرة ليدفع اجر التاكسى ، ويرد لى الباقى فى اليوم التالى ..

لم يكن فى هذا شىء شاذ ، فأنا التى طلبت التاكسى ..

ولكن تيسير لم يرد الىّ باقى الخمسة والعشرين ليرة ..

ولم أنتبه ..

ولم أهتم ..

وفى مناسبة أخرى ، لم يرد لى الباقى ايضا ..

وايضا لم أهتم ..

ثم اقترض منى مائة ليرة ..

ولم يردها ..

وبدأت أنتبه ..

ولم أغضب منه .. لم ألمه .. لا اهتزت صورته فى عينى .. ابدا .. انى اقدر حالته .. انه فقير ، مرتبه لا يزيد عن مائتين وخمسين ليرة ، وهو مسئول عن أمه .. بل انى معجبة به .. معجبة بكفاحه فى سبيل الحياة وفى سبيل أن يتعلم .. أنا معجبة به فعلا ..

وبدأت اتعمد ان اعطيه ، فى حدود ما استطيع ان اخذ من ابى وامى ..

أعطيه دون أن اجرح كرامته ..

ولم تجرح كرامته .. لا تزال فى عينيه هذه النظرة الثابتة المتعالية التى تنبض بالكبرياء المتحفزة .. ولكنه اصبح اكثر احتمالا لى .. احتمالا لنزواتى .. ولعصبيتى .. أصبحت أقوى منه .. شخصيتى اقوى من شخصيته .. لم اعد اخاف أن تمتد يده يوما ويصفعنى ..

وبيروت كلها تتحدث عنى وعنه ..

وهو سعيد لأن بيروت تتحدث عنى وعنه .. ويخفى سعادته فى غلالة رقيقة من السخط ..

وأنا لا أهتم ..

ثم ..

سألنى أن نتزوج ..

وقلت كأنى ادافع عن نفسى :

— ولكننا لا زلنا صغارا ..

قال وهو ينظر الىّ بعينين مبتهلتين :

— حبنا اكبر من عمرينا ..

— حرام أن نسجن حبنا بين اربعة جدران ..

قال :

— انى أخاف على حبنا من ان نتركه طليقا بلا زواج ..

قلت :

— انك تؤمن بالحرية .. لا يمكن أن تطالب بالحرية للبلد ، ثم تطلب لى السجن ..

قال :

— ليس سجنا .. .. انى أطلب لكلينا الاستقرار ..

قلت :

— انى لا أحس بأنى أريد أن أستقر .. لا أريد الزواج ..

قال :

— كأنك لا تحبيننى ..

قلت ونيار الملل يسرى فى أعصابى :

— أحبك ولكن الزواج شىء آخر ..

قال :

— الزواج عرش الحب ..

قلت :

— لا أريد أن أجلس على عرش .. لا أريد أن أجلس اطلاقا .. لا تحدثنى عن الزواج .. أحس بك كأنك انسان عادى .. وأنا أكره أن أحس بك كانسان عادى .. مجرد رجل ..

ولكن تيسير لم يكف عن حديث الزواج ..

شهور طويلة مضت .. وحديثه ينطلق فى أذنى كالصرير .. ويكف عنى أياما .. ثم يعود ويملأ أذنى كالصرير . ونتشاجر .. ونغضب .. ثم نعود ويعود الصرير ..

وفى يوم أخذ تيسير سيارة أحد أصدقائه ، ودعانى لنذهب

الى الجبل .. ولم أحاول أن أتبين الطريق الذى أختاره .. ولكنه كان صامتا .. وفى عينيه نظرات غريبة .. فيهما عناد أقرب الى اليأس .. ثم وقف بنا عند قرية « حمانا » على طريق صوفر .. والتفت الىّ قائلا بصوت مجنون :

— اننا سنذهب لزيارة بعض أصدقائى .. وقد أبلغتهم اننا جئنا اليهم لنتزوج .. وقد أعدوا كل شىء .

وصرخت فيه :

— انت مجنون ..

قال والجنون يطل فعلا من عينيه :

— لست مجنونا .. ولكنى أعلم انك تحبيننى ، وأنا أحبك . ويجب أن نتزوج ..

قلت صارخة :

— عد بى الى بيروت ..

قال :

— بعد أن نتزوج .

قلت له وأنا أبتسم له كأنى أذكره بكبريائه :

— انك لا ترضى أن تتزوج فتاة لا تريد أن تتزوجك ..

قال :

— انها تريد .. ولكنها تعاند ..

قلت :

— انتظرها الى أن تشفى من عنادها .

قال :

— انتظرت طويلا ..

قلت :

— انتظر أيضا ، ان كنت رجلا ..

قال :

ـــ الرجال لا ينتظرون .. ولكنهم يأخذون ..

قلت :

ـــ تقصد اللصوص ..

ورفع يده وهم أن يصفعنى ، ولكنى تفاديت الصفعة .. وفتحت باب السيارة .. وجريت .. جريت .. لا ادرى كم جريت .. ولكنى أحس انى أتدحرج فوق الجبل .. كل شىء فى يتدحرج .. قلبى .. راسى .. معدتى .. ودموع تتدحرج فوق خدى ..

ولحق بى بالسيارة ، ووقف بجانبى ، وسمعت صوته كأنه آت من بعيد .. من بعيد جدا .. من بطن الوادى ..

ولكنى اجرى .. لا أستطيع أن اتوقف عن الجرى .. ونوبة عصبية عنيفة تتملكنى كلى ..

ـــ اركبى .. سنعود ..

ونزل من السيارة ، وجرى ورائى ، وامسك بى من كتفى .. وأخذ يهزنى وهو يردد :

ـــ سنعود .. لن نتزوج ..

وانا أصرخ .. لا افعل شيئا الا الصراخ ..

وأرتعش ..

وحملنى بين ذراعيه ..

ووضعنى فى السيارة ..

وعاد بى الى بيروت ..

وبقيت أياما فى البيت .. لا اخرج .. راقدة فى فراشى .. وتيسير يتصل بى فى التليفون مرات .. عشر مرات فى

اليوم .. اكثر .. وانا بعيدة عن التليفون .. وعندما تحمله الى أمى او اختى أو الخادم ، ارفض أن أرد عليه .

وأهلى فى لهفة على ..

والأطباء يكتفون بأن يصفوا لى الأدوية المقوية ..

ثم بدأت أتناول حبات « الليبرم » لتهدأ اعصابى .. وانام .. ثم أفقت ..

بدأت أسترد كيانى ..

وخرجت ..

عدت الى حى « الحمرا » والشوارع المحيطة بالجامعة ، واستريوهات بيروت ..

والزهق والملل يخنقانى ..

لم يعد امامى الا أن اترك بيروت .

كل بيروت ..

لم يستطع احد من اهلى ان يثنينى عن عزمى ..

يجب أن أترك بيروت ..

وكنت ذاهبة الى لندن ..

ولكنى فجأة اخترت القاهرة .

وقالت أمى عندما سمعت بالخبر الجديد :

ـــ لماذا القاهرة ، كل العائلات الكبيرة تركت القاهرة ، لن تجدى فيها الا المفلسين .. بل لن تجدى فيها ثوبا واحدا يغريك بالشراء ..

ولم تكن امى تستطيع أن تجد سببا لسفرى الا البحث عن زوج بين العائلات اللبنانية المهاجرة ، أو شراء ثياب جديدة ..

وصممت على القاهرة ..

مجرد احساس ..

وخضع الجميع للبنت المجنونة ..

وبدأ أبى يعد لى حياتى فى القاهرة .. حول لى النقود .. واتصل بعائلة محى الدين التى سأنزل فى ضيافتها .

وبدأ كل أفراد العائلة يوصوننى بأشياء من القاهرة ..

وتجمعت لدى أرقام التليفونات لبنات لبنانيات يقمن فى القاهرة ملتحقات بالجامعة . وأعطانى عمى خطابا لأحمله الى طبيب فى القاهرة اسمه الدكتور هاشم عبد اللطيف .. قال لى انه طبيب مشهور ، ومهذب ، ومن عائلة كبيرة ، وله نفوذ .. وانه يستطيع أن يخدمنى اذا احتجت الى شىء ..

ان عمى طبيب أيضا .. وهو يحاول أن يستغل كل شىء بنفس اللباقة والطيبة والحنو الذى يستغل به مرضاه .. وهو يحاول أن يستغل سفرى الى القاهرة لأكون ساعى بريد ينقل خطاباته الى أصدقائه .. لا .. لست ساعية بريد .. والقيت الخطاب الذى أعطاه لى فى احدى حقائبى ، فى اهمال شديد ..

ولم تعد أذناى تلتقطان شيئا من التوصيات التى تنهال على .. كل أذناى متحفزتان لسماع محرك الطائرة ..

ووقف أبى يودعنى فى المطار ، واحتضننى الى صدره ، وعيناه مغرورقتان بالدموع .. وقال فى صوت مختنق :

— لا تتأخرى .. ثلاثة أسابيع فقط ..

انه يخشى ألا أعود .. كما فعل ابنه الذى سافر الى أمريكا ، وابنه الثانى الذى سافر الى بلجيكا ..

كانت أيامى فى القاهرة .. كارثة !

عائلة محيى الدين التى أقمت عندها تضم نماذج بشرية عجيبة ...

« طنط نازلى » .. وهى عجوز فى التسعين من عمرها ربما أكثر .. ترقد فى سريرها كالميتة .. لا تقوم منه .. وجهها أصفر كالميتة .. وشعرها متآكل سقط معظمه .. وتصرخ كل خمس دقائق فى صوت مبحوح سنية .. سنية .. وسنية هى احدى خادمات البيت .. ضخمة كالسجانة .. ثم « طنط ميمى » ، ابنة نازلى .. فى السبعين من عمرها .. لا تكف عن الحركة فى أنحاء البيت وتسير متوكئة على عصا من الأبنوس لها مقبض ذهبى أنيق ... وفى كل خطوة من خطواتها تصدر أمرا .. ولكن لا أحد يأبه بأوامرها .. حتى ولا الخدم .. انهم يتركونها تتحرك وتصدر الأوامر .. كأنهم يعتبرونها مجنونة ... ثم « طنط لولى » .. ابنة طنط ميمى .. فى الخمسين أو أكثر .. هى حاكمة البيت .. قوية .. شعرها أكله الشيب .. تسير وهى تدب على الأرض فى خطوات حازمة .. وفى عينيها قسوة تحاول أن تخفيها وراء ابتسامة باهتة تقطر نفاقا .. وزوجها هو عميد العائلة .. محمد محى الدين .. فى الخامسة والستين من عمره .. منهار .. كل شىء فيه منهار .. عيناه منهارتان .. شفتاه منهارتان .. أنفه منهار .. كرشه منهار .. ساقاه معوجتان منهارتان .. ثم أخيرا ، عايدة .. ودودى .. ابنة طنط لولى .. فى الثلاثين من عمرها .. تعتبر نفسها أحيانا أديبة ، وتكتب قصصا بالفرنسية .. وأحيانا تعتبر نفسها صانعة تماثيل .. أى مثالة .. ولها غرفة فوق سطح البيت ، تجمع فيها أكواما من الطين ، وتقف بينها مرتدية معطفا أبيض ، وتصنع تماثيل لا معنى لها .. ولكنها كلها بشعة مخيفة ، أشبه بالأشكال التى نراها عندما يدهمنا كابوس .. وزوجها لا أدرى ماذا يعمل ..

ولكنه يغيب اياما ، ثم يعود .. ولا أرى الدهشة على وجه احد اذا غاب ، ولا الفرحة اذا عاد .. وأسمه رفيق .

وهذه العائلة التى تضم أربعة اجيال .. تقيم فى بيت واحد فخم ، يطل على النيل ، تزدحم فيه قطع من الأثاث القاتم الغامق ... وانا اكره الطراز القديم لقطع الأثاث ... انه يقبض قلبى .

وقد بذلت العائلة كل جهدها لترحب بى .. استقبلونى فى المطار .. وخصصوا لى أجمل حجرات البيت .. حجرة تطل على النيل .. وأقاموا لى حفلة عشاء كبيرة دعوا اليها عائلات لبنانية كثيرة .. ودعتنى دودى الى العشاء فى اليوم التالى مع بعض اصدقائها وصديقاتها فى ستريو الهرم ، وحرصت على أن تدع بعض الشبان فى مثل سنى ليراقصونى .. ورغم ذلك فقد كنت اشعر بأن كرمهم ليس كرما طبيعيا .. وأن ترحيبهم ليس من القلب .. لا أدرى لماذا .. ربما ظنوا أن أبى قد أرسلنى اليهم لأذكرهم بأنهم مدينون له بعشرة آلاف ليرة .. وقد بدأ محمد محيى الدين يحدثنى منذ اليوم الأول لوصولى عن سوء احواله المالية .. لقد كان يملك مصنعا كبيرا اخذته الحكومة .. اخذت كل شىء .. ولم يعد محمد محبى الدين يملك فى مصر سوى عمارة تطل على ميدان التحرير .. والعائلة كلها تعيش على ايراد هذه العمارة .. ولم يكن لى شأن بكل هذا .. ولم احاول أن اسأله لماذا اخذت الحكومة مصنعه .. فأنا لم احضر الى القاهرة لأفهم ماذا يجرى فى مصر .. ولا ماذا يجرى للعائلات اللبنانية المقيمة فى مصر .. وربما احسست ساعتها أن محمد محيى الدين كان يقول لى كل هذا الكلام كأنه يعتذر لوالدى عن عدم سداد دينه .. ورغم أن حديثه كان مملا عقيما الا انه اثار شفقتى ..

وبعد يومين بدأت أختنق فى هذا البيت الكبير ..

اصبحت لا أطيق أن أطل من شرفة غرفتى على منظر النيل .. لقد كنت أتصور النيل دائما ، نهرا طيبا صافيا ، تميل عليه اشجار النخيل لتغسل رؤوسها فيه .. نهرا حالما ، فيلسوفا ، عجوزا .. ولكنى أراه الآن عربيدا ، مخيفا ، مياهه داكنة سوداء لا تفصح عما فى اعماقها .. أراه كالثور المتوحش اللئيم .. ويخيل الىّ كلما نظرت اليه كأنه يحاول أن يشدنى من أقدامى ليبتلعنى ..

واصبحت كلما سقطت عيناى على وجه طنط نازلى وهى راقدة فى فراشها .. أحس كأنى مثلها .. فى مثل عمرها .. فى صفرة وجهها .. وكلما سمعت صوتها ينادى سنية .. أحس كأنى أسمع نداء الموت يدعونى اليه .. ثم اذا صافحت عينى وجه طنط ميمى .. خيل الىّ ايضا أنى مثلها .. وشعرت أنى فى حاجة الى عصا أتوكأ عليها فى سيرى .. عصا من الأبنوس لها مقبض مذهب .. ثم ألتقى بوجه طنط لولى فأشعر بنفس الاحساس .. اشعر بأنى أنا أيضا قاسية مثلها ، منافقة مثلها .. لقد اصبحت اتقمص شخصيات البيت واحدة بعد أخرى ، وكلها شخصيات تعيسة ، بائسة ، منهارة .. ليس بينها شخصية مرحة شابة ، تثير فى المرح والشباب .. وأحاول أن أخلص نفسى من هذه الشخصيات القاتمة .. أحاول أن أحتفظ بشخصيتى .. بشبابى ومرحى وانطلاقى .. ولكن هذه الشخصيات تلاحقنى ، وتتقمصنى كالعفاريت ..

والعائلة لا تزال تبذل كل جهدها لترفه عنى ، وقد كلفوا دودى بمرافقتى .. على اعتبار أنها اصغر من فى البيت سنا .. ولكن دودى لم تخف تذمرها منى .. انها ترافقنى كأنها مكلفة من مصلحة السياحة بمرافقة سائحة عجوز مملة .. كأنها تقوم

بمهمة ثقيلة تتقاضى عليها أجرا .. انها انسانة معقدة .. ولا ادرى سر عقدتها .. وربما كانت تغار منى .. لا أدرى .. ولكنها قطعا لا تحبنى .. وقد أخذتنى فى السيارة الى الهرم .. وأشارت بيدها وهى داخل السيارة وقالت فى ملل :

ـــ هذا هو الهرم ..

ثم تحركت السيارة الى أبى الهول ، وقالت دودى بنفس الملل :

ـــ هذا هو أبو الهول .

وقد تركتها فى السيارة ، ونزلت أمشى بجانب الهرم وأبو الهول .. وأنظر اليهما فى زهق .. شو ندى ، بهذه القطع الضخمة من الحجارة .. حجارة .. مجرد حجارة .. ما الفرق بين حجر عمره مليون سنة وحجر عمره يومان .. وما الفرق اذا كان تحت الحجر ملك مثل خوفو .. أو كان تحته سحلية .. الناس الذين يأتون الى القاهرة ليشاهدوا الهرم مجانين ..هبل .. واجمل وأروع الف مرة من الهرم .. البنطلون الذى كنت أرتديه يومها .. بنطلون مخطط « سترتش » .. وشعرى السائل على وجهى .. والكحل حول عينى .. نعم ، ان أجمل من كل ما صنعه الانسان ، هو الانسان نفسه .. وقد أثرت اهتمام كثير من السائحين الذين كانوا يتجولون حول الهرم .. كثير منهم أحسوا أنى أكثر روعة من الهرم فأداروا نحوى آلات التصوير ، والتقطوا لى كثيرا من الصور .. بعضهم صورنى بعد أن استأذننى .. وأحسست بأنى لا أثير الانتباه والدهشة فى لبنان وحدها ، بل فى كل مكان أذهب اليه .. وربما لو كنت فى لبنان لما سمحت لأحد ان يلتقط صوتى .. فأنا هناك لست فى حاجة الى دليل يشعرنى بنفسى .. ولكنى هنا .. ووسط هذا الملل الذى أعيش فيه .. كنت فى حاجة الى أى دليل لبشعرنى بأهميتى ..

وعدت الى البيت القاتم ..

الأحاديث كلها تدور حول لبنان .. وعائلات لبنان .. والأطعمة التى تقدم كلها لبنانية .. يا رب .. اين مصر .. أين القاهرة .. ان كل ما فعلته بنفسى هو أنى تركت لبنان كله ، وعائلات لبنان كلها ، وسجنت نفسى فى بيت واحد من بيوت لبنان .. وفى وسط عائلة واحدة من عائلات لبنان .. لقد تركت لبنان وأنا أحلم بعالم أوسع .. بحرية أكثر .. ولكنى أفقت لأجد نفسى سجينة فى أضيق ركن من أركان لبنان .. فقدت حريتى .. لقد كنت حرة بين أبى وأمى ، أكثر مما أنا فى بيت عائلة محيى الدين ..

وبعد أيام اتصل بى عصام .. وهو شاب لبنانى فى جامعة القاهرة ، ويعرف عائلتنا ، وقد أرسل له بعض أصدقائى فى لبنان بخبر وصولى الى القاهرة واقامتى عند عائلة محيى الدين ، فاتصل بى ..

كنا قبل الظهر .. وعرض علىّ أن يمر علىّ بسيارته لنخرج سويا ..

وقبلت عرضه بسرعة ..

وخرجت اليه وأنا ألبس البنطلون وحذاء بلا كعب ، وفى يدى قلم الكحل وورقة الكلينكس وبضعة جنيهات مصرية .. وكدت أنسى أن أستأذن طنط لولى قبل أن أخرج .. فانى لم أتعود أن أستأذن أحدا .. لا أبى ولا أمى .. ولكنى وجدت أن من اللياقة ان أستأذن طنط لولى .. فاستأذنتها وقلت لها انى خارجة مع عصام .. وسألتنى عن عائلة عصام .. وعن سنه .. وعن

.. وعن .. وبدات اجيبها فى زهق .. وربما خافت من زهقى ، فكفت عن أسئلتها ، وسمحت لى بالخروج ..

وكان مع عصام ، صديق آخر .. هشام .. لبنانى ايضا ..

وقال لى عصام :

ــ نذهب الى الهرم ؟

وصرخت :

ــ لا .. اى مكان الا الهرم .. انى لم ار القاهرة بعد ..

وأخذنى عصام الى كافتيريا هيلتون .. وفى دقائق وجدت نفسى جالسة بين سبعة شبان لبنانيين .. بعضهم من الطلبة الذين يتلقون العلم فى القاهرة .. وبعضهم جاءوا الى القاهرة زائرين .. وفى دقائق أخرى أحسست أن كل الجالسين فى الكافتيريا من اللبنانيين .. وأنى لست فى كافيتيريا هيلتون بالقاهرة ، ولكنى جالسة فى « سناك بار ستاركو » ببيروت .. نفس الشخصيات .. نفس الوجوه .. نفس مواضيع الأحاديث .. كل الذى اختلف هو اللهجة التى يتحدث بها أصدقائى الجدد .. انها ليست لهجة لبنانية صميمة .. ولا لهجة مصرية صميمة .. انها خليط مائع بين اللهجتين .. وأول ما يحاوله اللبنانى فى القاهرة هو أن يلتقط اللهجة المصرية .. وكثير من صديقاتى اللاتى جئن الى القاهرة عدن ليتحدثن فى بيروت باللهجة المصرية .. كأنهن يزهون بثوب جديد استوردنه من هناك .. بل ان اللهجة المصرية فى بيروت علامة من علامات الانتماء السياسى والثقافى .. البعض يتحدث باللغة الفرنسية .. والبعض يتحدث باللغة الانجليزية .. والبعض يتحدث باللهجة المصرية .. والذى يتحدث باللغة الفرنسية تعلم انه يحب فرنسا .. والذى يتحدث باللغة

الانجليزية تعلم أنه يحب امريكا .. والذى يتحدث باللهجة المصرية تعلم أنه يحب عبد الناصر ..

ولكنهم فى الواقع لا يتحدثون باللهجة المصرية ، ولكنها لهجة مائعة ضائعة ، كمشية الغراب الذى حاول أن يقلد العصفور ، فلا استطاع ان يكون عصفورا ، ولا أن يكون غرابا ابله .. لن اقلد العصفور .. لن أقلد اللهجة المصرية .. لا لأنى شعرت بشخصيتى اللبنانية وتحمست لها .. ابدا .. ولكننى احسست بالألفاظ المصرية ثقيلة على شفتى .. احسست كأنى اصبغ شفتى بلون لا يبرز جمالهما .. وأنا أعلم أن فى اللهجة اللبنانية كلمات غليظة تملأ الفم كقطع الطوب .. ولكنى لا استعمل هذه الكلمات .. ان ذوقى فى اختيار ألفاظى وطريقة نطقى ، لا يقل رقة عن ذوقى فى اختيار ثيابى وتسريحة شعرى .. انى فى لبنان نفسها معروفة باللهجة اللبنانية التى اتحدث بها ... لهجة قد يكون فيها بعض الدلع كما قال لى يوما سامى .. ولكن ليس فيها قطعا غلاظة اللهجة اللبنانية .. المهم .. لقد قررت بينى وبين نفسى الا التقط بشفتى شيئا من اللهجة المصرية ، مهما امتلأت أذناى بهذه اللهجة .. احساس .. مجرد احساس دفعنى الى أن أرفض اللهجة المصرية ..

وتغدينا يوما فى كافتيريا هيلتون انا والشبان اللبنانيون .. دون أن أستأذن طنط لولى ..

وذهبنا بعد الغداء الى السينما ..

وخرجنا من السينما لنتمشى فى شارع قصر النيل ، وشارع سليمان .. انى أحب هذين الشارعين .. لا لأنهما شارعان تجاريان مزدحمان .. لا .. ان معروضات الدكاكين فى القاهرة لا تساوى شيئا بجانب معروضات دكاكين بيروت .. وكل ميزاتها

أنها رخيصة .. رخص التراب .. ولكنى احب هذين الشارعين لأنهما اكثر شوارع القاهرة حياة .. وضجة .. وأنا أحب الحياة والضجيج ..

وعدت الى البيت القاتم ..

واستقبلتنى طنط لولى ، وعلى شفتيها ابتسامة نفاق تحاول أن تخفى بها ، قسوة عينيها ، وقالت فى رقة مفتعلة :

— كنت أرجو أن تبلغينا حتى لا ننتظرك على الغداء ..

قلت .. وأنا أحاول أن أكتم عصبيتى .. ان أعصابى تؤلمنى كلما هم احد ان يحاسبنى :

— آسفة .. لا تنتظرونى مرة ثانية .. انى اكره أن ينتظرنى احد ..

وسكتت طنط لولى ، وهى تزفر أنفاسها ، كأنها تحسب الأيام التى سأقضيها فى بيتها ، حتى تتخلص منى .

وأصبحت أخرج كل يوم مع شلة عصام .. نتغدى فى الكافتيريا .. ونذهب الى السينما .. وأحيانا أذهب معهم الى حفلات تقيمها الجامعة الأمريكية .. ونسهر فى الاستريو أو فى ملهى شبرد .. ونرقص .. وكنت أضحك على المصريين وهم يرقصون .. انهم يبدون كأنهم يهرولون فى بنطلونات واسعة وفى فساتين تجرجر على الأرض .. المصريون والمصريات لا يعرفون الرقص .. انهم يرقصون كأنهم يرتكبون فضيحة .. بعضهم يرقص فى خجل ، وبعضهم يرقص فى وقاحة .. الرقص يبدو غريبا عليهم كأنهم يقلدون فيه شعبا آخر .. وينسون احيانا فيخلطون بين رقصة التشاتشا والرقص البلدى .. انهم لا يرقصون مثلما نرقص فى بيروت .. اننا فى بيروت نرقص الرقصات الحديثة كأنها وضعت خصيصا لنا ، لا كأننا نقلد شعبا آخر ..

والرقصات تصل الى بيروت فى نفس اليوم الذى تظهر فيه فى باريس أو روما أو نيويورك .. وقبل أن تصل الى القاهرة بشهور .. وقد جئت الى القاهرة فلم أجد احدا يعرف شيئا عن رقصة « الباسانوفا » فى حين أن بيروت كانت ترقصها منذ شهور ..

ويوم بعد يوم تتسع شلة الأصدقاء حولى .. وكلهم بنات وشبان لبنانيون ، وأردنيون ، وفلسطينيون ، وسوريون .. وقد اخترت من بين كل هؤلاء هشام ، الذى التقيت به يوم أن التقيت بعصام ، ليكون صديقا لى .. الصديق الذى ينسب الىّ .. ربما لأنه كان أحوج الجميع الى صداقتى .. ولأنه كان يضحكنى كثيرا بسذاجته ، وان كان كثيرا ما يفتعل هذه السذاجة ، ليضحكنى أكثر .. صديق .. مجرد صديق .. هو المكلف بأن يصحبنى من البيت الى حيث تواعدت الشلة على اللقاء .. وهو الذى اختاره ليذهب معى الى السينما ، حتى لو ذهبنا وحدنا .. وهو الذى يحدثنى فى التليفون ويعرف برنامجى اليومى .. ولا أكثر .. لا شىء أكثر .. حتى ولا هذه القبلات التى كنت أسمح لأصدقائى فى بيروت بأن يضعوها على خدى ، وأتركها أحيانا لتنزلق على عنقى ..

ثم ..

بدأت من جديد أحس انى لم أر القاهرة بعد .. انى لم أدخل بيتا مصريا .. ولم أعرف بنتا مصرية .. ولا شابا مصريا .. ولم أر شيئا يمكن أن يميز القاهرة سوى هذا النيل الذى يحاول أن يجرنى من قدمى ليبتلعنى .. وهذه الشمس التى تظل مفتحة طول النهار كأنها تجرى ورائى .. لا تحاول أن تستريح خلف سحابة ولا تحاول أن تكف عن ملاحقتى .. وبعد ذلك .. أحس بأنى لا زلت فى بيروت .. أحس انى أعيش فى صورة مشوهة

سخيفة من بيروت .. ان المجتمع اللبنانى فى القاهرة الذى احتوانى .. مجتمع منعزل .. يغلق على نفسه بابا لا ينفتح على مصر .. ولا يسمح بالدخول فيه الا للأردنيين ، والفلسطينيين ، والسوريين ، حتى يستكمل صورة مجتمع بيروت .. ولا ادرى هل المصريون هم الذين عزلوا اللبنانيين فى مجتمع خاص بهم .. أم ان اللبنانيين هم الذين عزلوا انفسهم فى مجتمع يتنقل بين كافتيريا هيلتون ، والنادى الشرقى ، وباب الجامعة الأمريكية ، وبيوت الطلبة الغرباء .. واستريو الهرم ..

ولم أدر كيف أجد الطريق الذى يقودنى الى القاهرة .. كيف احس أنى تركت لبنان .. والزهق والملل يعاودانى .. وأحس أحيانا بنوبة الاختناق تقترب منى .. وبدأت أفكر بعد أسبوعين فقط فى ان أعود الى لبنان .. خير لى أن أعيش فى لبنان ، من أن أعيش فى صورة مشوهة من لبنان .. ومن هناك لعلى أفكر فى السفر الى بلد آخر .. بلد ليس فيه مجتمع لبنانى يمتصنى ، ويصر على أن يبقينى فى داخله ..

الى أن كان يوم ..

وكنت فى حجرتى بالبيت القاتم ، أقلب فى حقائبى ، عندما عثرت على الخطاب الذى أعطاه لى عمى الدكتور محمود شمس الدين .. كنت قد نسيت هذا الخطاب ونسيت امره منذ وصلت الى القاهرة ..

وقرأت العنوان ..

الدكتور هاشم عبد اللطيف ..

ثم العنوان :

ميدان سليمان باشا ..

ثم رقم التليفون ..

وأمسكت الخطاب فى يدى .. أفكر .. ولم افكر فى انى لم اقم بخدمة صغيرة طلبها منى عمى .. ولم يكن يهمنى حتى بعد ان وجدت الخطاب وتذكرته أن أوصله لصاحبه .. ولكنى كنت أفكر فى هذا الدكتور هاشم . انه مصرى .. لقد قال لى عمى انه مصرى .. ولكن لعله عجوز .. ولعله منافق .. فيه هذا الوقار المفتعل والطيبة المفتعلة اللذان يتظاهر بهما كل الأطباء .. ولكنه مصرى .. يكفى انه مصرى ... ولعلى احس عن طريقه بشىء من مصر .. ان مجرد رؤية طبيب شىء جديد علىّ ..

وحملت الخطاب واتجهت الى التليفون وأدرت رقم الدكتور هاشم ، وأنا احس كأنى اقوم بمغامرة .. وسمعت صوتا مهذبا مؤدبا يرد علىّ ، وقلت وأنا أحاول ان أخفف من لهجتى اللبنانية كأنى أحسست بها كلهجة أجنبية وأنا احادث احد المصريين :

ــ الدكتور هاشم موجود ؟

وقال الصوت :

ــ نقول له مين .. يا افندم ؟

قلت :

ــ انى من لبنان .. أحمل له رساله خاصه ..

قال :

ــ دقيقه واحده من فضلك ..

وانتظرت أكثر من دقيقة ، ثم جاء هاشم يرد علىّ فى صوت ملىء ، خيل الىّ انه ينبض بالملل :

ــ مين .. يا افندم ؟

قلت :

ــ انى أحمل لك رساله من عمى الدكتور شمس الدين ..

قال وكأنه يبتسم لى :

— أهلا وسهلا .. كيف حال الدكتور شمس الدين ..

قلت :

— منيح .. متى استطيع أن اسلمك الرسالة ؟

قال :

— أى وقت تشائين .. أم تفضلين أن ارسل لك من يتسلمها ..

قلت بسرعة :

— أفضل أن أحملها لك بنفسى .. فانى لن أبقى فى البيت طويلا ..

قال :

— شكرا .. انى فى انتظارك ..

قلت :

— بعد نصف ساعة على الأكثر .. العنوان ميدان سليمان .. مكتوب على الظرف ..

قال :

— نعم .. ميدان سليمان باشا .. الف شكر ..

وأعدت سماعة التليفون .. وجريت أرتدى ثوبى ، ووضعت على رأسى قبعة صغيرة من الفراء الأسود ، كانت قد جاءتنى هدية من باريس .. تبرز لون بشرتى البيضاء .. وتجعل وجهى أكثر استدارة .. وتطل فوق عينى السوداوين .. فأبدو كالقطة .. ثم حملت فى يدى قلم الكحل وورقة الكلينكس ، وخرجت .. ركبت سيارة عائلة محيى الدين ، وذهبت الى عيادة الدكتور هاشم ..

واستقبلنى الممرض باهتمام كبير .. ومر بى بين غرف العيادة المزدحمة بالسيدات والرجال .. وأدخلنى الى غرفة المكتب ..

ثم تركنى وحدى .. وفجأة بحثت عن رسالة عمى فى يدى فلم أجدها .. نسيتها .. واحترت .. فكرت أن أعود الى البيت لأحملها .. ولكنى عدت وهززت كتفى بلا مبالاة .. سأقول له انى نسيتها ..

وفتح باب جانبى ودخل الدكتور هاشم ..

ونظرت اليه .. وكان أول ما رابته فيه شعره الأبيض .. انه فى لون الدخان .. كأن فى قلبه شىء يحترق وينطلق منه الى شعر رأسه .. وعيناه طيبتان فيهما انكسار عجيب ، وزهق .. كأنهما عينا طفل يتيم .. وشفتاه منفرجتان كأنه يقاوم من الألم .. وأنفه كبير يحمله فوق وجهه النحيل كأنه ينوء بحمله .. وهو كبير .. كبير فى السن .. على الأقل بالنسبة لى .. ولكنى وجدت فيه شيئا انسانى سريعا كبر سنه .. لعلها هذه النظرة المنكسرة المليئة بالزهق التى تطل من عينيه .. ووجدت نفسى أطيل النظر اليه .. وأعود وأدقق فى ملامحه ، بعينين جريئتين .. كأنى أرى وجه مصر لأول مرة .. وهو واقف أمامى ينظر الى كأنه لا يصدق عينيه .. وعلى شفتيه ابتسامة مذهولة .. ثم تقدم منى مادا يده ليصافحنى .. وتنبهت الى انى انظر اليه بجرأة .. فسحبت نظرتى المعلقة فوق وجهه .. ومددت يدى اليه وأنا أقول :

— رحاب ..

وقال وابتسامته تتسع لتضم وجهى كله :

— أهلا ..

— ثم جلس الى مكتبه .. وعيناه تنظران الى ولا تزالان مذهولتين .. وجرى بيننا الحديث .. وأنا أحس به كأنه يقاوم حتى يحتفظ بمسافة بينى وبينه .. المسافة التى يفرضها الاحترام

الرسمى .. يقاوم نظرته حتى لا تصبح اكثر تعبيرا عن اعجابه .. ويقاوم كلماته حتى لا تصبح أكثر جراة ... ويقاوم يده حتى لا تمتد الى يدى .. انى احس بكل ذلك .. ربما تستطيع كل فتاة أن تحس بمكانتها عند الرجل بمجرد النظر الى عينيه .. وقد احسست به معجبا بى الى حد الذهول الى حد أن يضطر الى كل هذه المقاومة ..

وقد أشعرنى حديثه لاول مرة بأنى فى القاهرة .. لهجته المصرية الرقيقة .. وأسئلته التى تشعرنى بأنى فى بلد غريب عنها . وأسئلته عن الأماكن التى شهدتها فى القاهرة .. ثم كف بيننا الحديث برهة ، خيل الى خلالها انه يهم أن يسألنى عن الرسالة التى احملها له ، فقلت فورا :

ــ آسفة .. لقد نسيت رسالة عمى ..

وضحك ضحكة كبيرة خيل الىّ انها ابتلعت انفه كله ، ثم قال :

ــ لا يهم ..

قلت وصدى ضحكته يتردد على شفتى :

ــ انى أنسى كثيرا .. ولكنى سأحملها لك يوما ..

قال فى لهفة :

ــ غدا ؟

قلت :

ــ لا .. بعد غد !

ولم ادر لماذا لم أوافق على الغد ، فلم يكن لدى شىء يقيدنى فى اليوم التالى .. ربما كان هذا مجرد انعكاس تلقائى لاحساسى بأنه معجب بى ..

قال :

ــ بعد غد .. اذن ..

قلت :

ــ سأتصل بك فى التليفون لنتفق على الموعد ..

ونظر الىّ فى تردد ، ثم أمسك بقلمه وكتب رقما على ورقة ، قدمها لى وسحابة خجولة حمراء تطوف بوجهه ، وقال :

ــ اتصلى بى فى هذا الرقم ..

ولم أدر لماذا بدا عليه هذا التردد ، ولا لماذا الخجل .. واستطرد هاشم قائلا :

ــ حتى أرد عليك بنفسى .. انه رقم التليفون الخاص ..

هززت رأسى كأنى فهمت ..

وقمت واقفة ..

وقال وهو يصافحنى :

ــ الا أستطيع أن أقدم لك اى خدمة وانت فى القاهرة .

قلت :

ــ لا .. شكرا !

قال :

ــ أنت هنا مع العائلة ؟

قلت :

ــ .. وحدى !

قال :

ــ لعلى أستطيع دعوتك ..

قلت :

ــ لا أدرى .. نتفق فيما بعد !

وابتسم .. وقال وهو يفتح لى الباب :

ــ لو أنى رأيتك فى اى مكان لما اعتقدت انك من لبنان ؟

قلت وأنا أنظر اليه بكل عينى :

— لماذا ؟

قال :

— انك تبدين كأنك باريسية ..

قلت ضاحكة :

— كثيرون يعتقدون ذلك ..

قال وفى عينيه شىء كالتوسل :

— سأنتظر منك تليفون ..

قلت :

— ان الله يريد ..

وخرجت .. وعلى شفتى ابتسامة زهو .. راضية عن نفسى .. معتدة بنفسى .. كأنى فتحت أبواب القاهرة ..

وذهبت للقاء شلة اللبنانيين فى كافتيريا هيلتون ، وتغديت معهم .. وربما لاحظوا يومها أنى أكثر مرحا ، وأكثر اعتدادا بنفسى .. كنت أقودهم جميعا الى حيث أريد .. اقود حديثهم .. واقود خطواتهم .. وأطلق بينهم الضحكات ، واثير بينهم المناقشات .. ولم اكن أدرى سببا لانطلاقى .. ليس السبب قطعا هو الدكتور هاشم .. ولكنه احساسى بأنى استطعت ان أخرج عن هذه الدائرة الضيقة التى عشت فيها منذ وصلت الى القاهرة ..

وعدت الى البيت .. وقبل أن أخلع ثوبى بدأت أبحث عن الرسالة التى نسيتها .. بحثت عنها بجانب التليفون .. وفى غرفتى .. فى حقائبى .. فى الدولاب .. ولكنى لم أجدها .. ربما وجدتها الخادمة وأعطتها لطنط لولى .. وسألت طنط لولى .. وسألت الخادمة .. كل الخدم .. ولكن لا أحد وجد الرسالة ..

وهززت كتفى ..

لا يهم ..

ورقدت فى فراشى وأنا لازلت بثوبى ، وصورة الدكتور هاشم تملأ خيالى .. انه ليس كبيرا جدا .. لعله فى الأربعين ، وربما اكثر قليلا .. انه اكبر من سامى وغسان وباقى أصدقائى فى بيروت .. ولكنه يبدو لى أكثر حاجة الى منهم .. ويبدو مهموما ، حائرا ، ضعيفا ، كالطفل التائه .. هذه النظرة المنكسرة فى عينيه .. وهذه الابتسامة كأنها آهة الم .. ثم هذه المقاومة العنيفة التى يبذلها ليحتفظ بشخصيته .. انه يبدو لى كأنه يعيش هذه المقاومة منذ ولد .. طول حياته يقاوم .. ترى ماذا يقاوم ؟

ولم أكن أفكر فى الدكتور هاشم الا كصورة مرت بى .. مجرد صورة .. لم يأخذنى خيالى الى أبعد من ذلك .. لم اجمع بينى وبينه ، ولا فى خيالى .. لم أتصور أن يكون بينى وبينه شىء .. لا يمكن أن يكون بينى وبينه شىء ..

ورغم ذلك ..

انه شىء جديد بالنسبة لى .. شخصية جديدة .. مثيرة .. غامضة .. فيها غموض القاهرة التى لا أعرفها ، ولم أستطع ان ألتقى بها حتى اليوم ..

ونمت دون أن أتخذ قرارا بالنسبة للدكتور هاشم .. ولا حتى قررت أن أعتذر له عن ضياع الرسالة .. انى اكره أن أعتذر لأحد .. أكره أن أشعر بأنى مدينة لأحد بالاعتذار .. ماذا يمكن أن تكون لهذه الرسالة من أهمية .. لا شىء قطعا .. مجرد كلام فارغ مما يتبادله الرجال ..

وفى اليوم الثانى قررت أن اخرج وحدى .. حملتنى السيارة

الى شارع قصر النيل ، ثم صرفتها وأخذت اسير فى الشارع وحدى .. وتعمدت أن ادخل فى الشوارع الجانبية التى لم ادخلها من قبل .. ثم خرجت الى ميدان الأوبرا .. وميدان العتبة .. مناطق لم اتردد عليها من قبل ، ثم لمحت شارعا مزدحما دخلت فيه .. عرفت فيما بعد انه شارع الأزهر .. ومشيت ، ومشيت .. وانا اتمنى أن أتوه فى القاهرة .. او يخطفنى أحد .. أن اصادف اى مغامرة تحرك هذا الماء الراكد الذى غطست فيه حتى عنقى .. ولكنى لم اته ، ولا حدثت لى مغامرة .. انما أمشى واطل على الوجوه السمراء التى امر بها ، ويخيل الىّ أن كل وجه جدار من الحديد لا استطيع أن ارى خلفه شيئا .. ورائحة أفريقيا تملأ أنفى .. رائحة العرق ، والزحام ، والشمس .. رائحة لاذعة تثيرنى ..

وتعبت من المشى ، فركبت سيارة تاكسى ، وطلبت من السائق أن يحملنى الى كافتيريا هيلتون .. لن يتوه أحد أبدا ما دامت هناك سيارات تاكسى ..

وكنت سعيدة يومها لأنى تحررت مرة ثانية من المجتمع الذى يمتصنى .. ولكنها كانت سعادة باهتة .. ولم اكد أستقر بين شلة اللبنانيين فى الكافتيريا حتى عاودنى الملل والزهق .. انه نفس الحديث التافه المعاد .. بل انى أستطيع أن أعرف ماذا سيقول هشام بعد نصف ساعة .. ومتى سيضحك عصام ضحكته الغليظة .. ومتى ستأتى سوزيت .. وماذا ستطلب ليلى .. الدقائق مرسومة أمام عينى .. مملة .. سخيفة ..

وقمت فجأة من مجلسى ، وذهبت الى حجرة التليفون ، وبحثت عن رقم عيادة الدكتور هاشم .. كنت قد نسيت أن احمل

معى رقم التليفون الخاص الذى أعطاه لى .. انى انسى دائما .. أو على الأصح أكره أن أحمل شيئا فى يدى ، أو فى ذاكرتى ..

وعندما سمعت صوته ، قلت له فورا :

— أنا رحاب .. هل أستطيع أن أمر عليك هذا المساء ؟

قال فى صوته الملىء الكسول وأنا أكاد أسمع لابتسامته صوتا :

— متى ؟

قلت :

— الساعة الخامسة ..

قال :

— سأنتظرك ..

وذهبت اليه فى الساعة الخامسة .. وكل ما تعمدته هو أنى جمعت شعرى فوق رأسى .. لأبدو أكبر ..

وقال فى مرح هادىء بمجرد أن رآنى :

— انها تسريحة جديدة ..

قلت وأنا أبتسم له :

— هل أعجبتك ؟

قال :

— انك تبدين فيها كالقطة ..

ولم يعجبنى أن يشبهنى بالقطة ، لا لشىء الا لأن عشرات قبله شبهونى بالقطة ..

وقلت وأنا أنظر الى ابتسامته انى يخيل الىّ أنها تنضح بالألم :

— **جئت أعتذر .. لقد أضعت الرسالة ..**

وضحك .. كأنه يدلل طفلة صغيرة .. وقال :

— لا يهم .. لا أعتقد أنها تحمل شيئا هاما ..

قلت وأنا أدارى غيظى من ضحكته ، بابتسامتى :

— أعتقد أنه كان يوصيك بى .. لا أكثر .. ولكنى سأطلبه فى التليفون لأسأله ان كان هناك شىء أكثر ..

قال وهو ينظر الى هذه النظرة التى تنضح بالمقاومة :

— دعيه هو يطلبك فى التليفون لو أراد أن يطمئن على رسالته ..

قلت :

— أبى سيطلبنى فى التليفون على كل حال .. آسفة مرة أخرى ..

وهممت أن أنصرف .. وقام من وراء مكتبه ، ولحق بى قائلا كأنه يتوسل :

— هل تقبلين دعوتى الى الغداء ..

قلت وأنا أنظر فى وجهه :

— لماذا ؟

قال فى دهشة :

— لا لسبب .. فقط لأكون معك ..

قلت :

— ان لى صديقة يسرها أن تخرج مع مصرى .. هل أعرفك بها !

وعاد يضحك .. ضحكة خجلة .. كأنه جرح :

— انى لا أريد أن أخرج مع أى واحدة .. أريد أن أخرج معك أنت ..

قلت وأنا أنظر فى وجهه كأنى أبحث فيه عن شىء منه بين ثلاثة ..

يعيننى على اتخاذ قرار ..

— هل يزعجك أن أصحب معى صديقتى ..

وقال فى تهالك كأنه على وشك أن ييأس :

— لا .. لا يزعجنى .. ولكن الحديث بين اثنين أمتع ،

وترددت برهة .. ثم قلت :

— لك حق .. قبلت دعوتك ..

قال :

— غدا ..

قلت :

— غدا ..

قال :

— الساعة الواحدة والنصف ..

قلت :

— اتفقنا ..

وابتسم ابتسامة كبيرة ، ثم قال وهو يفتح لى الباب :

— هل أرافقك حتى البيت ؟

قلت :

— لست ذاهبة الى البيت .. انى على موعد مع بعض الأصدقاء .

قال :

— صديقات ؟

قلت :

— وأصدقاء ..

قال :

— هل لك أصدقاء كثيرون فى القاهرة ؟

قلت :

— كثيرون ..

وتغير وجهه .. كأنه غرق فجأة فى بحر من الهم .. كأنى سكبت فوق رأسه ابريقا من الحيرة .. وابتلع ريقه .. ثم قال فى صوت منهار :

— غدا .. الساعة الواحدة والنصف .. أين ؟

قلت :

— فى كافتيريا هيلتون .. انه المكان الذى لا أتوه عنه ..

قال بعد تردد وهو لا يزال غارقا فى الهم :

— اتفقنا ..

وخرجت ..

وفى صدرى احساس بأنى بدأت مغامرة ..

مغامرة فى القاهرة ..

نعم ..

كنت أعتقد أنها مجرد مغامرة ..

لا أدرى ما الذى ربطنى بهاشم ..

احاسيس ..

أحاسيس جديدة على ، لم تخطر على قلبى من قبل ..

وقد كان هاشم أكبر من دخلوا حياتى .. أكبرهم سنا .. لقد قال لى فى يوم لقائنا الأول ان عمره أحدى واربعون سنة .. ثم قال لى بعد أيام ان عمره ثلاث وأربعون .. ثم اعترف لى بأن عمره أربع وأربعون .. كأنه كان يسقينى عمره على جرعات ، حتى لا أصطدم لو شربته مى جرعة واحدة .. ولم يكن يخطر ببالى ابدا ان اكون يوما لرجل فى الرابعة والأربعين .. كان رقم الأربعين يمثل أمامى عالما آخر لا يمكن أن أعيش فيه .. عالم

بعيد .. بعيد .. بعيد عن قلبى ، وعن عقلى ، وعن خيالى .. ورغم ذلك فعندما عرفت هاشم أحسست به أقرب الىّ من كل الشباب الذين ملأوا حياتى .. أقرب الى عقلى .. بل انى أحيانا كنت أشعر به أصغر منى .. كنت أشعر به كأنه طفل .. عيناه فيهما براءة الأطفال .. وعلى شفتيه تردد الأطفال .. وأحاديثه أحيانا فيها سذاجة الأطفال .. وانفعالاته فطرية صريحة كأنها انفعالات طفل ..

ولكنى شعرت بالخوف من هذا الطفل ..

انى لم أشعر بالخوف ابدا من قبل .. كنت دائما مندفعة فى حياتى بلا خوف ..

ولكنى منذ اليوم الأول الذى عرفت فيه هاشم ، والخوف يتسلل الى قلبى .. كنت أنظر الى شعره الذى يختلط فيه الأبيض بالأسود ، فأحس انى اغرق فى بحر من الدخان .. وانظر فى عينيه فأحس أنى أضيع فيهما .. واسمع كلماته الساذجة الصريحة ، فأحس بالحذر من السذاجة والصراحة ..

لا أدرى لماذا ؟

لماذا هذا الخوف ..

ربما لأنى أحسست بأن هاشم يحاول أن يأخذنى من عمرى الى عمره .. وقد كنت فى التاسعة عشرة من عمرى ، ولكنى حتى ذلك الحين أعيش فى عمر الخامسة عشرة .. وكنت أحب هذا العمر .. كنت افضل الثياب التى تضعنى فى عمر الخامسة عشرة .. وتسريحة الشعر التى تضعنى فى الخامسة عشرة .. والانطلاق البرىء الذى يندفع فيه عمر الخامسة عشرة .. كنت أقضى اليوم كله بالبنطلون والحذاء بلا كعب .. أذهب الى كافتيريا هيلتون بالبنطلون .. والى السينما .. والى حفلات الجامعة

الأمريكية .. دائما بالبنطلون .. لأن البنطلون يحررنى من عمرى ، ويحتفظ لى بعمر الخامسة عشرة .. ولكنى منذ عرفت هاشم بدأت أحس بعمرى .. عمر التاسعة عشرة .. ثم بدأت أحس بعمر أكبر من عمرى .. بدأت أحس بشىء يتيقظ فى .. شىء يخيفنى .. بدأت أحس بأنوثتى .. لم أعد أستطيع أن أتجاهل أن هاشم رجل .. وأن رجولته أكبر من أن يضيعها فى الرقص والتنطيط كما يفعل الشبان الذين عرفتهم .. وقد عرفت فى بيروت كما قلت ، رجالا فى الثلاثين .. فى الخامسة والثلاثين .. ولكن واحدا منهم ، لم يثر فى هذا الخوف ولم أحس بواحد منهم يحاول أن يأخذنى من عمرى الى عمره .. هاشم وحده هو الذى أثار فى كل هذه الأحاسيس ..

لم أكن أقاوم هاشم .. ولكنى كنت أقاوم نفسى ..

منذ اليوم الأول وأنا أقاوم ..

أقاوم هذه الأحاسيس الجديدة التى بدأت تتسلل الىّ ...

وازددت التصاقا بالشبان اللبنانيين الذين تعرفت بهم ، وربطت نفسى أكثر بصديقى عصام .. وتغاليت فى انطلاقى .. انطلاقة الخامسة عشرة .. أحاول بكل هذا أن أبقى كما أنا .. لا أريد أن أتغير .. لن أسمح لأحد أن يغيرنى .. أن يجعل منى فتاة أخرى غيرى .. أن يجعل لى شخصية أخرى غير الشخصية التى اخترتها . .وأذكر أن هاشم دعانى مرة الى السينما . فخرجت اليه وأنا مرتدية البنطلون وشعرى سائل على وجهى .. وكنت أعلم أن ليس من اللياقة أن أذهب معه الى السينما بالبنطلون وشعرى سائل .. كنت أعلم أنى سأبدو بجانبه كأنى ابنته .. ولكنى عاندت ، ووقفت أمام المرآة طويلا أحاول أن أقاوم عنادى .. ولكنى بقيت عنيدة الى أن خرجت اليه .. ورأيته مرتديا بدلة غامقة اللون .. ياقة .. وكرافت .. وجاكت .. كأنه ذاهب الى تشييع جنازة .. كان الفرق بينى وبينه كبيرا .. كان أكبر من عمره .. وكنت أصغر من عمرى ..

وما كدت أجلس بجانبه فى سيارته حتى نظر الىّ نظرة طفل مسكين ، وقال فى صوت مرتعش :

ــ أيجب أن تلبسى البنطلون ؟

قلت :

ــ الا يعجبك ؟

قال :

ــ يعجبنى .. ولكنه يحرجنى .. انه يشعرنى بعمرى وعمرك ..

وقلت وأنا أشفق عليه :

ــ اذن انتظر .. سأبدل ثيابى ..

قال :

ــ لا .. ولكننا لن نذهب الى السينما .. لنذهب الى مكان آخر ..

قلت :

ــ انى أريد أن أذهب الى السينما .. انتظرنى .. خمس دقائق فقط ..

ونزلت من السيارة .. وعدت الى البيت .. ووقفت أمام المرآة أبدل ثيابى وأنا أحس بالاشفاق عليه ، وفى الوقت نفسه أحس بالثورة على نفسى لأنى اشفقت عليه .. أحس أنه غلبنى وجعلنى ابدل ثيابى ..

ارتديت « تايير » « جرسيه » بنى اللون فيه خيوط من الذهب .. ضيق .. ووضعت قدمى فى حذاء فرنيه .. سبعة سنتى

. . ورفعت شعرى فوق رأسى . . وعدت اليه ليستقبلنى بابتسامة كبيره حلوة . . ابتسامة طفل فرح . .

وكان هاشم يقاوم هو الآخر . .

انى اشعر بمقاومته . .

ربما كان احساسه بالفرق بين عمره وعمرى ، أكبر من احساسى . وكان هذا الفرق يقف بيننا أحيانا ، فأحس به يحدثنى حديث صديق كبير ، كأنه عمى الدكتور محمود شمس الدين . حديثا سخيفا باردا ، وأحيانا كان يحدث العكس ، كان يحدثنى كأنه شاب فى العشرين . . ويتعمد أن يختار المواضيع التى يعتقد أنها تهم شباب العشرين . . كأنه يحاول أن ينزل الى عمرى . . وكان حديثه فى هذه الحالة أيضا ، حديثا مفتعلا ، سخيفا ، باردا . . ولكنه فى أحيان أخرى كثيرة كان ينسى عمرى وعمره ، وينطلق يتحدث على طبيعته . . حديثا حلوا ، عميقا ، فيه أفكار جديدة . . وتجارب كثيرة . . حديثا يفتح عقلى على عالم لم أكن أعرفه . . عالم فيه حقائق هادئة ، ومرح هادىء ، وسعادة هادئة . .

وقال لى مرة ، وهو ينظر الى وفى عينيه شبه حسرة :

ـ غريبة . . لقد كنت قبل أن ألقاك أحب فتاة فى العشرين من عمرها . . انها الآن فى الحادية والعشرين . . أكبر منك بعامين فقط . . ولكنى لم أشعر أبدا بالفرق بين عمرى وعمرها . .

قلت وأنا أشعر بغصة :

ـ البنات المصريات يكبرن أسرع من اللبنانيات . . جوكم حار . . تنضج فيه البنت أسرع من جو لبنان . .

قال ضاحكا :

ـ لا أظن . . ولكنه الشكل . . لقد كانت أطول منك . . وأسمن . . ولم يكن على وجهها هذه الطفولة التى تبدو على وجهك . .

وشعرت بالغيظ . . انى أكره أن يقارننى أحد بأى فتاة أخرى . . وقلت كأنى أدافع عن نفسى :

ـ كثير من الرجال لا يروننى طفلة . .

قال وهو يتنهد :

ـ أنا أيضا لا أراك طفله . . ولكنى أحاول أن أحس بك كطفلة . .

قلت وأنا التفت اليه كأنى غاضبة :

ـ لماذا ؟

قال :

ـ هذا خير لى . .

ولم أحاول أن أستطرد فى هذا الحديث . . كنت أعرف الى أين ينتهى هذا الحديث . . ولكن احساسى بالغيظ من هذه الفتاة الأخرى ظل يلازمنى . . انه ليس غيظا . . انه غيرة . . لعلها المرة الأولى التى أحس فيها بالغيرة من فتاة أخرى . . وجدت نفسى أسأله ، فجأة ، كأن السؤال انطلق رغما عنى :

ـ هل كنت تحبها ؟

والتفت الى فى دهشة وقال :

ـ من ؟

قلت :

ـ هذه الفتاة الأخرى . .

قال وهو يحنى رأسه :

ـ نعم . . كنت أحبها . .

وقلت كأنى أتهكم :

ـ وأين ذهب الحب ؟

قال وهو يزفر أنفاسه :

— قاومته ..

قلت :

— لماذا ؟

قال :

— لأنها كذبت على .. أخفت عنى حقيقتها .. وجدت امامى فجأة فتاة أخرى غير الفتاة التى احببتها ..

قلت :

— وكان من السهل عليك أن تنساها ..

قال :

— لا .. لم انسها .. ولكننا أصبحنا أصدقاء ..

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة وقال :

— لقد رأتنا معا .. وهى تعتقد انك تصبغين شعرك ..

وصرخت كأنى ادافع عن أعز ما أملك :

— أصبغ شعرى .. لماذا .. هل أنا عجوز لأصبغ شعرى .. خذ .. المس شعرى .. هل هذا شعر مصبوغ .. لماذا قالت لك ان شعرى مصبوغ .. لابد انها هى التى تصبغ شعرها ..

قال وهو يبتسم فرحا بصراخى :

— انى لم أصدقها .. ولم أغضب منها .. ويجب أن تعذريها .

قلت فى زهق :

— شو بدى منها ، حتى أعذرها .. انى لا أعرفها ..

وبقيت الابتسامة على شفتيه ..

وكرهت نفسى ساعتها .. احسست أنى كبرت فجأة ..

وأصبحت أغار كالنساء .. وأتحدث كالنساء .. وأحس باحساس النساء .

لماذا أغار ؟

انى لا أحبه حتى أغار عليه ..

وحتى اذا كانت هذه الغيرة مجرد أنانية .. أنانية بلا حب .. فيجب الا أنسى أنه رجل فوق الأربعين .. ولابد أن فى حياته الطويلة تجارب كثيرة ، ونساء كثيرات .. انه ليس فتى فى الثامنة عشرة أو فى العشرين ، حتى أصدم عندما أعرف أنه كان يحب فتاة قبلى .. ويجب الا أنسى هذا .. يجب الا أنسى أنه فى الخامسة والأربعين ..

واعود أقاوم ..

وهو يقاوم ..

ورغم هذه المقاومة ، فاننا نلتقى .. كل يوم تقريبا .. وشىء يشدنى اليه أكثر وأكثر .. وأحس بحاجته الى .. ومسؤوليتى عنه ..

وقد عرف أصدقائى اللبنانيين انى تعرفت الى شاب مصرى .. وقلت لهم اسمه .. ولكنى لم اقل لهم عمره .. وهمست صديقتى عفاف فى أذنى قائلة :

— احترسى من الشبان المصريين .. انهم يريدون كل شىء من البنت .. ولا يعطون شيئا .. الا الكذب .. وكل منهم عنده شقة ..

ولم أهتم بكلمات عفاف .. انها لا تعرف هاشم .. انه ليس شابا .. انه رجل .. رجل كبير .. ولا يمكن أن يكون من هذا الصنف من الشبان المصريين ..

وبدأت أرى القاهرة معه كما لم أرها قبل أن ألتقى به .. كنا

نذهب الى المطعم .. والى الفيوم .. والى القناطر .. والى الهرم .. والى سيدنا الحسين .. ونسير معا فى ضوء القمـــر فى الشوارع الضيقة .. فى النحاسين .. والمتولى .. والقلعة .. والمآذن الكثيرة ترتفع من حولنا شاهقة كأنها تحاول أن تصل الى الله .. لقد وجدت القاهرة شيئا آخر ، بعد أن ابتعدت عن كافتيريا الهيلتون وشارع قصر النيل .. شىء آخر غير بيروت .. لها شخصية أخرى .. لها رائحة أخرى ..

وكل شىء يتغير معناه .. الهرم لم يعد مجرد قطع من الحجارة .. والنيل لم يعد مجرى من الوحل يحاول أن يشدنى من قدمى ويبتلعنى .. ويبدو أننا لا نستطيع أن نشاهد القاهرة ونحس بها الا مع واحد من المصريين .. ولقد أحسست أن فى هاشم قطرة من النيل .. فى أنفه الكبير قوة النيل .. .. وفى عينيـــه الهادئتين طيبة النيل .. وفى شفتيه المنفرجتين سذاجة النيل .. وفى حيرته حيرة النيل .. فيه ضعف النيل وهو يسير منكسا ذليلا لا يستطيع أن يقاوم رمال الصحراء التى تقع على شاطئيه .. وفيه جبروت النيل عندما يتمرد فى مناطق أخرى فيشق الصخر . وفيه كبرياء الهرم .. وفيه ايمان المئذنة .. وفيه ضجيج ميدان العتبة ، وهدوء شارع الجبلاية .. ان هاشم كان مصر كلها تسير على قدمين .

لقد أحببت القاهرة مع هاشم ..

وابتعدت عن لبنان .. كنت فى كل أسبوع أقرر أن أعود الى لبنان فى الأسبوع التالى .. ثم أعود وأؤجل عودتى الى الأسبوع التالى .. ومضى شهر ونصف وأنا لا أزال فى القاهرة .. وأبى يتصل بى فى التليفون كل يومين ليطمئن على عودتى .. وفى كل صباح أكتب خطابا الى أمى أو أحد أخوتى ، أو أحد أصدقائى ..

خطابات سريعة .. كلمات قصيرة فى بضعة سطور .. انى أكره كتابة الخطابات ، ولكنى أفرح بتلقى الخطابات .. ولكى أتلقى خطابات ، كان يجب أن أكتب خطابات .

وقد خفت أن تكون عائلة محيى الدين قد ضاقت باقامتى عندها ، فقررت أن أنتقل وأقيم فى فندق هيلتون أو شبرد .. ولكن العائلة كلها عارضت .. ربما خشيت ان أقمت فى الفندق أن يطلب منهم أبى أن يسددوا لى الحساب ردا لجزء من الدين الذى يطالبهم به .. كما أن أبى رفض أن أقيم فى فندق وحدى .

وبقيت عند عائلة محيى الدين ..

وكانوا قد يئسوا منى .. لم يعد أحد منهم يحاول أن يعرف أين أذهب ومع من .. وأعطونى مفتاحا للبيت ..

وفى كل يوم أيضا ألتقى بشلة اللبنانيين .. وصديقى عصام .. أتناول الغداء معهم ، والعشاء مع هاشم .. أو العكس ..

وأحاول أن أقنع نفسى بأنى حرة .. حرة من هاشم ومن عصام .. ومن شلة اللبنانيين .. ومن عائلة محيى الدين .. حرة من كل شىء الا من أحاسيسى التى تسيطر علىّ ، وتحكمنى .. ولكن هذه الأحاسيس تدفعنى الى هاشم أكثر ..

انى أشعر بشىء جديد عندما تتلامس أيدينا .. وأشعر بشىء جديد عندما تلتقى أعيننا .. وأشعر بشىء جديد وأنا أنتظر لقاءه .. شعور آخر غير ما كنت أشعر به عندما كنت أعرف تيسير ، وأندريه فى لبنان .. وشعور آخر غير ما أشعر به نحو صديقى عصام ..

ما هذا الشعور ؟

ربما كان مجرد الرغبة فى الاستطلاع .. فهاشم أول مصرى

أعرفه .. ثم هو فى الخامسة والاربعين من عمره .. وهذا يكفى ليثير فى حب الاستطلاع ..

ولكن خوفى من هذا الشعور يشتد ..

وأشعر بأنى فى حاجة الى بذل مجهودا أكبر كى أقاوم هذا الشعور .. أقاوم أحاسيسى التى عشت عمرى كله مستسلمة لهـا ..

الى أن كان يوم ..

وكنت مع هاشم فى سيارته فوق جبل المقطم .. نتدفأ فى شمس بعد الظهر ..

ونظر الىّ هاشم طويلا .. هذه النظرة التى تثير فى هذا الشعور الجديد .. ثم صمت صمتا طويلا .. وفجأة التفت الى وقال كأنه قرر أن يتخلص من ضعفه :

— رحاب اننا لا نستطيع أن نستمر هكذا .. اننا نخدع أنفسنا ..

ونظرت اليه نظرة سريعة ، ثم أرخيت عينى عنه .. وقلت :

— ماذا تقصد ؟

قال :

— اننا نقاوم .. انى أقاوم .. وأشعر انك أيضا تقاومين .. هذه المقاومة ستفسد كل شىء بيننا .. ويجب أن نحدد وضعنا ونستسلم له ..

قلت :

— ماذا تريد ؟

قال :

— بصراحة .. لم اعد أستطيع أن اكتفى بهذه الصداقة .. أشياء كثيرة أقاومها .. أقاوم كلاما أريد أن أقوله لك .. أقاوم

احساسا بأنى أريد أن أمسك يدك .. أقاوم .. اقاوم .. انى أريد أن أقبلك الآن .. ولكنى أقاوم ..

قلت فى صوت خافت :

— ولكنى لا أريد أن أقبلك ..

ونظر الىّ بعينين مذهولتين كأنه لا يصدقنى ، وقال :

— ماذا أنا بالنسبة لك ..

قلت وأنا أشعر بأنى أقاوم .. أقاوم صراحتى التى تعودت عليها :

— انت صديق .. وأنا سعيدة بكل دقيقة أقضيها معك ..

قال :

— صديق فقط ..

قلت :

— صديق عزيز ..

وأحنى رأسه كأنه هزم وقال :

— خيل الىّ اننا نستطيع أن نكون أكثر من أصدقاء ..

قلت وأنا أحاول أن أكون باردة :

— لا أعتقد أننا فى حاجة لأن نكون أكثر من أصدقاء ..

قال :

— لك حق .. انها غلطتى .. ولكن اعذرينى .. اعذرى غرورى .. ولعله ليس غرورا ، ولكنى أحسست أنى فى حاجة اليك .. الى أكثر من صداقتك .

وأحسست أن قلبى ينشق ، ورغم ذلك قاومت .. وقلت :

— ألست سعيدا بصداقتى ؟

قال كأنه يسخر من نفسه :

— سعيد .. نعم سعيد ..

قلت كأنى أكبر منه :

— فلنكتف اذن بهذه السعادة .. انا ايضا سعيدة بصداقتك ..

وعقد ما بين حاجبيه وقال :

— ولكننا نسير فى طريق سيقضى على صداقتنا .. اننا نسير فى طريق ينتهى الى حب أو الى هاوية .. فاذا لم نصل الى الحب ، سقطت صداقتنا فى الهاوية .. ويجب أن نحمى صداقتنا من السقوط .. من أن تتحطم .. يجب أن نسير فى طريق آخر ..

قلت :

— ماذا تعنى ؟

قال وهو يجز على أسنانه كأنه يستجمع ارادته :

— يجب الا نلتقى كل يوم .. ويجب الا نلتقى وحدنا .. ويجب أن أعرفك بأختى .. وتعرفينى بالعائلة التى تقيمين عندها .. حتى اذا التقينا كان لقاؤنا فى جو عائلى يحمى صداقتنا من التطلع الى دنيا أخرى ، ومن الانطلاق الى عاطفة أكبر ..

قلت وقلبى يخفق فى هلع :

— ولكنى لا أحب زيارة العائلات .. انى لم أحضر الى القاهرة لأزور عائلات ..

قال فى مرارة :

— ولكن هذا يحفظ صداقتنا .. انى أريد أن أيأس من أحلامى .. وأريدك أن تساعدينى على اليأس ..

قلت وأنا أحس كأنى أهم بالبكاء :

— اتفقنا ..

وساد بيننا الصمت ..

صمت ثقيل .

وكل منا يعاند نفسه ..

وقاد سيارته الى بيتنا .. أنا وهو والصمت ..

وعندما أوقف سيارته أمام البيت لم يلتفت الىّ .. ظل ناظرا أمامه .. ووجهه محتقن غاضب كأنه فى معركة مع نفسه ..

ونظرت اليه فى لهفة تشوبها شفقة ، وقلت فى صوت خفيض :

— متى أراك ؟

قال وهو لا ينظر الى :

— سأتفق مع أختى لتدعوك الى الغداء أو العشاء ، ثم أتصل بك ..

قلت وأنا أنظر اليه بكل عينى :

— أهذا ما تريده ؟

قال :

— هذا ما تريدينه أنت ..

قلت وأنا أفتح باب السيارة :

— أنا لا أريد أن أدعى الى بيتكم لا على الغداء ولا على العشاء .. ولا أريد أن أعرف أختك .. انها ليست فى مثل سنى ..

ولم يرد علىّ ..

ظل صامتا .. معقد الحاجبين .. ووجهه محتقن .. كأنه فى عراك مع نفسه ..

وبقيت أنظر اليه برهة .. وأحاسيس كثيرة تعتمل فى صدرى .. الغيظ .. والعناد .. والرهبة .. والاندفاع .. والتردد ..

ثم فجأة أغلقت باب السيارة الذى كنت قد فتحته ، قبل أن أنزل منها .. وقلت فى حدة :

— أين تريد أن تقبلنى .. هنا ؟

والتفت الىّ فى دهشة ، وقال :

— ماذا قلت ؟

وقلت وأنا أكثر حدة :

— قبلنى .. اذا كنت كل مشكلتك انك تريد أن تقبلنى ..

وفتح فمه ليتكلم :

— انى و ..

وقاطعته :

— افعل ما بدا لك .. انى لم ار رجلا يستأذن البنت قبل ان يقبلها .. او يستأذنها ان تسمح له بأن يحبها .. لا تسألنى شيئا .. لا تسألنى .. ارنى ما تريده ..

وامتلأت عيناه بالتردد ، ثم ادار موتور السيارة ، وهو يقول :

— لك حق ..

وسار بنا ..

وقلبى يرتجف .. خوف .. ورهبة .. وغيظ .. وعناد .. وتطلع .. وأندم لأنى أطلقته فيما يريده .. وأثرته الى حد التحدى .. ثم أعود واعاند نفسى .. أتحداها .. وأحاول أن اقنع نفسى بأنى أقوى من أن يأخذ منى احد شيئا لا أريد أن أعطيه ..

وهو يقود السيارة صامتا ..

وهممت أن أسأله الى أين .. ولكنى عاندت .. حاولت أن أتظاهر بأنى لا مبالية .. لا يهمنى شىء .. ولكن عنادى تبخر فى لحظة .. وانفلت من بين شفتى السؤال :

— الى أين ؟

وقال وهو لا يلتفت الىّ :

— سنذهب الى الاستديو ..

قلت :

— أى استديو ؟

قال ولمسة حمراء تلمع فوق خديه :

— شقة خاصة نسميها استديو ..

قلت فى حدة :

— لماذا تسميها استديو .. لماذا لا تسميها شقة ..

قال وكلماته ترتعش بين شفتيه :

— ربما لأن كلمة استديو أرق من شقه ..

قلت :

— ولكن كلمة شقة أصرح ..

قال :

— اذن .. شقه ..

ثم استطرد قائلا :

— اذا كنت لا تريدين .. فلن نذهب ..

قلت فى تحد :

— لا .. لنذهب .. انك ستقبلنى هناك .. أليس كذلك ؟

قال :

— لا أدرى .. ولكنى سأشعر بك هناك أقرب الىّ ..

وسكت .. وكلمات صديقتى عفاف تطن فى أذنى « احترسى من الشباب المصريين .. انهم يريدون كل شىء من البنت ، ولا يعطون شيئا الا الكذب ، وكل منهم عنده شقه » ..

ولكنى كنت ممتلئة بالتحدى ..

تحدى أكبر من الخوف .. وأكبر من شخصية هاشم ..

وكنت أكره نفسى ساعتها .. أكره هذا الاحساس بالتحدى .. وأكره خوفى .. وأكره شيئا آخر ، أكره احساسى بأنوثتى

.. كنت أحس فى تلك اللحظة بأنوثتى أكثر مما أحسست بها فى أى يوم من حياتى .. أنوثة منساقة الى رجل ، وهو احساس يقززنى ، يضعفنى ، لا أريد أن أحس بأنى انثى .. ولا بأنى صبى .. .. لا أريد أن أحس بأى صفة من صفات الجنس .. كل ما أريد أن أحس به هو أنى رحاب .. لست انثى ولست رجلا .. ولكنى رحاب .. شخصية قائمة بذاتها ، ليست فى حاجة الى جنس آخر ليكملها ...

وأعصابى تلتوى من الغيظ ..

الغيظ من نفسى ..

لماذا أنا منساقة هكذا .. لماذا قبلت أن أذهب معه الى الشقة .. لماذا لا أعود .. لماذا لا أقفز الآن من السيارة ، وأجرى .. لماذا لا أترك هاشم ولا أعود أرى وجهه .. انه حمل ثقيل ، لا أريد أن أثقل به على حياتى .. أريد أن أتحرر منه .. أن أرقص .. أن أضحك .. لا شىء جاد .. لا شىء يخيفنى .. و ..

ووقف أمام عمارة فى الزمالك ..

ونزلنا من السيارة .. وسرت بجانبه أدب على الأرض بخطوات تعلن عن احساسى بالتحدى .. وعيناى مفتوحتان على آخرهما كأنى أريد أن أشق بهما الجدران لأرى ما خلفها .. ولم أتكلم ..

ولا هاشم يتكلم ..

وصعدنا ..

وفتح هاشم الباب ..

ودخلت ..

وجلست على أول مقعد صادفنى ..

وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها عند شاب أعزب ..

ورغم ذلك لم أحاول أن ألتفت لأرى ما حولى .. لأرى كيف تكون شقة الشاب الأعزب .. بل انى لم أحاول أن أنظر الى هاشم .. تركز احساسى ساعتها فى انتظار ما سيحدث .. كنت فى كل دقيقة أنتظر أن يحدث شىء ، وأستعد لمقاومة هذا الشىء ..

وكان هاشم يتكلم .. يتكلم كثيرا .. ويتحرك أمامى فى ارتباك ، كطفل ضائع لا يدرى من أين يبدأ طريقه .. وفتح الراديو .. ثم أغلق الراديو وأدار اسطوانة .. وهو يتكلم .. ويتكلم .. ثم فجأة اقترب منى وأنا جالسة على المقعد ، وانحنى ولمس خدى بشفتيه .. ولم أتحرك .. ولم أرفع اليه عينى .. بقيت جامدة .. وأحسست بلمسة شفتيه ساخنة .. نار .. كأنها شعاع من شمس القاهرة يلسعنى .. وأحسست بوجهى كله يحترق .. ولكنى بقيت جامدة .. ولمس هاشم خدى بشفتيه مرة أخرى .. ومرة ثالثة .. أحس كأنه يحاول أن يذيبنى فى ناره .. ولكنى جامدة .. جامدة كالخشب .. ثم طاف بشفتيه ، واقترب من شفتى .. وزممتهما .. زممت شفتى .. أخفيتهما داخل فمى .. وحاول أن يصل اليهما .. أن يشدهما بشفتيه من داخل فمى .. ولكنى قاومت .. بلا عنف .. وأنا أدعى الجمود والبرود ..

وابتعد هاشم عنى ، وفى عينيه نظرة خجل ، كأنه أحس أنه أخطأ ، وقال لى فى صوت ضعيف :

— أنا آسف ..

قلت وأنا أساوى شعرى ، وأتحسس خدى لأطفىء اللهب الذى أشعله فيهما :

— لا تأسف .. لقد سمحت لك ..

قال وهو يتنهد :

— انك لا تريدين قبلاتى ..

قلت وأنا ابتسم له لاعينه على نفسه :

— من يدرى لعلى اريدها يوما ..

ونظر الىّ بعينين مفتوحتين كأنه يتعجب منى .. ثم تشاغل عنى بادارة أسطوانة ..

وبدأت أشعر بالزهق .. تبخر شعورى بالخوف ، وتبخر تطلعى الى التجربة الجديدة .. وبدأت أشعر بالزهق .. زهق .. يكاد يخنقنى .. وهاشم يبدو سخيفا فى كل ما يفعله .. سخيفا فى كلامه .. انه ليس طبيعيا ، ولا أنا ..

وقمت واقفة وقلت فى حزم :

— يجب أن أعود الآن ..

ونظر فى ساعته وقال وهو يصفر بشفتيه صفير الدهشة :

— الساعة السابعة .. لقد تأخرت كثيرا على موعد العيادة .. **لا يهم .. هل أراك فى المساء ..**

قلت :

— لا انى مدعوة مع بعض الأصدقاء ..

وارتعشت عيناه وقال :

— شبان ؟

قلت :

— نعم .. وبنات ..

قال وهو يحاول أن يبتسم :

— المفروض الا تخرجى الا معى ..

قلت فى دهشة :

— لماذا ؟

قال :

— لأنك سمحت لى بتقبيلك ..

قلت :

— وماذا يعنى هذا ؟

قال :

— يعنى انى أصبحت رجلك ..

قلت وأنا أبتسم :

— أنا لا أحب ان يكون رجلى أنانيا .. ليس من حق رجلى أن يحرمنى من أصدقائى ..

قال :

— أيرضيك أن أخرج مع فتاة اخرى ؟

قلت :

— **اذا أحسست** بأنك تريد أن تخرج مع فتاة أخرى فيجب أن تخرج معها .. أنا لا أحب أن تجاملنى .. أو تنافقنى .. أريد أن أحس دائما بأنك تتصرف باحساسك ..

قال فى يأس :

— وأنت تحسين بأنك تريدين أن تخرجى الليلة مع أصدقائك ..

قلت :

— **نعم .. وأكره الا أخرج معهم** مجاملة لك .. وأكره أن تسمى هذا اخلاصا .. الاخلاص هو الاحساس المخلص .. ولأن احساسى مخلص فانى سأخرج الليلة مع أصدقائى ..

قال :

— **وترقصين معهم ..**

قلت :

— **نعم ..**

قال كأنه يئن :

ـــ وقد يضع أحدهم خده على خدك أثناء الرقص ..

قلت :

ـــ انى، عادة لا احب أن يضع احد خده على خدى وأنا أرقص .. الرقص عندى هو احساسى بالموسيقى لا احساسى بالرجل .. ورغم ذلك فثق أنى لو أحسست بأنى أريد أن يضع أحدهم خده على خدى .. فلن اتردد .. لأنى لو لم افعل .. فلن أكون مخلصة لاحساسى .. واذا لم أخلص لاحساسى ، فلن اكون مخلصة لك .. اذا خدعت احساسى فانى أخدعك .. انافقك .. وأنا لا أحب أن أخدع أحدا ، ولا أن أنافق احدا .. افهمنى .. انا ملك لاحساسى قبل أن أكون ملكا لأحد ..

ونظر الىّ كأنه عاجز أن يرد على منطقى ..

ثم قام وفتح لى الباب ، وهو يقول :

ـــ لك حق ..

وساد الصمت بيننا طوال الطريق .. وخيل الىّ أنه يتألم فى صمته .. عيناه تنضحان بالألم ..

وخرجت مع أصدقائى ليلتها .. ولكن جمرة اللهب التى تركها هاشم بقيت تحرقنى طول الليل .. ونظرة الألم فى عينيه تطوف بى ..

ونمت فى انتظار لحظة لقائه فى اليوم التالى .. وأنا أشعر بأنى كنت قاسية عليه ، وأعاهد نفسى بأن اكفر عن قسوتى .. ولا ادرى ان كان هذا الشعور صادقا أم أنى كنت أخدع به نفسى .. كنت أتعلل به حتى أتركه يقبلنى مرة ثانية .. كنت أريده أن يقبلنى .. فقط يقبلنى !

والتقينا فى السيارة .. وذهبنا الى مكاننا المفضل فوق جبل المقطم .. والقاهرة كلها تحت أقدامنا .. كأنها مستسلمة لنا .. وقد كنت أغيظ هاشم دائما كلما ذكر جبل المقطم .. كنت أصيح فيه :

ـــ شو جبل .. هذا لا يساوى تلا فى لبنان ..

ويضحك هاشم ..

ولكنى فى هذا اليوم لم أحاول أن أغيظه .. كان كل احساسى مجتمعا فى انتظار اللحظة التى يقبلنى فيها .. ولكن الألم فى عينيه .. كان يتكلم وينصرف كالطفل الغاضب .. وضقت بانتظار قبلته ، وقلت فجأة كأنى لم أعد أحتمل :

ـــ ألا تريد أن تقبلنى اليوم ..

ونظر الىّ فى دهشة ، وقال :

ـــ انك لا تحبين قبلاتى ..

قلت وأنا أنظر الى شفتيه بكل عينى :

ـــ دعنى أجربها مرة ثانية ..

واقترب هاشم بشفتيه وقبل أن يصل الى شفتى ابعدت راسى عنه ، وقلت :

ـــ لا .. لا تقبلنى .. اذا كنت لا تريد ..

وشدنى هاشم من شعرى فى حركة مباغتة ، وقرب راسى اليه ، وهو يهمس :

ـــ انك تتكلمين كثيرا ..

ثم سقط فوق شفتى ..

واستسلمت له بكل شفتى ..

ربما كانت المرة الأولى التى لم أحس فيها بأنى أضيق بقبلة فوق شفتى .. ولا أبذل مجهودا لأحتملها كما كنت أحتمل قبلة

تيسير .. طعم آخر .. نكهة أخرى .. كأنهما أول شفتين ناضجتين التقى بهما .. وكأن شفاه الرجال لا تنضج الا بعد الأربعين .. وأعصابى تهدأ .. وتستسلم .. كأنى كنت أجرى طول حياتى ولم أتوقف عن الجرى الا بعد أن وصلت الى شفتيه ، وشىء جميل رائع يسرى فى عروقى كلها .. كأنى سأنام ..

ورفع هاشم شفتيه عن شفتى ..

والتقت عيوننا كأننا نلتقى لأول مرة ..

ثم عادت شفتاه الى شفتى ..

ومرت بنا الأيام بعد ذلك أكثر روعة وجمالا .. ولكننا لم نكن نذهب الى الشقة ..

كنت أضيق بهذه الشقة .. كنت أحس كلما هممت بالذهاب اليها ، كأنى على وشك أن تصيبنى نوبة الاختناق .. انى أكره الجدران .. كل الجدران ، لقد قضيت طول عمرى أهرب من الجدران .. جدران بيتنا فى بيروت ، وجدران المدارس التى التحقت بها .. وجدران بيت عائلة محيى الدين .. انى لا أضع نفسى بين أربعة جدران الا اذا غلبنى النوم .. وقد أحس هاشم بكل ذلك .. أحس بى فتاة عصبية ، يعذبها الزهق كلما دعانى الى الشقة .. فكف عن دعوتى .. وانطلق معى .. فى حدائق القناطر .. وفى حقول المنصورية .. وفى رمال المقطم .. وقبلاتنا منطلقة معنا .. لا تفقد روعتها .. كأنها النسيم الطلق الذى يتجدد باستمرار .. ليست قبلات مخنوقة بين أربع جدران ..

وكنا نختلف دائما حول موضوع واحد .. كل يوم لنا خناقة حول حقى فى أن ألتقى بأصدقائى وأخرج معهم .. وكنت مصرة على احتفاظى بهذا الحق .. يكفى أن احساسى يدفعنى الى

لقائهم .. وكنت يوما على موعد معه .. ومر علىّ بسيارته ليأخذنى من أمام البيت .. وقلت وأنا أجلس بجانبه :

— لن أستطيع أن ابقى معك الا عشر دقائق !

ونظر الىّ فى تحفز وقال :

— لماذا ؟

قلت :

— صديق جاء من لبنان .. وقد وعدته أن أخرج معه الليلة ..

وصرخ :

— لماذا لا تعملين مضيفة سياحية ، لتستقبلى السائحين اللبنانيين وتطوفى بهم على معالم القاهرة ..

قلت :

— لا تصرخ .. أرجوك ..

قال :

— انى لا أستطيع أن أحب فتاة تخرج كل يوم مع رجل ..

قلت فى حدة :

— انى أخرج مع أصدقاء .. لا مع رجال .. وأنا لا أخفى عنك شيئا .. ولكنك تفضل أن أخدعك كما تفعل البنات المصريات .. تفضل أن أقول لك انى ذاهبة الى الكوافير أو الى زيارة صديقة ، ثم أذهب الى لقاء رجل .. ولكنك لا تحتمل أن أصارحك بأنى سأخرج مع صديق .. أتدرى لماذا تخدع البنات الرجال ، لأن الرجال لا يحتملون الحقيقة .. لا يريدون أن يفهموا أن البنت ليست مجرد جنس .. وأن العلاقة بين البنت والرجل ليست دائما علاقة جنسية .. يجب أن تعرف أن البنت شخصية كاملة من حقها أن يكون لها أصدقاء سواء كانوا بنات أو رجالا .. من حقها أن تتحرك كما تريد .. ان البنت تعمل الآن ، فاذا كان من

حقها أن تلتقى بالرجل فى المكتب أو فى المصنع ، فلماذا لا يكون من حقها أن تلتقى به فى مقهى أو فى حديقة .. واذا كانت قد استطاعت أن تتحرر من الجنس فى المكتب .. فلماذا لا تتحرر من الجنس خارج المكتب .. هاشم افهمنى .. انى أستطيع أن أكذب عليك وأخدعك كما فعلت بك أمينه ونجوى .. ولكنى لن أفعل .. لا من أجلك .. ولكن من أجل احساسى .. انى مخلصة لاحساسى قبل أن أكون ملخصة لك .. واخلاصى لاحساسى هو اخلاصى لك ..

وصرخ هاشم وهو يضرب عجلة القيادة أمامه بقبضته وعيناه غاضبتان :

— احساسك .. انك تتحدثين دائما عن احساسك .. واحساسى أنا ، أليس له وجود .. أتعتقدين أنى حجر .. حمار بلا احساس .. ثم يجب أن تعرفى أن الانقياد للاحساس هو انحلال .. فوضى .. انك قد تحسين بأنك تريدين أن تخلعى ثيابك فى الشارع ، فلماذا لا تخلعينها .. وأنا أحس أحيانا بأنى أريد أن أقتل شخصا ، فلماذا لا أقتله .. ان الاحساس يقوم أساسا على الغريزة .. والانسان لم يتقدم الا لأنه استطاع أن يقاوم غرائزه .. كل تاريخ الانسان هو تاريخ مقاومة غرائزه والسيطرة على أحاسيسه .. الانسان وضع القوانين ليقاوم غرائزه وأحاسيسه .. وحدد المبادىء .. ودعا الى احترام الناس بعضهم لبعض .. والأنبياء والفلاسفة .. والمفكرون ، كل هؤلاء لم يفعلوا شيئا الا أنهم قاوموا غرائز البشر والسيطرة على أحاسيسهم ، حتى يستطيعوا حماية المجتمع الانسانى والتقدم به .

قلت وأنا أصرخ مثله :

— انك تتحدث كأن لقائى مع صديق جريمة ..

قال :

— انها جريمة فى حقى .. انها استهانة بى .. اذا أردت أن تنقادى لأحاسيسك فيجب أن تعيشى فى عالم وحدك .. لأن الناس لهم أيضا أحاسيس يجب أن تراعيها ، وتحترميها .. وتحسبى حسابها ..

ثم سكت برهة ليلتقط أنفاسه واستطرد قائلا :

— سأخرج مع فتاة حتى تحسى بما أحس به .. حتى تحسى بالجريمة ..

وشعرت بقلبى يتمزق ، وهو يهددنى بأن يخرج مع فتاة غيرى .. ولكنى عاندت ، وفتحت باب السيارة ، وأنا أقول :

— يجب أن أتركك الآن حتى لا أتأخر عن موعدى ..

ولم يرد على ..

ونزلت من السيارة ، والتفت اليه قائلة :

— أتدرى ماذا يعذبك .. أنانيتك .. كل ما تريده الا يرانى الناس مع أحد غيرك .. انك لا تزال شرقيا .. الفتاة يجب أن تكون فتاة خصوصية .. كسيارتك .. كحذائك ، أنانية الشرق .. غباؤه .. افهم انى لست سيارة .. ولا حذاء .. لست وردة تضعها فى عروة سترتك .. وتتخايل بها أمام الناس ، أنا لست ملكك .. أنا ملك نفسى .. حتى لو أحببتك .. حتى لو كنت الرجل الوحيد فى الدنيا ..

وتركته قبل أن أسمع رده .. وأنا أشعر كأنى أهم بالبكاء .

واتصل بى هاشم فى اليوم التالى ..

كان صوته ضعيفا مهزوما فيه رنة الاعتذار عن مناقشة الأمس ..

وابتسمت ..

انه لا يستطيع أن يستغنى عنى ..

وبدأت أعطيه وقتا أكثر وهو يعطينى كل وقته .. وليس معنى هذا انى تنازلت عن حقى فى أن يكون لى أصدقاء .. أبدا .. كنت لا زلت أخرج معهم .. وأرقص .. بل انى ازددت احساسا بأن هؤلاء الأصدقاء هم ضمان حريتى .. هم حماية لى من ضعفى .. اذا حدث يوما وأحسست أنى ضعيفة .

والقاهرة كلها تتحدث عنى وعن هاشم من كثرة ما رآنا الناس معا .. وعائلة محيى الدين بدأت تتهامس عن علاقتى بهاشم .. ثم بدأوا يتحدثون عنه أمامى .. لم يكن أحد منهم يلومنى .. وربما لم يستطع أحد منهم أن يحدد نوع هذه العلاقة التى تربطنى بهاشم ، فلم يكن من السهل أن يتصوروا أن هاشم يحبنى ، أو أنى أحبه ، لفارق السن الكبير بينى وبينه .. ولكنهم كانوا يمتدحون هاشم كثيرا أمامى .. ويرددون أن له نفوذا كبيرا .. وأنه صديق لكل رجالات مصر .. ودودى ابنة طنط ميمى لا تخفى غيرتها من صداقتى لهاشم ، انها تلوى شفتيها كلما سمعت فى البيت سيرة هاشم ، ثم تصعد الى غرفتها فوق سطح البيت ، وتصنع تماثيل من طين .. ولكن زوجها رفيق بدأ يهتم بى أكثر من عادته ، منذ سمع بصداقتى لهاشم .. وقد قلت ان رفيق كان يغيب كثيرا عن البيت ويعود فجأة .. ولا يهتم أحد بغيبته ولا يفرح بعودته .. وتعودت أنا أيضا ألا أهتم به .. والواقع أن شيئا فيه كان يقززنى .. ابتسامته التى تسيل على شفتيه .. ونظراته المتسللة من تحت جفنيه ..

ولكنه بدأ يتعمد أن ينتظرنى ليتناول معى طعام الافطار ، ويتعمد أن يسألنى اذا كنت سأعود لتناول الغداء ، ودعانى مرة

الى العشاء فى شبرد مع زوجته وبعض أصدقائه .. واهدانى مرة خاتما أثريا اشتراه من خان الخليلى وكان يتحدث كثيرا عن هاشم .. وعن نفوذه ، وقال لى مرة :

ــ لا أظن أن الدكتور هاشم من الأشخاص الذين تفتش حقائبهم فى الجمرك عندما يسافر ..

وقلت بلا مبالاة :

ــ لا أدرى ..

لم أفهم يومها ما كان يقصده رفيق ..

ــ ٢ ــ

هاشم يتطور بسرعة .. أسرع من تفكيرى .. أسرع مما أنتظر .. لا .. انه لا يتطور .. انه يحاول أن يجعل من نفسه انسانا آخر .. يحاول أن يكتسب لنفسه شخصية جديدة ... عمرا جديدا .. كان يبدو كأنه يئس من أن يرفعنى الى عمره ، فقرر أن ينزل الى عمرى .. وكان كل ما يسعى اليه هو أن يستأثر بى .. أن يبعدنى عن أصدقائى الشبان .. يئس من أن يقنعنى بأن أكون له وحده .. فقرر أن يكون كل شىء فى حياتى .. وأن يعطينى كل ما يمكن أن يعطيه لى أى انسان آخر .. أن يشغل كل وقتى .. وكل تفكيرى .. وكل أحاسيسى .. بحيث لا يترك منى شيئا لأحد غيره ..

وكنت معه نتناول العشاء فى مطعم عائم على النيل .. مطعم عمر الخيام .. وأنا أفضل دائما أن أكون مع هاشم فى الأماكن الهادئة .. انى أحس به أكثر وسط الهدوء .. أحس

بعقله الكبير .. وآرائه العميقة .. ولمساته الرقيقة .. ونظراته الحانية كأنه يخشى على ، لو أطلق عينيه لتعبرا عن رجولته ، أن يكسرنى بنظراته ..

وسألنى هاشم :

— ماذا تفعلين غدا ؟

قلت ببساطة :

— فى الصباح سأذهب مع بعض الأصدقاء الى الهرم لنركب الخيل ..

وتغير وجهه فجأة . والتمعت عيناه ، وقال وهو يقبض على كأسه بكل أصابعه كأنه يحاول ن يحطمه :

— مع من ، من أصدقائك ؟ ..

قلت بلا مبالاة :

— مع عصام .. وعفاف .. وعايده .. وأسعد .. وصلاح .. ولا ادرى من ايضا ..

ونكس عينيه وقال وكأنه يخاطب نفسه :

— عصام دائما ..

قلت وأنا أنظر اليه مشفقة عليه :

— عصام مجرد صديق .. لا أكثر .. و ..

وقاطعنى فى حدة :

— أعلم .. ومن يدرى .. لعلى انا مجرد صديق .. ولعل ما بينى وبينك هو ما تسمينه صداقة ..

قلت وأنا أنظر اليه بكل عينى ، وعلى شفتى ابتسامة أحاول أن أرفه بها عنه :

— انك كثير الشكوك .. والذنب ليس ذنبك ..

قال وفى عينيه ألم :

— ذنب من ؟

قلت وأنا أهز كتفى :

— ذنب البنات اللاتى عرفتهن قبلى .. كلهن بنات لا يعرفن معنى الصداقة بن الرجل والمرأة .. وقد تعودت على أن ما تعطيه الفتاة لرجل هو نفس ما تعطيه لأى رجل آخر ..

قال فى عصبية :

— أرجوك شبعت من فلسفتك ..

ومرت بيننا فترة صمت ..

وهاشم محتقن الوجه .. عيناه محتدتان .. ويشرب كأسه فى عنف كأنه يطفىء بها نارا شبت فجأة فى رأسه .. ثم قال وهو لا ينظر الى :

— سأذهب معك ..

قلت فى دهشة :

— الى أين ؟

قال :

— الى الهرم .. لنركب الخيل ..

وشعرت بالحرج .. لم أدر بماذا أجيبه .. انى لا أريده أن يكون معى .. ثم قلت كأنى وجدت حجة تثنيه عن عزمه :

— وعيادتك ؟

قال وهو يهز كتفيه :

— لا يهم ..

قلت :

— انى لا أريدك أن تترك مرضاك من أجلى ..

قال وخطوط كثيرة تشق جبينه :

— اذا كان يهمك مرضاى ، فلا تذهبى مع أصدقائك ..

انى لا أستطيع أن أعالج مريضا .. بينما عقلى مشغول بك يتصورك مع رجل آخر ..

قلت :

ــ أنا لست مسئولة عن مرضاك .. أنا لست طبيبة .. أنت الطبيب ..

قال فى ضعف :

ــ لو كنت تحبيننى لشاركتنى مسئوليتى ..

قلت فى عناد :

ــ تقصد لو كنت أحبك لصرت عبدة لك .. لسجنت نفسى فى البيت من أجلك .. لا .. أنا لا أفهم هذا المنطق .. ولو أنك كنت تحبنى لوثقت بى ..

قال :

ــ انى أثق بك ، ولكنى لا أثق بأصدقائك ..

قلت :

ــ لأنك لا تثق بنفسك ..

ورفع الىّ عينيه كأنه يلومنى لأنى جرحته ، ثم قال وفى صوته مزيد من الضعف :

ــ لا يمكن لرجل أن يثق بنفسه عندما يحب فتاة مجنونة ..

قلت فى حدة :

ــ أنا لست مجنونة .. ولكنك معقد .. أتدرى ما هى عقدتك ؟

قال وعلى شفتيه ابتسامة مرة ساخرة :

ــ ما هى عقدتى ؟

قلت :

ــ عمرك .. انك لا تريد أن تنسى عمرك ..

وارتفعت خطوط الألم الى جبينه .. وقال :

ــ افرضى أن هذا صحيح .. لماذا لا تساعديننى على ان انسى عمرى .. وكيف أستطيع أن أنسى عمرى وأنت لا تحاولين أن تنسى عمرك ..

قلت :

ــ ان أى عمر أعيش فيه لا يحرمنى من أن يكون لى أصدقاء ..

قال :

ــ اذن ، سأعيش معك ومع أصدقائك ؟

قلت :

ــ ولكنك لا تعرفهم ..

قال :

ــ عرفينى بهم ..

قلت فى غيظ :

ــ انك لن تستريح معهم ، ولن يستريحوا معك ..

قال :

ــ اذا كنت أستريح معك ، فسأستريح معهم .. واذا كانوا يستريحون معك ، فسيستريحون معى ..

قلت فى حدة :

ــ أنا شىء آخر .. عقلى يتسع لك .. احساسى يتسع لك .. أما هم .. فعقولهم صغيرة وأحاسيسهم صغيرة ..

قال فى تهكم :

ــ لماذا تعرفين ناسا عقولهم صغيرة !!

قلت :

ــ لأنى الهو معهم .. اننا فى حاجة الى التفاهة بقدر حاجتنا الى العمق .. فى حاجة الى أن نعيش على سطح الحياة ، كما

اننا فى حاجة الى أن نغوص فى اعماقها . ثم أنى أحس أحيانا كثيرة بأنى تافهة .. وأنى فى حاجة الى التفاهة ، هؤلاء الأصدقاء يشبعون جوانب التفاهة .. انى معهم أضحك على نكات لن تضحك أنت لها .. وأرقص رقصات لا تحب أن ترقصها . انى معهم انطلق فى نواحى أخرى لا أستطيع ان انطلق فيها معك .. أصرخ .. وأجرى .. ونردد أغانى شارل أزنافور ، وأغانى نات كنج كول .. فلماذا تحرمنى من كل ذلك ..

قال وهو ينظر الى بعينين متوسلتين :

ــ انا لا أريد أن أحرمك من شىء ، ولكنى أريد أن أشاركك كل شىء ..

ولم أرد عليه ..

لويت شفتى ، والقيت ظهرى على مسند المقعد ، وأطلقت عينى فى نظرات بعيدة .. بعيدة عنه ..

ومرت بيننا فترة صمت اخرى ..

ثم القى هاشم بكأسه .. ومد يده والتقط يدى ، وقال وهو يضغط عليها .. وصوته مبحوح :

ــ رحاب .. انى .. انى احبك .. واستطيع أن أحبك اكثر .. ولم أكن أعتقد انى سأحب من جديد وبهذه السرعة .. مرت على أيام اعتقدت فيها أنه لم يعد لى قلب أحب به .. كان قلبى قد تفتت الى حد لم يعد يصلح للحب .. ولكنى بدأت احس بقلبى يعود الى الحياة .. الى النبض .. ولم اصدق احساسى .. لم أصدق أنى أحبك .. وفى خلال الشهور التى مرت علينا وانا أصحو كل صباح وأنكر أنى احبك .. ولكنى لا أكاد ألمح التليفون .. حتى اكتشف ، أنى أحبك اليوم أكثر من أمس .. وأنتظر أن أسمع صوتك فى التليفون بشوق أكثر .. وانا أعلم خطورة

هذا الحب .. ان الرجل عندما يحب وهو فى الخامسة والأربعين ، فتاة فى التاسعة عشرة .. فهو يغامر بكل ما بقى من أيامه ... يغامر بعمر الخمسين وعمر الستين وعمر السبعين .. وقد حاولت أن اتجنب هذه المغامرة .. حاولت أن أطفىء آخر ومضة حب يمكن أن تنطلق من شمعة حياتى .. ولكن لماذا .. لماذا أعيش فى الظلام وأنا لا زلت فى الخامسة والأربعين .. ولماذا اربط بين الحب وعمرك .. لماذا لا يحق للرجل فى الخامسة والاربعين أن يحب فتاة فى التاسعة عشرة . الحب ليس تفاعلا كيمائيا .. نضع عمر الخامسة والأربعين على عمر الخامسة والثلاثين فيتم التفاعل فى أنبوبة الحياة وينتج الحب .. كلام فاضى .. الحب ليس تفاعلا بين أرقام العمر .. ولكنه تفاعل بين عقلين ، وقلبين .. وشخصيتين مهما تباعدت أو اقتربت الأعمار ..

ورفعت اليه عينين مبهورتين وقلبى مشدود الى شفتيه .. انى لم أسمعه أبدا من قبل يتحدث بهذه الرقة .. وبهذه العذوبة .. ولم ألمح الصدق فى عينيه أو فى عينى أى رجل ، قد ما لمحته ساعتها .. واضطربت عواطفى ساعتها الى حد أن شعرت بأنى على وشك البكاء .. ولم أجد كلاما أقوله .. لم أستطع أن أحدد بالضبط ما يمكن أن أقوله .. ورفعت كأس البرتقال الموضوع أمامى وقربته من شفتى .. ولم أشرب منه .. ولكنى أبقيته بين شفتى ..

واستطرد هاشم قائلا وهو لا يزال ممسكا بيدى الأخرى .. يضغط عليها .. وصوته يرتعش .. والصدق فى عينيه :

ــ ان كل ما أحاوله الآن هو أن نعيش فى عالم واحد .. أن أقرب بين عالمك وعالمى حتى يصبحا عالما واحدا .. عالم

يضم أصدقاء مشتركين .. واهتمامات مشتركة .. ولن يكون هذا سهلا .. فالذى يفرق بين عالمى وعالمك ليس الأصدقاء والاهتمامات فقط .. ولكن بلدى وبلدك .. أنت فى بيروت ، وأنا فى القاهرة .. وأنا خائف .. خائف من أن نفشل فى بناء عالمنا الواحد .. وهذا الخوف يجعلنى أكره أصدقاءك ، وأكره بيروت .. أكره كل شىء يفرق بيننا .. ورغم ذلك يجب أن نجتاز التجربة ..

ولم أجد أيضا كلاما أقوله .. بقيت صامتة .. (كأس البرتقال بين شفتى .. وعيناى سارحتان ..

وقال هاشم وبين شفتيه ابتسامة صغيرة :

— فيم تسرحين ؟

قلت :

— فى كلامك ..

ثم وضعت الكأس من يدى ، وقلت وأنا لا أنظر اليه :

— انك تعقد الدنب من حولى .. انى لم أحاول أن أسأل نفسى اذا كنت أحبك أم لا .. بل انى لا أؤمن بهذه المقاييس العامة التى يطلقها الناس ويربطون أنفسهم بها .. الحب .. الصداقة .. الكراهية .. الأنانية .. كل هذه الألفاظ لا تدل على حقيقة لأنها ليست ثابتة . ليست ماضيا ، ولا حاضرا ، ولا مستقبلا .. ان الناس تحاول أن تجعل من الأحاسيس أشياء مادية ثابتة .. كالجماد .. كالحديد .. والصخر .. والخشب .. ولكن الخشب كان خشبا فى الماضى .. وهو خشب فى الحاضر .. وسيكون خشبا فى المستقبل .. ولكن الحب .. كيف تثق أنك ستحبنى غدا كما تحبنى اليوم .. وكيف تثق أنك تحبنى اليوم كما كنت تحبنى أمس .. والأنانية .. ان الانسان قد يكون أنانيا فى لحظة .. ومضحيا فى لحظة أخرى .. فلا تستطيع أن تقول

ان هذا الانسان أنانى . وهذا ليس أنانيا .. كلاهما خاضعان لاحساس اللحظة .. والصداقة .. ان صديقك لم يكن صديقك بالأمس .. وقد يكون عدوك غدا .. انى لا أؤمن بكل هذا الكلام .. ان الأحاسيس عندى لحظات .. أعيش اللحظة التى أنا فيها ...

ولا أحاول أن أربط نفسى باللحظة التى تليها . أنت لا تحبنى ، وأنا لا أحبك .. ولكن كلينا يحب هذه اللحظة التى تجمعنا .. وهى لحظة .. حتى لو استمر الحب ساعات أو أياما أو سنين .. الأن السنين مجموعة لحظات .. وما دمت لا تستطيع أن تحكم على اللحظة التالية .. فأنت لا تستطيع الا أن تعيش اللحظة التى أنت فيها .. لا تستطيع أن تتنبأ بأحاسيسك .. لا تستطيع أن ترصدها كما يرصد علماء الفلك الحالة الجوية .. لا تستطيع أن تقول غدا حب .. وبعد غد زهق .. وبعد بعد غد تضحية .. انك تستطيع أن تقول لفتاة أحبك هذه اللحظة ، ولو قلت لها انك ستحبها طول العمر ، فأنت دجال لأنك تتنبأ بالغيب .. وأحاسيس الانسان هى أعمق وأبعد ما فى الغيب .. لا أحد يستطيع أن يرى أحاسيسه ..

وكان هاشم يستمع الىّ وعيناه متسعتان ، ووجهه غارق فى الدهشة ، وقال وصوته مبهور :

— ومن وضع على لسانك هذا الكلام ؟

ونظرت اليه كأنى الومه وقلت :

— لا أحد .. كلام اكتشفته بنفسى .. انى طول عمرى أحاول أن أكتشف أحاسيسى وأرتبها وأنظمها .. وأضعها فى دوسيهات كما تفعل سكرتيرات المكاتب .. حاولت أن أعرف هل أنا أنانية أم شهيدة .. هل .. هل .. حاولت أن أضع أحاسيسى فى

دوسيهات .. هذا حب .. وهذه صداقة .. وهذه كراهية .. وهذا زهق .. ولكنى .. ولكنى فشلت .. وكنت افاجأ بأحاسيسى التى تحكم تصرفاتى أكثر مما يفاجأ بها الناس .. وقد سبق ان اعتقدت انى أحب تيسير الذى سبق أن حدثتك عنه ... ولكنى كنت فى لحظة أكتشف فى نفسى احساسا مختلفا نحوه .. لحظة أزهق منه .. ثم فى لحظة لم أعد احس به اطلاقا .. أختفى من كل أحاسيسى .. اين ذهب الحب اذا كان الحب شيئا ثابتا ماديا . أين هو .. وأين ذهب حبك لنجوى ؟

وقال هاشم وهو ينظر الىّ كأنه ينظر الى مجنونة :

— انك تهدمين الحياة كلها .. انك تهدمين اجمل واشرف ما فى الانسان .. ان الحب هو البشرية .. لولا الحب لما تزوج الناس ، وخلفوا صبيان وبنات ، واستمرت الحياة ..

وضحكت ضحكة صغيرة وقلت كأنى أسخر منه :

— بالعكس .. أتدرى لماذا يتزوج الناس .. لأنهم لا يثقون بعواطفهم .. لأنهم يؤمنون مثلى أن الحياة لا يمكن أن تقوم على العاطفة .. لأن العاطفة لحظات .. ليست حياة .. ولذلك فكل اثنين يربطان نفسيهما بعقد قانونى ... ليحتمى كل منهما من اللحظة التى تتغير فيها عواطف الآخر .. يرتبطان بعقد لأن كل منهما لا يثق فى الآخر .. كل منهما يؤمن بأن الحب لحظة ، لا تضمن اللحظة التى تليها ..

وسكت هاشم برهة وهو لا يزال ينظر الى بعينيه المتسعتين من الدهشة .. ثم قال ، كأنه وجد ثقبا فى عقلى :

— انك تقولين انك تحبين هذه اللحظة معى .. اليس كذلك ؟

قلت :

— هذا صحيح ..

قال :

— اذن ، من حقك أن تدافعى عن هذه اللحظة حتى تستمر الى اللحظة التالية واللحظة التى بعدها ، والى مدى الحياة ..

وترددت برهة ، كأنه فعلا تسلل من ثقب فى عقلى :

— طبعا .. هذا من حقى ..

قال :

— اذن اتفقنا .. فهذا هو الحب .. الحب ليس عاطفة غير ارادية ، ولكنه عاطفة تذكيها وتحتفظ بها الارادة ... الحب فى حاجة دائمة الى الارادة .. والى الذكاء .. والى التضحية المتعمدة .. حتى يعيش ..

قلت اصارع منطقه :

— معنى هذا أن الانسان هو الذى يصنع الحب .. معنى هذا أن اى فتاة يمكن أن تحب اى رجل ..

قال بسرعة :

— لا .. ليس هذا ما اقصده ... ولكن الفتاة تجد فى الشاب شيئا يعجبها .. يتفق مع عقليتها .. مع ذوقها .. فتنمى بارادتها هذا الشىء حتى يصبح حبا .. ثم بارادتها ايضا وبما تبذله من نفسها تستطيع أن تحتفظ بهذا الحب ..

قلت وقد تعبت من المناقشة :

— ولكنك قلت انك تخاف من حبك لى ، فلماذا تحاول أن تنميه بارادتك ..

قال وهو يهز كتفيه :

— لا أدرى .. ربما لأنى قارنت بين خوفى وحاجتى اليك .. فتغلبت حاجتى اليك ..

وهززت رأسى كأنى أستسلمت ..

واستطرد هاشم قائلا ونظرات عينيه تمسح على خدى فى رفق :

ـ وانت ؟

قلت :

ـ أنا ماذا ؟

قال :

ـ ماذا قررت ؟

قلت :

ـ انى لا أستطيع ان اقرر شيئا .. انى أكره ان اقرر شيئا .. اكره مجرد كلمة قرار .. افهمنى .. انى اكره ان ارى الغد .. اكره أن ارسم صورة للمستقبل .. ان مجرد رسم صوره للمستقبل والتمسك بها ، يفقد المستقبل لذته .. يفقد الحياة كلها روعتها .. ان روعة هذه اللحظة التى أعيشها هى فى انتظار مفاجأة قد تأتى بها اللحظة التالية ..

وتنهد هاشم فى يأس ..

واستطردت قائلة :

ـ القرار الوحيد الذى يمكن أن اتخذه الآن .. فى هذه اللحظة .. هو أن أعود الى البيت ..

وقام هاشم واقفا .. وكأنه ضاق بى .. وقال :

ـ قرار هائل ..

ودفع الحساب ، وأمسك بذراعى ليخطو بى فوق المعبر الذى يصل بين المطعم العائم وشاطىء النيل .. ثم القى ذراعى من يده بمجرد أن وصلنا الى الشاطىء ..

ولم نتكلم طوال الطريق ..

ونزلت من السيارة أمام باب البيت .. دون أن يقبلنى كما عودنى .. وبعد أن نزلت مد عنقه نحوى وقال :

ـ متى ستذهبين غدا الى الهرم ؟

قلت :

ـ عصام سيمر على فى الساعة الحادية عشرة ..

قال فى حزم وعيناه تبرقان بالتصميم :

ـ وانا ايضا سأمر عليك فى الحادية عشرة ..

ثم سحب عنقه ، واعتدل أمام عجلة القيادة .. وصرخت :

ـ ومرضاك ..

ولكنه انطلق قبل أن يسمعنى .. أو لعله سمعنى ولم يرد على ..

وصعدت الى غرفتى وانا احس بشىء ثقيل يضغط على صدرى ، ويلتف حول عنقى .. اشعر كأنى اجرجر فى قدمى قيدا من حديد .. انى أكره أن يقيدنى أحد .. اكره أن يلاحقنى احد ... أكره هاشم فى هذه اللحظة ..

ونمت نوما أرقا ..

صليل القيود يزعجنى ..

وفى الساعة الحادية عشرة صباحا ، سمعت صوت كلاكس سيارة عصام .. ان عصام تعود أن يضغط على الكلاكس بحيث يخرج نغمة مميزة ، أعرفه بها ..

وبعد لحظات سمعت صوت كلاكس سيارة هاشم .. ان هاشم يضغط على الكلاكس كأنه يضربه ، فيطلق صوتا مزعجا كأنه الصراخ ..

وانا حائرة فى غرفتى .. احاول ان اقنع نفسى بالا اذهب معهم ... لا مع عصام ، ولا مع هاشم .. حتى لا احرج نفسى ..

ثم انى لا أحب ركوب الخيل .. كل ما هنالك انى احب لبس بنطلون الركوب .. لقد شاهدت مرة أودرى هيبورن فى أحد الأفلام ، ترتدى البنطلون المخصص لركوب الخيل ، فخرجت من السينما واشتريت بنطلون مثله ..وفى المرات القليلة التى ركبت فيها الخيل سواء فى بيروت او فى القاهرة كنت أصر على ان يمسك السايس بلجام الحصان ، ويسير بى الهوينى .. لأنى أخاف .. ثم أقضى الوقت كله متمتعة بلبس بنطلون الخيل ..

ورغم ذلك نزلت اليهم .. مرتدية قميصا أسود ، وبنطلون ركوب رمادى اللون . وحذاء طويلا « هاى بوت » يصل الى ركبتى ، ومصنوع من جلد اسود ، ثم قبعة سوداء .. وفى يدى سوط من الجلد ..

كنت رائعة ..

والشىء الثقيل يجثم على صدرى ، والقيد الحديدى يجرجر فى اقدامى ..

ورفعت يدى التى تحمل السوط ولوحت بها لعصام وانا أصيح وعلى شفتى ابتسامة كبيرة :

— هاى ..

وكان مع عصام بقية الشلة .. عفاف وعايده واسعد وصلاح ..

واتجهت اليهم .. وتبادلنا صرخات التحية .. ثم اتجهت الى هاشم وانا أجد صعوبة فى الاحتفاظ بابتسامتى ..

وكان هاشم يرتدى قميصا مفتوحا ، قصير الأكمام ، ويلف حول عنقه ايشاربا رمادى اللون منقطا بنقط سوداء ... وكان وجهه منجهما ممتقعا . يبدو انه لم ينم .. وأنفه يبدو اكبر .. وشعره اكثر بياضا .. كان يبدو كأنه احد اللوردات الانجليز القدامى ..

وصراحته ، والحيرة ، والحرج الذى أوقعنى فيه ، يمزقانى .. وقلت وانا أنظر اليه كأنى ألومه لأنه جاء :

— هل اقدمك لأصدقائى الآن ؟

ولم يرد هاشم ..

فتح باب السيارة ونزل منها ، ثم امسك بيدى واتجه بى الى سيارة عصام .. وقدمته اليهم :

— صديقى الدكتور هاشم ..

واعتدل عصام وأسعد وصلاح ، فى جلستهم داخل السيارة . وقد بدا عليهم الارتباك ، كأن الأستاذ ضبطهم وهم مزوغين من المدرسة ..

وانطلقت عيون عفاف وعايده ، فى شبه شنهقة ، وهما ينقلان نظراتهما بينى وبين هاشم ..

ومد هاشم يده وأخذ يصافحهم واحدا واحدا وهو يبتسم لكل منهم كأنه يطمئنه .. كأنه يقول لكل منهم انه رغم كبر سنه ، فهو منهم .. أليف .. ثم قال فى صوت رقيق رزين :

— سيارتى أكبر .. هل ننتقل كلنا اليها .. بدل أن نذهب فى سيارتين .

وازداد ارتباك الشبان .. وتمتم كل منهم بكلمة لا معنى لها .. وكل منهم حريص على أن يبدو فى أشد حالات الأدب والاتزان ..

وأطلت عفاف الى سيارة هاشم .. ثم التفتت اليه بعينين مبتسمتين وقالت :

— فكرة ..

وقال عصام وهو ينظر الى كأنه يسألنى رأيى ، ثم يعود وينظر الى هاشم بعينين مرتبكتين :

— كما تريد ..

وقلت كأنى اجرؤهم على هاشم :

— كما تريدون أنتم .. انتم الأغلبية ..

وقالت عفاف وهى تنزل من السيارة :

— الأغلبية موافقة ..

واتجهنا كلنا الى سيارة هاشم .. وأنا لا استطيع ان ارفع عينى اليه .. وأتعمد الا اسير بجانبه .. كأنى أريد ان اثبت للشلة انى لا زلت حرة ..

وجلست بجانب هاشم .. وعلى يمينى جلس عصام .. وفى المقعد الخلفى جلست عفاف وعايده ، وأسعد وصلاح .. عفاف جلست على ركبتى اسعد ، ومالت بجذعها وأسندت ذراعيها على مسند المقعد الأمامى خلف هاشم .. شفتاها تكادان تلمسان قفاه ..

وساد بيننا صمت حرج فترة طويلة .. وعلى خد هاشم لمسة حمراء ، ويثنى عنقه داخل ياقة قميصه بين لحظة واخرى كأنه يقام شيئ يخنقه .. وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء لا معنى لها .. لعله كان اشدنا حرجا ..

وانطلقت عفاف قائلة ، وشفتاها قريبتان من قفا هاشم :

— سمعت عنك كثيرا يا دكتور من أصدقائى المصريين .. انك مشهور ..

وقال هاشم وصوته مختنق :

— متشكر ..

وعادت عفاف تقول وصوتها يزغرد :

— لقد كدت مرة استدعيك .. اصبت بألم شديد فى معدتى

.. وفكرت المشرفة على بيت الطالبات ان تتصل بك .. ان عيادتك قريبة جدا من بيت الطالبات .. هكذا قالت ..

وقال هاشم كأنه يخاطب سيدة كبيرة :

— الحمد لله اننا التقينا بلا مرض ..

والتفت الىّ كأنه يرى تأثير كلامه علىّ .. كأنه يستغيث بى لأساعده على الكلام ..

وعصام جالس بجانبى مؤدب غاية الأدب .. وأسعد وصلاح يتهامسان .. ثم تلتقى العيون كلها فوق وجه هاشم ..

كنا نشعر كأننا تلاميذ فى رحلة مدرسية بصحبة الأستاذ ..

ثم ارتفع صوت عايدة تغنى أغنية هنرى ماسياس : « لقد تركت وطنى .. تركت بيتى .. تركت حياتى .. حياتى البائسة » .. ثم اعقبتها بأغنية « الحقول الخضراء » ... وشاركناها جميعا فى الغناء .. وهاشم صامت .. يصفر بشفتيه حينا مصاحبا اللحن الذى نغنيه .. ثم يعجز عن متابعة اللحن ، فيسكت .. ويكتفى بأن يتمتم بشفتيه بصوت غير مسموع .. وأحس به يضيع .. ويضيع .. لا .. انه يذوب .. يكاد يتلاشى .. ولا يرده الينا الا عفاف عندما تهتم به مرة ثانية ، وتحاول ان تجذبه الى حديث معها ..

ووصلنا الى الهرم ..

ونزلنا من السيارة ..

وحرصت الا اسير بجانب هاشم .. تركته يسير بجانب عفاف .. وأنا انظر اليه نظرات مختلسة .. وخيل الىّ ساعتها ان قامته اقصر مما كنت اتصور .. ولاحظت ان ساقى بنطلونه واسعتان .. على الطراز القديم .. ربما لو ضيق ساقى بنطلونه لبدا أطول قامة .. واكثر أناقة .. ثم وجدت نفسى اقارن بينه

وبين عصام .. وخيل الى ساعتها انه اكبر سنا مما كنت أعتقد .. رأيت التجاعيد تحت عينيه لأول مرة .. ورأيت نقطا سوداء صغيرة فوق يديه ، وبجانب أنفه ، لم أكن أراها من قبل .. وجلد عصام مشدود .. نظيف من النقط السوداء .. أف من هذا المجنون هاشم ، لماذا وضع نفسه فى موقف جعلنى أقارن فيه بينه وبين أى رجل آخر .. انى لم افكر من قبل أن أقارن بينه وبين آخر .. لقد كنت معجبة به الى حد أنى اعتقدت انه لا يمكن أن يقارن بآخر .. انه مجنون .. انه يضيعنى ، ويضيع نفسه ..

واقتربت منى عفاف وهمست فى أذنى :

— صديقك بيجنن .. يبدو انه شخصية ..

ولم ارد عليها .. ولكنى تمنيت ساعتها أن تأخذه وتبتعد به عنى ، لتخلصنى من هذا الحرج الثقيل الذى يجثم على صدرى .. لتحررنى من قيده .. لأنطلق لا مبالية كما تعودت ..

وبدأنا نركب الخيل ..

ونظر الىّ هاشم .. ثم تردد قليلا .. وامتطى الحصان .. لعله لم يركب حصانا من قبل .. ان طريقته فى الارتفاع فوق ظهر الحصان تدل على انه لم يركب من قبل .

وابتسمت له ..

ابتسامة لا معنى لها ..

وركبت حصانى ، ونبهت على صاحبه الأعرابى الا يترك اللجام من يده .. نبهت عليه بصوت عال ، فانى لا أخفى انى اخاف الخيل ..

وسارت بنا الخيل فى خطوات بطيئة .. وهاشم يقبض على اللجام بيد ، ويمسك بيده الأخرى حافة السرج ، حتى لا يقع .

وما كدنا نصل الى الصحراء الواقعة خلف الهرم ، حتى

اطلق عصام العنان لجواده .. رمح به .. ورمح خلفه أسعد وصلاح .. فى شبه سباق .. وهلل البنات .. وهللت معهن .. ونحن نرقب الشباب يرمح بالجياد فى نظرات مبهورة ..

والحصان الذى يركبه هاشم يتململ .. ويدب بقدميه .. ويهز عنقه فى عصبية يريد أن يلحق الجياد التى تجرى .. وصاحبه الأعرابى واقف بجانبه يحاول أن يهدئه ، ويقبض على لجامه بقوة ..

والتفت الى هاشم ..

ولمحنى أبتسم له ..

كنت أبتسم له ابتسامة أحاول أن أقول له بها أنى معجبة به رغم أنه لا يرمح بجواده .. ابتسامة أحاول أن أخفف بها عنه ، حتى لا يندفع فى تقليد الشبان ..

ولكن .. لعل هاشم لم يفهم ابتسامتى .. لقد ظل ينظر الى .. ثم ينظر الى عفاف وعايدة .. ثم امتلأ وجهه بتصميم هائل ، والتفت الى الأعرابى الذى يمسك بجواده ، وصرخ فيه :

— دع الحصان ..

وترك الأعرابى لجام الحصان من يده .. واذا بالحصان ينطلق كالصاروخ ليلحق بالجياد التى تجرى .. وهاشم فوقه يرتفع وينخفض .. ويميل الى الأمام ، والى الخلف .. انه يبدو ككيس من القطن فوق ظهر سيارة فقدت فراملها ..

وصرخنا فى جزع ..

وصرخ الأعرابى صاحب الحصان :

— الحصان جمح ..

ثم طلب منى أن انزل عن حصانى ، ليركبه ويلحق بالحصان الجامح ..

ونزلت .. وانا اكاد اموت من الهلع على هاشم .. وعايدة وعفاف يصرخان .. والحصان يبتعد بهاشم .. ويبتعد .. وفى كل لحظة يخيل الينا ان هاشم سيقع من فوقه ويموت .. والدموع تتجمع فى عينى .. ليست دموع شفقة .. ولكنها دموع غيظ .. لماذا يعرض هاشم نفسه لكل هذه البهدلة .. يعرض نفسه الى حد الموت ..

وتعدى حصان هاشم بقية الخيل .. واصبحت بقية الخيل تجرى وراءه لتوقفه .. واختفى الجميع عن أعيننا ..

وانا ابذل جهدى حتى لا تنهمر دموعى ..

وقلبى يضطرب ..

كلى مضطربة ..

وبعد أكثر من ربع ساعة ، راينا الجميع يعودون ..

هاشم على ظهر جواده ، والأعرابى يمسك بلجامه .. ومن حوله عصام وأسعد وصلاح ، كل منهم يركب جواده .. والجياد كلها رؤوسها منكسة كأنها تسير فى موكب الهزيمة ..

ونزل الجميع امامنا من فوق ظهور الخيل ..

وساعد الأعرابى هاشم وهو ينزل من فوق ظهر جواده .. وكان وجهه مجهدا طغت الصفرة على سمرته .. وعيناه مضطربتان .. وشفتاه جافتان .. وقميصه خارج من بنطلونه .. والايشارب الذى يلفه حول عنقه طائح فى الهواء .. وقال وهو يساوى قميصه ويحاول ان يسيطر على اضطرابه :

ــ تجربة لا بأس بها .. وقد سبقتهم ..

ومرت برهة لم يرد فيها أحد عليه .. كنا لا ندرى ماذا نقول .. ثم قالت عفاف وهى تغتصب ابتسامة :

ــ كنت رائعا ..

واقتربت من هاشم وسرت بجانبه صامتة ، كأنى خفت ساعتها أن يرتكب حماقة أخرى .. ثم همست :

ــ لقد خفت عليك ..

قال فى حدة كأنه مغتاظ من نفسه وكأنه يسكتنى :

ــ لا تخافى .. انى اعرف ما افعله ..

وصمم هاشم على أن يدفع ايجار الخيل لنا كلنا .. صمم فى حدة ، كأنه وجد شيئا آخر يتفوق فيه على بقية الشبان .. ولم يدر انه كان يفسد الروح التى تربطنا جميعا .. وانه يزداد بعدا عنا .. فقد كنا متعودين أن يدفع كل منا حسابه .. حتى البنات .. كل بنت تدفع حسابها ..

ودخلنا فندق مينا هاوس لتناول الغداء .. وشرب هاشم بيرة .. شرب كثيرا .. وحاولنا أن نشترك جميعا فى حديث واحد .. كل منا يبذل مجهودا حتى يختار موضوعا يشرك فيه هاشم .. وهاشم كان يبذل مجهودا اكبر ليختار موضوعا يهمنا .. وكان هذا المجهود يجعل من حديثنا حديثا مفتعلا سخيفا تضيق به صدورنا .. وهاشم يشرب حتى ينسى الحماقة التى ارتكبها .. ونحن لا نحاول أن نذكره بها ، رغم أنها فى رأس كل منا .. ومن يدرى لعل الشبان والبنات كانوا يسخرون منه بينهم وبين انفسهم ، ولعل حماقته ستكون حديث كافتيريا هيلتون بعد لحظات ..

وتعبنا من هذا الافتعال ..

وجدنا انفسنا نتحدث فى مواضيع تهمنا وحدنا .. نتحدث عن أصدقائنا .. وعن حفلاتنا .. وعن أخبار بيروت .. وهاشم وحده .. يشرب البيرة .. ثم يتنبه احدنا الى انه وحده فيحاول

ان يشركه فى حديث .. ثم نجد أنفسنا نعود الى الحديث الذى يبعده عنا ..

لعلى بالغت ..

فان هاشم رغم كل ما يبعده عنا ، كان فيه شىء يجذبنا اليه .. كل الشبان والبنات وجدوا فيه شيئا جذابا .. ولكنه ليس الشىء الذى يمكن أن يجعله واحدا منا .. أو يجعل رأسه فى مستوى رؤوسنا .. انه الرأس الوحيد بيننا المتموج بالشعر الأبيض ..

وصمم هاشم أيضا على أن يدفع حساب الغدآء ..

وتركناه يدفع ..

وعدنا الى السيارة ..

وكنت أعتقد أن هذه التجربة ستقنع هاشم بأنه لا يمكنه ابدا مشاركتى فى اصدقائى .. تقنعه بأنه لا يستطيع أن يعيش فى عالمى .. كنت أعتقد أنه استسخف عقول هؤلاء الشبان والبنات . وتصرفاتهم .. ولكننا بدأنا نتحدث فى السيارة عن قضاء السهرة فى الاستريو .. فاذا هاشم يدعونا الى أن نكون معه .. ورفضت .. ولكن بقية الشلة قبلت .. وكان اكثرهم حماسا .. عفاف .. والحوا علىّ حتى قبلت .. قبلت خفت ان اترك لهم هاشم وحده .. أن اتركه لعفاف ..

وذهبنا فى المساء ..

وتعمدت أن أبدو كبيرة .. اكبر من عمرى .. واكبر من بقية البنات .. ورقصنا ..

وكنت اخصص كل الرقصات الهادئة لهاشم .. وهاشم عندما يرقص هذه الرقصات الهادئة احس كأنى أذوب فى صدره .. لم اشعر ابدا بأنى اذوب فى صدر أحد الا عندما رقصت مع هاشم

.. انه يرقص فى رقة .. وشموخ .. وروعة .. واحس به كأنه يحملنى بذراعيه القويتين فوق سلم من الموسيقى الى عالم بعيد .. بعيد .. ساحر ..

ولعلى لست وحدى التى احببت أن ارقص معه هذه الرقصات الهادئة .. لقد قامت عفاف ترقص معه، فرأيتها بعد لحظات تكاد تختفى فى صدره .. ورأسها مائل فوق عنقه .. وعيناها مغمضتان ، كأنها هامت ..

وعذرتها ..

وكنت ليلتها أرقص الرقصات السريعة مع بقية افراد الشلة .. التويست .. الباسانوفا .. والتشكن .. وكنت خلال رقصى المح هاشم وهو ينظر الىّ كأن عينيه ستقفزان لتصفعانى .. فترتبك خطواتى .. كنت أحس بالحرج وأنا أرقص التويست أمامه .. وابذل حتى أنسى وجوده .. حتى لا تضيع خطواتى ..

وهاشم يشرب ..

ويسكى ...

وقال لى وأنا جالسة بجانبه :

ــ متى ستعلميننى التويست ..

قلت وأنا أبتسم له :

ــ لن أعلمك ..

قال :

ــ لماذا ؟

قلت :

ــ لأنه لا يليق بك .. انك خير من يرقص الرقصات الهادئة ..

قال وهو يتنهد :

ــ لأنى عجوز ..

قلت :

— لا ... فقط لأنه لا يليق بك ..

قال فى ضيق :

— انك دائما تذكريننى بأنى عجوز ..

— قلت وأنا مشفقة عليه :

— انت لست عجوزا .. انت رجل .. ورجل رائع .. والتويست يفقدك روعتك .. وبالمناسبة يجب ان تضيق سيقان بنطلونك ..

وقال وكأنه طفل عنيد :

— لا .. لن أضيق سيقان بنطلونى .. أما أن اعجبك هكذا أو لا اعجبك ..

قلت مبتسمة :

— تعجبنى ..

ثم قمت لأرقص التويست مع عصام وتركته يشرب كأسه .. وفجـأة رايته امامى فى حلبة الرقص يرقص التويست مع عفاف ..

انه يهتز كأنه اصيب بحمى الملاريا .. حركاته فى ناحية ، والموسيقى فى ناحية اخرى .. انه يبدو سخيفا .. ومضحكا .. كمهرج السيرك .. يبدو وكأنه نجوى فؤاد فى رقصة شرقية .. وعفاف اللعينة ترقص أمامه كأنها تحاول أن تجعل منه قردا يقلدها .. وانا أكره الذين يرقصون دون أن يجيدوا الرقص .. انهم كالذين يغنون بصوت نشاز .. مزعجين .. سخفاء ..

ووجدت نفسى أصرخ فى وسط حلقة الرقص :

— هاشم ..

والتفت الىّ فى دهشة ..

وتملكت أعصابى ، ووضعت يدى على راسى ، وقلت :

— انى متعبة .. خذنى الى البيت ..

وكانت هذه الطريقة الوحيدة لأمنعه من ان يجعل من نفسه مسخا يضحك عليه الناس .. ويضحك عليه أصدقائى .. وتضحك عليه عفاف ..

ومن يومها قررت ان اكذب عليه حتى امنعه من مطالبتى بأن اشركه فى عالمى ، وأن يصحبنى مع أصدقائى ..

واصبحت اخفى عليه انى خارجة مع أصدقائى ، وادعى انى مدعوة مع عائلة محيى الدين فى بيت احدى العائلات اللبنانية ..

لم اكن أكذب من قبل .. كنت معتزة بشخصيتى وحريتى الى حد يغنينى عن الكذب ..

هاشم علمنى الكذب ..

علمنى الكذب حتى انقذه ..

أنقذ الطفل الضعيف الذى يتعلق بى ..

★ ★ ★

وفى كل هذه الأيام كان أفراد عائلة محيى الدين لا يكفون عن ملء اذنى بحديثهم عن الخراب الذى لحق بهم نتيجة تأميم ممتلكاتهم .. ولم ادر سر الحاحهم علىّ بهذا الحديث ، رغم انهم تبينوا انى لا اهتم به .. ولا أهتم بالسياسة .. ولا احاول ان افهم لماذا اخذت الحكومة ممتلكاتهم .. بل لعلهم عرفوا من كلامى أنى احب جمال عبد الناصر .. أحبه دون ان احاول فهم سياسته .. احب وجهه الأسمر القوى .. وأحب مظهر بطولته .. انه يطلق خيالى الى عالم من البطولات .. أشـبه بالقصص التى أقرؤها أو اشاهدها فى السينما ..

ورغم ذلك فهم لا يكفون عن حديث التأميم والسياسة ، والظلم الذى حاق بهم ..

وقلت مرة **لمحمد محيى الدين عميد العائلة :**

— لماذا لا تعود الى لبنان وتبدأ هناك من جديد ..

قال وهو **يكاد يبكى :**

— كيف أبدأ بلا راسمال ؟

قلت :

— بع ما بقى لك فى مصر ، وابدأ به فى بيروت ..

قال :

— لو استطعت أن انقل اموالى ، لذهبت ..

وقالت زوجته طنط لولى :

— لو سمحوا لى أن أنقل مجوهراتى فقط ، لذهبنا كلنا الى بيروت ..

قلت :

— ولماذا لا يسمحون لكم ..

وقال محمد محيى الدين :

— لأنهم لا يريدون لنا أن نعيش .

قلت :

— لماذا ؟

قال وهو يمسح دمعه :

— لأننا لبنانيون .. تصورى يا رحاب .. لقد جئت الى هذا البلد وانشأت فيه أول مصنع للألمنيوم وشغلت عشرات العمال .. فتحت مئات البيوت .. **ورغم ذلك اخذوا كل شيء ..**

ونظرت اليه **كأنى لا اصدقه ..**

— لا يمكن ..

لابد أن هناك سببا أجهله لكل ذلك ..

وقال رفيق زوج ودى وهو يسلط علىّ كل عينيه .. ولا أدرى لماذا احس كلما نظر الىّ رفيق أنى ذبابة تكاد تسقط بين خيوط العنكبوت .. قال :

— الدكتور هاشم يستطيع أن يساعدنا ..

قلت فى دهشة :

— كيف ؟

قال ونظراته تسيل لزجة كخيوط العنكبوت :

— يستطيع أن ينقل أموالنا الى بيروت ..

قلت :

— قد لا يرضى ..

قال وابتسامته تسيل على شفتيه :

— إنه لن يعلم ..

وفتحت عينين متسائلتين ..

وقرب رفيق مقعده منى ، وقال وصوته كالفحيح :

— اسمعى يا رحاب .. هذه النقود لم نسرقها .. لقد جمعناها بعرقنا فى عشرات السنين .. نحن لم نسرق أحدا .. لم نجن على أحد .. **ولكن هذه الحكومة تريد أن تسرقنا ، وتجنى علينا .. وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نهرب بما بقى لنا ..** والدكتور هاشم هو الوحيد الذى نعرفه الآن ، **ويستطيع أن ينقذ** أموالنا ، **دون أن يشك أحد فيه ..**

قلت وخيط العنكبوت يلتف حول عنقى ، **وعيون العائلة** مسلطة علىّ **كأنها أنوار كشافة كأنها تلاحقنى :**

— لا أفهم شيئا ..

وعاد رفيق يقول :

— الم يقل لك الدكتور هاشم انه سيسافر الى لبنان ..

قلت :

— نعم .. سيأتى الى بيروت بعد أن أسافر أنا ..

قال ونظراته الخبيثة القوية تكاد تشل نبضات قلبى :

— كل ما نريده أن يحمل لنا معه حقيبة ..

قلت كأنى بدات أفهم :

— فيها أموالكم ومجوهرات طنط لولى ؟

قال وهو يرخى عينيه المنتوفتين :

— نعم ..

قلت :

— ولماذا لا احملها انا ؟

قال كأنه يتهمنى بالغباء :

— لأنك معرضة للتفتيش فى الجمرك .. انهم لا يرحمون اللبنانيين ..

قلت :

— ولكن هاشم يجب أن يعلم ..

قال :

— لو علم .. سيرفض .. وقد يبلغ عنا الحكومة ..

قلت :

— اذن .. ماذا سنقول له ؟

وقال ونظراته اللزجة تسيل من عينيه :

— تسافرين الى بيروت .. وتقولين انك نسيت احدى حقائبك ، وتطلبين منه أن يحملها لك عندما يسافر الى بيروت .. هذا كل ما فى الأمر ..

وفكرت برهة .. ثم خبطت على المائدة بيدى فى عصبية ، وقلت :

— ولكن لماذا .. لماذا .. لماذا لا يسمحون لكم بأخذ أموالكم ما دمتم لم تسرقوها ؟ ..

وقالت طنط لولى :

— لأنهم يكرهوننا ..

وقال محمد محيى الدين :

— يحقدون علينا ..

وقال رفيق :

— انها ثورة والثورة لا تعرف الحقوق ولا القانون .. تعرف فقط ما تريد .. وهى تريد أموالنا ..

والتفت الى الوجوه البائسة التى تحيط بى .. وأحسست بالشفقة عليهم ..

وقعت الذبابة فى خيوط العنكبوت التى نصبها لها رفيق .. خيوط خيل الى أنها خيوط الشفقة ..

وطنط لولى تبكى ..

ومحمد محيى الدين يتنهد كأنه يلتقط آخر انفاسه ..

ورفيق يلقى بنظراته الخبيثة حول عنقى .. وابتسامته تسقط كأنه يقبل بها قدمى ..

وطنط نازلى راقدة مشلولة أسمعها وهى تصيح .. سنية .. سنية .. كأنى أسمعها تبتهل الى الموت ..

وطنط ميمى تتوكأ على عصاها الأبنوس ذات المقبض الفضى ، وتصدر أوامرها كأنها تحرك جيوشا من الوهم ..

ودودى زوجة رفيق تصنع فى غرفتها تماثيل من الطين .. انها مجنونة .. لعلها جنت بعد أن أخذوا أموالها ..

وقمت ودخلت غرفتى ، ورقدت فى سريرى ، وخيالى يصور لى أنى بطلة أقوم بمغامرة كبيرة لانقاذ هذه العائلة .. وتذكرت قصة « الزهرة القرمزية » التى كان البطل فيها يقوم بتهريب افراد العائلة المالكة أثناء الثورة الفرنسية لينقذهم من المقصلة .. وتصورت نفسى كأنى الزهرة القرمزية .. كنت ذبابة وقعت فى خيوط العنكوت ..

بدأت أتقمص شخصية جديدة ..

شخصية بطل قصة « الزهرة القرمزية » الذى كان يقوم بتهريب أفراد العائلة المالكة أثناء الثورة الفرنسية ..

الشخصية التى ستقوم بتهريب اموال عائلة محيى الدين الى لبنان ..

تهريب !!

لا .. لم تكن تخطر ببالى كلمة « تهريب » .. لم أحس بأنى مقدمة على ارتكاب جريمة .. ابدا .. لم يخطر ببالى انى ارتكبت جريمة .. لم احس باحساس الجريمة .. كنت أحس باحساس البطولة .. أنا بطلة .. أقوم بمغامرة كبيرة .. احساس نصبه حولى رفيق زو ج ابنة محيى الدين .. كما ينصب العنكبوت خيوطه اللزجة ليصطاد بها ذبابة ..

وكان احساسا ساذجا .. بطولة ليست لها دوافع .. لم أشعر بأن لى ايمانا سياسيا ، او عقيدة سياسية تدفعنى الى هذه البطولة .. حتى شفقتى على عائلة محيى الدين ، لم تكن من القوة بحيث تدفعنى الى هذه المغامرة .. بل انى لو تمعنت أيامها فى حقيقة شعورى ، اكتشفت انى لم اكن اشفق على عائلة محيى الدين .. ان حالتهم ليست من السوء بحيث يستحقون الشفقة .. لا يزالون يملكون الكثير .. يسكنون فى قصر ..

وعندهم سيارتان .. ويحتفظون فى خزائن البيت بثروة كبيرة ومجوهرات أكثر ..

ورغم ذلك فقد بهرنى هذا الاحساس بالبطولة ..

تملكنى ..

سيطر على خيالى ، كما يسيطر العنكبوت على الذبابة ..

انه احساس جديد علىّ ، لم تنبض به أعصابى من قبل .. احساس يلهينى عن نفسى ، وينفض عنى غبار السأم الذى بدات أشعر به فى القاهرة .. انه الاحساس بعالم جديد يتفتح أمامى .. بدور جديد أقوم بتمثيله .. نفس احساسى عندما إكتشفت عالم المثقفين الذين يملئون المقاهى التى تحيط بالجامعة الأمريكية فى بيروت .. ونفس احساسى كلما عرفت شابا جديدا وحاولت أن أكتشفه وأكتشف احساسى نحوه .. احساسى عندما عرفت هاشم ..

كنت أيامها أشبه بفتاة خرجت من السينما بعد أن شاهدت رواية سيطرت على خيالها ، وتظل بعدها ساعات وهى تعيش دور البطولة ..

وقد كنت أحس بكل ذلك ..

احس بأنى أمثل ..

أمثل دور البطلة ..

وكان هذا الدور يتطلب منى أن أدعى نوعا معينا من الذكاء .. ذكاء حاد أقرب الى الخبث .. وكان يتطلب منى أن أضع فى عينى نوعا جديدا من النظرات .. نظرات كالتى تنطلق من عيون المتآمرين .. وكنت كلما جلست مع رفيق ليحدثنى عن الخطة التى سننفذها ، أشعر بهذه النظرات فى عينى .. أشعر بها كأنها

تنطلق من عينى فتاة اخرى غيرى .. من عينى ممثلة تقوم بتمثيل دور البطولة فى احد الافلام ..

وكان هذا الدور يتطلب منى ايضا أن اكون فتاة منافقة .. أنافق هاشم .. لم أعد صريحة ، قوية ، منطلقة كما كنت .. تركته يحبنى .. وتركته يقتنع انى أحبه .. احبه على طريقته .. لا على طريقتى .. وامتنعت فعلا عن الخروج مع اصدقائى اللبنانيين حتى لا يغضب .. وأصبحت أحادثه فى التليفون اكثر من عشر مرات فى اليوم .. اوقظه من النوم لأقول له : صباح الخير .. وأهمس فى أذنه قبل أن ينام : تصبح على خير .. كما كانت تفعل معه البنات المصريات ..

وكنت أكره ، نفسى وأنا أنافق ..

أحس بأنى لست أنا ..

أحس بأنى ضائعة .. كأنى فتاة اخرى لا أعرفها ..

بل كانت تمر علىّ لحظات اثور فيها على هذا الدور الذى أمثله .. احس انى أحمل طبيعتى أكثر مما تحتمل .. ولكنى لا البث أن اعود الى التمثيل ، كأنى لا اجد لعبة أخرى العب بها .. تعود الذبابة وتستسلم بين خيوط العنكبوت ..

وهاشم يزداد ضعفا نحوى ..

الضعف فى عينيه المبتهلتين .. وفى شفتيه المرتعشتين .. وفى قبلاته التى لا تكف عنى وكأنه لم يعد يستطيع أن يتنفس الا من شفتى ..

قبلاته !!

لقد أفسدتها ..

لم أعد أستطيع أن أهيم فيها .. لم اعد اشعر بها كشعاع من شمس القاهرة يلسعنى ..

انى استسلم لقبلاته ، وعقلى كله صاح .. وأعصابى مشدودة .. أنافق .. يا رب .. ماذا افعل بالرجل الذى يحبنى .. وماذا افعل بنفسى ..

وكان هاشم يشعر أحيانا كثيرة بأنى لا أهيم معه فى قبلاته .. وقال لى مرة ونحن جالسان فى سيارته فوق قمة المقطم :

— هل كل بنات لبنان باردات مثلك ؟

قلت وانا أدعى الغضب :

— لست باردة .. ولكنك تحاول أن تذيب عقلى .. حاول مرة ثانية !

وأعطيته شفتى .. كأنى أعطى لطفلى شيئا يسكته .. وتركته يضمنى اليه فى قسوة .. ويعبث فى شعرى بأصابعه .. ويمسح على ظهرى بكفه .. وعقلى لا يذوب ..

ورفضت أيامها أن أذهب معه الى شقته .. حتى لا أضطر أن اعطيه اكثر .. واستسلم اكثر .. انى أستطيع أن انافقه ونحن فى الهواء الطلق .. ولكنى لا أستطيع أن أنافقه ونحن فى الشقة .. وقلت له وهو يلح علىّ أن نذهب الى هناك :

— ان الجدران تخنقنى ..

قال :

— انها تقربنى منك ..

قلت :

— لقد قربت بينك وبين عشرات البنات ، ولا أريد أن اكون واحدة منهن ..

قال :

— انك لا تريدننى ..

قلت وأنا أبتعد عنه :

— لاريدك كما ارادتك اى فتاة اخرى .. اريدك لعقلى وقلبى .. والجدران تخنق عقلى وقلبى ، ولا تبقى منى الا جسدى ..

قال وهو يبتسم لى فى ابتهال :

— ولكن جسدك هنا ايضا .. انك عندما تقبلينى تعطينى قطعة من جسدك .. وعندما تلفين ذراعك حولى ، تلفين قطعة من جسدك .. انك عقل وقلب وجسد .. وانا ايضا ..

قلت وانا انظر اليه كانى ارده الى عقله :

— هاشم .. لقد ذهبنا الى هناك مرة ، وشعرنا اننا سخفاء .. انك هناك تقاوم شيئا تريده .. وانا ايضا أقاوم هذا الشىء الذى تريده .. ولكننا هنا لا نقاوم .. اننى هنا لا اشعر بأنى أقاومك .. وانت لا تشعر بأنك تقاوم نفسك .. اننا هنا اكثر انطلاقا واكثر جمالا ..

قال فى يأس :

— كنت اعتقد انك اكثر تحررا ..

قلت :

— انى اكثر تحررا مما تعتقد .. التحرر هو أن أكون صادقة مع نفسى .. وثق أنى صادقة مع نفسى عندما أقول لك أن الجدران تخنقنى ..

وسكت هاشم ..

لعله لم يقتنع .. ولكنه سكت ..

وانا مندفعة فى استكمال خطة تهريب اموال عائلة محيى الدين التى اثارت فى هذا الاحساس بالبطولة الساذجة .. ثم أعود وأندفع .. خيوط العنكبوت تشدنى ..

وقلت لهاشم مرة كأنى احاول أن أقنعه بأن يشترك معى فى عملية التهريب بدل أن أضطر الى خداعه :

— قل لى .. لماذا تأخذ الحكومة أموال اللبنانيين ؟

قال فى دهشة لسؤالى :

— أى لبنانيين ؟

قلت :

— اللبنانيون الذين أممت ممتلكاتهم .

وضحك هاشم ، وقال :

— الحكومة أخذت أموال الرأسماليين ، سواء كانوا لبنانيين أم مصريين .. لم تأخذ أموال اللبنانيين لأنهم لبنانيون .. ولكن لأنهم رأسماليون ..

قلت فى حدة :

— لماذا .. انها أموال جمعوها بعملهم ..

قال :

— لقد تركت لهم ما جمعوه بعملهم ، وأخذت ما جمعوه بعمل الآخرين ..

قلت :

— ماذا تعنى ؟

قال وهو يبتسم كأنه يدللنى :

— استمعى .. انا طبيب .. كل ما أكسبه من عملى حق لى .. ولكن لو كنت محاميا وفتحت مستشفى وظفت فيه عشرة أطباء .. فانى استطيع أن آخذ أجرا على ادارة المستشفى .. ولكن ليس من حقى أن أخذ أجرا على عمل الأطباء العشرة .. لأنه ليس لى فضل فى هذا العمل ..

قلت وأنا أرفض أن أقتنع :

— ولكن الذى يبنى مصنعا يبنيه بأمواله .. وأمواله جمعها من عمله ..

قال :

— لا يمكن أن يبنى انسان مصنعا من عمله .. ولكنه يبنيه من استغلال الآخرين .. والفرد قد يكسب من عمله مائة جنيه .. ويستطيع أن يوظف هذه المائة جنيه فى بنك فتصبح فى عام مائة وأربعة جنيهات .. هذه الأربعة جنيهات هى مكافأة له لأنه ادخر المائة جنيه .. ولكن المائة جنيه لو اصبحت ثلاثمائة جنيه فى عام واحد ، فمعنى ذلك انه سرق عمل الآخرين .. ليس لها تحليل الا السرقة ..

قلت فى حدة كأنى خفت أن أقتنع :

— لا أفهم ما تقول .. ولا أريد ان افهم .. كل ما أفهمه أن هؤلاء الناس لم يسرقوا ، ولم يرتكبوا جريمة ، ولكنهم جمعوا اموالهم بعملهم .. ثم جاءت الحكومة وأخذتها ..

قال مبتسما :

— انهم يستطيعون أن يعملوا من جديد ، ويأخذوا أجرا على عملهم .. سواء كانوا لبنانيين أو مصريين .. لا أحد يمنعهم من العمل .. ولكنهم لا يريدون العمل .. أو لا يكتفون بأجر عملهم ، ولكنهم يريدون أن يعمل لهم الآخرون ..

ولم أرد عليه ..

ومال علىّ بوجهه وقال :

— لم أكن أعلم انك تهتمين بالسياسة ..

قلت :

— أنا لا أهتم بها ..

قال :

— اننا فى مصر ، غيركم فى لبنان .

قلت :

— الناس فى لبنان سعداء ..

قال :

— وفى مصر سعداء

قلت :

— لا .. فى مصر تأخذ الحكومة أموال الناس ..

قال :

— بعض الناس .. لتعطيها لآخرين أحق بها منهم ..

قلت :

— هذا ما تسمونه اشتراكية ..

قال :

— نعم .

وهززت كتفى وقلت :

— لا يهمنى .. لا أريد أن أفهم .

ولم يكن هذا صحيحا .. فقد كنت أريد أن أفهم .. ولكنى لم أستطع .. وكلام هاشم ملأ رأسى بضباب كثيف لم أتبين من خلاله شيئا .. واشتدت حيرتى .. الحيرة بين احساسى بالظلم الذى وقع على عائلة محيى الدين ، ومحاولتى البحث عن تعليل يبرر تأميم ممتلكاتهم .. وفى محاولتى الهرب من هذه الحيرة اندفعت أكثر فى تمثيل دور البطلة التى تنقذ العائلة المنكوبة .. أفتعل الذكاء الحاد .. وأضع فى عينى نظرات التآمر .. وأعامل هاشم بنفاق خبيث .. وكل أفراد عائلة محيى الدين يعاملوننى كأننى بطلة فعلا .. كأننى جان دارك .. القديسة التى أرسلتها السماء لانقاذهم .. عيونهم ساجدة تحت أقدامى .. ومطالبى

كأنها القدر . . ودموع طنط لولى تلاحقنى . . وتنهدات محمد محيى الدين تملأ أذنى . . ووجه طنط نازلى المريض ، يطل علىّ كأنه يبتهل لى أن أرد اليه الحياة . . وطنط سلى التى تدب بعصاها وتصدر الأوامر لجيوش الوهم ، تستكين أمامى فى ذل وخضوع . . حتى دودى المجنونة التى تكرهنى ، أصبحت تتمسح فى كأنها القطة الأليفة . .

ورفيق العنكبوت ينفظ خيوطه اللزجة حول خيالى ليحتفظ باحساسى كبطلة أرسلتها السماء لانقاذ الجالية اللبنانية فى مصر . . وبدأ يتفق معى على الخطة التى سأقوم بتنفيذها . .

وكانت الخطة تقضى بأن تعد حقيبة فيها جيوب سرية تخبأ فيها الأموال والمجوهرات التى ستهرب . . ثم أحمل هذه الحقيبة ضمن حقائبى وانتقل الى فندق هيلتون لأقيم فيه يومين قبل أن أسافر الى لبنان . . وعندما أغادر الفندق أتعمد أن أنسى فيه الحقيبة ذات الجيوب السرية . . وبعد أن أصل الى بيروت مباشرة ، أتصل من هناك بهاشم بالتليفون ، أبلغه أنى نسيت احدى حقائبى فى فندق هيلتون واطلب اليه أن يذهب الى هناك ويتسلمها . . وفى نفس الوقت أرسل برقية الى ادارة الفندق أطلب تسليم الحقيبة التى نسيتها الى هاشم . . ثم يحمل هاشم الحقيبة الى لبنان ضمن حقائبه . .

كانت هذه هى الخطة . .

وكان القصد من انتقالى الى فندق هيلتون قبل سفرى ، هو ابعاد الشبهة عن عائلة محيى الدين فى حالة حدوث أى طارىء ، حتى لا يكشف أحد الصلة بينى وبينهم . . وحتى لو اكتشف هذه الصلة فى حالة ضبط الحقيبة فان عائلة محيى الدين تستطيع أن تدعى بأنها لا تملك هذه الحقيبة . . أما أنا . .

فلا خوف علىّ . . لأنى سأكون فى لبنان بعيدا عن يد الحكومة المصرية . . وحتى لو سألونى فى لبنان فانى أستطيع أن ادعى، أنى لا أعرف هذه الحقيبة ، وربما نسيها نزيل قبلى أو بعدى كان يقيم فى نفس الغرفة . .

ولكن . .

ماذا لو عدل هاشم عن السفر الى لبنان لأى سبب من الأسباب . .

فى هذه الحالة ، تقرر أن أعود أنا الى القاهرة ، وأخذ الحقيبة ، وأعيدها الى عائلة محيى الدين . .

كانت هذه هى الخطة . .

خطة محكمة . . ربما كان فيها بعض المجازفة . . وربما روعى فيها سلامة عائلة محيى الدين ، أكثر مما روعيت فيها سلامتى . .

أعد رفيق حقيبة صفراء ذات جيوب سرية . . وخبأ فيها أوراق النقد . . حوالى عشرة آلاف جنيه مصرى . . وثلاثة آلاف دولار . . وجنيهات انجليزية . . وفصوص من الماس . . وسبائك صغيرة من الذهب . . انها ثروة كبيرة . . وقد تساءلت ساعتها ، لماذا تشكو عائلة محيى الدين ، وهى تملك كل هذه الثروة . . ولكن تساؤلى ضاع فى بهرة المغامرة . . ثم ملأنا الحقيبة بعد ذلك بأشياء أخرى . . ليست ثيابى . . حتى لا تقوم دليلا على فى حالة ضبطها . . ولكننا ملأناها بقطع قماش رجالى . . وكرافتات . . وهدايا من خان الخليلى . .

وبعد ذلك تقرر أن أنتقل الى فندق هيلتون . .

وحتى أطلع ادارة الفندق على الصلة بينى وبين هاشم ، تقرر أن أطلب منه . . من هاشم . . أن يتولى هو حجز غرفتى

فى الفندق .. واتصلت به بالتليفون ورفيق واقف بجانبى .. وقلت له انى سأنتقل الى الهيلتون لأبقى فيه يومين قبل عودتى الى لبنان ، لأنى زهقت من الجو القاتم الذى يخيم على بيت محيى الدين .. وقلت له انى أخشى ألا أجد غرفة خالية .. فطمأننى هاشم قائلا انه يعرف مدير الفندق معرفة شخصية ، وسيتولى حجز غرفة لى .. وبعد دقائق اتصل بى ، وقال أن الغرفة قد حجزت باسمى .. حجرة رقم ٦٢٥ .

وحملت الحقيبة ذات الجيوب السرية ضمن حقائبى ، وانتقلت الى الفندق .. لم يأت معى أحد من أفـــراد عائلة محيى الدين لمرافقتى الى الفندق .. وقفوا كلهم يودعوننى على باب البيت . وعيونهم تشهق من خلال دموعهم وراء الحقيبة الصفراء .. وقبلتهم واحدا واحدا وعواطف متباينة تضطرم فى صدرى .. الشفقة .. الاحتقار .. العطف .. التعالى .. الغيظ .. عواطف أتوه بينها .. والاحساس بالمغامرة يهزنى .. ولم اركب أيضا سيارة العائلة ، امعانا فى ابعاد الشبهة عنها .. ركبت تاكسى ، حملنى أنا وحقائبى الى الفندق ..

ودخلت الى الهيلتون .. والحقيبة الصـــفراء تسير ورائى محمولة على كتف الشيال .. وقلبى يضطرب .. لم أكن أدرى أنى سأتعرض لكل هذا الاضطراب .. كل هذا الخوف .. كل هذه الحيرة ازاء مغامرة أندفع فيها دون أن أكون فى حاجة اليهـــا ..

والتفت الى موظف الاستقبال .. ولم أستطع أن أركز عينى فى عينيه .. وقلت فى صوت مرتعش :

ــ أعتقد أن الدكتور هاشم عبد اللطيف حجز لى غـــرفة عندكم ..

وقال موظف الاستقبال وهو يقلب فى دفتر أمامه :

ــ متى ؟

قلت :

ــ هذا الصباح ..

وتوقفت عينا الموظف فوق دفتره ، ثم رفعها الىّ وقال :

ــ الآنسة رحاب شمس الدين ؟

قلت :

ــ نعم ..

وابتسم ابتسامة كبيرة وقال :

ــ الغرفة رقم ٦٢٥

ثم أخذ جواز سفرى ، واستكمل اجراءاته ، وصحبنى موظف آخر .. ونظرت الى الحقيبة الصفراء قبل أن ادخل المصعد .. ثم عدت وتجاهلتها بسرعة .. كأنى خشيت أن يضبطنى أحد وأنا أنظر اليها .. وصعد بى المصعد .. وقلبى يصعد الى حلقى ..

وبقيت فى الغرفة بضع دقائق .. وحدى .. لا أستطيع أن أجلس .. ولا أستطيع أن أدير عينى حولى .. تائهـــة .. بائسة .. احساس كبير بالبؤس يخنقنى .. ثم انتبهت على صوت نقرات على الباب .. ودخل الحمالون .. يحملون حقائبى .. والحقيبة الصفراء .

ودفعت لهم البقشيش ..

لا أدرى كم دفعت ..

لعلى دفعت لهم جنيها كاملا .. فقد رأيت فى عيونهم نظرات كثيرة .. وهمهمات عالية .. خفت منها فى الأول .. ثم اكتشفت أنها نظرات شكر وهمهمات امتنان ..

وبقيت وحدى فى الغرفة .. أدور فيها ، وأنا أبحث عن

مكان أضع فيه الحقيبة الصفراء بحيث يمكن أن ادعى أنى نسيتها ، وبحيث لا يكتشف أحد مكانها قبل أن اغادر الفندق .. واحترت .. وفى كل ثانية من حيرتى ، العن نفسى لأنى حشرت نفسى فى هذه المغامرة .. وأكاد أهم بأن أرفع سماعة التليفون وأتصل بعائلة محيى الدين وأطلب اليهم ان يأتوا ، ويأخذوا حقيبتهم ويريحونى .. ولكنى أحس انى مقيدة من عنقى بدور البطلة الذى قررت أن أقوم به .. أحس كأنى ذبابة وقعت بين خيوط عنكبوت سام .. خيوط الوهم بأنى بطلة أنقذ عائلة مجنيا عليها ..

وقررت أن أضع الحقيبة فى أرضية الدولاب الكبير وراء الضلفة التى لا تفتح .. وحاولت أن احملها بيدى .. انها ثقيلة .. أثقل مما كنت أعتقد .. وجررتها على الأرض .. بذلت كل ما فى جسدى الضعيف حتى أجرها .. وشعرى سائل على وجهى .. والعرق ينضح من كفى .. والكحل يسيح حول عينى ..

وانتهيت ..

ورقدت على الفراش ألهث ..

ولكنى لا أستطيع أن اهدأ ..

أحس كأن وراء ضلفة الدولاب جثة قتيل .. وحاولت أن أقاوم هذا الاحساس .. ولكنى لم أستطع .. لم أستطع أن أرقد .. ولا أن أقف .. ولا أن أجلس ..

ورفعت سماعة التليفون واتصلت بهاشم ، وقلت كأنى استغيث به :

— هل أستطيع أن اراك الآن ؟

قال :

— بعد ساعة ..

قلت :

— لن أحتمل الساعة .. أكاد أختنق من الزهق ..

قال :

— بعد عشر دقائق اذن ..

ووضعت سماعة التليفون .. وأنا أحس بضعفى .. وأحس بكراهيتى لنفسى لأنى ألقيت ضعفى على هاشم .. أحس أنى أنانية .. أستغل حبه ، الى حد أن ابعده عن مرضاه ليعيننى على ضعفى .. ولكن .. انى مريضة أنا الأخرى .. الزهق مرض .. الضعف مرض .. الأنانية مرض ..

ولم احتمل ان أبقى العشر دقائق فى الغرفة .. نزلت الى بهو الفندق ، وطلبت من موظف الاستقبال أن يحجز لى مقعدا فى الطائرة المسافرة الى بيروت بعد الغد .. وأرسلت برقية الى أبى أحدد له فيها موعد وصولى الى بيروت ..

ثم جاء هاشم .. وأخذنى فى سيارته الى مينا هاوس .. ولكنه ما كاد يصل الى هناك .. حتى طلبت منه أن يعود .. وقلت :

— لا تقف فى أى مكان .. انى لا أطيق الوقوف .. اطلق سرعة السيارة ..

وقال وهو يلتفت الى :

— أنت عصبية ..

قلت وأنا لا انظر اليه :

— انى دائما عصبية عندما اسافر من مكان لمكان .. أحس أنى أفقد شيئا .. عندما تركت بيروت أحسست أنى فقدتها .. والآن أحس انى على وشك ان أفقد القاهرة ..

ولم يطلق سرعة السيارة .. وظل يقودها ببطء .. وقال فى صوت مرتعش :

— انى أخشى أن أفقدك فى بيروت .. هناك أهلك وبلدك .. وقد أحببتنى بعيدا عن أهلك وبلدك .. أحببتنى وأنت غريبة .. وأخاف عندما لا تشعرين بالغربة أن تفقدى شعورك بحبى ..

قلت وأنا ساهمة :

— لا أظن ..

قال وضعفه يطل من عينيه :

— ان الحب يشمل الظروف التى تحيط به .. فاذا اختلفت الظروف اختلف الحب .. كالرجل الذى يحب راقصة فى كباريه ، اذا ابتعدت الراقصة عن الكباريه ، وأصبحت ست بيت ، فقد حبه لها ..

قلت وأنا أنظر اليه وعلى شفتى ابتسامة عصبية :

— أنا لست راقصة .. والقاهرة ليست كباريه .. ثم انك ستأتى ألى بيروت .. متى ستأتى ..

— بعد عشرة أيام .. أعددت كل شىء الأكون معك بعد عشرة أيام ..

قلت :

— لن تتأخر ..

قال :

— لا .. لن اتاخر .. لا أستطيع أن أتأخر ..

وبقينا معا ..

لم يذهب الى عيادته فى المساء .. ظل معى حتى الرابعة صباحا .. نجرى معا فى شوارع القاهرة .. ونجلس فى مكان .. لنقوم ونجرى فى الشوارع .. ونضيع نحن الاثنين فى قبلة

.. ثم نفيق لنجرى .. واليوم التالى قضاه كله معى .. والمساء أيضا .. ولم نكن سعداء .. ولكن كان كل منا مشدودا للآخر ، كأنما التصقنا ، والقدر يجرى عملية جراحية بدون بنج ليفصل كلا منا عن الآخر .. وفى كل لحظة يشعر كل منا بأنه يودع الآخر .. ويشعر بألم العملية الجراحية .. ونتكلم حينا كأن كلا منا يواسى الآخر .. ثم نصمت كأننا قد افترقنا فعلا .. ونعود نتكلم .. وأنا أتساءل فى كل لحظة .. هل انا أحبه .. وهل هذا هو الحب .. انى أشعر باحساس لم أشعر به من قبل .. هذا الالتصاق لم أشعر به نحو اى رجل آخر .. لعل هذا هو الحب .. ورغم ذلك فانى اتعجل أن تنتهى هذه اللحظات وأعود الى بيروت .. وانتهى .. وانتهى من كل شىء .. وأستريح فى بيتنا .. اوحشنى الحاج عبد الرحمن .. وأمى .. وأختى .. وقفزت فى خيالى فجأة صورة الحقيبة الصفراء الراقدة خلف ضلفة الدولاب كجثة القتيل .. والتفت الى هاشم مذعورة كأنى اخاف ان يلمح صورة الحقيبة فى خيالى ..

واقرر فجأة الا استمر فى عملية التهريب .. أحس بالذبابة تحاول أن تخلص نفسها من خيوط الوهم بأنها بطلة .. خيوط العنكبوت التى نصبها حولها رفيق .. ثم أعود وأتساءل : هل انا احب هاشم ..

وكل هذا ينبض به احساسى ، وأنا جامدة .. لا أتصرف .. لا أفعل شيئا .. قراراتى تتوالى بسرعة . فى كل لحظة قرار يعارض الآخر ..

وقال لى هاشم ونحن جالسان فى كافيتريا هيلتون فى الساعة الرابعة صباحا ، وقد قررنا الا ننام حتى موعد قيام الطائرة .. انا التى قررت الا أنام ، خوفا من بقائى بجانب الحقيبة الصفراء ؛

— انى على قدر ما أنا خائف أن أفقدك فى بيروت .. أريدك أن تسافرى .. حتى تستطيعى وانت بعيدة عنى أن تكتشفى حقيقة عواطفك ..

قلت وانا مرهقة :

— **مهما كانت عواطفى .. فالحقيقة أنى أعيش فى لبنان وأنت تعيش فى مصر .. ولن تستطيع أن تعيش معى فى لبنان .. ولا ان أعيش معك فى مصر ..**

ونظر الىّ فى تعجب ملىء باللوم وقال :

— حتى اذا اكتشفنا الحب ؟

قلت :

— **ماذا يجدى الحب ..**

قال فى هدوء وهو ينظر فى عينى :

— **نتزوج ..**

وارتعشت رموشى فوق عينى .. انى لم أفكر فى الزواج من هاشم .. حتى هذه اللحظة لم أفكر فى الزواج من هاشم .. ربما لأنى لا أفكر فى الزواج اطلاقا .. ولكنه يفكر فى الزواج .. الى هذا الحد يحبنى ..

وقلت وانا أرخى عينى عنه :

— أنا لا أفكر فى الزواج .. ليس الآن ..

قال فى دهشة أكبر :

— حتى لو كنت تحبيننى ..

قلت :

— حتى عندما أحب .. لا أفكر فى الزواج .. أسهل علىّ ان أفكر فى أن أعيش فى القاهرة ما دمت أحبك .. من أن أفكر فى الزواج ..

قال :

— لماذا .. ما هذا الجنون ..

قلت :

— انى أعتبر الزواج نهاية .. وأنا لا أحب النهايات ..

قال :

— **انه بداية ..**

قلت :

— انها نهاية فترة من حياتى لا أريدها أن تنتهى ..

وخفض رأسه وقال :

— هذه أول مرة ألتقى بفتاة ترفض أن تتزوجنى ..

قلت وأنا أبتسم له :

— انى لا أرفضك أنت .. انى أرفض الزواج .. انى أثق بحبك الى حد أنى لست فى حاجة الى عقد قانونى يربطنى بك .. يكفينى حبك ..

قال وهو يتنهد :

— لن تستطيعى أن تقررى شيئا الآن .. فى بيروت ستكتشفين حاجتك الىّ .. الى حد الزواج ..

قلت :

— من يدرى .. انى أؤمن كما تعلم باحساس اللحظة .. **ربما تأتى لحظة أقرر فيها الزواج ..**

قال :

— انك مغرورة ..

قلت :

— مغرورة بك ..

وابتسم ، والأمل يشع من ابتسامته .. وقال :

— لا تكتبى الىّ بعد أن تصلى الى بيروت .. حتى لو أحسست بأنك تريدين أن تكتبى الىّ ..

قلت :

— لماذا ؟

قال :

— لأننا فى حاجة الى هذه الأيام العشرة كامتحان لعواطفنا ، ولو كتبنا فكأننا نغش فى الامتحان .. أريدك أن تعيشى مع عواطفك .. وأنا أيضا سأعيش مع عواطفى .. حتى نستطيع يوم أن نتخذ قرارا أن نكون على ثقة منه ..

قلت :

— موافقة ..

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف صباحا ..

واستأذنت من هاشم وصعدت الى غرفتى ، وغسلت وجهى ، وبدلت ثوبى .. ثم أغلقت حقائبى .. وناديت الشيال .. وحمل الحقائب أمامى ونزل بها ..

ثلاث حقائب .. والرابعة نسيتها .. مغلقة .. ومفتاحها معى كما تقضى الخطة ..

ونزلت الى هاشم ..

لمحته يروح ويجىء فى بهو الفندق .. ويده فى جيب بنطلونه .. ورأسه ملقى على صدره ونظراته ملقاة على الأرض .. وشفتاه تتمتمان كأنه يحادث نفسه ، والتعب والارهاق يبدوان على وجهه ..

واتجهت مباشرة الى موظف الاستقبال ..

كنت أريد أن أنتهى بسرعة من دفع حسابى ، قبل أن يكتشف أحد من موظفى الفندق الحقيبة التى نسيتها ..

ولحقنى هاشم .. وجاء ووقف بجانبى .. وحاول أن يدفع حسابى . ولكنى رفضت . .رفضت بحدة أدهشت هاشم .. ولا أدرى لماذا كنت أشعر ساعتها أنى لا أستحق أن يدفع لى هاشم الحساب ..

وتركنى أدفع ..

ثم تولى عنى دفع البقشيش ..

وأنا أتعجله حتى نركب السيارة .. قبل أن يكتشف أحد الحقيبة .. مضطربة .. كل شىء فى داخلى يرتعش .. ويخيل الىّ أن الناس يرون ما فى داخلى .. يرون ارتعاشتى .. .. والعيون تتسلل من تحت ثوبى .. ومن تحت جلدى .. لتكتشف سرى .. وكل وجه تصطدم به عيناى ، يخيل الىّ أن صاحبه يهم أن يصيح بى .. يا آنسة .. لقد نسيت الحقيبة الصفراء ..

وتحركت بنا السيارة ..

الحمد لله ..

لم يكتشف أحد الحقيبة ..

حاولت أن أسترخى فى مقعدى .. أن أهدأ .. ولكنى لا أستطيع .. أعصابى مشدودة بعنف ، تكاد تتمزق .. وأحس كأن فى داخلى أسنانا حادة تأكل فى لحمى .. أحس كأن جلد وجهى يتساقط .. وبحركة لا ارادية نظرت الى مرآة السيارة المعلقة أمامى .. أن وجهى أصفر .. أصفر .. وعيناى مرهقتان .. وشفتاى باهتتان .. وأبعدت وجهى عن المرآة كأنى خفت منه .. وشعرت بأنى فى حاجة طاغية لأن ألقى برأسى فوق كتف هاشم .. وأبكى .. وأبكى .. الى أن أهدأ ..

وهاشم صامت .. مرهق .. خطوط كثيرة تملأ وجهه وجبينه ، كأنها خربشة أظافرى ..

وطال صمتنا ..

كأننا ابتعدنا أحدنا عن الآخر مسافة أكبر من التى تفصل بين القاهرة وبيروت ..

ثم تكلم هاشم .. صوته عميق ، بعيد ، حزين .. وقال دون أن ينظر الى ، ونحن نقترب من طريق المطار :

— أنا خائف يا رحاب .. لا أدرى لماذا .. ولكنى خائف .. وربما كنت خائفا على نفسى أكثر من خوفى عليك .. لقد قضيت هذه الشهور فى قلق .. قلق أفقدنى ثقتى فى نفسى .. أفقدنى سيطرتى على عقلى .. أهملت عملى .. وأهملت حياتى .. وكنت دائما أشعر بأنى أسير فى طريق لا أدرى نهايته .. أسير بلا ارادة .. مغمض العينين .. وكل ما أحتاج اليه الآن هو أن أقف .. وأن أفتح عينى .. لأرى أين أنا .. ولا يهمنى أين أكون .. ولكن يهمنى أن أعرف مكانى .. مكانى منك .. مكانى من نفسى .. وكل ما اريده هو أن تساعدينى على أن أقف .. وعلى أن أفتح عينى .. ساعدينى .. كونى صريحة معى .. حددى مكانى منك بالضبط ، حتى أستطيع أن أحدد مكانى من الحياة .. انك الآن العلامة الوحيدة فى طريق حياتى .. وأريد أن أعرف هل أنا أقترب من العلامة ، أم أبتعد عنها .. أم قد وصلت اليها ..

وشعرت بدموعى تنهمر ..

بلا ارادة منى ..

وقلت فى صدق يملأ كل قلبى :

— لا أدرى .. انى حائرة مثلك .. انى لم أفتعل شيئا معك .. كنت ألتقى بك لأنى كنت أحس انى أريد أن أكون معك .. وكان هناك عشرات غيرك أستطيع أن ألقاهم ، ولكن انت وحدك

الذى كنت أندفع الى لقائه .. وقد جئت الى القاهرة لابقى ثلاثة أسابيع وبقيت خمسة شهور .. من أجلك .. انى عندما أسأل نفسى ، لا أجد سببا لبقائى فى القاهرة طول هذه الشهور الا انت .. ورغم ذلك فانى لا أستطيع أن أعرف ما أريد منك .. ولا ماذا أريدك أن تكون منى .. ان فى داخلى شيئا يتمرد عليك وفى داخلى أيضا شىء يربطنى بك .. ولا أدرى أيهما سيغلب الآخر .. انى أتمرد عليك بنفس القوة التى أندفع بها اليك ..

وتنهد هاشم ..

ومد يده والتقط يدى وضغط عليها .. وقال :

— انى مستسلم .. لم أكن أبدا مستسلما كما كنت معك .. مستسلم الى حد الضعف .. انى أشعر بنفسى ضعيفا الى حد العجز .. نفس الضعف الذى أحس به عندما أعجز عن تشخيص مرض .. وأكثر .. انى عاجز أن أعرف أينا المريض .. أنت .. أم أنا .. وأينا يستحق العلاج .. أنا أم أنت .. أم كلانا ..

وقلت ودموعى لا تزال على خدى :

— لا .. لسنا مرضى .. لا تقل اننا مرضى ..

قال :

— إننا نتألم .. والمرضى يتألمون ..

قلت :

— والأقوياء يتألمون أيضا ..

قال :

— الأقوياء يتألمون لآلام غيرهم .. وقد كنت أتألم لآلام مرضاى .. كنت أتألم كطبيب ولكنى اليوم أتألم كمريض ..

قلت :

fofdyoyo

— اننا نتألم لأن الطريق الذى يفصل بيننا طويل .. الطريق بين عقلك وعقلى .. بين عمرى وعمرك .. بين احساسك واحساسى .. لقد كنت أشعر أحيانا انك تنظر الى كأنى من عالم آخر .. من القمر .. من المريخ .. وأنا ايضا كنت احس أحيانا انك آت من عالم غريب .. عالم الأساطير .. كنت أحس بك كأنك اعرابى تعيش فى الجاهلية ، تقف على باب خيمة وتحاول أن تخطفنى وتسدل على ستائر خيمتك لأعيش فى الظلام ، ويبقى النور لك وحدك .. كنت احسك هكذا فعلا .. وكنت اتمرد .. لا أريد ان أعيش فى خيمتك ، ولا فى ظلامك .. ولكنى رغم تمردى كنت أجد نفسى مندفعة اليك .. وقد قطعنا مسافة طويلة من الطريق الصعب .. انى أحس بنفسى اقرب اليك ، وأنت أقرب الى .. لقد بدأت انا اهبط من القمر الى الأرض .. وبدأت أنت تخرج من الجاهلية الى العالم الجديد .. ويجب أن نحتمل اكثر لنقطع ما بقى من الطريق حتى نلتقى ..

قال مبتسما كأنه يسخر من نفسه :

— ان فى عمرك ما يكفى للانتظار .. وليس فى عمرى ما يكفى ..

قلت كأنى أواسيه :

— انى أسرع بعمرى اليك .. وعليك أن تبطىء بعمرك حتى ألحق بك ..

قال :

— انى سأوقف عمرى هذه العشرة الأيام التى سنفترق فيها .. وبعدها اما أن أفقد ما بقى ، أو أسترد ما ضاع منى ..

قلت :

— أحس أننا سنقترب أكثر أيام الفراق ..

قال :

— او نبتعد أكثر ..

وكنا قد وصلنا الى باب المطار ..

واقترب الحمالون من السيارة ..

وفجأة ..

تذكرت الحقيبة الصفراء ..

واحسست بتمرد هائل .. تمرد على نفسى .. تمرد الذبابة على خيوط العنكبوت .. ولكن التمرد لم ينقذ الذبابة .. ان الذبابة مضطرة أن تنفذ بقية الخطة .. والخطة تقضى بألا يدخل معى هاشم الى المطار حتى لا يراه معى رجال الجمرك ..

والتفت اليه وقلت وأنا أحاول أن أخفى اضطرابى :

— أبق فى السيارة .. لا أريدك أن تنزل معى ..

وقال فى دهشة :

— لماذا ؟

وصرخت .. انطلق صراخى رغم ارادتى .. وقلت وأنا أرتعش وأعصابى تخنقنى :

— لا أريدك أن تأتى معى .. لا أريدك .. لا أريدك .. انى أتعذب بلحظات الوداع .. ألا تفهم ..

وسكت هاشم مبهوتا ..

وانحنيت وقبلته قبلة سريعة ، وأنا أتمتم :

— أراك بخير ..

ثم فتحت باب السيارة ونزلت منها قبل أن يرد قبلتى .. وهرولت الى داخل المطار دون أن ألتفت خلفى .. جريت .. ولم أكن أجرى من هاشم .. ولكنى كنت أجرى من نفسى .. ودموعى تجرى معى ..

ثم وقفت قبل أن أدخل الى منطقة الجمرك .. التقطت أنفاسى ومسحت دموعى .. وأعدت وضع خطوط الكحل حول عينى .. ثم التفت الى الباب الذى يؤدى الى الجمرك .. وارتعش قلبى .. خيل الى أنى سأدخل من هذا الباب الى السجن .. الى جهنم .. انهم يكرهون اللبنانيين .. يفتشونهم .. وقد يخلعون عنى ثيابى كلها ويعرضوننى عارية فى ساحة الجمرك .. ولم يكن فى حقائبى شىء أخاف منه .. ورغم ذلك فانى خائفة .. خائفة .. كأن كل الرجال الذين سأدخل اليهم يعلمون قصة الحقيبة الصفراء ..

ولكن ..

لا شىء ..

لا شىء من هذا كله ..

استقبلنى رجال الجمرك فى رفق .. كل منهم يحملنى فوق ابتسامته ويسلمنى الى ابتسامة الآخر .. انهم لم يفتحوا حقائبى .. ولا حقيبة واحدة .. ربما لو كانت معى الحقيبة الصفراء ؛ لما فتحوها أيضا ..

وفى دقائق وجدت نفسى خارج منطقة الجمرك ..

وجلست فى انتظار ركوب الطائرة .. وحاولت أن أهدأ .. ولكن .. نوبة التمرد تنتابنى من جديد .. التمرد على كل هذا .. على نفسى .. على هاشم .. على رفيق .. على خطة الحقيبة الصفراء .. التمرد على هذه الذبابة التافهة التى أسلمت نفسها لخيوط العنكبوت ..

وصحبنى التمرد والاحساس بالتفاهة وأنا فى الطائرة .. لم أستطع أن أنام .. ولا أن أهدأ .. ولا أن أستقر .. لا أستطيع أن أربط خيالى بهاشم .. ولا بأهلى الذين ينتظروننى .. لا أستطيع

أن أحس بأنى تركت القاهرة ، ولا بأنى مقبلة على بيروت .. أحاسيس مضطربة .. حمراء فى لون الدم .. كأنها عاصفة من الرمال تضرب فى عينى ..

ووصلت بيروت ..

واحتضننى أبى الى كرشه الكبير وهو يردد بصوته الضخم من خلال ضحكة مرتعشة :

— رحاب .. رحاب .. رحاب ..

وحاولت أن أهدأ فوق كرشه .. أن أحس بأنى عدت الى حبه ، والى حمايته .

ولكن أمى اختطفتنى منه ، وأخذت تقبلنى فى كل مكان من وجهى .. ثم أبعدتنى عنها وهى لا تزال ممسكة بكتفى .. وقالت فى هلع وهى تنظر فى عينى :

— روللى .. ماذا بك .. هل كنت مريضة ..

قلت وأنا أهز رأسى وابتسامتى معلقة بين شفتى :

— لا .. صحتى منيحة ..

وجذبتنى أختى اليها وهى تصرخ فى مرح :

— اشتقنالك ..

واحتضنتها الى صدرى كأنى أريد أن أسمعها شهقات الألم التى تنطلق من قلبى .. وبكيت ..

والدموع تلمع فى عينى أبى .. وفوق شفتى أمى .. وعلى خدى أختى ..

وخرجت بنا السيارة الى بيتنا .. وأنا أتطلع حولى كأنى أبحث عن أشياء فقدتها .. الجبل الذى فقدته .. والبحر الذى فقدته .. والشوارع التى فقدتها .. والوجوه التى فقدتها ..

ودخلت بيتنا وعينى تمسح الجدران وتبكى فوقها .. كأنها تعتذر لها ..

والتف الجميع حول حقائبى ، أخرج لهم الهدايا التى حملتها لهم .. ثم فجأة .. وكأن عفريتا نغزنى فى جنبى .. صحت :

— نسيت حقيبة ..

وقالت أمى فى دهشة :

— شو ؟ ! ان حقائبك كاملة .. ثلاث حقائب ..

قلت :

— لا .. هناك حقيبة رابعة اشتريتها من مصر .. انى أدرى أين نسيتها ..

وقال أبى :

— نكلم أصدقاءنا هناك ليرسلوها الينا ..

قلت وأنا أجرى الى التليفون :

— لا .. لى صديق سيأتى الى بيروت بعد أيام ... سأكلمه ..

وطلبت القاهرة بالتليفون .. مكالمة سريعة .. وبتوصية من مكتب أبى ..

طلبت هاشم ..

وفى نفس الوقت أرسلت سائق سيارتنا ببرقية الى فندق هيلتون ، قلت فيها :

« نسيت حقيبة فى الغرفة رقم ٦٢٥ أرجو تسليمها الى الدكتور هاشم عبد اللطيف » ..

وبعد ساعة سمعت صوت هاشم يصيح فى التليفون :

— رحاب ؟

قلت وأنا أتحامل على أعصابى :

— اشتقت لك .. وانت ؟

قال كأنه يتنهد :

— أنا .. انى أحس كأن كل شىء اختفى من القاهرة فجأة .. لم يعد فى القاهرة سيارات .. ولا شوارع .. ولا ناس .. كل شىء اخذته معك الى بيروت ..

وقلت ، وأمى واقفة بجانبى تنظر الى :

— هاشم .. لقد نسيت حقيبة فى الهيلتون .. هل تستطيع أن تأتى بها معك ؟

قال :

— حاضر ..

قلت :

— انك لن تتأخر ..

قال

— لا .. بعد عشرة أيام .. يوم السبت .. وربما قبل ذلك اذا لم أحتمل ..

قلت وأنا أبتسم :

— أرجو الا تحتمل ..

قال :

— سأحاول أن أحتمل .. كيف بيروت ؟

قلت :

— انى لا زلت فى القاهرة ..

قال :

— يا ريت ..

وانتهت المكالمة ..

نفذت الذبابة خطة العنكبوت ..

- ٣ -

حاولت أن أنسى كل شىء بعد أن حادثت هاشم فى التليفون ، وانتهيت من تنفيذ خطة العنكبوت .. حاولت أن أقنع نفسى بأن كل ما حدث لم يكن سوى فيلم سينمائى ، تخيلت نفسى خلال فترة عرضه ، أنى فى مكان بطلته .. وقد انتهى الفيلم .. وخرجت من السينما .. ويجب أن انسى بطلة الفيلم .. وأعود الى نفسى ..

وأخذت أدور فى انحاء البيت .. أضحك مع أختى .. وأقبل مربيتى .. وأروى نتفا سريعة ممزقة من ذكرياتى فى القاهرة .. وأستمع نتفا من أخبار بيروت التى حدثت أثناء غيبتى .. وعينا أمى تلاحقانى كأنها تحاول أن ترى ما تحت جلدى ، وعلى وجهها تعبير متسائل كأنها لا تصدق الضحكة التى تخرج من شفتى ، ولا المرح المرتسم فى عينى .. وتحاول أن تجلسنى بجانبها لأحدثها عن القاهرة .. ولكنى لا أطيق أن أجلس فى مكان .. ولا أطيق أن أتحدث فى موضوع واحد .. لا أستطيع أن أركز عقلى ولا أن انسق كلامى ..

وفجأة دخلت غرفتى .. وخلعت ثوبى ، ولبست بنطلونا و « بلوز » ، ووضعت فى قدمى حذاء بلا كعب ، وتركت شعرى يسيل على وجهى وأمسكت فى يدى بورقة الكلينكس ، وبضع ليرات ، وخرجت من البيت ..

وصرخت أمى ورائى :

— ألا تبقين معنا .. ألا يكفيك أن غبت عنا خمسة شهور ..

قلت وأنا أجرى ناحية الباب :

— سأبقى معكم العمر كله ..

قالت فى استسلام وهى تنظر الىّ كأنى مجنونة :

— ستعودين لتناول الغداء ..

قلت :

— ربما ..

وصفقت الباب ورائى ..

وذهبت الى مقهى « أونكل سام » وأنا أقفز فى الشارع بالبنطلون ، وأحاول أن أقنع نفسى بالفرحة وأنا التقى بشوارع بيروت ، ودكاكين بيروت ، وناس بيروت .. حاول أن أسترد العمر الذى كنت أعيش فيه قبل أن أسافر الى القاهرة .. عمر الخامسة عشرة والسادسة عشرة .. لقد تركت هذا العمر ، وعشت فى عمر أكبر من أجل هاشم .. ولكن هاشم انتهى .. لقد كان بطلا من أبطال الفيلم الذى شاهدته فى القاهرة .. وانتهى الفيلم .. انتهت القاهرة .. وانتهت عائلة محيى الدين .. وانتهت قصة الحقيبة الصفراء .. انتهى كل شىء .. انتهى انتهى .. وأنا الآن رحاب ، الفتاة التى كانت تعيش فى بيروت منذ خمسة شهور .. ترتدى البنطلون ، وتضع الكحل حول عينيها ، وتترك شعرها يسيل على وجهها .. وتعيش عمرها لحظة بلحظة .. لا يوما بيوم ، ولا شهرا بشهر ، ولا عاما بعام ..

ودخلت الأونكل سام وأنا أهلل .. كل شىء فى يهلل .. عيناى تهللان .. وشعرى المنسكب يهلل .. وشفتاى تهللان .. وفى لمحة واحدة رأيت كل شىء كما هو .. كأنى لم أغب عن بيروت سوى لحظات .. كأنى تركت متحفا للشمع ، وعدت

اليه مرة ثانية .. الوجوه لم تتغير .. والأصوات لم تتغير .. والجرسون لم يتغير .. والرائحة لم تتغير .. وسامى .. وغسان .. وتيسير .. و .. و .. كل منهم جالس الى نفس المائدة التى تعود أن يجلس اليها .. وعنقه مائل بنفس درجة الميل التى تركته عليها ..

وبقيت واقفة عند الباب أطل على متحف الشمع .. الى أن لمحتنى التماثيل ــ تماثيل الشمع ــ فانطلقت الىّ وعلى شفتى كل منها صرخة ..

وأجلسونى بينهم يسألوننى عن القــاهرة .. وحاولت أن أقول لهم شيئا مهما عن القاهرة .. فلم أجد شيئا مهما .. كان كل ما شاهدته وما حدث لى فى القاهرة لم يكن سوى سخافات .. بل انى أحسست كأن ذكرياتى عن القاهرة اختفت كلها وراء ضباب ، فلم أعد أتبينها الا بصعوبة ..

وانتهى حديثنا عن القاهرة بسرعة بعد ان عجزت عن أن أثير اهتمامهم .. واندمجوا فى مناقشة أخرى .. نفس المناقشة التى تركتهم عندها منذ خمسة شهور .. بل ان الحروف كانت ترن فى أذنى كأنها بقية كلمات سمعتها منذ خمسة شهور ..

وشيئا فشيئا بدأت أفقد احساسى بكل ما حولى .. شىء فى ينكمش .. وينكمش .. وأحس بجلدى ينكمش .. وأعصابى تنكمش .. ومعدتى تنكمش .. وأحس بنفسى أبتعد وأبتعد ، كأنى بالونة تنطلق فى الفراغ البعيد وهى تزفر كل ما فيها من هواء ، ولم أحاول أن أفسر هذا الشعور بالانكماش .. لم أحاول أن أجد له تبريرا .. ولكنى استســلمت له .. وبقيت بين الأصدقاء ، ساكتة ، واجمة ، والانكماش يؤلمنى ..

يضغط على عروقى .. ثم فجأة انطلقت قائلة كأنى أهرب من نفسى :

ــ سامى .. هل تتغدى معى ..

ونظر الىّ سامى وعيناه تضيقان ، وقال :

ــ لا مانع .. هيا بنا ..

وقمت دون أن أحيى احدا .. وجاء ورائى ..

ولم أتعمد أن أختار سامى .. ولكنه كان تمثال الشمع الذى سقطت عليه عيناى عندما تكلمت ..

وقال سامى ونحن نسير فى شارع « بليس » :

ــ الى أين ؟

نت وأنا ساهمة :

ــ الايجلز نست ..

وانحرفنا ، لنصعد فى شارع جان دارك ، وأنا أحاول بكل أعصابى أن أتحرر من الاحســـاس بالانكماش .. أحاول أن أستعيد الأيام التى كنت أذهب فيها الى مطعم « الايجلز نست » لألتقى بالذين يحبوننى ، واحدا بعد واحد .. لا يمكن أن يكون شىء قد تغير فى خلال خمسة شهور .. أنا كما أنا .. يجب أن أقنع نفسى بأنى أنا كما أنا .. ولكن لا .. مستحيل .. شىء تغير .. كل شىء تغير .. لا أدرى كيف ، ولا لماذا .. ولكن أنا لم أعد أنا .. أحس بنفسى فتاة أخرى .. أحس بنفسى امرأة عجوزا .. ان خطواتى هرمة مرتعشة .. ولعل ظهرى تقوس .. ولعل وجهى ملىء بالتجاعيد .. وشفتاى تعجزان عن حمل ابتسامتى .. وأذناى تعجزان عن التقاط كلام سامى .. كأنه يتكلم من بعيد ..

ودخلنا مطعم الايجلز نست .. وهلل الجرسون عندما رآنى

.. وهرول صاحب المطعم الىّ يحيينى .. وكلام سخيف يقولانه ، وأرد عليه دون أن أسمعه .. ونظر سامى الى السكين الموضوع على المائدة ، واتسعت عيناه فى رعب .. وارتعش .. ثم مد يده بسرعة والقى بالسكين بعيدا تحت المقاعد .. انه لا يزال يخاف من السكاكين .. انه لم يتغير .. ونظرت اليه كأنى أحسده لأنه لم يتغير ..

ونظر سامى الىّ ، بعد أن هدأ خوفه وقال وهو يتحدث فى وجهى بعينيه :

— ماذا بك ؟

قلت وأنا أحاول أن أبتسم :

— لا شىء ..

قال :

— يخيل الىّ أنك فتاة أخرى .. أحس بك كأنك كبرت عشرة أعوام ..

قلت كأنى أحادث نفسى :

— انى أحاول أن أكبر ..

قال :

— لا تحاولى شيئا .. وأبصقى على الدنيا ..

قلت وأنا أتنهد :

— لو بصق كل الناس على الدنيا ، فهم يبصقون بعضهم على بعض ..

— هذا ما يفعلونه .. انهم يبصقون بعضهم على بعض .. الابتسامة بصقة .. والضحكة بصقة .. والكلمة بصقة .. وأشرف الناس هو الذى لا يخفى بصقته فى ابتسامة أو فى

ضحكة أو فى كلمة .. ولكنه يبصقها بصراحة .. ويهز كتفيه .. ويمضى الى الموت ..

قلت وأنا أزفر فى زهق :

— اننا لا نمضى الى الموت ، ولكن الموت يأتى الينا ..

قال وهو يضحك ساخرا :

— خرافة .. اننا منذ اليوم الذى نولد فيه ونحن نتجه الى الموت .. بعضنا يقطع الطريق فى خمسين عاما .. والبعض يقطعه فى عشرين .. والسريع يقطعه فى عشرة .. وما دمنا نعرف الى أين يؤدى الطريق ، فلماذا نختار .. ولماذا نشغل بالنا .. ولماذا نحمل هما .. و ..

وقاطعته وأنا أشد زهقا :

— فلسفتك سخيفة .. حدثنى عن شىء يضحكنى ..

قال وفى عينيه حنان :

— حدثينى أنت عن تجاربك فى القاهرة ..

قلت وأنا أهز كتفى :

— لا شىء مهم ..

ونظر الىّ كأنه لا يصدقنى ، وقال :

— قولى .. لا شىء يستحق الندم .. لا شىء يستحق أن نعيش من أجله الا اللحظة التى نعيشها .. ليس هناك شىء فات ، ولا شىء قادم .. ولكن هناك لحظة نعيشها .. لحظة تأكلنا .. ولا نستطيع الا أن نستسلم لها حتى تأكلنا .. و ..

وجاءت أطباق الطعام التى طلبناها .. فأزحتها من أمامى .. وانتفضت واقفة .. وقلت وأنا ألقى بالليرات على المائدة ..

— لم أعد أطيق .. سأذهب ..

قال :

ـــ هل آتى معك ..

قلت :

ـــ لا ..

وخرجت أهيم فى شوارع بيروت .. وأحس بكل شىء حولى ميتا .. الشوارع ميتة .. والسيارات عربات لنقل الموتى .. والبحر ميت .. والجبل قبر كبير .. وأنا بومة واقفة فوق فرع شجرة ميتة .. ولا أدرى أين أذهب ، ولا أين أجلس .. ولكنى أشعر بانى بومة .. عينان واسعتان مفتوحتان كعينى البومة .. وأنفى صغير مقوس .. ووجهى مستدير يكسوه الشعر كوجه البومة !.. وأخاف أن أتكلم حتى لا أسمع فى صوتى نعيب البومة ..

وعدت الى البيت فى المساء .. الساعة السابعة .. الثامنة .. لا أدرى .. واستقبلتنى أمى قائلة فى صوت محتد :

ـــ انتظرناك على الغداء ..

قلت وأنا لا أنظر اليها :

ـــ آسفة ..

قالت :

ـــ لم يتغير فيك شىء .. لا زلت مجنونه ..

قلت :

ـــ ربما ..

وانطلقت قهقهة أبى قائلا :

ـــ عادت رحاب الى عادتها القديمة ..

وانجهت اليه وجلست على ركبتيه .. وأنا اقول :

اشتقت لك يا حاج عبد الرحمن ..

وحاولت أن أستريح على صدره .. ولكنى شعرت بمجرد ان

ملت برأسى على كتفه ، انى سأبكى .. واذا بكيت فسيسألنى عن بكائى .. ويجب ان أقول له شيئا .. لا .. لن أبكى .. حتى لا أمزل شيئا .. وقفزت من فوق ركبتيه .. واتجهت الى غرفتى وأنا أقول فى مرح مفتعل :

ـــ سأنام ..

وقالت أمى :

ـــ ألا تتناولين العشاء ؟

قلت كاذبة :

ـــ تعشيت ..

وقال أبى :

ـــ ألا تجلسين معنا قليلا ..

قلت :

ـــ متعبة يا بابا .. غدا ..

وجريت الى غرفتى ، وجلست فوق سريرى كالبومة .. احاول كل جهدى الا أفكر فى شىء .. أن استسلم لحالتى دون أن أفكر .. ان التفكير معناه أن أواجه نفسى .. أخاف أن أواجهها .. انما انتظر أن تمر هذه الحالة التى أعانيها .. وأنسى .. وأعود لا مبالية ..

ونمت .. مغشيا علىّ من التعب ، والارهاق .. نوما ثقيلا ، كأنى دفنت تحت جبل من التراب ..

ويوم آخر ..

ثم يوم ثالث ..

وأنا ازداد انكماشا .. ولا أستطيع أن أكل .. وأعصابى تأكل من لحمى .. وأذوب .. ولم احاول أن أخرج من البيت

.. منكمشة فى غرفتى .. وأمى تعرض علىّ أن تأتينى بطبيب ، فارفض .. وتقضى يومها كله تتحايل على ان اكل ..

ولم يعد يجدى الهرب ..

يجب أن أواجه نفسى ..

وأخيرا ..

استجمعت قوتى .. كل ما بقى فى من قوة .. وواجهت نفسى .

لماذا أعانى كل هذه المعاناة ؟

لأنى نفذت خطة العنكبوت ؟

لأنى خدعت هاشم وأشركته فى خطة لتهريب أموال عائلة محيى الدين ؟ !

ولكن هاشم لن يتعرض لأذى .. حتى لو ضبطت معه الحقيبة الصفراء ، يستطيع أن يقول انه لا يمكلها .. ويستطيع أن يستشهد بموظفى فندق هيلتون ، ليشهدوا ان الحقيبة هى حقيبتى أنا .. ثم ان الأموال التى نهربها ليست أموالا مسروقة .. انها حق لعائلة محيى الدين .. ومن حقهم أن ينقلوها الى لبنان ، كما ينقل أبى أمواله الى لندن وباريس ، وكل بقاع الأرض .. انى لا أؤذى أحدا بالاشتراك فى نقل هذه الأموال .. وقد اشتركت فى خطة نقلها باحساسى .. وأنا أستسلم دائما لاحساسى .. فلماذا أثور عليه الآن .. لماذا كل هذا القلق .. كل هذه المعاناة .. كل هذا الضيق .. كأن رئتى تلطمان صدرى .. كأن أعصابى تتمزق .. كأن كبدى يتفتت ..

ولكن ..

ان ما يشغلنى ليس الحقيبة الصفراء ، ولا عملية التهريب .. لا .. انى أضحك على نفسى عندما أعتقد أن سر ما أعانيه

هو أنى نفذت خطة العنكبوت ، ولا هو احساسى بأنى كنت ذبابة .. ان سر ما أعانيه هو هاشم نفسه .. من هو هاشم بالنسبة لى ؟

صديق ..

مجرد صديق ..

ليس أكثر من تيسير ، وسامى ، وغسان .. وبقية الأصدقاء .. أصدقاء أحتاج اليهم ، لقطع الوقت ، ولارضاء غرورى .. ولكن لا ..

ليس هذا صحيحا ..

هاشم أكثر من ذلك .. ليس مجرد صديق ..

وفجأة تكشف أمامى الفراغ الكبير الذى أعيش فيه منذ تركت هاشم .. ومنذ اللحظة الأولى التى وصلت فيها الى بيروت ..

لم يكن هاشم صديقا ..

كان حياتى ..

كان كل دقيقة من يومى .. وكانت اللحظات التى يغيب عنى فيها ، يملؤها بالأمل فى لقائه ..

- ماذا يعنى هذا ؟ !

هل أنا أحبه ؟

وهل هذا هو الحب ؟ ..

وارتفع أمامى وجه هاشم .. شعره فى لون الدخان كأنه ينطلق من حريق قلبه .. وعيناه المنتفختان تطل منهما نظراته الضعيفة المبتهلة .. وأنفه الراقد فى تواضع كالأسد العجوز .. وشفتاه المنفرجتان كأن بينهما آهة ألم ..

لا .. انى لا أحبه !

لا أريد هذا الحب .. لا أريد أى حب .. ان الحب قيد ثقيل

.. انه ارتباط .. وأنا لا أطيق القيود ولا الارتباطات .. لا أريد أن اعانى كل هذه المعاناة لانى أفتقد رجلا .. أى رجل .. أريد أن انطلق .. أن اطير ..

— انا لا أحب ..

ابدا لا احب ..

ان الحب يأخذ منى كل شىء .. بل يأخذ عمرى .. هاشم يريد أن يأخذ عمر العشرين ويعطينى عمر الأربعين .. لا .. أريد عمرى .. اريد حريتى .. اريد انطلاقى ..

وتحاملت على ضعفى .. وقمت الى التليفون واتصلت بتيسير .. لا شك أن تيسير لا يزال يحبنى .. ربما أكثر من هاشم .. وسأجد عنده نفس ما كنت أجده عند هاشم ..

وذهل تيسير عندما طلبت منه أن يقابلنى ، حالا .. وكنا فى الساعة الثامنة مساء .. وخرجت اليه مرتدية البنطلون ، وشعرى سائل على وجهى ، وقلم الكحل فى يدى ، كما تعودت أن أقابله .. ولم أستأذن أحدا قبل أن أخرج ..

ونظرت اليه .. لا تزال فى عينيه هذه النظرة المتعالية المتحفزة .. ووجهه جميل .. وجلده مشدود .. وشعره أسود .. ولكن كلامه سخيف .. كل كلمة من كلماته تدق فى أذنى كأنها مسمار .. وتقع على أعصابى كأنها حد الموس .. ولكن .. لعلى عصبية .. يجب أن أحتمل حتى أهدأ .. وحاولت أن أحتمل .. ولكنى لا أستطيع .. أبدا لا أستطيع .. حد الموس يقطع فى أعصابى .. والمسامير تدق فى رأسى ..

والتفت اليت فجأة ونحن نسير على الروشة ، وقلت كأنى أصرخ فيه :

— تيسير .. قبلنى ..

قال فى دهشة :

— ماذا ؟

قلت :

— قبلنى .. قلت لك قبلنى ..

انى لا زلت أذكر قبلاته .. لقد كنت احتملها .. كنت احيانا أريدها .. ولكنه فى هذه الليلة ، وما كاد يقرب وجهه من وجهى ، حتى شعرت بريح ساخنة تهب علىّ .. ورائحة لاذعة تكاد تخنقنى .. وشهقت كأن احدا يهم أن يشق جسدى بسكين .. وسقطت شفتاه على خدى كأنهما بقعتان من الزيت البارد .. واحتملت .. احتملت بكل ما فى من قدرة على الاحتمال .. بل وأدرت له شفتى .. وما كاد يلمسهما بشفتيه حتى شعرت بالاختناق .. انى أختنق فعلا .. أختنق .. ونزعت شفتى منه بقسوة كأنى أقاوم الموت .. وجريت .. جريت فى الليل .. لا أدرى شيئا .. وهو يصرخ :

— روللى .. يا مجنونة .. روللى ..

وجرى ورائى ..

وخيل الىّ فعلا أن الموت يجرى ورائى .. يجب أن أسبق الموت .. أن انجو .. والهلع يملأ عينى .. والاختناق يقبض على عنقى ..

ولا أدرى كيف وضعت نفسى فى سيارة أجرة .. ووصلت الى بيتنا .. ودخلت وضباب كثيف يزحف على عينى .. ويد قاسية تقبض على عنقى .. وسمعت أمى تصرخ فى وجهى :

— اين كنت .. الساعة الآن الحادية عشرة ..

وصرخت :

— لا تسألينى .. لا تحاسبينى .. ابعدى عنى .. انى .. أنى ..

وصوتى يختنق ..

عروق رقبتى تنتفخ ..

والم .. ألم عنيف قاس حول عنقى ، وفى صدرى .. انها النوبة التى أتعرض لها .. النوبة التى أعرفهـا جيدا .. واخافها اكثر مما أخاف الله .. انى اتمزق .. أنفاسى كأنها جيش من الدبابيس يشك صدرى .. وفى عنقى .. وفى أعصابى ..

يا رب ..

يا رب ..

ثم لم ادر شيئا ..

وأفقت وأنا راقدة فى الفـراش .. والطبيب بجانبى .. وأمى وأبى عند قمى السرير .. ونظرت الى الطبيب .. والى أبى وأمى .. وسألت وكأنه فى داخلى شخص آخر يضع خطة أثناء غيبوبتى .. وكأن هذا الشخص هو الذى يسأل :

— أى يوم نحن ؟

وأجاب أبى وعيناه تبرقان بدمعه :

— الثلاثاء ..

وسكت ..

وتعلقت عيناه بسقف الغرفة ، ووجدت نفسى أهيم فى خطة غامضة لا أدرى كيف ولا متى ثارت فى خيالى .. وامتلأ رأسى بصوت يردد :

ان هاشم سيأتى يوم السبت ومعه الحقيبة الصفراء ..

وحاولت أن أتجاهل هذا الصوت .. حاولت ان أقنع نفسى

بألا أهتم سواء أتى هاشم يحمل الحقيبة الصفراء . أو لم يأت .. ولكن الصوت لا يزال يملأ رأسى ، ويردد فى الحاح :

هاشم سيأتى يوم السبت ومعه الحقيبة الصفراء ..

وقضيت اليوم كله ساكتة .. وأنا أتحفز لأفعل شيئا .. ولكن لا أدرى بالضبط ما سأفعله .. وصورة هاشم تملأ رأسى .. والحقيبة الصفراء .. والصوت المجهول يتردد فى أذنى وقد خطر لى خاطر سريع أن أروى لأبى كل ما حدث وما فعلته لتهريب أموال عائلة محيى الدين .. انه يفهم فى هذه المسائل .. ولعله يعيننى على أن ارتاح .. ولكنى لم اقل شيئا .. ان المشكلة ليست مشكلة تهريب أموال .. انها مشكلة احساسى بأنى كنت ذبابة .. لا .. انها مشكلة هاشم .. لو كان أى شخص غير هاشم لما احسست ان هناك مشكلة ..

وفى يوم الأربعاء قمت من الفراش ، وفاجأت أمى وأنا ارتدى ثيابى .. وسألتنى فى جزع :

— الى أين ؟

قلت :

— الى السوق ..

قالت :

— ولكنك لازلت مريضه .. الدكتور أمر ..

وقاطعتها :

— انى أعلم حالتى أكثر من الدكتور ..

وسكتت أمى .. خافت أن تجادلنى حتى لا تصيبنى النوبة مرة أخرى ..

وذهبت الى أبى ، وقلت له وأنا اقبله فوق وجنته :

— اريد الف ليرة ..

وسرت بجانبه نمر بمكاتب الجوازات ، وصالة الجمرك .. ان هاشم له نفوذه فعلا .. كثيرون يحبونه .. وكثيرون يسارعون الى خدمته .. وأنا فرحة به .. وفرحة بشخصيته الحلوة التى يتعامل بها مع الناس .. فرحة بابنى العجوز ..

وتمت كل الاجراءات فى لحظات ، قبل أن تتم اجراءات بقية الركاب ..

وركبت بجانب هاشم فى سيارته .. وعيناى معلقتان بوجهه .. انه يبدو اقوى مما تركته .. فى عينيه لمعة قوية .. وعلى شفتيه ابتسامة قوية .. وأنفه راقد فوق وجهه فى قوة .. يبدو كأنه استرد كل ما ضاع منه .. استرد شخصيته .. استرد ثقته بنفسه .. ليس حائرا .. ولا مهزوزا .. ولا ضعيفا .. .. لعل مجرد عودتى اليه قد أعادت اليه كل شىء ..

وقال وهو ينظر فى وجهى كأنه يشرب منه بعينيه :

— لم أصدق برقيتك .. خفت أن يكون مقلبا ..

قلت وصورة الحقيبة الصفراء تملأ خيالى :

— لعل المقلب هو عودتى ..

وضحك فى قوة ، وقال :

— انها أحلى مفاجأة .. لقد كنت أعد الساعات التى تفصلنى عنك .. فكنت أنت أسرع من الساعات .. ولكن .. لماذا عدت .. لماذا لم تنتظرينى فى بيروت .. كنت تعلمين أنى سأكون هناك يوم السبت ..

قلت وأنا أهز كتفى :

— لا شىء مهم .. أحسست أنى أريد أن أعود الى القاهرة فعدت ..

قال وهو لا يزال يضحك :

— لقد كنت دائما أخاف استسلامك لاحاسيسك .. ولكنى اليوم أتمنى أن تعيشى العمر كله مستسلمة لأحاسيسك ما دامت تدفعك الى ..

قلت وأنا أبتسم :

— هذا احساس اليوم .. لا ادرى احساسى غدا ..

قال وهو يمد يده ويضغط على يدى :

— أنى واثق من احساسك اليوم وغدا وبعد غد .. والعمر كله ..

وابتسمت ..

ومرت بيننا فترة صمت ..

وهو لا يزال ينظر الى بعين ، وينظر الى الطريق بعين .. ثم قال :

— هل كنت مريضة ؟

ونظرت اليه ، وقلت :

— كيف عرفت ؟

قال وهو يتفحص وجهى بعين طبيب :

— وجهك ..

قلت بلا مبالاة :

— أصبت بنوبة اغماء .. ومرت ..

قال :

— لن تصابى بها مرة ثانية .. أعدك بذلك ..

قلت :

— ستعالجنى ..

قال مبتسما :

— لا .. ولكنى لن أبعد عنك مرة ثانية ..

وابتسمت ساكتة .. وخيالى لا يزال وراء الحقيبة الصفراء .. ثم قلت وانا اتعمد ان اطل من نافذة السيارة حتى اخفى عنه وجهى :

— هل اخذت حقيبتى من الهيلتون ..

قال :

— نعم .. فى نفس اليوم الذى حادثتنى فيه ..

قلت :

— أين هى الآن ..

قال :

— احتفظت بها فى العيادة ..

قلت :

— لنذهب لاحضارها الآن ..

قال :

— لماذا .. ساحملها مع حقائبى وانا مسافر الى لبنان ..

قلت :

— لا .. ان فيها أشياء تخص عائلة محيى الدين .. كنت نسيت أن أتركها لهم .. سنأخذها من العيادة ، ثم أتركها عند عائلة محيى الدين ..

قال بلا مبالاة ودون ان يحاول ان يفهم شيئا :

— كما تريدين ..

قلت :

— انى ساعود غدا الى بيروت ..

قال :

— ألا تنتظرين الى ان نعود معا بعد غد ..

قلت وأنا لا انظر اليه :

— لا أستطيع .. بابا لم يسمح لى الا بليلة واحدة ..

قال :

— اذن أسافر معك غدا ..

قلت :

— لا .. افضل الا نصل فى طائرة واحدة ..

وارتسم الكمد على وجهه . وقال :

— لا أريد أن أقضى يوما آخر بعيدا عنك ..

قلت :

— انه يوم واحد ..

وسكت ..

ووصلنا الى العيادة .. وصعد هاشم .. وعاد ووراءه البواب يحمل الحقيبة الصفراء .. وضعها فى المقعد الخلفى من السيارة ..

ولم أنظر الى الحقيبة ، ولا التفت اليها ، كأنى خشيت ان نظرت اليها أن تفضحنى عيناى .. وقلبى يضرب .. كأنى الوحيدة التى تعلم ان فى هذه الحقيبة جثة قتيل ..

وانطلقنا الى بيت عائلة محيى الدين .

وناديت بواب البيت .. وقلت له وانا اشير الى الحقيبة :

— خذ هذه الحقيبة .. سلمها لرفيق بك ..

وقال البواب ووجهه متهلل للقائى :

— ألا تقيمين عندنا ..

قلت :

— لا .. سلم لى على الجميع ..

وحمل البواب الحقيبة .. وأنا لا التفت اليهـــا ايضا . اخاف ..

وانطلق هاشم بسيارته ...

وما كاد يبتعد بى عن البيت ، حتى شعرت كأن كل شىء فى يرتخى .. أعصابى المشدودة .. ابتســـامتى المفتعـــلة .. وارتخيت فى مقعدى كأنى سأنام .. وأدرت رأسى الى هاشم .. ونظرت اليه وعلى شفتى ابتسامة هادئة .. وشعرت أنى أريد أن أقبله .. لم أستطع أن أمنع نفسى من تقبيله فشببت اليه بوجهى وقبلته قبلة سريعة على خده ، ثم ملت برأسى على كتفه ، وأغمضت عينى ، وهمست :

— انى متعبة .. أريد أن أنام ..

ومال على رأسى بشفتيه ، وقبلنى فوق جبينى .. كأنه يخدرنى بقبلته ..

وأخذنى الى الهيلتون .. ووقف معى حتى تمت اجراءات الاستقبال .. ثم تركنى أصعد الى الغرفة ، على أن يعود الى فى الساعة الرابعة ..

ونمت ..

نمت وفى قلبى ابتسامة هادئة .. وفى اعصـــابى يسرى احساس مريح لذيذ .. لم أشعر ابدا بمثل هذا الهدوء وهذه الراحة .. كأنى القيت من فوق ظهرى حملا زنته طن .. نامت الذبابة بعد أن تخلصت من خيوط العنكبوت ..

ولا أدرى كم نمت .. ساعة .. ساعتين .. ثلاثا ..

ثم استيقظت مفزوعة على صوت رنين جرس التليفون ..

ومددت يدى وأنا لا زلت مغمضة العينين ، كأنى أريد أن اخنق هذا الرنين .. وقلت وصوتى نائم :

— من ؟

وسمعت صوتا مبهورا يقول لى :

— أنا رفيق ..

وفتحت عينى المغمضتين .. وفتحت عقلى .. واستيقظت أعصابى .. وقلت فى حدة :

— ماذا تريد ؟

قال كأن كلماته تهرول :

— ماذا حدث ؟

قلت وأنا أشد حدة :

— لا شىء حدث .. فقط لا أريد أن اشترك فى هذه المهمة ..

قال :

— ألم تسافرى لبنان ..

قلت :

— سافرت .. وعدت ..

قال فى توسل :

— هل أستطيع أن أراك ..

قلت كأنى أصرخ :

— لا ..

قال فى دهشة :

— لماذا ؟

وصرخت :

— لا أريد أن أراك .. لا أريد أن أرى احدا منكم ..

وقذفت سماعة التليفون ..

وحاولت أن أعود الى النوم .. وضعت الوسادة فوق رأسى .. ثم وضعت رأسى مكان قدمى .. وضغطت على عينى بجفنى

كأنى اضربهما حتى يناما .. ولكن ، لا أمل .. لن أنام .. وقمت من الفراش وصوت رفيق لا يزال يشق احساسى كأنه سكين .. كأنه يذكرنى بفضيحة ارتكبتها ، فأتقزز من نفسى ..

ودخلت الحمام ، وملأت البانيو ، ورقدت فى الماء الفاتر .. وبدأ احساسى يندمل شيئا فشيئا .. بدأت أعود الى الهدوء والمرح . وشعرت مرة ثانية بأنى خفيفة .. لا شىء يثقل ضميرى .. أحاسيسى كلها منطلقة مرحة .. وأخذت اغنى أغنيتى الانجليزية المفضلة « الحقول الخضراء » .. ثم توقفت عن الغناء وعدت افكر من جديد .. لقد انتهت الآن قصة الحقيبة الصفراء .. وأنا سعيدة بانتهائها .. لست سعيدة لأنى لم أهرب النقود ، ولكنى سعيدة لأنى لم اترك عائلة محيى الدين تستغل هاشم ، وتستغل حبه لى .. سعيدة لانى لم أعد ذبابة ..

ولكن .. بقى هاشم ..

ماذا افعل به ؟

وابتسمت وأنا أسأل نفسى ماذا أفعل بهاشم .. وبهدوء ودون أن أنفعل ، اقتنعت بينى وبين نفسى بأن قصتى مع هاشم انتهت بانتهاء قصة الحقيبة الصفراء .. كأنى صفيت حسابى معه ، ولم يعد أمامى الا أن انصرف .. واتفق احساسى مع اقتناعى .. وربما اقتنعت لأنى كنت أعلم أن هاشم ينظر الى علاقتنا نظرة أكثر جدية مما أحتمل .. ومما اريد ، انه يصل بعلاقتنا الى حد التفكير فى الزواج .. وأنا لا أريد أن أتزوجه .. ليس الآن .. ولو تزوجت فلن يكون هاشم هو الذى يقنعنى بالزواج . انى أحس به كأنه مسؤولية كبيرة لا أستطيع أن احتملها .. أحس به كأن مركزه ، وعمره ، واحساسه بنفسه : ستطلب منى أن أعطيه كل ما عندى .. وأنا لا استطيع أن اعطى كل ما عندى .. سيظل فى دائما شىء لا اعطيه لاحد .. احتفظ به لنفسى .. حريتى .. انطلاق احاسيسى .. وهاشم لن يحتمل حريتى ، ولا انطلاق احاسيسى .. انه ليس من هذا الصنف من الرجال .. انه الرجل الذى يريد كل شىء .. الرجل الذى يطوى كل من حوله فى شخصيته .. حتى لو كان ضعيفا امامى .. فهذا الضعف نفسه يدل على انه يمر فى فترة عابرة من عمره .. ولن يكون ضعيفا الى الأبد ، ولا اريده أن يكون ضعيفا .. ولا أن أستغل ضعفه .. ولو تركته يقوى ، فسيقوى علىّ .. وأنا لا اريده أيضا أن يقوى علىّ .. اذن فالأفضل لكلينا ان ننتهى ..

وكانت كل هذه الخواطر تمر بى وأنا هادئة .. وابتسم .. ابتسم لهاشم .. أبتسم لشخصيته الحلوة .. وقلبه الطيب .. وحبه لى .. لم تكن ابتسامة حب .. ليس هذا النوع من الحب .. انى استطيع الآن أن اتبين أنى لا احبه .. وربما ما اعتقدته وأنا فى بيروت من أنه الحب ، لم يكن الا انعكاسا لتأنيب ضميرى بسبب خطة الحقيبة الصفراء .. انعكاسا لاحساسى بأنى كنت ذبابة .. ولكن هناك شيئا آخر يربطنى بهاشم ، هل اسمى هذا الشىء صداقة .. انفعالا .. انجذابا .. لا أدرى .. ولكنه شىء كبير .. شىء حلو .. ولكنه ليس الحب .. كما اتخيل الحب ..

وخرجت من الحمام .. ونظرت فى المرآة .. وابتسمت .. ان وجهى قد استرد بعض لونه .. وعيناى استقر فيهما الضوء .. وشفتى دبت فيهما الحياة ..

وارتديت ثيابى ، وخرجت من غرفتى .. ومررت على موظف الاستقبال ، وطلبت منه أن يتأكد من حجز مقعد لى فى الطائرة

المسافرة غدا الى بيروت .. ثم اتجهت الى الكافتيريا ، بعد ان تركت خبرا لهاشم أنى أنتظره هناك ..

والتقيت فى الكافتيريا ببضعة شبان لبنانيين ، فجلست بينهم .. مرحة .. منطلقة .. كما عرفونى .. الى ان لمحت هاشم آتيا من بعيد .. فقمت اليه ، قبل أن يصل الىّ ، حتى لا احرجه أمام أصدقائى .

واستقبلنى هاشم وهو يبتسم ابتسامة مهزوزة ، ينظر بها الى الشبان اللبنانيين ، ثم يعود بها الىّ ..

وركبت بجانبه فى سيارته ، واتجهنا الى المقطم .. وهاشم طوال الطريق يحاول ان يجعلنى اتكلم عن سر عودتى الى القاهرة فجأة .. وكنت أعلم باحساسى ماذا يريد أن يسمع منى .. انه يريدنى أن أقول لهانى عدت من أجله .. وانى أحبه .. ولكنى لم أقل له .. حتى ولا لأرضيه .. لم اكن أريد أن أطلق له الأمل .. وسألته :

— لا زلت مصمما على أن تأتى الى بيروت ؟

قال فى دهشة :

— طبعا ..

قلت :

— من اجلى ؟

قال :

— من اجلك ..

قلت وأنا أبتسم كأنى اربت على اعصابه بابتسامتى :

— انى أفضل الا تسافر ..

قال وهو ينظر الىّ فى لوم :

— لماذا ؟

قلت :

— الآن القاهرة وحدها هى التى نستطيع ان تجمعنا .. بيروت ستفرقنا ..

قال فى دهشة :

— لماذا ؟

قلت وأنا أنظر اليه كأنى ارجوه أن يقتنع :

— أنا فى بيروت انسانة اخرى .. وأنت هنا انسان آخر ..

قال :

— ان الحب لا يختلف باختلاف العواصم ..

قلت :

— انى أخاف حبك ؟

قال :

— ماذا يخيفك منه ؟

قلت :

— انه اكبر مما احتمله .. ان حبك جاد .. له تقاليد .. وله خط مرسوم .. وأنا لا احتمل التقاليد ، ولا الخطوط المرسومة ، ولا الزواج ..

قال وأنفاسه مبهورة :

— ولكنك عدت الى القاهرة من اجلى ..

قلت :

— عدت لأتأكد من أنى لا أريد أن أعيش فى القاهرة ..

قال :

— وتأكدت ؟ !

— تأكدت ..

وغرق وجهه فى سحابة حمراء ، وقال فى حدة :

— انى لن استسلم لأحاسيسك المجنونة .. الأحاسيس التى تختلف بين كل لحظة وأخرى .. هذه الأحاسيس تحطم كل من يقترب منك ، ثم ستنتهى بأن تحطمك .. وانا لن اسمح لك بأن تحطمينى ، ولا بأن تحطمى نفسك ..

قلت وأنا أنظر اليه كأنى أعتذر له :

— انك تعلم أنى ملك لأحاسيسى ..

قال وهو أكثر حدة :

— انك لست ملكا لأحاسيسك .. ولكنك تهربين .. تهربين من كل شىء .. تهربين من الحب .. وتهربين من العائلة .. وتهربين من الايمان .. وتهربين من عقلك .. وتهربين من المستقبل .. وتسمين هذا الهروب : احساس .. انك مسكينة .. ولن يجديك الهرب .. لن تستطيعى أن تعيشى هاربة العمر كله .. ستجدين نفسك مضطرة يوما الى استعمال ارادتك على نفسك .. وعلى ما تسمينه احساسا .. حتى تتوقفى عن الهروب .. فاذا لم تستطيعى أن تجدى ارادتك ، فستضطرين الى الهروب من الحياة كلها ..

قلت وكلامه يجرى فى عقلى :

— تقصد أنتحر ..

قال :

— نعم .. تنتحرين .. ولن أتركك الى ان تنتحرى ..

ثم أوقف السيارة ، والتفت الىّ بكل جسمه وقال :

— رحاب أنت فتاة رائعة .. انت تملكين كل شىء لتكونى سعيدة ، ولتسعدى الانسان الذى يحبك .. ولكنك لم تجدى أحدا

ولا شيئا يرسم لك الطريق .. مرضك فى صغرك ، جعل اهلك يخافون عليك من أن يقيدوك بشىء .. شىء يروض ارادتك ، ويروض احساسك ، ويروض منطقك .. ونحن نولد جميعا بلا ترويض ثم يَتولى اهلنا ترويضنا ، ويزيدنا المجتمع ترويضا .. لكنك أنت لم تجدى من يروضك ..

قلت مبتسمة :

— وأنت ستروضنى ..

قال فى رجاء :

— دعينى أحاول ..

قلت وأنا أحاول ان ابتسم :

— لقد حاولت طوال خمسة أشهر .. وها أنا كما أنا ..

وسكت قليلا ، ثم قال فى يأس :

— لك حق .. ربما لأنى لا اريد ان أروضك لنفسك ، ولكنى أريد أن اروضك لنفسى .. أروضك على حبى .. ان الأب يروض ابنته ليعطيها لرجل آخر ولكنى أب يحاول أن يروضك ليحتفظ بك لنفسه ..

قلت فى غضب صادق :

— لا تقلْ انك ابى .. انى أكرهك عندما تتكلم هكذا ..

قال وهو أشد يأسا :

— انك لا تحبيننى ..

قلت :

— ليس الحب الذى تريده .. ولكنى لا احبك ايضا [illegible]
انى احبك حبا فيه جمال كثير .. فيه [illegible]
التى أقضيها معك هى [illegible]
على هذا الحب [illegible]

عليه أن يحطم .. وانا اريد ان ابقى عليه طول عمرى .. طول عمرى سأشعر بالحاجة اليك .. حاول أن تفهمنى يا هاشم ..

قال ساخرا :

— ان الفهم يحتاج الى عقل .. وانت تدعين انك تنقادين الى احساسك ، لا الى عقلك ..

قلت :

— انى أفهم احساسى .. واستطيع أن افهم ما مر بنا منذ التقينا .. لقد مرت بنا أيام كثيرة ضعنا فيها احدنا عن الآخر .. أتدرى متى كنا نضيع ؟ كنا نضيع عندما نحاول أن نقترب .. عندما تحاول أن تعيش فى دنياى .. عندما تحاول أن تنزل الى عمرى . أو عندما أحاول ان أصعد الى عمرك .. لقد كنت تترك عملك وأصدقاءك لتعيش فى لهوى ومع أصدقائى .. وكنت ان أترك انطلاقى وسخافاتى لأعيش فى قيودك وحدك .. فكنا نضيع .. كنت فى هذه اللحظات أحس بك بعيدا عنى .. وكنت تحس بى بعيدة عنك .. ولكننا كنا نسعد عندما نلتقى وكل منا فى دنياه .. كنت تسعد بى كفتاة تافهة .. وكنت اسعد بك كشخصية حادة ضخمة .. وستبقى سعادتنا دائما فى احتفاظ كل منا بدنياه .. كل منا يطل على الآخر من دنيا أخرى ويمد له يده ويبتسم له .. صدقنى .. هذه هى الحقيقة .. وأنت تقول أنى فتاة ذكية .. وأنا احدثك الآن بذكائى ..

وصمت هاشم برهة ، ثم خبط على عجلة القيادة بكفه ، وقال فى عناد :

— سأسافر الى بيروت ..

ثم انطلق بالسيارة فى سرعة مجنونة كانه شاب متهور ..

— ٤ —

عدت الى بيروت وأنا سعيدة .. سعادة هادئة لذيذة .. أعصابى كلها مسترخية كأنها راقدة على مقعد مريح .. حتى عناد هاشم واصراره على أن يلحق بى فى بيروت ، كان يشعرنى بالسعادة .. ربما أرضى غرورى ، ولكنها كانت سعادة اعمق من الاحساس بالغرور .. أشبه بسعادة الأم عندما تحس بتعلق ابنها بها ، رغم أنها تريده أن يبتعد عنها ليتعود أن يقف على قدميه ..

انى لم اشعر ابدا من قبل بمثل هذه السعادة الهادئة .. لقد كانت سعادتى دائما سعادة حادة .. كالصراخ .. كانت كل أحاسيسى صراخا .. سعادتى صراخ .. وشقائى صراخ .. وحيرتى صراخ .. كنت — كما قلت — أعيش دائما فى قمة الأحاسيس .. ولكنى الآن أحس بأنى فى قمة جديدة علىّ .. قمة الهدوء النفسى .. السكينة .. كأنى راقدة فوق قطعة من السحاب .. ان شيئا فى قد تغير .. لا ادرى ما هو .. ولكن شيئا تغير .. هذه الشهور التى عشتها فى القاهرة ، والأزمات التى مرت بى خلالها ، جعلت منى انسانة اخرى .. انسانة لم اعرفها بعد .. ولكنها انسانة اخرى غير رحاب التى اعرفها ..

وكنت قد قضيت سهرة الأمس مع هاشم .. سهرة صامتة .. وقد حاولنا أن نمدها حتى الصباح .. حتى موعد قيام طائرتى

الى بيروت .. كما فعلنا عندما سافرت فى المرة السابقة .. ولكننا لم نستطع .. لم نحتمل الصمت .. وكان هاشم يبدو فى صمته كأنه يتألم .. كأنه يحاول أن يقتل شيئا داخل نفسه .. ووجهه غارق فى سحابة صفراء .. وخطوط كثيرة تشق جبينه كأنها آثار سكاكين حادة .. وكنت أعلم ما يعانيه .. انه يعانى من أزمة عناد .. من ازمة اصراره على أن نعيش أنا وهو فى دنيا واحدة .. لا يريد أن يقتنع بأن كلا منا خلق لدنياه .. لا يريد أن يستسلم لليأس .. لا يريد أن يتخلى عنى كفتاة يحبها ويكتفى بى كصديقة ..

وقد حاولت كثيرا ان اخفف عنه .. حاولت أن اقطع حبل الصمت الذى يلتف حول عنقى وعنقه .. ولكنى عندما تكلمت قلت كلاما سخيفا ، ليس له معنى .. كلاما مفتعلا .. فاستسلمت انا الأخرى للصمت .. الى أن قررنا أننا لم نعد نحتمل صمتنا ، فافترقنا فى الساعة الحادية عشرة مساء .. ووجهه غارق فى سحابة العذاب .. وشفتاه مكورتان ممطوطتان كأنه طفل عنيد غاضب ..

وصحبنى الى المطار فى اليوم التالى ، وهو لا يزال مصمما على أن يلحق بى فى اليوم الذى يليه .. يوم السبت .

وانحنيت اقبله على خده قبل أن انزل من سيارته .. ولم يبادلنى قبلتى .. اكتفى بأن مال بخده على شفتى ..

ونظرت اليه مبتسمة كأننى اعتذر له .. ثم عدت اقبله مرة أخرى .. وأنا اهمس :

— ألا تريد أن تقبلنى ؟ .

قال وكأنه يضغط على اعصابه :

— لا ..

قلت :

— انك لست غاضبا منى ؟

قال وهو يتنهد :

— لا ..

قلت :

— عدنى ألا تفكر وحدك .. وفر تفكيرك الى أن نلتقى .. اننا نستطيع أن نتناقش العمر كله ولكنى لن أحتمل أن تفك وحدك .. اخاف أن تكرهنى لو فكرت وحدك ..

قال وهو ينظر الى بعينين يائستين :

— انى لن اكرهك أبدا .. ولكنى اخاف ان اكره نفسى ..

قلت :

— لا .. لن تكره نفسك .. انك لو كرهت نفسك كرهتنى ، فنفسك هى التى احبتنى ..

قال :

— سأحاول .. سأحاول أن احب نفسى لأنها احبتك ..

قلت وقلبى ملهوف عليه :

— أنا أيضا أحببتك .. ولكننا اختلفنا فى طبيعة حب كل منا .. ولابد أن نتفق .. تأكد أننا سنتفق ..

قال :

— باذن الله ..

وانحنيت أقبله مرة ثالثة ..

ومد ذراعه وكأنه لم يعد يستطيع ان يقاوم — وضمنى الى صدره .. وهمس وخده راقد على خدى :

— مع السلامة ..

ونزلت من السيارة ..

وفجأة صاح بى كأنه تذكر شيئا :

— أين حقيبتك الصفراء ؟؟

وارتعشت رموشى فوق عينى . وقلت فى تردد :

— تركتها لعائلة محيى الدين .. لم يكن فيها شىء مهم ..

وابتسم ساكتا ..

وقلت وأنا ادير له ظهرى واشوح له بيدى :

— سأنتظرك غدا فى مطار بيروت ..

وتركنى أدخل المطار وحدى كما سبق أن اتفقنا ..

★ ★ ★

ووصلت بيروت وأنا سعيدة هذه السعادة الهادئة اللذيذة .. أعصابى كلها مسترخية كأنى راقدة على مقعد مريح .. واستطعت ببساطة أن أهدىء حدة أبى وأمى .. وساعدنى على تهدئتهما أنهما لاحظا هدوء اعصابى ، واستردادى لصحتى .. وأخذتنى أمى واختلت بى فى حجرتها وسألتنى وهى تحاول أن تشعرنى بأنها صديقتى الكبيرة ، عن سر سفرى الى القاهرة ، وأجبتها ببساطة :

— لا شىء .. كان يجب أن أودع أصدقاء نسيت أن أودعهم ..

قالت :

— أتحبينه ؟ ..

قلت فى دهشة :

— من ؟

قالت وهى تنظر فى عينى مبتسمة لتطمئننى :

— الشاب الذى ذهبت اليه ؟

قلت وأنا أضحك :

— لا .. لا احبه . ولكنه صديق عزيز ..

قالت وهى تكشف عن جزعها :

— انك لا تخفين عنى شيئا خطيرا ؟ !

قلت :

— لا .. صدقينى .. واطمئنى ..

ونظرت الىّ فى تمعن ، وقالت :

— يخيل الىّ أنك كبرت يا رحاب ؟

قلت :

— ربما ..

ثم استطردت كأنى تذكرت شيئا :

— غدا سيصل صديق من القاهرة .. أريد أن ادعوه الى بيتنا .. لقد اهتم بى هناك ، ودعانى أكثر من مرة .

قالت :

— هل هو الذى سافرت اليه ؟

قلت وأنا اتجاهل الرد على سؤالها :

— انه صديق لعمى الدكتور نور الدين .. وعمى هو الذى قدمنى اليه بخطاب أعطاه لى عندما سافرت الى القاهرة أول مرة .. ألا تذكرين ؟

قالت وهى تنظر الىّ كأنها لا تصدقنى :

— أذكر ..

وقمت من جانبها قائلة :

— سأتصل بعمى ..

واتصلت بعمى وأبلغته خبر وصول هاشم الى بيروت فى الغد ، واتفقت معه على أن نذهب سويا لاستقباله فى المطار ..

وقضيت اليوم كله وأنا أعد برنامج الأيام التى سيقضيها هاشم فى لبنان .. بل أعد الكلمات التى سأقولها له .. وأعد

المواقف التى تجمعنى معه وحدنا .. واكتشفت أنى أفكر فى هدوء عجيب .. كأنى كبرت فعلا كما قالت أمى .. وكان تفكيرى ينصب على أن أضع هاشم فى جو عائلى .. حتى أقلل من خلواتى معه .. وحتى يساعدنى هذا الجو على أن يكبت هاشم أحاسيسه ..

واستيقظت فى اليوم التالى مبكره .. نشطة .. نشاطا مرتبكا ..

وأخذت سيارتنا وذهبت الى بيت عمى .. وكان لا يزال نائما فأيقظته .. واستطعت أن أقنعه بأن نتناول افطارنا فى مطعم المطار .. والدقائق تمر بطيئة .. وصوت الطائرات التى تصل وتغادر المطار يملأ قلبى برجفة عجيبة .. لا يمكن أن تكون كل هذه الرجفة لأنى فى انتظار صديق .. أو حتى صديق عزيز جدا جدا كهاشم .. ان قلبى يرتجف من اللهفة ، كأنى لم أر هاشم منذ سنوات ، مع أنه كان معى أمس ..

وأعلن عن وصول الطائرة العربية من القاهرة ..

وجريت وأنا أشد عمى ورائى ، ودخلنا أرض المطار .. ورفعت رأسى أبحث عن الطائرة فى السماء ، كأنى أبحث عن طالعى ..

الطائرة تقترب ..

وتقترب ..

هبطت ..

ووقفت ..

وفتح الباب ..

وبدأ الركاب ينزلون واحدا بعد واحد .. ولم يكن هاشم أول

من نزل .. ولا ثانى من نزل .. ولا الثالث .. ولا الرابع (٠٢٠) و (٠٢٠)

هاشم لم يصل على الطائرة ..

وجريت الى مكتب الشركة أسأل هل هناك طائرة أخرى .. لا ، ليست هناك طائرة أخرى .. ربما يصل على طائرة تابعة لشركة أخرى .. ولكن من العبث أن أبقى فى انتظاره فى المطار ..

وعدت الى البيت وأنا أشعر بثقل فى قلبى .. أشعر كأنى فقدت كل غرورى .. كل ثقتى بنفسى .. كل ما يمكن أن أهتم به .. وفراغ كبير ممتد امامى ..

وما كدت أصل الى البيت حتى ناولنى الخادم برقية باسمى .. برقية من هاشم : « آسف .. عدلت عن السفر » .

وابتسمت ابتسامة حزينة ... ودخلت غرفتى .. وعدت اقرأ الكلمات القليلة من جديد .. وبحثت عن تاريخ وساعة ارسالها .. لقد أرسلها بتاريخ الأمس ، فى الساعة التاسعة مساء ... ثم أخذت اقرأ كل كلمة فى البرقية .. حتى الكلمات الحكومية المطبوعة ..

وأنا حزينة ..

لست ثائرة ..

ولكنى حزينة .. حزنا هادئا كسعادتى الهادئة .. وفى نفسى احساس عميق مستقر بأنى فقدت هاشم الى الأبد .. انتهت قصتى معه .. وبدأت نقاشا طويلا بينى وبين نفسى : لأقتنع بأن هذا أفضل .. على الأقل ، أفضل لهاشم .. ولأقتنع بأن أملى فى أن تستمر ملاحقته لى ، لم يكن لأنى متمسكة بصداقته ، ولكن لأن هذه الصداقة ، كانت ترضى غرورى ،

لماذا انتهت هذه الصداقة ، فكل ما حدث هو أنى فقدت غرورى ..

ولكن ..

الانسان لا يستطيع أن يعيش بلا غرور .. ويجب أن ابحث لنفسى عن شىء آخر أشبع به غرورى .. ان اشباع الغرور هو اشباع الوقت .. الوقت يحتاج فى كل دقيقة منه الى شىء يأكله .. كالغرور .. فبماذا أشبع وقتى ..

وكنت أناقش نفسى فى هدوء ..

لست محتدة ولا ثائرة ولا عصبية كعادتى ..

وبدأت أستعرض الحياة التى يمكن أن أعيشها فى بيروت .. هل أعود الى مقاهى المثقفين المحيطة بالجامعة .. هل أعود لأعيش حياتى لحظة بلحظة .. وأحسست كأن كل ما أعرفه فى بيروت سخيف ، تافه .. المقاهى التى أعرفها تافهة .. والأصدقاء الذين أعرفهم تافهون .. ثم أحسست أنى لم أعد أستطيع أن أعيش حياتى لحظة بلحظة .. اللحظة لا تكفى للأمل .. وما ينقصنى هو الأمل .. يجب أن يكون لى أمل فى شىء .. أمل يرسم لى طريقا أسير فيه ويشغلنى عن نفسى ، ويملأ وقتى ..

أى أمل ..

أنا لا أجد أملا ..

وصورة هاشم تهتز أمامى .. دون ان أستطيع أن اركز ذهنى فيها .. لا أستطيع أن الومه لأنه لم يأت .. ولا أستطيع أن أفكر فى العودة اليه مرة ثالثة .. لا أستطيع شيئا الا أن أترك الصورة تهتز أمامى ، أنظر اليها بعينين جامدتين ، لا تعبران عن شىء ..

ومرت أيام وأنا أعيش فى هذا الهدوء العجيب ، والمناقشة

بينى وبين نفسى لا تنتهى .. ثم جلست ذات يوم أكتب خطابا .. خطابا لهاشم .. خطابا طويلا .. قلت له فيه :

« .. وكل ما أحرص عليه هو أن تفهمنى .. وأنا أعلم أن من الصعب عليك أن تفهمنى ، لسبب بسيط هو انى لا أستطيع أن أفهم نفسى .. وقد كنت أقول لك دائما أنى أعيش ملكا لأحاسيسى .. والأحاسيس لا تفهم .. انها مجرد انطلاقات تعكس الظروف التى تصطدم بها الانسان .. انطلاقات تلقائية ... لا تحكمها ارادة ، ولا يسيطر عليها العقل .. ولكن احساسى بك كان شيئا آخر .. انه احساس ايقظ ارادتى ، ونبه عقلى .. لقد شعرت انى مندفعة اليك كما لم أندفع نحو أى انسان آخر .. وفجأة تنبهت الى هذا الاندفاع .. وتمردت عليه .. وبدأت أستغل ارادتى وعقلى فى تمردى .. كنت أستغل ارادتى حتى لا ازداد اندفاعا .. حتى لا أعطيك ما تريده ، وما اريد ان أعطيك .. وكنت أستغل عقلى لأقنع نفسى بأنى لا أحبك .. بأن كل ما بينى وبينك صداقة كبرت حتى اقتربت من الحب .. ولم يكن هذا صحيحا .. لم يكن ما بينى وبينك صداقة .. انى أستطيع أن أرى حقيقة شعورى الآن وأنا بعيدة عنك .. عندما كنت فى مصر كنت مقتنعة فعلا أن ما بينى وبينك صداقة .. ولكن الآن .. لا .. انى أعرفة أن ما كان بينى وبينك هو الحب .. ورغم ذلك فقد كلن يجب أن أقاوم هذا الحب .. واستمر فى مقاومته .. لقد كنت أشعر بأن الريح دفعتنى رغما عنى الى حافة هاوية .. وكان يجب أن أقاوم الريح حتى لا أسقط فى الهاوية .. وعذرا [illegible] .. فأنت لست هاوية .. أنت جبل .. أنت [illegible] ظلالها [illegible] على الناس لتحميهم من شمس [illegible]

.. رغم ذلك .. كان يجب أن أقاومك .. وأستمر فى مقاومتك لأنى لا أريد هذا الحب .. وقد اكتشفت أنى رغم ادعائى بأنى أعيش حياتى لحظة بلحظة ، فقد كان هناك فى داخلى آلة تعمل دائما وترسم لى طريقى الممتد عبر الأيام والسنين .. ترسم لى مستقبلى .. وأنا لا أعلم الى الآن ما هو هذا المستقبل الذى رسم لى ، ولكنى مقتنعة بأنك لست هذا المستقبل .... مستقبلى ليس فى حبك .. هناك دنيا أخرى يجب أن أبحث عنها لأعيش فيها .. مهما تحملت فى سبيل البحث عنها من حيرة واضطراب وقلق ..

« هاشم .. هل ترى فى كلامى صورة فتاة أخرى غير رحاب التى عرفتها .. لقد تغيرت فعلا .. أحس بنفسى انسانة أخرى .. انسانة لها عقل وارادة .. والفضل لك .. انك لا تدرى كم غيرتنى .. لقد نبهنى اندفاعى اليك ، الى خطورة انقيادى لأحاسيسى .. أحاسيسى كلها ، تجاه كل الناس ، وتجاه نفسى ، وتجاه الظروف التى تحيط بى .. واكتشفت أن هذه الأحاسيس قد تدفعنى الى ارتباطات كبيرة قد أندم عليها العمر كله .. وقد تدفعنى الى ايذاء ناس لا أريد ايذاءهم .. ثم قد تدفعنى الى ايذاء نفسى .. انى لا أريد أن أوذى نفسى .. انى أحب نفسى كما تعلم .. ثم اكتشفت أن من السهل دائما على العقل أن يسيطر على الاحساس ويقوده .. لو ترك له صاحبه متاعب السيطرة والقيادة .. ولو تحمل صاحبه متاعب السيطرة والقيادة .. وكل ما يحتاج اليه العقل هو بعض الموازين التى يزن بها انطلاق الاحساس .. الموازين التى سبق أن حدثتنى عنها .. المبادىء .. القيم .. المنطق .. وأنا أبحث لنفسى الآن عن مبادىء وعن قيم ، وعن منطق .. حتى أستطيع أن أحقق بها ما أريده

لنفسى .. بعد أن اكتشفت ما أريده .. يا الله .. من كان يصدق أن رحاب تتكلم هذا الكلام .. رحاب التى لم تكن تطيق أن تخلو الى عقلها لحظة واحدة ، تحاول الآن أن تهب حياتها كلها للعقل .

« يا عزيزى هاشم .. يا أعز من التقيت به .. انى اشكرك ، لأنك لم تأت الى بيروت .. من يدرى ، ربما لو أنك أتيت لانهارت مقاومتى لك ، ولاضطررت الى الاعتراف لنفسى بأنى أحبك .. هذا الاعتراف الذى رفضت أن أواجه به نفسى شهورا طويله .. ثم لانقدت لحب لست مقتنعة به .. ورغم ذلك .. رغم أنى أشكر لك مساعدتى فى اتخاذ قرارى ، فانى عاتبة عليك .. فقد كنت أنتظر منك رسالة طويلة .. ان ما بينى وبينك لا يمكن أن ينتهى فى كلمتين .. و ..

والخطاب فيه كلام أكثر ..

وقد خيل الىّ وأنا اكتبه ، أنى اكتب لنفسى أكثر مما أكتب لهاشم .. كنت أحاول أن أفهم نفسى فهما جديدا .. وساعدتنى الكتابة على هذا الفهم .. ومن يومها وأنا أكتب كثيرا .. أصبحت اكتب مذكراتى يوما بيوم ..

ولم يكن فى مذكراتى خلال الأيام الأولى سوى خواطرى .. ثم بدأت أسجل فيها ملخصا لما أقرؤه .. لقد بدأت أقرأ كثيرا .. لم أكن أقرأ .. كان كل ما فى رأسى عن الأدباء .. وعن القصص .. وعن الفن .. وعن السياسة ، هو ما أسمعه من أصدقائى فى المقهى .. كلمات متناثرة .. أملأ بها فمى وكأنى فتاة مثقفة .. كلمات لا تعبر عن فهم ولا عن بناء عقلى .. وقد اكتشفت وأنا أقرأ ، عالما جديدا مثيرا ، ممتعا .. عالما مغايرا تماما للعالم الذى كانت تصوره لى كلمات أصدقاء المقهى .. حتى الوجودية ، التى ادعيت يوما أنى من بناتها .. وجدتها شيئا

آخر فى الكتب .. شيئا آخر غير الشعر المنكوش ، والبنطلون والحذاء الواطى ، ورقصة التويست .. الوجودية كما بدأت أفهمها هى أن يكون للفرد الحق فى أن يختار مكانه من المجتمع .. فاذا كنت وجودية فمن حقى أن أختار مكانى .. أين مكانى .. ليس لى — حتى هذه اللحظة — مكان ..

وقد شغلتنى القراءة عن العالم الذى كنت أعيش فيه .. لم أعد أطفش من البيت طول النهار كما تعودت .. لم أعد أتحرك كثيرا .. ولكنى أفكر كثيرا .. وأمى تستمع الى كلامى الهادىء وتصرفاتى الرزينة .. وتطير من الفرح .. الكل من حولى مندهش لتطورى .. وبعد خمسة عشر يوما وصلنى خطاب من هاشم .. الخطاب الذى تمنيته طويلا .. ويئست منه طويلا ..

وقال لى هاشم فى خطابه :

« .. لم يكن سر تعاستى هو اصرارك، على أن تضعى حدودا ضيقة لعلاقتنا .. ولكن كان سر تعاستى هو احساسى بضعفى .. ومنذ الأيام الأولى التى جمعتنا وأنا أحس بأنى ضعيف .. وكنت أنكر ضعفى .. كان غرورى الذى عشت به طويلا يرفض أن يعترف بأنى ضعفت .. لم أضعف أمامك ؛ ولكنى ضعفت أمام نفسى .. وبعد أن سافرت وأنت تلحين علىّ أن يبقى كل منا فى دنياه ، فاضت بى التعاسة الى حد أن أجبرتنى على أن أواجه نفسى .. وأعترف بضعفى .. وقضيت يومى كله أصرخ فى داخلى .. أنا ضعيف .. أنا ضعيف .. أنا ضعيف .. وفى لحظة قررت أن أقاوم هذا الضعف .. مهما حدث .. مهما عانيت .. يجب أن أتخلص من الضعف .. ولم يكن هذا سهلا .. تندهشين اذا علمت أنى اضطررت أن أغلق عيادتى شهرا كاملا ، لأتفرغ لمقاومة ضعفى .. وتندهشين اذا علمت أنى قضيت ليالى كثيرة أسكر

سكر حتى أفقد الوعى .. وتندهشين أيضا اذا علمت أنى مزقت را من الليالى بين سيقان نوع من النساء لم يدخل حياتى من ل . وكانت كل هذه جهودا ضائعة .. جهودا كنت أبذلها لأنساك . وكأى رجل جاهل ، خيل الىّ أنى استطيع أن أنساك النفرغ نقتل ذكراك .. اقتلها بالخمر ، وأمتصها من صدرى شفاه النساء الرخيصات .. ولكن محاولة نسيانك لم تكن لتؤدى ى أبدا الى التخلص من ضعفى .. فأنت لست سبب ضعفى .. هناك سبب آخر يجب أن أكتشفه .. وبدل أن أتفرغ لنسيانك ، فعلت كما فعلت أنت .. تفرغت لمناقشة نفسى .. وخيل الى أن السبب فى ضعفى هو أنى وصلت الى سن الخامسة والأربعين وأنا لا أزال واقفا على قدمى .. ليس لى مكان فى الدنيا أجلس فيه .. ليس لى بيت .. ليست لى امرأة .. والرجل لا يستريح الا الى بيت وامرأة .. وقد قضيت هذا العمر الطويل واقفا على قدمى لأنى كنت مغرورا بقوتى .. كنت أعتقد أنى استطيع أن أبقى واقفا على قدمى العمر كله .. وحيدا .. متباهيا بوحدتى .. ولكن سن الخامسة والأربعين نبهتنى الى حاجتى الى مكان أرتاح فيه .. ان الخامسة والأربعين سن خطرة .. انها سن المراهقة الثانى .. يفتح الرجل عينيه فيرى طريقا جديدا ممتدا أمامه .. ويرى النهايات تقترب .. نهاية كل شىء .. ويجد فى نفسه تمردا على هذه النهايات .. ويدفعه التمرد الى محاولة تغيير حياته .. الهرب من الطريق .. الهرب من النهاية .. ويجد أن كل ما بناه خلال سنواته الماضية لن يعفيه من النهاية التى تنتظره نهاية كل شىء .. وهذا ما أحسست به .. أحسست أن نجاحى كطبيب . . وشهرتى .. وثرائى .. ونفوذى .. وأصدقائى .. كل هذا لا يساوى شيئا .. كل هذا أنا فى غنى عنه .. كل هذا

ليس ما أريده .. تماما كما يبلغ المراهق عمر الخامسة عشرة فيتمرد على والديه .. ويحس أنه فى غنى عنهما ، وينطلق يبحث عن حياه جديدة لنفسه .. والمراهقة هى سن الانتقال من حياة الى حياة ، من حالة الى حالة ، وقد كنت فى هذه السن عندما التقيت بك وقد حاولت قبل أن نلتقى أن أنظم حياتى تنظيما جديدا مع فتاة أخرى ، ولكنى فشلت .. وقابلتك مراهقا كبيرا بين شفتيه مرارة الفشل .. وانجذبت اليك من اللحظة الأولى .. تعلق احساسى بك .. ولم أتوقف لأتمعن فى هذا الاحساس ، ولم أتمهل حتى ينضج .. ولكنى اندفعت ، اندفعت أكثر منك .. وفى اندفاعى فقدت توازنى .. لم أعد أستطيع أن أحكم تصرفاتى .. أن أرسم خطواتى .. كنت أريد أن أصل اليك بسرعة .. بسرعة .. قبل أن يكبر عمرى عاما آخر .. وانقدت الى هذه المحاولات الساذجة التى تعرفينها .. محاولة أن أنزل الىعمرك ، أو أرفعك الى عمرى .. ولقد كنت فى كل هذا منقادا انى احساسى مثلك ..مجرد الاحساس .. صحيح أنى كنت أدعى العقل وأرفض الاعتراف بأنى منقاد الى احساسى بلا تفكير .. ولكن الواقع غير هذا .. الواقع أنى كنت منقادا .. والفرق بينى وبينك أنك بدأت تقاومين احساسك قبل أن أبدأ أنا فى مقاومة احساسى .. ثم كان الفضل لك فى أنك اتخذت القرار الأخير بتحديد علاقتنا فى حدود ضيقة .. حدود الصداقة .. ولو لم تتخذى هذا القرار لاندفعت فى حبك .. وهو حب حقيقى .. بل انى لا أستطيع أن أعترف بحب فى حياتى الا حبك .. انى اعترف بك كأصدق وأصرح وأقوى فتاة التقيت بها .. ورغم ذلك فقد كان هذا الحب مقضيا عليه بالفشل .. ولو تمهلت عليه قليلا لاكتشفت استحالته منذ اليوم الأول .. فنحن الاثنان

متشابهان .. نقف فى خطين متوازيين لا يمكن أن يلتقيا .. كلانا موجب ، أو كلانا سالب .. والحياة فى حاجة الى موجب وسالب .. يخيل الى أن الحب الناجح لا يحتاج الى اثنين متشابهين فى شخصيتهما ، بل يحتاج الى اثنين يكمل احدهما الآخر .. وعندما التقينا لم يكن أحدنا يكمل الآخر .. بل كان كلانا متكامل الشخصية أمام الآخر ..

« وهذه المناقشة النفسية يا عزيزتى رحاب ردت الى عقلى .. وقد اكتشفت فى نفسى أن من الصعب على قلبى أن يغلب عقلى .. ولكن من السهل على عقلى أن يغلب قلبى .. وان سر فشلى فى جميع المرات التى أحببت فيها أن عقلى كان دائما يغلب قلبى .. وعندما انتصر عقلى هدأت نوعا ما .. ولم أنتصر على حبك وحده ، بل انتصرت أيضا على سن الخامسة والأربعين .. اكتشفت بعقلى أن سر خوفى وأنا فى سن الخامسة والأربعين هو انى تخيلت أنى قد وصلت الى القمة .. قمة النجاح كطبيب .. وأن ليس بعد القمة الا طريق الهبوط .. طريق النهاية .. ولكن هذا غرور .. انى لم أصل الى القمة .. بينى وبين القمة آلاف السنين .. وبسرعة عدت الى عيادتى .. وانطلقت أعمل .. أعمل بشراهة .. بجنون .. كأنى قررت أن اقطع آلاف السنين فى يومين ..

« انى لن أكتب لك طويلا يا رحاب ، لن أكتب لك كثيرا ، فان الوقت الذى أقضيه فى الكتابة آخذه من مرضاى .. وهم أحق به منا نحن الاثنين .. وأريدك أن تطمئنى .. انى أهدأ حالا .. ربما لأنى لم أعد أعيش لنفسى ولكنى أعيش لغيرى ولا أحس بأحاسيسى ، ولكنى أحس بأحاسيس غيرى .. واذا عاش كل منا فى أحاسيس غيره ، لما أضنته أحاسيسه .. وأحيانا تمر بى

لحظات اعانى فيها الوحدة .. ولكن من منا لا يشعر بالوحدة احيانا .. وحدتى لحظات لا البث أن امسحها باهتمامى بعملى .. وشكرا .. انى .. » .

كم مرة قرأت هذا الخطاب ؟

عشرة .. عشرين .. لا ادرى .. ولكنى قرأته كثيرا .. وشربت منه احساسا بالثقة فى نفسى .. بالثقة فى عقلى .. انى لم أخطىء عندما تغلبت على حبى لهاشم .. هاشم نفسه يقول أنى لم أخطىء ..

ولم أرد على خطاب هاشم ..

اكتفيت بأن كتبت ردا عنيه فى مذكراتى ..

وتفرغت أبحث فى هدوء عن طريقى ..

وقررت أن أعمل ..

أتدرون أين عملت ؟ فى التليفزيون اللبنانى .. وقد رحب بى لبنان كله يوم اشتغلت فى التليفزيون .. رحب بى كوجه جميل ، وابنة الحاج عبد الرحمن التاجر الكبير .. ولكن لبنان وجد فى مزايا أخرى يرحب من أجلها .. شخصيتى .. لقد أعطيت من خلال شاشة التليفزيون شخصية جديدة للفتاة اللبنانية .. ليست هذه الفتاة التى كنتها .. ليست الفتاة التى ترتدى البنطلون ، وتترك شعرها يسيل على وجهها ، وتمسك بقلم الكحل وورقة الكلينكس فى يدها .. انى الآن أمسك فى يدى حقيبة ..

والبرنامج الذى اقدمه هو برنامج « قراءات » .. أقرا كل أسبوع كتابا والخصه واناقشه أمام جمهور التليفزيون .. نجح البرنامج نجاحا ضخما رائعا .. والصحف تكتب عنه باحترام كبير .. وقد أشعرنى هذا النجاح والاحترام بمسئوليتى .. مسئوليتى عن لبنان كله .. بنات لبنان .. أولاد لبنان .. ورجال لبنان .. وسيدات لبنان .. وأنا سعيده بهده المسئوليه .. انها تلهينى عن نفسى ، وتملأ وقتى وتشعرنى بشخصيتى .. والطريق يتسع امامى أحيانا أتخيل نفسى خلال الطريق بأنى اصبحت سفيرة للبنان فى احدى العواصم الكبرى .. وأحيانا أتخيل نفسى نائبه فى البرلمان .. أحلام لا تنتهى .. وطموح نظيف .. وكل شىء يمكن ان يحقق .. لقد عرفت الآن الطريق ..

ومن حولى شبان كثيرون ..

يوما ما سأحب واحدا منهم .. أتزوجه .. انى أؤمن الآن بالزواج .. انه الحل الوحيد لتنظيم الحياة .. ونحن لن نستطيع أن نبدع فى الحياة الا اذا نظمناها .. الذين لا ينظمون حياتهم يفقدون القدرة على الابداع .. ولكن .. هذا حديث سابق لأوانه . انى لم أجد الشاب الذى أحبه بعد .. ولا قررت الزواج ..

ومر عام ..

وسافرت الى القاهرة لأقضى أسبوعا .. ارتاح فيه من التليفزيون ..

وكان يجب أن أسافر الى القاهرة ، ليس هناك أى داع لأخاف من ذكرياتى فيها ، أو أتهرب منها ، وأنا لم أنس هاشم .. انى أذكره دائما .. وشعره المعبق بالدخان ، وعيناه المنتفختان ، وشفتاه المنفرجتان ، وأنفه الكبير .. كل علامة من علاماته أراها معلقة فوق رأسى كلما خلوت بنفسى قبل أن انام .. لكن ذكراه ليس فيها الم ولا ندم .. ذكراه حلوة ، عاطرة تمدنى بالثقة فى نفسى ..

ورغم ذلك فقد انقضت أربعة ايام قبل أن اتصل بهاشم ..

ترددت .. لا أدرى لماذا .. ربما لأنى خفت ان اعكر الذكرى .. خفت ألا اجد فى لقائى بهاشم شيئا أجمل من ذكرياتى معه ..

ولكنى لم أستطع أن أقاوم معه طويلا .. اتصلت به فى التليفون .. وما كاد يسمع صوتى حتى صاح :

— رحاب .. اين انت ..

قلت :

— فى الهيلتون ..

قال بسرعة وصوته يزغرد بفرحته :

— سأمر عليك الساعة الثانية ، انتظرينى .. انى مشغول الآن ..

قلت وأنا الهث وراء كلماته المتعجلة :

— ألا تستطيع أن تأتى فى الواحدة ..

قال فى عجلة وقوة :

— مستحيل .. العيادة مزدحمة .. انتظرينى .. انى فى شوق اليك .. الحمد لله على السلامة ..

وأنهى المحادثة بسرعة ..

وأبتسامة وسماعة التليفون لا تزال فى يدى .. كأنى ابتسم لطفلى الكبير وأنا أراه منهمكا فى استذكار دروسه ..

ولم يأت هاشم الا فى الساعة الثانية والنصف .. صعد الى غوفتى .. وما كاد يلمحنى حتى اتسعت عيناه دهشة ، وامسك بكلتا يدى ، وقال بلهجته المصرية الحلوة المرحة :

— مش معقول .. امال فين رحاب .. انت أجمل منها .. وأكبر ..

قلت وانا ابتسم وأملأ عينى منه :

— هذه رحاب بعد أن عرفتك ..

قال وفى عينيه نظرة طيبة مبتسمة :

— لا .. بعد أن عرفت نفسها ..

ولم يقبلنى .. ظل ممسكا بكلتا يدى .. وعيناى تقبلان كل قطعة من وجهى ، وانا لا زلت أملأ عينى منه .. انه اسمن قليلا مما تركته .. ووجهه أكثر قوة .. ليس فيه هذا النحول والاصفرار .. وشعره أكثر بياضا ، ولكنه يبدو اصغر من سنه .. وانفه ايضا يبدو اصغر وسط وجهه القوى ..

وتبادلنا ذكرياتنا ونحن نضحك .. لا نكاد نبدأ فى ذكرى ، حتى ننتقل الى أن قال هاشم وهو محتفظ بمرحه :

— أتعلمين آخر اخبارى ؟

قلت :

— خير ..

قال وهو يضحك :

— سأتزوج الأسبوع القادم ..

واحسست بلحظة صمت ، طوت ضحكة هاشم ، واستقرت فى قلبى .. لا أدرى لماذا احسست بهذه اللحظة .. ربما لأنى مهما ادعيت القوة .. ومهما باعدت بينى وبين هاشم ، ومهما اقتنعت بأنه ليس لى، فان أنانيتى .. أنانية كل امرأة .. تبخل أن تتنازل عن رجل لأخرى .. حتى لو كان هذا الرجل مجرد ذكرى ..

وقلت وانا احاول أن اضحك :

— أحببت من جديد .. وبسرعة !

قال وابتسامته مستقرة فى هدوء وثقة فوق شفتيه :

— لا .. سأتزوج فتاة خطبتها لى امى منذ عشرين سنة ..

قلت وأنا ادعى الدهشة :

— وانتظرتك طول هذه المدة ؟
قال :

— لا .. تزوجت ، وانجبت ثلاثة أولاد .. ثم توفى عنه
زوجها ..

قلت في خبث :

— واكتشفت بعد عشرين سنة انك تحبها ؟
قال في هدوء :

— اني مقتنع بها ويخيل الىّ أن الاقتناع هو الطريق السل
الى الحب ..

ونظر الىّ كأنه يذكرني بقصتنا معا :

— ان الطريق من العقل الى القلب ، اسهل من الطريق من القلب الى العقل .. العقل أقدر على اقناع القلب .. من قدرة القلب على اقناع العقل ..

قلت وصوتي خافت :

— هذا صحيح .. مبروك ..

وقال كأنه لا يزال يحادث نفسه :

— لقد وجدت في هذه السيدة كثيرا مما ينقصني .. انها تكملني ..

قلت كأني أذكره بخطابه :

— سالب وموجب ! ؟
قال :

— نعم .. سالب وموجب .. والفرق بين عمرى وعمرها عشر سنوات ، فرق معقول .. ولكني عندما اجلس معها احس بأني أصغر منها .. تصورى .. منذ خطبتنا ، زدت ساعات عملي .

قلت وأنا انظر في وجهه كأني ابحث عن نفسي :
— أعتقد أن هذا دائما تأثير الزوجة الكاملة ..
قال وصوته منطلق كأنه طفل مرح :

— سأعرفك بها .. نتعشى غدا معا .. في بيت اختي ..

— أحب أن أعرفها .. ولكني لا أريد ازعاجك .. استأذنها اولا ..

قال :

— انها تعرفك .. وتحترمك .. قدر احترامي لك ..

ثم قفز واقفا واستطرد :

— يجب أن اذهب ..

قلت في دهشة :

— ألا تدعوني الى الغداء ؟

قال في عجلة وهو يضحك :

— بسيطة .. انتظرى حتى الساعة الرابعة .. الى ان انتهى من زيارة مريض .. ثم أعود اليك لأدعوك الى تناول ساندويتش ساعة الغداء ..

قلت وأنا أقف لأودعه :

— لا .. عندك الآن من ينتظرك ..

ونظر الىّ طويلا ، وهم ان يقول شيئا .. ولكنه لم يقله .. وجرى نحو الباب وهو يقول في مرح :

— غدا سأمر عليك في التاسعة والنصف مساء ..

وخرج وابتسامة هادمة تملأ قلبي .. ان هاشم تغير .. تغير الى رجل أقوى .. الى رجل آخر .. غير الذى [illegible] به في ذكرياتي .. وربما كان دائما هذا الرجل القوى .. والان ام

يجمعنى به الا لحظة من لحظات ضعفه .. وضعفى ..

وعاد الى فى اليوم التالى .. جاء متأخرا ايضا .. فى الساعة العاشرة ، وصحبنى الى بيته فى المعادى لتناول العشاء ..

والتقيت هناك بخطيبته ..

انها سيدة رائعة ..

رائعة فعلا ..

وفى اليوم التالى زرت مبنى التليفزيون المصرى .. ان الفرق بين تليفزيون مصر وتلفزيون لبنان هو أن .. ..

.. ..

.. ..

.. ..

.. ..

((تمت))

مكتبة مصر

سعيد جوده السحار وشركاه

تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

كتب للأستاذ احسان عبد القدوس

(١) صانع الحب
(٢) بائع الحب
(٣) أنا حرة
(٤) الطريق المسدود
(٥) اين عمرى
(٦) النظارة السوداء
(٧) فى بيتنا رجل
(٨) لا انام
(٩) منتهى الحب
(١٠) لا تطفىء الشمس (جزآن)
(١١) شىء فى صدرى
(١٢) زوجة أحمد
(١٣) البنات والصيف
(١٤) لا شىء يهم
(١٥) أنف وثلاث عيون (جزآن)
(١٦) شفتاه
(١٧) لا .. ليس جسدك
(١٨) عقلى وقلبى
(١٩) بئر الحرمان
(٢٠) علبة من صفيح
(٢١) ثقوب فى الثوب الاسود
(٢٢) بنت السلطان
(٢٣) سيدة فى خدمتك
(٢٤) نساء لهن اسنان بيضاء
(٢٥) لا استطيع أن أفكر وانا ارقص
(٢٦) الوسادة الخالية
(٢٧) دمى ودموعى وابتسامتى
(٢٨) الراقصة والسياسى
(٢٩) حتى لا يطير الدخان
(٣٠) لا تتركونى هنا وحدى
(٣١) الحياة فوق الضباب
(٣٢) اسف لم أعد استطيع
(٣٣) وتاهت بعد العمر الطويل
(٣٤) لم يكن أبدا لها
(٣٥) ونسيت انى امرأة .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

أسم الكتاب		تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعه	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الاقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	الحادية عشرة	١٩٨٥
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	الحادية عشرة	١٩٨٥
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثانية عشرة	١٩٨٤
خان الخليلى	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	الحادية عشرة	١٩٨٥
السراب	رواية	١٩٤٨	الثانية عشرة	١٩٨٤
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الرابعة عشرة	١٩٨٤
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثانية عشرة	١٩٨٣
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الثانية عشرة	١٩٨٤
السكرية	رواية	١٩٥٧	الحادية عشرة	١٩٨٤
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	الثامنة	١٩٨٤
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	الخامسة	١٩٧٨
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سىء السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الثامنة	١٩٨٥
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السادسة	١٩٨٣
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الاسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ اول طبعه	تاريخ آخر طبعه	
اية بلابدايةولانهاية	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٤
ر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
الـرايا	رواية	١٩٧٢	الرابعة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الـرنك	رواية	١٩٧٤	السادسة	١٩٨٢
كايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	الخامسة	١٩٨٤
ب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
ضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
لحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الثالثة	١٩٨٤
حب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الثالثة	١٩٨٤
الـطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الثالثة	١٩٨٤
ر الحب	رواية	١٩٨٠		
راح القبة	رواية	١٩٨١	الثانية	١٩٨٣
الى الف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٣
فيمايرىالنائم	مجموعة	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٤
امىمن الزمنساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٥
ام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	١٩٨٥
لة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
ظيم السرى	مجموعة	١٩٨٤		
ائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥		
م قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		

ت الطبع

ث الصباح والمساء	رواية
اح الورد	مجموعة